
محمد السوادى
الرجل الذى تآمرت عليه

محمد التوادي

الرجل الذى تآمرت عليه

قبل الثورة.. كنت – مثل كل مواطن – اهفو الى الثورة..
فلما اطلقوها .. احسست نقيها ..
ثم عدت .. فتشككت فيهـا ..
ثم عدت .. فدنوت منهـا ..
ثم عدت .. فرددت عنهـا ..
ثم اوغلت فى الردة .. فكفرت بها ..
ثم وغلت فى الكفر .. حتى تآمرت على صانعهـا ..
ثم بدأت اصحو ....

المؤلف

[الطبعة الأولى]

ملتزم الطبع والنشر



الاهداء

- إلى كل من ضل .. صادق الضلة ..
وهو يحسب أنه يحسن .. إلى الحق أو إلى الخير ..
- إلى كل من ضل .. صادق الضلة ..
ثم عرف الطريق .. ولم يجد من يمهد له الطريق ..
- إلى كل الذين ودوا لو أقدموا على « إشهار إيمانهم »
ولكنهم يترددون ..

إليهم جميعاً أهدي كتابي ؟

محمد السوادي

تمهيد

يا أخى العربى الصامد

يا مشدود القلب والضمير .. إلى الحلم الكبير .. الذى يتحول فى عزة وشموخ إلى حقائق تدير الرؤوس . ويا مشدود الساعد والتفكير .. إلى المجتمع الجديد .. الذى تراه اليوم رأى العين وهو يقوم .. تقبل يا أخى منى هذا الكتاب

* * *

وأعتقد يا أخى أنه كتاب « مثير » !

« مثير » بالصدق « الرهيب » الذى توخيته فيه ..

« ومثير » .. بالعنوان الغريب الذى وقع اختياره علىّ .. من قبل أن يقع اختيارى عليه .

* * *

ويغلب على الظن يا أخى .. أن سراً من أسرار هذا الكون لا أدريه هو الذى يدفعنى إلى إخراج هذا الكتاب .. وعلى هذا النحو .. وفى هذا الوقت .. و « الثورة الصبية » ترفل فى « ثوبها الجديد » .. الذى اختاره لها « أبوها » .. هدية منه لعيد « ميلادها العاشر » .

واعنى به « الميثاق »

* * *

و « الميثاق » لم يكن أبداً بداية التحول فى موقفى من « الرجل الذى

تآمرت عليه » وإنما كان ذروة هذا التحول .

لم يكن أبداً « بداية » الطريق .. وإنما جاء « نهاية » الطريق .

بل أتخيل أحياناً أن « الميثاق » كان اليد القوية التى أمسكت بيدى .. وظلت تضغط .. وتضغط .. فى حزم المربى .. وفى حنان الوالد .. فلما جثوت على ركبتى فى محراب الحق .. وملأ المحراب نور .. صاح صاحب اليد القوية فى : « اسجد واقترب » .

و « الميثاق » — إذن — كان له الأثر الأخير فى تحديد مكانى عند مفارق الطرق .. الطرق التى ظللت أضرب فيها على غير هدى عشر سنوات كاملة تستقيم بى حيناً .. وتلتوى على أحياناً .. أهتدى مرة على أضواء من الفكر النير .. أو من المثل المثمر .. فأكاد أؤمن .. وأضل مراراً على نعيب الخصوم وهم يثيرون الشكوك .. وينشرون الأكاذيب .. فأكاد أكفر .

* * *

والكتاب — إذن — هو حصيلة التقدم والتخلف .. وحصيلة الدراسة والترصد .. وحصيلة الخصومة التى بلغت يوماً حد التآمر .

وأنا اليوم .. أجىء قومى بهذا الكتاب .. لأقول لهم فيه « بعض الحق » الذى يجب أن يقال .. وبدى على أن الإنسانية لا تعرف فى تاريخها الطويل طريقاً أشد إمتلاءً بالشوك .. من « طريق الحق » .

جئت أحدثكم عن « المراحل » التى مر بها هذا « التحول » .. بما فيها « المؤامرة الكبرى » التى شاركت فيها .. و « بيتى » الذى قيل إنه أعد للمتآمرين على « ناصر » وتسليحهم .. وأسموه فى التحقيق والمحاكمة « البيت الكبير » فدخل البيت المسكين تاريخ التآمر من باب لا أريد أن أسميه ..

جئت أحدث الجماهير الكادحة .. والطلائع المقاتلة .. فى أرجاء الوطن العربى

كله .. ببعض ما اختزنته من حقائق .. وببعض ما اجتزته من تجارب .. وبكل ما خرجت به من نتائج .

***

ولقد قيل الكثير عن « القدر » .. وعن « الرجل » الذى كان على أكثر من موعد معه وأنا مؤمن بكل ما قيل ..

ويكفينى أن أدلل على دقة الحساب فى كل موعد أعطاه « القدر » .. لهذا « الرجل » بواقعة واحدة .. ذات ثلاث شعب : « الاولى » تقاس بمقياس « السنة » و « الثانية » تقاس بمقياس « الشهر » و « الثالثة » تقاس بمقياس « الاحداث » .

***

قرأت مرة .. فى كتاب من الكتب .. أن جمال عبد الناصر .. كان طالباً فى « مدرسة النهضة الثانوية » سنة ١٩٣٥ وأن فريق التمثيل بها .. أراد أن يخرج تمثيلية « يوليوس قيصر » .. وأن المشرفين على الفريق من الأساتيذ .. لم يجدوا من بين التلاميذ .. من يصلح لأداء دور القيصر يوليوس .. غير التلميذ جمال .. وأن وزير المعارف يومئذ — نجيب الهلالى — شهد الحفل وهنأ الطالب .

والواقعة فى ذاتها عادية ..

ولكنى أجمع بينها وبين أرقام تمر قونها وأعرفها لأسأل :

(١) هل كان « القدر » يغط فى النوم .. عندما أذن لجمال فى أن « يولد » فى سنة ١٩١٨ .. ثم أذن له فى أن « يمثل » دور « الحاكم » فى سنة ١٩٣٥ وأمام الهلالى الوزير .. ثم أذن له — أى لجمال — فى أن ينتزع زمام الحكم « الحقيق » من يد « الهلالى » نفسه فى سنة ١٩٥٢ وبين كل تاريخ وأخيه سبعة عشر عاماً على التحديد ؟

(٢) وإذا نحينا عن الحديث لغة السنين .. وتحدثنا بلغة الشهور ..
فإنى أيضاً أسأل :

— هل كان « القدر » ينطق فى النوم .. عندما أذن لجمال فى أن « يولد »
فى شهر يناير .. وفى أن « يمثل » دور « القيصر » فى شهر يناير .. وفى أن
« تحرق القاهرة » فى شهر يناير .. وبين كل تاريخ وأخيه سبعة عشر عاماً على التحديد ؟
وكلنا نعرف أن « حريق القاهرة » .. كان إيذاناً « باندلاع الثورة » فى « يوليو »
من نفس « العام » .

(٣) وإذا نحينا عن الحديث لغة السنين والشهور .. وتحدثنا بلغة الأحداث
فإنى أيضاً أسأل :

— هل كان « القدر » ينطق فى النوم .. عندما أذن لجمال فى أن يولد فى
سنة ١٩١٨ .. وعندما أذن لسعد زغلول وصاحبيه أن يتجهوا إلى دار المعتمد البريطانى
سير ونجت فى نفس العام ١٩١٨ ليطالبوه باسم الشعب باستقلال مصر الذى لم يتم
إلا على يد الوليد سنة ١٩٥٢ ؟ ثم هـل كان « القدر » ينطق فى النوم عندما أذن
لجمال أن يتزعم طلاب المدارس الثانوية فى ثورة سنة ١٩٣٥ ليرغموا الزعماء على
التكتل فى جبهة وطنية تواجه المحتل والملك فؤاد يحتضر .. ثم أذن له فى أن يتزعم
الطلائع الثورية فى سنة ١٩٥٢ ليجهز على الملك النحس ابن الملك الذى كان يحتضر ..
وبين كل تاريخ وأخيه سبعة عشر عاماً أيضاً ؟

أفكان هذا كله من قبيل الصدف ؟ أم كان للقدر يد فيه ؟

***

فى حدود المنطق بل فى حدود الصدف أيضاً — والصدف قوانينها —
لا يسعنى إلا أن أقرر أن « جمال » كان على موعد مع « القدر » وعلى الصعيد البطولى

فى كل حركة قام بها .. وفى كل ضربة سددها .. وفى كل معركة خاضها .. وفى كل انتصار أحرزه .. وأخيراً فى كل الفوارق التى شرع يذيبها .. وفى كل المتناقضات التى بدأ يزيلها .. ليقيم على أنقاض الماضى المنهار .. دولة قوامها الفلاح والعامل .. وليمهد لانطلاقة التجربة الجديدة والتجربة المثيرة .. من هذه القاعدة ومن هذه الطليعة — داخل إطار « **العهد الوثيق** » — إلى الرقعة الفسيحة والأمل العريض .. من الخليج إلى المحيط .

* * *

ومن كلمتى « العهد الوثيق » ألتقط أول الخيط .. وألف به على يدى حتى لا يفلت منى .. قبل أن أضمن « التمهيد » لفتة مستأنية إلى ثغرة فى هذا « الميثاق » .

ثغرة بل هوّة ؟

نعم .. أحب أن أصارحك بأن فى « الميثاق » ثغرة كبيرة .. وأخشى أن أقول « هوة سحيقة » لم يشأ « صاحب الميثاق » أن يقيم فوقها « معبراً » فدار من حولها دورة بارعة .. ومضى إلى ما هو — فى تقديره — أولى بالرعاية .

وأنا أباشر حرية الكلمة التى كفلها الميثاق .. فأعلن — فى حمايتها — أنى لا أقر « صاحب الميثاق » على « حركة الالتفاف » التى قام بها من حول هذه « الهوة » الخطيرة .. وتركها مفتوحة أو مكشوفة .

وأعنى « بالهوة » .. عناية « الميثاق » بإبعاد « صاحب الميثاق » عن « الميثاق » .. بل بإبعاد كل « ظل » لواضع الميثاق عن كل « سطر » فى الميثاق ... ورد كل « فضل » إلى « الشعب » .. وبتجريد صاحب الميثاق من أى « فضل » .

* * *

هذه « الهوة » قد تلاقى ترحيباً عاطفياً أو انفعالياً بعض الوقت ومن بعض الناس ، ولكنها تحدث مع الزمن « فراغا موضوعيا » يهدد البناء من الأساس .

وأدخل ما يكون فى معنى « الصدق الرهيب » الذى أتوخاه فى هذا الكتاب أن أنبه على خطورة هذا « الفراغ ».. ولا أعلق قضية التواضع أو نكران الذات .. لأنها تحجب « الرؤية » عن هذه « الهوة » .

* * *

وواضح أن « صاحب الميثاق » يخشى إذا هو أطل برأسه على « الشعب » من خلال سطور الميثاق .. أن ينصرف الشعب عن « القاعدة » إلى « القمة » ومن « المذهب والعقيدة والبناء » إلى « الرجل » الذى نشر المذهب .. وبشر بالعقيدة .. وتولى البناء .

وقد يكون الرجل فى « تواضعه » .. منطقياً مع « واقعه » !

وقد يكون فى هذا « السلوك » متأسياً بـ « صاحب الشريعة » عند ما نهى المسلمين عن أن يسودوه .. خشية أن يرتدوا إلى « الوثنية » ويعبدوه .

ولكن القياس هنا لا محل له مطلقاً ..

محمد بن عبد الله .. كان رسول الله .. لأن الله خلقه ليكون خير خلق الله .. وليخرجهم من الظلمات إلى النور .. لا ينطق عن الهوى .. ولا يملك أن « يغير » فى « النصوص » أو « يحيد » . ولا يملك أن « يخطىء » فى « التفسير » أو فى « التطبيق » .. لأنه « من المرسلين على صراط مستقيم » .

أما « صاحب الميثاق » فمؤمن بالله وبرسول الله .

ومواطنوه مؤمنون .. والحمد لله .

وهو « مواطن عربى » يحمل « رسالة عربية » يدعو فيهـــــا إلى « وحدة العرب » .

و « صاحب الميثاق » درس التاريخ ووعاه .. وكان « أستاذ تاريخ » فى « أمسه » فهيأه القدر ليكون « صانع تاريخ » فى « غده » .. فعاش معنا بكل قدراته فى

« الوصل » وعانى معنا بكل طاقاته « ظلمة الليل » .. واستكشف لنا بكل مواهبه « خصائص العروبة » .. وخاض بشخصه مع « الجيوش العربية السبعة » .. تلك الحرب « المهينة » .. فى فلسطين « الشهيدة » .. بكل ما انطوت عليه من غدر المستعمر .. وخيانة الحاكم .

« واشتعل » بهذه « التجارب » .. فلأت رحاب نفسه « عقيدة » .

« ولاح » أمام ناظريه « اتجاه » .. فكان « مذهب » .

وأمعن فى تحديد « المذهب » .. فاستقامت له « فلسفة » .

و « خطط » للمستقبل بكل آماله .. وتجاربه .. وأحلامه فكان « ميثاق »

* * *

هو — إذن — صاحب الفكرة وفيلسوفها .. ومحدد أبعادها وواضع إطارها وهو — إذن — راسم « التصميم » .. ومرسى الأساس .. والمهندس والبناء .. فهل كان يمكن أن يتم ما تم من البناء .. على يد غـيره من المواطنين ؟ هذا هو السؤال ..

* * *

صحيح أن واضع الميثاق .. إنما استوحاه .. من شعبنا و « تاريخ نضاله » .

ولكن أ كثر صحة .. أن الشعب كان موجوداً دائماً .. ولم يحدث على طريق تاريخه الطويل .. أن ضن بأى تأييد أو تجاوب .. على أى زعيم تصدى مخلصاً لقيادته فلماذا لم يتم على أيديهم — وفيهم الأكفاء ومنهم العباقرة — ما تم على يد هذا « الشاب » النابع من صميم « القرية » ؟!

ونحن — إذن — أمام « ظاهرة » تستأهل الفقه والدراسة .. أو فى القليل أمام « سر » لا ندريه « ربط » بينه و بين « الجسم الذى يبنيه » .

ونحن — إذن — أمام « ارتباط » لا انفصام له بين « القاعدة والقمة » .

و « خطيئة » لا تعدلها خطيئة . . ألا تدرك هــذه « الحقيقة » مهما يحاول « صاحب الميثاق » أن « ينسحب » من « الميثاق » .. خشية انصراف الشعب عن « العقيدة والهدف » إلى « عبادة البطل » .

خطيئة لا تعـدلها خطيئة . . لأن « العقيدة » — هنا — إنما قامت أصلا على « المزج » بين « البطل والشعب » .

و « تحليل » هذا « المزج » لا بد أن يجرد العقيدة من أحد عنصريها .. كما تجرد « الكهرباء » من « السالب » فيها أو « الموجب » فلا تبقى « كهرباء » .. أو كما تفصل بين « عنصري الماء » .. فلا يبقى ماء .

* * *

وقد يسأل سائل عن « مصير العقيدة » بعد « هذا الجيل » ؟

والجواب تولاه الميثاق . .

« الميثاق » يبني « دولة » ولا يبني « بطلا » ..

والبطل واضع الميثاق سيذوب في الميثاق كلما ارتفع البناء — وكما تذوب الفوارق بين الطبقات — حتى إذا اكتمل « المبنى » وشمخ « قمةً » .. واستقر « قاعدةً » .. وعرف « ساكنوه » أنهم « مالكوه » .. انتفى كل خوف على المصير .. ولم يعد للبطل مكان فيه . . إلا تمثال يقوم على مدخله الكبير . . يذكر الأجيال بالمهندس البناء .. وإلا كرة من البلور فوق المبنى الشامخ .. تدور دائماً مع دورات التاريخ .. لترسل أنوارها كشافة وهادية . . وإشعاعها وضاء وحارساً .. فوق الرقعة الفسيحة الموحدة .. من الخليج إلى المحيط .

وهيكل ؟

هذا هو رأيي . .

ولـكن هناك مفكراً شاباً — أجله — له رأي يخالف فيه عن هذا الرأي أو هكذا

يلوح .. والمفكر الشاب هو الزميل محمد حسنين هيكل رئيس تحرير « الأهرام » .

وهيكل « عقبة » .. وليس يكفى فى تخطيها « فك رقبة » .

أما لماذا ؟ فلأنه ملم بكل آراء الرئيس .. وكل « حسياتى » ما يقدمه لنا الرئيس « مقروءاً » أو « مسموعاً » .

ويضاعف الصعوبة فى تخطى هذا الرأى .. عمق إيمان المفكر الشاب .. بناصر والناصرية .. إيماناً ينبض به كل حرف يرسله .

وقد يكون من الأمانة لتاريخه الذى يجهله .. أن أقرر — وأنا أقدم منه فى حرفة الكتابة أو فى عمر القلم — أن فصول هذا الكاتب الشاب كانت تسايرنى فى مراحل تحول .. وكانت تلق الأضواء على طريقها مرحلة بعد مرحلة .. وكانت من أقوى ألوان « المرض » التى شهدتها على « شاشة الصحف » .. والتى ملأتنى — إلى جانب دراستى التى ستجىء — اقتناعاً بسلامة الناصرية « مذهباً وفلسفة .. وعقيدة » وبالدقة فى حسابها « تصميماً وتخطيطاً » .

وهيكل يذهب فى تحديد « مكان البطل » من « الميثاق » فى « اتجاه مضاد » أو هكذا يلوح .. وهو يرى أن الأساس الذى قام عليه الميثاق كله « أن جمال .. أحسن تقدير مكانه بصدق وأصالة — لم ينس نفسه لحظة ولم يغفل عن حقيقة دوره طرفة عين .. إن الثائر الحقيق فى تاريخ أمته لا يصنع الثورة .. ولكن الثورة هى التى تصنعه .. وبتحديد أوضح فإن جمال عبد الناصر لم يخلق الثورة الشعبية فى مصر .. وإنما الثورة الشعبية فى مصر .. هى التى خلقت جمال عبد الناصر » .

وهيكل لا غبار على رأيه . . إذا اعتبرناه « ناطقاً غير رسمى » بلسان الرياسة . .

ووجه البراعة فى تأييده تسحُّب صاحب الميثاق من الميثاق . . . لاستخدامه العبارات التى لا يختلف عليها قارئان .

ولم يقل أحد من الناس إن جمال عبد الناصر قال للناس : « ثوروا » فثاروا . .

ولكن السؤال الذى عرضناه لا يزال قائماً ..

وأوثر أن أعيده فى صياغة جديدة :

— لماذا « فجر » الشعب « طاقته الثورية » على طول ذلك الطريق الحافل بالنضال .. وعلى أيدى أولئك « الزعماء المناضلين » ... و « فجر » على يد « جمال » وحده « طاقاته الثورية » ومعها « طاقة التعبير الثورى » ؟ .

بل لعل الظروف كانت أكثر مواتاة لبعض الثائرين القدامى .. منها لعبد الناصر، وقد اعترف عبد الناصر نفسه فى مشروع الميثاق بأن الزحف الثورى بدأ من غير تشكيل سياسى يواجه مشاكل المعركة .. فى حين أن « هيئة الوفد المصرى » التى ركبت قمة الموجة الشعبية الثائرة فى سنة ١٩١٩ كانت تشكل تنظيما سياسياً من أبرز رجالات مصر المتمرسين بالحكم .. يحف من حولهم شعب كامل هادر .. من الشلال إلى البحر .. أعزل إلا من الطاقة الثورية المتفجرة ..

أما « الطلائع الثورية » التى ظل « جمال الشاب » يعدها فى إعلان وكتمان .. من قبل ساعة الصفر بسنين .. فقد خرج بها من تكناتها فى الظلام .. والناس نيام — والملك يحيي لياليه بطريقته المنضلة ! والهلال والمراغى يلهوان فى المصيف .. وتولى « جمال الشاب » — من وراء حجاب — قيادة هذه الطلائع تحت اسم «مستعار» لقائد «شيخ» كان قد أعده لحل اللافتة .. عندما رشحه الضباط الأحرار.. لرياسة «نادى الضباط» فى مواجهة « مرشح القصر » قبل الثورة بزمن قصير .

و رغم هذه الفوارق .. بين الثورة الناصرية وكل الثورات التى سبقتها .. فشلت كل الثورات ونجحت ثورة الشاب .

فلماذا ؟

الجواب من شأن « الكتاب » لا من شأن « التمهيد » .

* * *

بقيت شبهة الخلاف بينى و بين المفكر الشاب فى الرأى .
وأعتقد أن الخلاف فى الصياغة والشكل لا أكثر .

لقد قال وهو يختتم مقاله إن حديثاً جرى بينه وبين الوزير المستنير محمود فوزى من « ضرورة البطل فى حياة أمته » وحاجتها « إلى رجل غير عادى يرى بالحساب الدقيق كل الاحتمالات فى اللحظات الحاسمة من التاريخ .. ثم يتخذ قراره .. لا على أساس من الحساب الدقيق وحده .. وإنما من شىء آخر معه .. من شىء غامض مثير .. من صلة غير عادية .. تربطه بضمير أمته .. وتنقل إليه من هذا السبيل قدرة على تحدى المستحيل .. وعلى تحمل مسئوليات . ليست لها حدود .. وفى مواجهة أهوال ليس لها آخر » .

وهل قلت عن دور البطل شيئاً .. غير ذلك السر المبدع الذى التقى رأيه فيه برأى الوزير ؟

اتفقنا .. إذن..

وليضع « جمال » نفسه حيث شاء . . وفى المكان الذى يراه من مشروع الميثاق وفى المكان الصحيح الذى يراه هيكل فيه « ابناً لأمته » و « تلميذاً لتاريخها » .

ولنضع نحن الشعب .. ابننا الكبير .. فى المكان الذى نراه .. ولنا الرأى الأول والأخير .. بحكم الميثاق .

فى قلب المعركة

وبعد :

فيحسن أن يذكر الشعب ولا ينسى أننا نبنى ونحن فى قلب المعركة ..

وكل من حولنا فى العالم من حاكمين — باستثناء القليلين — يقض مضاجعهم وجود هذا « الرجل » فى هذه « الفترة » التاريخية . . وعلى قمة الموجة العارمة التى تزحف فى ثبات وهول — وكما ترجف الراجفة — وتهدد بكل « القوى العظيمة الكامنة فيها » رواسب القرون .

كل الأعداء .. يعملون — متكتلين ومتفرقين — ضد عبد الناصر .

وقد بلغ من « خوف » المستعمرين — ولا أقول « خرفهم » — أن

ظنوا أن عبد الناصر سيعبر البحر يوماً إلى أوروبا ليغزوها .. ويحتلها دولة بعد دولة .. ولا يكتفى بقيادة القوات العربية عبر غرب آسيا وشمال أفريقيا كما نقل عنهم الصحفى الهندى الكبير « كرانجيا » فى حديث له مع جمال عبد الناصر فى سبتمبر سنة ١٩٥٨ بعد قيام الوحدة بين مصر وسوريا .

و بعـــــد ؟

وأنا .. كفرد من أفراد هذا الشعب .. أدعوه إلى أن يعيش فى هذه اللحظات التاريخية الحاسمة .. مشدود الساعد إلى البناء .. ومفتوح العين على المعركة .

أنا هذا الفرد .. أحب فى رفرف التمهيد أن أسأل :

— أيدخل فى احترام النفس .. أن أقف مكتوف اليدين .. والبناء يبدأ والمعركة تدور .. لا لشىء إلا لأنى معدود من الذين حكم يوماً عليهم .. بتهمة التآمر عليه ؟ .

وإذا كنت قد احترمت نفسى يوم ساء تقديرى الناصرية فاعترلتها مختاراً عشر سنوات .. هى بين العشرات من عمرى أحلاها وأغلاها .. لأنها العشر التى نقلتنى من شباب الرجولة فى حلقتها الخامسة (التى يعيشها اليوم صاحب الميثاق) .. إلى صميم الكهولة فى حلقتها السادسة (التى يعيشها اليوم صاحب هذا الكتاب) .

إذا كان هذا هكذا .. أليس أدخل فى احترام النفس وقد آمنت بـ « الرجل الذى تآمرت عليه » .. أن أشهر إيمانى به .. فى هذا الوقت العصيب .. رابط الجأش غير متردد ؟

* * *

من هذه الحقيقة الكبيرة .. أبدأ .

من هنا .. ألتقط أول الخيط من الكتاب .. كما التقطت من هناك أول الخيط من « الميثاق » .. وأحييك ..

« محمد السوادى »

الفصل الأول

موقفي من الثورة

نعم ..

من هذه « الحقيقة » — الكبيرة في ميزاني — ألتقط أول خيط من كتابي ..

من « نفسي » .. ومدى اعترافي لها .. يوم ساء « تقديري » الناصرية فاعتزلتها مختاراً عشر سنوات كاملة .. ويوم عرفت طريقي إلى الحق والخير فيها فحتمتكم شجاعاً أشهر إيماني بناصر .

هذا « الإيمان » — إذن — ودواعيه — بعد « التآمر » ومراحله — هو لب هذا الكتاب .

* * *

وأنا أعرف — وأظنكم تعرفون — أن سواد هذا البلد — وسواد كل بلد عربي — ما تزال تظل فريقاً من خيرة بنيه .. يودون لو أقدموا على إعلان « إيمانهم » بالناصرية ولكنهم يترددون .

وأسباب التردد عند أحدهم قد لا تكون هي نفسها أسباب التردد عند الآخرين .. وإن كنت أعتقد أن « الكبرياء التقليدية » في طليعة الأسباب التي تنتظم المترددين من المواطنين .

ويطيب لي أن أعلن — في مستهل الفصل الأول — أن من بواعث فخاري .. أن أكون أول من يحطم هذه الكبرياء .. أتحدى بها ذلك النموذج العربي الرائع لهذه الثورة العربية الباقية .. ولهذا « الاستمرار المعاصر لنضال الإنسان الحر عبر التاريخ من أجل حياة أفضل » .

كما يطيب لى أن أعلن أن من بواعث ارتياحى .. أن أشق بهذا الإقدام من جانبى .. طريقى إلى ذلك الباب الموصد .. أمام كل من كان مثلى متردداً .. ويود لو أقدم .. فأحمده إذا هو « لان » .. وأحطمه إذا هو « استعصى » .

* * *

وسأرانى بالطبع مضطراً إلى الحديث — فى بعض الأحايين — عن حادثة تخصنى أو عن أمر يتصل بى .. فلا يَتَسرب إلى ظنك أنى أهتبل فرصة التفاتك إلى الحديث عن « صانع الثورة » لأتسلل إلى الحديث عن « واضع الكتاب » .

مثل هذه « الانتهازية » لا تحمل بى .. ولا تجول بخاطرى .

ولن أتحدث عن نفسى .. إلا الحديث الذى يتصل بأهداف الكتاب ويخدم موضوعه .. وإلا « مكره أخاك لا بطل » .. لأن « البطل » أنت تعرفه .. والفصول كلها معقودة عليه .

ولكنى « طرف » فى القصة .. ولا يستطيع سير القضية .. أن ينفص يده من أحد طرفيها .. فأنا الذى كفرت بالرجل وثَمَّ مرت عليه .. وأنا الذى عدت وآمنت به .

وبين الكفر والإيمان .. مراحل ..

بل إن قبل الكفر والإيمان .. مراحل أيضاً ..

قبل الثورة كنت — مثل كل مواطن — أهفو إلى الثورة .. فلما أطلقها أحسست تلقيها ..

ثم عدت فتشككت فيها ..

ثم عدت فدنوت منها ..

ثم عدت فرددت عنها ..

ثم أوغلت فى الردة .. فكفرت بها .

ثم ولغتُ فى الكفر .. حتى تآمرت على صانعها ..

ثم بدأت أصحو رويداً .. رويداً .. على مهل .. وعلى مراحل .. أصحو على صيحات الأحداث — قبل السجن — وصوت الحقائق ، ثم في سكون السجن على دراسة القيادة والقائد ، ثم بعد السجن على ضجيج المؤامرات وأصداء المعارك .. ثم في خاتمة المطاف على جلجلة « الميثاق » .

أي أني بدأت أتحول .. وأتحول .. حتى جاء « الميثاق » وكان كما قلت ذروة هذا التحول .

هذه المراحل كلها .. لها أحاديث لابد أن تجرى ..

وكل حديث منها .. ذو شجون لابد أن تثار ..

وأنا أولا وأخيراً .. لا أعدو أن أكون شاهد إثبات .. على سلامة الأهداف ، ولأهداف لكتابي .. إلا أن يحمل لأبناء العروبة — في مصر وفي كل بلد عربي — صورة صادقة .. رسمتها ريشة متآمر .. الرجل الذي تآمرت عليه .

وتاريخي إذن من ناحية التآمر — والتكفير والإيمان بالقائد الثائر — موصول الأسباب بزعامة هذا الشاب .. شئت أو لم أشأ .

ومن هنا يجيء الحديث عن النفس ضربة لازب ..

ضرورة الثورة

وعلى سبيل المثال — وعلى هامش الثورة — يقول « الميثاق » في مستهل بابه الثاني :

« لقد أثبتت التجربة وهي ما زالت تؤكد كل يوم أن الثورة هي الطريق الوحيد الذي يستطيع النضال العربي أن يعبر عليه من الماضي إلى المستقبل » .

وهذه حقيقة ...

ولكن .. أليس من حق كمواطن أن أتمهز عبارة كهذه .. لأثبت لك أني

كنت أؤمن — ومن مطالع الشباب — بهذه الحقيقة على الرغم من كل « الأخطاء » التى ترددى « جيلنا » فيها .. وأن أقدم لك الأسانيد على ذلك الإيمان .. لتصدقنى عندما أقول لك أنى فرحت لاندلاع الثورة .. ورحبت بها ترحيباً حاراً يوم إعلانها وهل يقال لى وأنا أقدم أسانيدى على سلامة هذه المرحلة .. أنى أتحدث عن نفسى ؟!

جماعة المثقفين

وأنحى النفس .. وأنصف الآخرين .. قبل أن تشغلنى مراحل كفرى وإيمانى .

تحدث عن جماعات من المثقفين أبلغ إليهم «الميثاق» فى «الباب الرابع» وهو يتناول «الفترة الحالكة بالخديعة ما بين انتكاسة سنة ١٩١٩ إلى حين تحدت القوى الشعبية للخطر الذى يتهددها .. ومن ثم بدأ التأهب النفسى لثورة يوليو ١٩٥٢» فيقول :

« لقد استطاع هذا الانحراف أن يجذب إلى الجو الحزبى الفاسد جماعات من المثقفين كان فى قدرتهم أن يكونوا حراساً على آمال الثورة الحقيقية لكن الإغراء كان أقوى من مقاومتهم » .

وهذه أيضاً حقيقة ..

ولكن .. أليس من حقى كمواطن أن أتميز عبارة كهذه .. لأعرب عن اعتقادى أن «بعض» هذه الجماعات .. إذا كانت قد انجذبت إلى هذا الجو .. فإنها لم تذب فيه قط ؟

ومن حقى — فيما أعتقد — أن أزعم أن « جماعات » من « أبناء الشعب » ممن أتيح لهم أن يحصلوا على قسط من العلم والمعرفة — وأخص منهم من احترفوا الصحافة أو اتصلوا بالفكر — ظلوا برغم الانجذاب إلى «الجو الحزبى الفاسد» يحتفظون بالطاقة الثورية كاملة بين جنوبهم .. وبالتمرد على الأوضاع كامناً فى قلوبهم .. وكانت «عيونهم» تتفتح «وأحلامهم» فيتطاير منها الشرر على أسنة الأقلام فى بعض المعارك .. وكان أهون العقاب أن ترحب بهم السجون .

ولقد سقط منهم عبر الطريق الطويل .. وعبر الكفاح المرير .. من سقط . شباب ثائر .. نادر .. ذهبوا ولم يعودوا .

ويكفي أن أذكر اسم الثائر الشاب — الدكتور مصطفى الوكيل — ليغدو اسمه على الشفاه تسابيح .. أو ليغدو رسمه إكليل غار توج به قبر كل جندي مجهول .

بل لقد عرفت أخيراً — ومن وراء القضبان — أن فريقاً من « الضباط الأحرار » قاموا ببعض الغارات الفدائية المثيرة على بعض أماكن المحتلين في القاهرة .. وعلى من اعتقد الأحرار أنهم أعوان الاحتلال من المصريين . . وحرص الفدائيون — بعد أن أصبحوا حاكمين — على طي هذه الصفحات المضيئة حتى يتولى التاريخ نشرها ..

ولو أن « القدر » كان قد تواعد معي في تلك الفترة العاصفة من تاريخ كفاحنا .. فأتاح لي أن أكون على صلة بأولئك المغامرين — في سنة ١٩٤٦ مثلا وما قبلها وما بعدها — لاستطعت أن أقرأ في يسر أربعة حروف من نور .. كانت تضيء الطريق أمام الزحيل .

ولكني لم أكن على صلة بأحد . . فلم يصافح أذني . . من اسم القائد الشاب حرف واحد .

ولا أنكر أن بعض الأسماء كانت تتراءى إلينا .. مقرونة بالحوادث التي شاركوا فيها .. كأنور السادات .. أو كحسين ذو الفقار في حادثة عزيز المصري .. أو عبد العزيز على المرلي .. الذي احتير وزيراً على مطالع الثورة .

وكل ما ذهب إليه تفكيري في ذلك الحين .. من تعليل تلك الغارات .. هو « النزوة الفردية » عند بعض الشبان ..

ولم يجل بخاطري قط .. أن وراء ذلك النشاط .. شاباً .. كان « القدر » يعده لما هو أخطر .. وأكبر ..

وموقفى ؟

ولست أزعم أنى كنت فى ذلك الحين معدوداً فى جماعات المثقفين ..

ولا أنا أزعم أنى كنت يوماً من الفدائيين الذين قاموا بحياتهم ..

وإنما أزعم أنى كنت أقرأ وأكتب .. وأتيح لى أن أحترف الصحافة ..

وأزعم أن الثورة كانت تشتعل فى صدرى لم أحد متنفساً لها .. إلا الريشة احتملت لها بكل طاقاتى .. ولكن الأوضاع .. كانت تحول بضراوة ووحشية دون تفجير هذه الطاقات ..

ولا أرانى إذن فعلت شيئاً يذكر .. رغم انطوائى على الروح الثورى .

وإذا كنت أعتزم الإلماع إلى بعض المعالم على طريق .. فإنما لأثبت حقيقة أعتز بها .. حقيقة « الروح الثورى » الذى لم يتصل يوماً هي .. حتى خلال « الجو الحزبى » الذى اجتذبنا إليه .. والذى أنوى أن أتحدث بصراحة عنه .. ولكن فى مذكراتى عن ربع القرن الذى أمضيته فى الصحافة .. إذا قدر لهذه المذكرات أن تظهر ..

رأس مالى .. قلم

وإذا كنت لم أزعم أنى كنت معدوداً فى « جماعات المثقفين » أو « الفدائيين » فإن من حقى أن أزعم أنى كنت من أبناء الفلاحين — الطبقة الشعبية الكادحة — وهو شرف يتسابق إليه — بعد « الميثاق » — جميع المواطنين !!!

كنت دخيلا على القاهرة .. والحياة فيها .

كنت وافداً من صعيد مصر .. أو على التحديد من قرية صغيرة .. على ضفة النيل اليمنى تجاه مدينة « المنيا » يسمونها « سواده » .

ولم يكن جدى أميراً .. ولا كان أبى باشا .

وإنما كانت الزراعة حرفة أبى وأجدادى ..

وكان أعمامى وأخوالى .. وكل آلى .. من صميم الفلاحين .

وكان أبى يملك شيئاً « من الفدادين » .. ويستأجر « أشياء » منها .. مكنت له — هى وشىء من الكرامة .. وشىء من الاستقامة — من قلوب الأهلين .. فكان فيهم صاحب الصدارة .. والأخ المطاع .. لا عن رأس مال ولا عن إقطاع .. كما مكنت له هذه الفدادين من تعليمى فجىء بى إلى مدرسة السعيدية فى الجيزة سنة ١٩٢٣ .

ورأيت سعداً لأول مرة وهو عائد من المنفى .. رأى العين .

وبدأت أصدر المجلات .. ولم أكن أهلا لإصدارها .. وإنما هفت نفسى إلى أن أقول للناس ما يجول بخاطرى .. فأجهزت على ما كان قد تبقى عند أبى من الفدادين .. فى تلك السبيل .

هكذا كنت فى مطالع شبابى .

وعلى هذه المطالع خرجت من عالم المجلات إلى الصحف اليومية .. وكل ما أملكه من حطام الدنيا .. قلم بين الأصابع .. ظل السير يجرى لاهثاً فوق الورق .. حتى كففته بعد الثورة الناصرية عن الجريان فكف .

وعلى الطريق .. معالم ؟

وعلى هامش الخلاصة الخاطفة لقدمى من صميم الريف والقرية .. أتحدى « أولاد الذوات » بعفوى وإصرارى .. وأنازلهم فى عقر دارهم (وكانت السعيدية مدرسة أولاد الذوات فى ذلك الحين) يحلو لى — والسياق يشجع — أن أعبر ماضيّ من مطالع الشباب فى سطور .. وأختار لكم منه معالم متواضعة عبر هذا الطريق

الطويل تشير على استحياء إلى ذلك الروح الثورى الذى لم ينقطع قط عنى .

وهذه المعالم قد تبدو اليوم صغيرة تافهة — والكفاح يجرى على الصعيد الدولى — ولكنها لم تكن — يوم كانت — تافهة ولا صغيرة .

والمعالم التى أشير اليها .. لا تعدو صحفاً أو مجلات أصدرتها .. وكلها محفوظة فى إدارة المطبوعات ودار الكتب .. شأن كل ما يصدر من المجلات والصحف .. وأقصر الاختيار على المجلات الأسبوعية .. وأحتسب الوضع تاريخاً طويلا .. يتصل بعملى فى الصحف اليومية .. لانعدام الصلة بينه و بين الثورة والروح الثورى .

والآن تسأل : ما هى المعالم ؟

* * *

١ — مَعلم منها .. مجلة « الطائف المصور » ثرت فيها وأنا ابن العشرين على سعد زغلول زعيم الزعماء .. لأنه نزل عن قيادة الثورة وزعامة الأمة إلى رياسة الحكومة .. فانطفأت الشعلة المقدسة فى أيدى الشعب الثائر فحدث انشقاق فى الصفوف نتيجة المطامع .. فسارع الاحتلال إلى إضفاء الشكل الدستورى على الخصومات بين الأشقاء .. فقامت الأحزاب وقام البرلمان .. وكان ما كان .

* * *

٢ — والمعلم الثانى .. مجلة « الحياة الجديدة » .. وقد اتجهت بها — فيما بين عامى ١٩٢٧ و ١٩٢٨ — وأنا الوفدى المجنون بالوفدية إلى « يسارية » أشد جنونا .. واستخدمت فى تحريرها صديقاً كان فى مقام الوالد سناً .. والأستاذ معرفة .. وكان يتزعم الشيوعيين فى ذلك الحين .. فحكم عليه فى وزارة سعد بالسجن ثلاث سنوات لدعوته عمال بعض المصانع إلى الثورة .. فمضت العدوان على حرية الرأى فيه .. واستعنت به فى تحرير المجلة لنثأر من المعتدين .. فأعلنت الحكومة حرباً « مادية » رخيصة .. فصمدت لها فأوقعت الدمار بالبقية الباقية من ثروة أبى المتواضعة وكان على رأس المدعوين محمود فهمى القيسى مدير الأمن العام .. وكامل الرحمانى مدير المباحث

الجنائية .. وكان وكيل النيابة الذى حقق معنا يومئذ .. هو الأستاذ زكى سعد أطال الله حياته .

***

٣ — والمعلم الثالث . مجلة « نور الشرق » . وكانت معاهدة ١٩٣٦ قد أبرمت وكنت من « القلة » العاصبة عليها .. وكان من « القلة » أيضـــاً .. صديق محمد عبد الحفيظ الذى رأس تحرير « كوكب الشرق » الوفدية يوم كنت سكرتير تحرير لها .. فجمعت بين قلبينا .. وكان يملك امتياز هذه المجلة « نور الشرق » .. وكنت قد بعت فى نفس الشهر لشاعر القطرين خليل مطران بوصفه مديراً للفرقة القومية .. مسرحية « الفاكهة المحرمة » فوضعت ثمنها وقفى تحت تصرف صديق محمد عبد الحفيظ — طيب الله ثراه — وأصدرنا « نور الشرق » نعارض بها المعاهدة — ونشر ونحن وفديان — ولأول مرة فى تاريخنا الحديث — قوائم المحاسيب والأصهار والأصهار .. ونعثر مخلصين من الاندفاع أمام هذا التيار .. ومنينا بالخسائر وأفلست المجلة .. ولكنها قدمت للحقيقة من بابها الخلفى خدمة لا تنسى .. إذ بدأت جريدة « البلاغ » تنقل عنا تلك القوائم بحروفها .. ومن غير أن تشير إلينا .. إضفاء للجلال عليها .. وكان الناس يتلقفون « البلاغ » فى لهفة .. بعد أن انشقت على الوفد وقادت المنشقين من أعضائه (وهم من أسماهم الأستاذ النحاس السبعة وبعض إشارة إلى قصر قامة أحدهم المرحوم على الشمسى) .. وأغلب الظن أن « البلاغ » لم تكن تدرى .. أن الذى كان يمدنا بعلمات « المخلوطين » .. هو نجيب الهلالى « باشا » .. ومن عجب أن هذا « الخبير الهاوى » الكبير .. وثب بعدئذ إلى الوفدية .. وعين وزيراً للمعارف .. حتى استقام له العود واستوى على السوق .. وثب إلى رياسة الوزارة وخاض ضد الوفد أعنف المعارك .. حتى ألقى سلاحه واستسلم على يد القائد جمال عبد الناصر فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

***

٤ — والمعلم الرابع — مجلة الــوادى .. عندما ولى النحاس الحــكم فى سنة ١٩٥٠

وأردت أن أستقبله بتحية صادقة وحرّى . . فكان « للناشيت » الذى لا ينسى : (النحاس مدحوّ إلى الثورة . .) واندفعت أعلن أن لا خلاص لمصر . . إلا بإعلان ثورة تماثل ثورة سعد . وليس لمصر قائد مرحو . . إلا « خليفة سعد » . . ولم أشأ أن أسجن قبل أن أشارك فى الثورة التى ناديت بها . . فلم يفتنى فى آخر سطور المقال للشعوب أن أقرر أن «الثورة» التى أدعو إليها . . هى ضد المحتل . . (وفى ظل صاحب الجلالة الملك المؤيد لشعبه) :

وهكذا حددت يومئذ مكانى من « الرأى » . . ولم يحدد أحد من الحاكمين مكانه . .

* * *

٥ — والملط الخامس : مجلة السوادى أيضاً . . أثر إلغاء المعاهدة فى أكتوبر سنة ١٩٥١ . . وفى هذه الفترة . . تفجرت الطاقة الثورية فى الشعب كله . . وخضت المعركة بقلمى ألقى عليها — مع الملقين — وقوداً إثر وقود . . لتظل النيران تتأجج وتزداد استعاراً . . كلما حاول الرجعيون أن يطفئوها .

ولا أنكر أن شكوكا ساورتنى يومئذ فى كثيرين من المشتركين فيها . . ولكنى لم أنبه عليها لأن الثورة كانت أقوى من الشكوك . . فضينا لا نلوى على شىء . . . حتى تردينا فى الهاوية :

وعلى سبيل المثال كنت أوفد فى كل مساء إلى وزارة الداخلية صديقاً لى اسمه (حكم على فتوح) — هو الآن مدرس — ليشهد مندوباً عن (السوادى) — المؤتمر الصحفى الذى كان يعقده الوزير . . ليهيى إلى الصحفيين آخر أنباء المعركة التى تدور فى القنال . . وكان الصديق يعود فى كل ليلة ليهمس فى أذنى « ما زال المكروت يواظب على حضور المؤتمر كأنه صحفى أو ثائر » . . وكان يعنى بـ (المكروت) . . أحد عبود — قمة رأس المال فى ذلك العهد — وكنت أعرف أن عبود صديق شخصى الوزير . . ولكنى فى غمرة الحوادث كنت أنسى — وليتنى ذكرت — أن عبود صديق لبريطانيا صدوق . . وزوجته « ليدى » انجليزية . .

ومرة أخرى أقول : كانت الثورة أقوى من شكوكى فصينا لا نلوى على شيء حتى على عبود .. وحتى ترددنا فى الحريق ..

ثم فوجئنا بحريق القاهرة .. وإخماد الثورة .. وإقالة الوزارة .

وسيق الشعب على يد « على ماهر والمراغى » إلى الجور من بداية الليل وكما يساق القطيع إلى الحظيرة .. وباسم الحكم العرفى وحظر التجول .

* * *

وهكذا بحثت « الرجعية » — ممثلة فى القصر ورجاله .. وآخرين لم يحط أحد عن وجودهم اللثام حتى اليوم[1] .. كما بحث الاستعمار من ورائها مستخفياً وراء « جمعية إخوان الحرية » فى أن يصمدوا على وجه الثورة التى تولى الشعب نفسه دور القيادة فيها قدروا « الحريق » ليطفئوها .. ولم يدر بخلد أحد — ونحن نحدق فى ألسنة النيران وهى تزغرد فى بلاج « القاهرة » .. عاقدة فى سمائها « غرابيب سود » من عمد الدخان .. تحجب عن الأعين ماتخبئه الأقدار .. لم يدر بخلدنا .. ونحن فى السادس والعشرين من يناير .. أن صوتاً من عالم المجهول سيدوى فى آذان الدنيا بعد ستة شهور — وفى السادس والعشرين من يوليو .. ليقول للملك المخلوع : « تفضل بالخروج » وليقول للشعب المعزول : « تفضل بالدخول » .

* * *

والسؤال الذى يعنينى أن أضعه الساعة فى داخل إطاره هو :

— هل كان معقولاً .. وقد أخذ الرجعيون ثورة شعبنا فى بسالة وإعلان ..

---

(١) التاريخ أذكر أن جمال عبد الناصر وضع جانباً من الستار عن بعض الوجوه فقال فى خطابه ألقاه فى « هيئة التحرير » يوم ٢٢ أغسطس ١٩٥٤ « إن الشيوعيين الذين ينادون اليوم بالكفاح المسلح هم الذين انتهزوا فرصة حماس الوطنيين الأحرار إلى القتال وأحرقوا القاهرة لتث الفوضى » وأعتقد أن الرئيس إنما أشار إلى الشيوعيين باعتبارهم « وجهاً » من الوجوه ... وليسوا « كل الوجوه » .

وسهرنا عليها الليالى كما تسهر الأمهات على الولدان .. هل كان معقولا وقد ماديناً بالثورة فتياناً وشباباً ورجالا .. ألا نحسن استقبال الطلائع الثائرة وقد أيقظنا أول بيان منها على مطالع الثالث والعشرين من يوليو .. ليقول لنا : جئنا نسلمكم زمام أموركم فتسلموه ؟

أرانى فى غنى عن الإجابة .

مرحلة شك وتردد

كنت فرحاً — إذن — كما كان كل مصرى فرحاً ..

ولكن شعوراً خفياً وقوياً .. شعوراً بالشك يورث التردد .. لم يلبث أن انسرب إلى تلك الفرحة .. فشابها ..

نعم .. تسلل الشك فى جدية الثورة عند ما رأيتنى أسأل نفسى :

— لم جىء بعلى ماهر .. ليحكم ؟ ولماذا سمحوا له وقد أطفأ ثورة الشعب أن يركب موجة الثورة الناصرية ؟ ثم هل يجهل الثوار أن الرجل كان فى طليعة الخوارج على الوفد والمنشقين على الأمة فى سنة ١٩١٩ فانتهز الاستعمار الفرصة وضرب بهم وحدة الصف فقامت الأحزاب وكان السعدى والعدلى .. ثم كان الوفدى والحر الدستورى ؟ وهل يجهل الثوار أن على ماهر خرج على زملائه الأحرار الدستوريين أنفسهم .. وأقام للملك فؤاد .. « حزب الاتحاد » ؟ وهل .. وهل .. إلى آخر تاريخ الرجل !

وأردت أن أحسن الظن بالثوار فعدت أقول لنفسى : لعلهم أشد ذكاء وأبعد نظراً .. ولعلهم أرادوا أن يستغلوه ويستغلوا حدة المطامع فيه — وهو رجل القصر وبطل السراديب — فى التخلص من مولاه .. بدافع من هذه الأطماع .

ولكنا تخلصنا من « المولى » !!

ورحل عنا « صاحب الجلالة » .. ورحلت معه « ركابه العالى !! » حكمه

« السامية ! » .. فلماذا لم يتخلصوا من « رجل الملك » .. وكان يكفيه فى الموقف المرعب .. أن تقال له كلمة شكر .. ويرحل »

* * *

وكان هناك ما هو أعجب ..

كان على رأس الثورة رجل غريب جداً .. طيب وأشيب .. يحف من حوله شبان ملء عيونهم ثورة .. ونار .. يحيطونه بهالة من الحب والإكبار .. تثير الشكوك .. ويدقون لزعامته الطبول دقاً غير مسبوق .. وينشرون عن أمجاده الأقاصيص تلو الأقاصيص ..

ولم يكن لأحدنا اعتراض على هذا كله برغم غرابته ..

بل لعلنا شددنا إليه فى غمرة الأحداث فأحببناه حباً ..

ولكن الظاهرة التى لفتتنى .. أن الزعيم « الثير » .. كان سطحى التفكير ..

ولم يكن يملك من أدوات التفجير الثورى — وهو محمول على الأكتاف — إلا أن يصيح فى الناس بكلمات ثلاث .. كانت الثورة قد اختارتها شعاراً لها : « الاتحاد .. النظام .. العمل » فإذا شق الركب طريقه .. ولمح أية شمطاء تحمل فى يدها ورقة بيضاء .. أوقف الرجل الركب وترجل .. ومشى إليها فأخذ يدها وقبلها .. ووضع فى اليد جنيهات خمسة .. ووقف لأخذ صورة له معها .. ثم أمر فواصل الركب سيره ..

وساءلت نفسى ضحولا :

— أيمكن أن تنجح ثورة .. هذا مستوى قائدها ؟

والتذت بالصمت .

* * *

وكان هناك ما هو أدعى إلى الريبة ..

كان هناك .. على أرض القنال .. جيش بريطانى مدرب .. يناهز ثمانين ألفاً .. .

وأعلنت الثورة .. ورحل الملك .. وهذه القوة الحفية لم تحرك ساكناً ..
وكأن الأمر لا يعنيها .. فهل كانت تنوى أن تتحرك وأن تضرب ؟ أم أن المحتلين راضون عن هذا التغيير ؟ وإن كانوا راضين .. فماذا يعنى رضاء المحتل الغاصب .. عن ثورة .. يقودها طبيب أشيب ؟

* * *

وأخيراً .. كان هناك عرش وأحزاب .

كان الملك الطفل فى رعاية أبيه المخلوع لا يزال يحكم مصر من قلب روما ..
ويتولى إدارة الدولة فى قلب « القاهرة » و « باسمه الكريم ؟!! » مجلس وصاية فى عابدين .. من بين أعضائه أحد أفراد الأسرة « الكريمة » .

فما الذى كان يعنيه هذا الوضع الغريب ؟

والسفير الأمريكى — كافرى — كان قد قام بدور الوسيط فى تأمين الملك على حياته وفى أيلولة العرش لابنه .. وقد أمن الملك على الحياة .. ونودى بابنه ملكاً له .

فما الذى كان يعنيه هذا الوضع المريب ؟

وكانت الأحزاب قد أخذت تتسابق إلى مقر القيادة .. فيتلقاها القائد بالقبلات .

فما معنى هذه القبلات ؟

وتبدى الأمر على مستوى .. أقل بكثير من مستوى الثورة التى عشنا نحلم بها وفرحنا يوم قيامها .

ولم أجد بداً .. من أن أكف جريدتى عن الصدور .. حتى تبين الطريق .

وكان يمكن أن يجرى الأمر على غير ما جرى عليه .. لو أنى نحيت عنى الكبرياء التقليدية الزائفة واتصلت ككل الصحفيين بمركز القيادة .. وطلبت إيضاحا لما خفى على .

ولكنه « القدر » أيضاً .

كان يتجه بى إلى موقف المتفرج لحكمة عنده .. لم أتبينها إلا بعد سنين وسنين وإلا بعد أن غيبتنى فى الغياهب .. وخلف أسوار السجون .

* * *

وكل الذى بدلته من نشاط فى ذلك الحين — وأذكره لتاريخ الفترة — وكان قد قيل إن المحادثات قائمة على قدم وساق بين زعامة الوفد وقيادة الثورة .. كل الذى بذلته من نشاط فى ذلك الحين .. امتداد يدى إلى « سماعة التليفون » لأطلب تحديد موعد مع صديق لى من زعماء الوفد .

والتقيته .. وتحدثنا !

وكل ما يعنينى من ذلك الحديث الخاص — وحيث الجانب الأكبر منه — أن الوفدى الكبير حدثنى عن شاب واحد أتبيه واسمه جمال عبد الناصر — ولم أكن قد سمعت هذا الاسم — وأنه مصر على تحديد الملكية .. « لكن .. معلهش .. هم فيهم أولاد معقولين .. وأنا أعرف كثير منهم من زمان » .

وكل ما خرجت به من هذه المقابلة .. صورة للتفكير الحزبى ثبت لى مع الأيام أنها كانت صورة مقاربة .. ولو فطنت الأحزاب لأهداف الثورة واتجاهات الثوار .. لما جرى عليها ما جرى ..

وحتى هذه الساعة لا أجد تعليلا لهذا القصور فى الإدراك .. من رجال خبرتهم وأعرف شدة الذكاء فى الكثير منهم .. إلا أن « القدر » أراد لجمال أن يقود .. وأن ينجح فى القيادة .. فأخطأ خصومه تقدير الموقف ليصيب القدر .. فكان مثل الأحزاب مثل الطبيب الذى قال فيه ابن الرومى :

والناس يلحون الطبيب وإنما .·. غلط الطبيب إصابة الأقدار

والفارق أن الطبيب أخطأ تشخيص المرض لأن القدر يريد أن يصح حداً لحياة المريض .. وأن الأحزاب أخطأت « تشخيص » القائد .. لأن القدر كتب الحياة لهذا القائد .. وكتب البعث على يديه للمعذبين فى الأرض .

نعم .. كان السياسيون المحترفون يؤمنون .. بأن العسكريين لا بد عائدون إلى الثكنات .. لأن « فن الحكم » ليس « لعباً » .

ومرت عشر سنين .. والشبان ما يزالون « يلعبون » .

* * *

تلك هي الفترة التي أترعت نفسي خلالها بالشكوك والوساوس .. فرأيت أن ألتزم مكتبي .. وأطل أسمع وأرى .. حتى ينفض السامر .. أو حتى تبين الحقائق .

* * *

وفى رأيى أن هذه الصورة الصادقة .. تشكل « المرحلة الأولى » فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » !

الفصل الثانى

فارع أسمر .. غامض ومثير ؟!

وجاءت المرحلة الثانية من مراحل المهزلة .. عبر السنين العشر .

جاءت تحمل معها ضربات رشيدة وفعالة .. لا يسددها إلى الخصوم « طبيب أشيب » .. وإنما يسددها ثائر شاب .. يصدر فيما يفعل عن سر فيه « غامض ومثير ».

ونشرت جريدة « الأخبار » أسماء . قالت إن أصحابها هم أعضاء « مجلس قيادة الثورة » .. وراجت بين الجماهير همسة الهمس .. تتداولها الشفاه والآذان .. عن « قائد شاب » يختفى وراء « الطبيب الأشيب » اسمه « جمال عبد الناصر »

وكان اسمه قد ذكر فى مقدمة أعضاء مجلس القيادة ..

وذكرت ما كان الوفدى الكبير قد قاله عن الشاب الذى أتيه .. واسمه «جمال».

وزارنى صحفى « أبناء السوادى » — وكان من بينهم من وثبوا إلى « مراكز قيادية » فى جريدة « المصرى » حدثونى عن ذلك الشاب . وقالوا إن وشائج ود أكيد تربط بينه وبين الجريدة.. وأنه يتردد عليها كثيراً.. ويرونه ويتحدثون إليه .. وأنه فارع العود . عريض المنكبين .. نافذ النظرة .. عميق الفكرة . تلوّح وجهه سمرة .. يشترى وقلّ أن يبيع .. ويصغى وقل أن يتحدث .. وإذا استمع إليك .. أولاك أذنيه وصرف عنك ناظريه .. بحيث لا تستطيع أن تطالع أى خاطر فى عينيه .. وهو فى أوجز صورة له .. يلفه الغموض .

* * *

وتوالت الأيام ..

وكان « على ماهر » قد تخيل أنه جمع بين يديه .. خيوط الموقف .. وظن هو

وأنصاره « أنهم قادرون عليها » .. ونشط فى الاتصال بالأعداء والأصدقاء .. وبالأحزاب والزعماء .. وخيل للكثيرين أن الأمر استتب له ..

ولم أكن أحسن الظن بالرجل .. فساءنى كل هذا الذى كان يقال .

كنت أكره فى الرجل .. التواء دروبه .. وظلام سراديبه .. وكان تاريخه السياسى تاريخاً بوليسياً .. يلقى الريبة على كل تحركاته واتجاهاته .

ولم يدر بخلدى لحظة أن الشاب الغامض .. الذى يختفى وراء « الطبيب الأديب » يستطيع أن يرى ويدرك .. خطوط « الأساليب التحتية » أو خيوط « الشللية الماهرية » .

ولم تمش محاولى طويلا ..

وفجأة .. سقط صاحب القمة .. من القمة ..

وفى السابع من سبتمبر .. أقيل على ماهر — أو طلب إليه أن يستقيل — بعد أن عقد مجلس وزرائه جلسة امتدت إلى ساعة متأخرة من الليل .

وقرأت عن هذه « الساعة المتأخرة من الليل » .. وقلت لصحبى : « طلع النهار » .

وعرف الناس — وعرفت مثلهم — أن مجلس القيادة كان قد طلب إليه وضع قانون للاصلاح الزراعى بحدد الملكية بمائتى فدان .. فراغ من المطلب — كما راغ زعماء الأحزاب — ثم بدأ يحاول إقناعهم بأن تحديد الملكية يفتح أبواب الشر الموصدة .. ويثير الفتنة النائمة .. ويهز الاقتصاد هزة قد تكون القاضية .. وأنه جس نبض الإنجليز والأمريكان وكل الدول ذات الشأن .. فأكدوا له أن صدور مثل هذا القانون .. فى بلد « يمين وشرقى ومسلم » يعنى خطوة حمراء إلى اليسار .. لا يمكن السكوت عليها .. وأن الزعماء والأحزاب .. والهيئات والبيوتات .. لا بد أن يتكتلوا ضد الثورة .. وأن كثيرين من الضباط فى الجيش والبوليس أبناء لهؤلاء ..

وقال على ماهر — ما قاله الزعماء قبله — إن هناك طريقة «الضرائب التصاعدية» تحقق للثوار كل أهدافهم من غير أن يعرضوا مقدرات البلاد لكل هذه الأخطار ..

وكان « المنطق التقليدى » يغرى بهذا الحل ..

ولكن مجلس القيادة رفض الحل ..

وبالعقلية الرأسمالية كان « على ماهر » .. يريد أن يغرى الثوار بالمال يتدفق على الخزينة فى صورة ضرائب .. فيقتنع الثوار بمنطق رأس المال ..

ومجلس القيادة لم يكن يطلب بقانون الإصلاح الزراعى مالا .. وإنما كان يستهدف تحرير الفلاح من سيطرة الإقطاع .. وكان بهذه الخطوة — وبأخوات لها كان يضمرها — يرمى إلى تذويب الفوارق بين الطبقات .. وبناء مجتمع جديد يقوم على مفاهيم جديدة .

وصدر القانون..

وكان له دوى هائل جاوز كل حد تصورته ..

هز القانون مشاعر الجماهير المغلوبة على أمرها .. لا فى مصر وحدها .. ولا عبر سيناء فقط .. وإنما فى الشرق العربى كله ..

وكما اهتزت مشاعر الجماهير العربية إيجاباً .. اهتزت مشاعر المستعمرين غضباً ..

* * *

وتوالت الضربات فى حكمة وحزم وسرعة .. لم تسمح لقوة من دول الغرب أن تقدم على تصرف عنيف .. ولم تسمح لهيئة من الهيئات الرجعية أن تستجمع قواها وتضرب .. وإنما بوغتوا بالضربات فأسقط فى أيديهم ..

وليس يعنينى أمر هذه الضربات للأحزاب أو لغير الأحزاب وأنا أعرض المرحلة الثانية من موقفى إزاء الثورة .. وإنما يعنينى فى هذه المرحلة (قانون الإصلاح

الزراعي) وحده .. لأنه وحده الذي قضى على الكثير من شكوكي .. وخطا بي من جديد إلى رحاب النوار .. حتى كدت أنسى شكوكي الأخرى بشأن جيش الاحتلال ، والسفير الأمريكي ، والطفل الذي يحكم مصر من قلب روما ، ومجلس الوصاية الذي يجلس فوق قمة الهرم باسمه «الكريم» .

فما سر اهتمامي بهذا القانون ؟

ما سر اهتمامي بالإصلاح الزراعي ولم يعد لي — بعد أن مضى والدي إلى بارئه — أي اتصال بالحقل أو بالتربة .. وقد قضيت ، كما قلت لك ، على ما كان قد تبقى لي من الأرض فلم يعد لي من وراء هذا القانون مغنم .

السر أن لي تاريخاً في قانون الإصلاح من قبل أن يصدر قانون الإصلاح .

والسر أن بي هوى إلى هذا القانون يعود إلى ما قبل عشر سنين .

* * *

أما كيف كان لي تاريخ معه . أو كان لي هوى إليه .. يرجع بي وبه إلى سنوات خلت فالإجابة — في اعتقادي — يعرفها الكثيرون من (المخضرمين) ويعرفها الكثيرون من الشيوخ والنواب السابقين .. ويعرفها كل من تتبع مناقشات البرلمان المصري قبل قيام الثورة .

يعرف أولئك جميعاً أصالة الود الذي كان قائماً بيني وبين صديقي المرحوم محمد خطاب عضو الشيوخ السعدي (سابقا) .. والحبيب إلى جميع الساسة على اختلاف ألوانهم الحزبية (عملا) والسكرتير العام لمجلس النواب قبل أن يحال إلى المعاش ويعين عضواً في مجلس الشيوخ .

وكان (خطاب) بعد تعيينه في الشيوخ يتهيب خشبة المنبر .. لأن المنبر خاصمه من أول يوم تم اللقاء فيه بين الاثنين .. فقد كان — طيب الله ثراه — سريع الإلقاء لا يكاد يبين .. تزدحم الخواطر في رأسه .. وتتقاتل العبارات على شفتيه فيضج الشيوخ وتشتد المقاطعة .. فيبارح المنبر في فشل مثير .. مثير لأعصاب

رجل «كخطاب» وفى رسالته ووفى ثقافته .. يفهم كل مايقوله ويعنيه .. وثلاثة أرباع الشيوخ من الإقطاعيين .. لا يفهمون حتى ما يقال لهم ..

و بدأنا كصديقين .. ندرس الثغرات والأخطاء .. أنا كناقد .. وهو كخطيب

وكانت هناك تجربة مثيرة .. وتماثل هذه التجربة تماماً .. حدثت مع قطب سياسى كبير فى أول عهده بالحياة البرلمانية .. واستطاع القطب — بفضل ذكائه — أن يسأل عن الثغرات والأخطاء .. وأصبح برلمانياً ذا ناب .

وعلى ضوء التجربة مع القطب .. بدأ «خطاب» يأخذ طريقه إلى المنبر من جديد.

وكنت أعمل ناقداً برلمانياً لجريدة « البلاغ » .. فبدأت أخصص حيزاً كبيراً من نقدى .. لتشجيع صديقى .. ولتسليط الأضواء عليه .. وكنت أحلو إليه الساعات وكما يحلو المخرج إلى الممثل .. حتى أحرز (خطاب) بفضل ذكائه المتقد وبفضل إصراره .. نجاحاً منقطع النظير .. فى حمل الشيوخ على الإصغاء إليه .. والتصفيق له .. وبدأ يلمع .

وكانت هواية (خطاب) .. إصلاح المجتمع .

كان تقدمياً .. ولم يكن ثورياً .

وكان بطبيعة تكوينه لا يكف عن المرح ولو كان فى مأتم .. فساعدته طبيعته الضاحكة على خوض المعارك فى غير مرارة ..

وانتهت مناقشاتنا إلى أن هذا المجتمع الآسن .. الذى تموج الطحالب والرواسب .. ويسيطر عليه الإقطاع الشع .. ويسوى فى المعاملة بين الفلاح والماشية .. لا سبيل إلى إصلاحه إلا بالقضاء على الإقطاع .. ولا سبيل إلى هذا القضاء إلا بتحديد الملكية .

كان (خطاب) يؤمن بهذه الحقيقة .. كما يؤمن بالله .. أقطابُ العارفين بالله .

وكان يرى أن الحد الأقصى لا ينبغى أن يزيد على خمسين فداناً .. ورأيت له أن المائة تبدو أكثر اتزاناً .. وأعون على تخفيف حدة الخصومة بينه وبين الإقطاعيين .. وجامل رأيى وأخذ به

واذكر ولاأنسى كيف بوغ «خطاب» بالمشروع الجهر تقدم به .. كل الوزارات .. وكل الأحزاب ..

وكان هو بطلا من أبطال الإعلام إذا ما تصدى لنشر أية دعوة .. أو روج لأية فكرة ..

كان يبدىء فيها ويعيد .. كاجد وكاهزل .. فى البيت وفى الشارع .. فى المقهى وفى النادى .. فى الكازينو وفى المسجد .. فى كل حفل يدعى إليه .. ولدى كل زائر يتردد عليه ..

وقد ركز هذه المواهب كلها .. فى الدعاية لمشروعه ..

ولم يكن الجو — بكل ما هو مشبع به من عناصر الملكية والإقطاع ورأس المال والرجعية والاستعمار — يسمح لمثل هذا المشروع بالتنفس فيه .

ولوأن أحداً من (الثقلاء) تقدم به .. لوجهت إليه تهمة الشيوعية .. ولأسقط الشيوخ عضويته .. ولا يدخل فى حيز المستحيل أن تفكر الدولة فى إسقاط الجنسية المصرية عنه .. ووضعه على ظهر باخرة تجوب به البحار من غير جنسية .

وكان (خطاب) حكيما .. فترك مشروعه يمشى على يديه زحفاً .. فلم يحيف فى البداية أحداً .. حتى إذا بلغ من العمر عاماً .. بدأنا نعلم بالصيحة من حوله . . حتى إذا بلغ عامين .. بدأ الكتاب يهشون له .. وكان (خطاب) يحسن التودد إلى طائفة منهم .

وكان الفصل كله .. له .

وكان دورى لا يتعدى .. حمل الراية .

كنت الكاتب الذى « هوس » قراءه بالمشروع .. وأوردتهم (صرعاً) .. وأصلام (صداعاً) .

كنت أحب « المشروع » بكل قطرة فى القلم .

وكنت أصحب « صاحب المشروع » بكل خفقة فى القلب .

وكان حسبنا أن جبأنا — فى حدود الطاقة — قوى الرأى السلم ..

وأثرناها على الإقطاعيين والحكام ..

وكانت الثورة لا تكاد تبدأ .. والمشروع لا يكاد يتحرك .. حتى يخف رئيس الوزراء أو وزير العدل أو وزير المالية إلى حيث يجلس (خطاب) ويلاطفه .. ثم يتسرب إلى محاولة إقناعه بتأجيل النظر فى المشروع .. أو بإعادته إلى اللجنة .. بحجة أن الوزارة تفكر فى تنقيحه .. على أن يعدل قليلا فى الأساس الذى يقوم عليه .. وحتى تهدأ ثائرة القصر .. وحتى لا يسيء الإنجليز تفسيره .

وكان الصديق طيب القلب فى كثير من الأحيان .

وكانت الكلمة الطيبة تؤثر فيه .. وكان يوافق على التأجيل .. ويفوت على نفسه .. جواً .. لم يكن من السهل تعويضه .

وهكذا أصبح المشروع — على كل هذه العقبات والعراقيل — يقض مضاجعهم ويفتنون فى الإفلات منه .. وإرجائه الشهر بعد الشهر .. حتى يقبل الصيف .. ويسافر الوزراء إلى « بولكلى » .. ويغلق البرلمان أبواب قاعاته .. تماماً كما يفعل مجرم مطلق السراح .. يدرك أن التهمة آخذة بتلابيبه .. فيجعل كل همه — هو ومحاميه — أن يخلق سبباً جديداً لتأجيل جديد .. حتى يحل موسم الأجازات فيقذف بالقضية إلى دائرة جديدة على هلال العام الجديد .. وتتجدد طلبات التأجيل

***

ولم يكن من السذاجة إلى الحد الذى صدقنا معه أن القصر والسفارة والإقطاع والحاكمين .. يمكن أن يقروا مشروع القانون ..

وكان كل همنا أن نفتح العقول والعيون .. على « الحقيقة » .

وكانت « الحقيقة » التي نسيها .. أن لا سبيل إلى « تحرير العبيد » إلا سبيل القضاء على الإقطاع .. إذا أردنا أن نتفادى الثورة .. والدماء .. وقطع الرقاب .

* * *

ولم يجل بخاطرنا — وأعترف — أن المشروع يمكن أن يتحقق بالتشريع .. وفي وقت قريب .

والدليل أن (خطاب) وافق على رأيي بأصبع — غلب على اسمه — اقترح عليه أن يدخل تعديلا على المشروع يجعل نفاذه رهيناً بوفاة المالك .. تحاشياً للأحياء من المالكين .. وحتى لا نألب كل قوى الرجعية عليه .

والآن أسأل نفسي :

— لماذا أذكر تاريخ ذلك المشروع وأعقد عليه فصلا ضافياً من فصول الكتاب ... والمشروع مشروع «خطاب» .. ولم أكن إلا داعية من دعاته ؟

والجواب :

— أذكر ذلك التاريخ كله .. لتدرك مدى ابتهاجي .. عند ما أطاح مجلس القيادة بعلي ماهر لأنه رفض وضع هذا القانون .. وعند ما ثبت لي أن حكومة الثوار الجديدة لم تكن « حكومة بكباشية وصاغات » كما كانت تسميها أبواق الرجعية في صحف لبنان .. وإنما كانت حكومة أحرار .. يسددون الضربة وهم يدركون أبعادها ... ومدى أثرها في بناء مجتمع جديد وقيم جديدة ومفاهيم جديدة .

* * *

وهكذا خطا بي قانون الإصلاح الزراعي إلى رجال الثوار بعد أن شككت فيهم .

ولو أني كنت يومئذ على صلة بهم لاندفعت إلى قلب المعركة معهم ، ولحاربت في الصف تحت رايتهم .

ولكن حال دون الإقدام ، شعور لازمنى فى كل أطوار حياتى ، وهو حدة الشعور البالغ فيه — حدة « الشعور الخجل أو « الخجول » — بما سببه « الكرامة » وهو ليس من الكرامة فى شىء — بحيث لاألقى حاكماً إلا إذا دعانى إلى لقائه ، وقد تدهش — وقد عشت خمسة وتسعين فى المائة من عمرى السياسى « وفديا » — إذا قلت لك صادقاً أنى لم أزر « رئيس الوفد » مرة فى بيته ولم أكن أعرف سكرتيره — وزميلى فى المؤامرة أحمد السقا — إلا بعــد أن خرجنا من السجن الحربى والتقيت به ، وتعارفنا ، وقد يتضاعف الدهش إذا علمت أنى لم أدخل طوال ربع قرن فى الصحافة دار صحيفة من الصحف إلا إن دعيت للعمل بها .

ولم أدخــل دار (الأهرام) — كبرى الصحف — طوال ربع القرن إلا مرة واحدة ، شكرت فيها تقلا (باشا) وأنطون الجميل (باشا) والأساتذة مصطفى أمين وكامل الشناوى ومحمد أحمد الحناوى وبقية الزملاء الذين عزونى بالبرق فى وفاة شقيقة لى ، كريم تعزياتهم .

حالت تلك الكبرياء — وليدة الرواسب الريفية أو الرجعية — دون اتصالى بالثوار ، فلم يشأ القدر أن يلحقنى بالركب ، ولو أنى لحقت بهم لاكتشفت من بداية الثورة حقيقة قائدهم ، ولما التوى الحظ بعد ذلك فى يدى فضللت الطريق إليهم ، حتى بلغت يوماً حد التآمر على هذا القائد .

لكنها حكمة الله ..

ردتنى عنهم بعد أن دنوت منهم ، لتملأنى بعد ذلك شكوكا جديدة فيهم ، ولتلتوى علىَّ الدروب ، فأضرب فيها على غير هدى ، كما سترى — مع الحزن والأسى — فى الفصول الكثيرة التالية .

* * *

أما هذا الموقف الذى فرغت من رسمه ، فهو يشكل فى ميزانى ، المرحلة الثانية فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل الثالث

مرحلة ... اختلال الموازين

وجاء دور المرحلة الثالثة من مراحل المهنة عبر السنين العشر .

وقد اختلت جميع الموازين في يدي .. في تلك المرحلة ..

ولا أدري إن كانت الموازين قد اختلت أيضاً في أيدي الحاكمين .. أم أن اختلالها في يدي هو الذي صورها لخيالي .. مختلة في أيديهم .

* * *

حطا بي تحديد الملكية .. خطوة جبارة وجذرية .. إلى رحاب الثوار ..

ولم يكن بموزني غير نسمة من نسمات « القدر » تهب علي .. طيبة رخاء .. في صورة صديق قريب منهم .. يعنيه أمري .. يقيم جسراً بيني وبينهم .. لتطمئن إلى قلوبهم .. ولألقي بكل ثقلي إلى جانبهم .. ولأخوض قلب المعركة معهم ..

ولكن النسمة لم تهب .. والأقدار لم تشأ .

* * *

وأحسست — كما لم أحس من قبل — أن من واجبي أن أتحرك داخل إطاري .. وأن أشد أزر الثوار على قدر جهدي .. وصح عزمي على أن أعيد الحياة إلى جريدتي .. وأن أسهم بها في تدعيم موقفهم من غير أي اتصال بهم .

وترادت الفكرة .. وشيدة .

ولاح الموقف .. قليلاً .

ولكن .. كيف .. وأنا لا أملك مالا ؟

وذكرت شيئاً .. وكنا يومئذ فى سنة ١٩٥٢ .

ذكرت أن وداً كان قد قام — عن طريق التراسل — بينى و بين « كبير سعودى » كان قد أعرب لى — فضلا منه — عن إعجابه بى .. ودعانى أكثر من مرة إلى حج البيت .. وكنت فى كل مرة أشكر وأعتذر ..

وفى هذا الموقف — و كنت مشوقاً للحج فعلا — خطر لى أن أفعلها .. وأن أرى إن كان فى وسعه أن يمد إلى حريدتى يداً .. على أن أصارحه أن القرض عرضة للضياع أو الإرجاء .. إذا لم تنجح الجريدة .. وتُرَد إذا هى نجحت ..

وعدت فترددت ..

ترددت .. لأن اللغط كان قد بدأ يدور فى تلك الأيام بين أروقة الصحافة .. حول ذهب السعود بين .. والصلات المريبة بينهم و بين الصحفيين ! !

وهى شبهة .. لابد أن تعلق بأطراف رحلتى .. وليس من الهين على أى إنسان سوى .. أن يدع الشبهات تعلق بأطرافه .. إلا أن تكون « ضربة لازب » كما يقول رجال الأدب .. أو « لأسباب خارجة عن إرادته » كما يقول رجال القانون .

وأقنعت نفسى بوجود « الضربة » .. وقيام « الأسباب » .

وركبت الطائرة ..

وعاونت على اقتناعى .. مظاهر الإخاء التى كانت قد بدأت تبين .. على الصلات بين الرسميين من المصريين والسعوديين .. فكثر طيران أنور السادات و (المرحوم) صلاح سالم وغيرهما .. إلى جدة والرياض .. ولاكت الألسنة أن الدولتين تسيران فى خط واحد .. يتجه بهما إلى تحالف أو شىء أقوى من التحالف .

وأعلن يومئذ أن « الطيب الأشيب » — حامل اللافتة — شد الرحال إلى الحجاز لأداء فريضة الحج .

وأديت فريضة الحج ..

ولم أبرح أماكن الشعائر .. إلا إلى جده فى طريقى إلى العودة ..

وأدى الجنرال — حامل اللافتة — الفريضة — أيضاً — وطار فى حشد من الصحفيين إلى «مصيف الطائف» حيث كان الملك عبد العزيز .. فى طريقه إلى النهاية .

وكان الأمير سعود (الملك الحالى) ولى العهد ينوب عن والده فى شهود الحج .

والتقيت فى مكة لأول مرة بالسكرتير السعودى « الصديق بالمراسلة » .

وغلبنى حيائى .. فلم أستطع أن أفاتحه فى أمر الجريدة .. وعدت إلى «القاهرة» كما خرجت منها .. وكل ما ربحته من أمور الدنيا أن سألنى السكرتير الخاص لولى العهد .. إن كان فى نيتى أن أصف رحلتى إلى بيت الله .. لأن القراء المحبين لريشتى (وزعم أنه منهم) يودون لو قرأوا وصفاً لمثل هذه الرحلة بهذه الريشة .. وأن الفرصة مواتية لما لو أنها تؤدى تحت ظلة الجولة الروحية فى رحاب البيت الحرام .. واجباً عربياً آخر .. هو توثيق الصلات بين مصر والسعودية .. كقاعدتين للعروبة والإسلام .. تصلحان لتنطلق انطلاق .. لوحدة العرب والمسلمين .. فى إفريقيا وآسيا .

وحسن وقع المطلب فى نفسى .

وأصدرت بعد عودتى كتاب « مملكة فى الميزان » .

وأعترف .. أن خيال أمنية من أمنياتى طوف برأسى يومئذ ..

تمنيت لو أن هذا السكرتير الخاص عاون على أن تشترى السعودية طبعة خاصة من كتابى تدر علىّ ما يعيد الحياة إلى جريدتى .. لأسهم فى الاتجاه الجديد المار لجماعة الثوار .. بعد أن أصدروا قانون الإصلاح .. ولأعمل فى الوقت نفسه على توثيق الصلات بين قاعدة العروبة وقاعدة الإسلام .

ولم يحقق الكتاب ما عقدته عليه من الرجاء .. ولم تصدر (السوادى) .

وقد رخصت لنفسى فى هذه اللمحة .. لاتصالها أولا بنية لم أجهر بها إلا اليوم

بية إصدار (السوادى) فى ذلك العلم . . لتأييد الثورة والثوار . . ولاتصال اللمحة ثانياً بفكرة سخيفة رددها بعض « المتطلين » .. ووجدوا فى مادة الكتاب . . عوناً لهم على الترويج لها .. فقالوا — وكَجُّوا فى القول — أنى أصبحت داعية من دعاة السعوديين .. وأن أواصر الود انعقدت بينى و بين الحاكمين فيهم .. بدءاً من سعود (وكان قد نودى به ملكاً فى نفس العلم) وانتهاء إلى أى موظف مسئول فى حكومة السعوديين .

وليس مما يتصل بأهداف هذا الكتاب أن أسخر أحد فصوله لمناقشة هذه الفكرة ، وحسبى أن أستأذن فى سطور معدودات أعبر خلالها تلك الفرية .. أو الفكرة . . تاركاً لمذكراتى المقبلة إن شاء الله تأييد الحقيقة بالأسانيد ..

أما الآن حسبى أن أقول لهؤلاء أنى لو كنتُ صديقاً للسعوديين وملكهم وأمراء بيته وأصحاب الحل والربط فى مملكته كما أرجف المرجفون لأصبحتُ من أصحاب الملايين من أمد بعيد .. أو لأصبحتُ فى القليل من المثرين .. ولما أعيانى فى سنة ١٩٦٢ طبع كتابى عن « الرحل التى تآمرت عليه » . فحمل صديقى صاحب « المطبعة العالمية » هذا العبء عنى ..

* * *

وأرد الآن قلمى إلى مناطه ، من صميم موضوعه : وأعنى موقفى من الثورة فى تلك المرحلة .

فشلتُ إذن فى الحصول على قرض لإصدار الجريدة لأؤيد الثوار .

فهل كان ذلك الفشل ، هو وحده سبب عدولى عن إصدار جريدتى ؟

وهل لم يكن فى وسعى أن أحاول الاستعانة بأية هيئة من الباحثات عن النفع ؟

أعتقد أن المنافذ ، لم تكن كلها مغلقة .

وأعتقد أنى لم أحاول أن أسير فى أى طريق تؤدى إلى أى منفذ .

كانت الخيوط قد بدأت تهتز فى يدى من جديد .

الإخوان المسلمون

وكان مما هز الخيوط فى يدى ، موقف الثورة من (الإخوان المسلمين) .

جىء بضابط من الضباط الأحرار ، فبين أياماً وزيراً للمواصلات ، ليثبوا به إلى مجلس الوصاية ، وقيل فى تعليل هذا الوثوب أنه عضو فى جماعة الإخوان .

وداع أن محادثات جرت بين مجلس القيادة يمثله جمال عبد الناصر وجماعة الإخوان يمثلهم الهضيبى ليشاركوا فى الحكم ، وتعثرت المحادثات لأن الهضيبى وقف موقف المتعالى يملى شروطاً لا يمليها الغزاة الفاتحون ، وكانت الشروط وصاية صريحة يفرضها الإخوان على الحركة .

وقيل إن حامل اللافتة لم يعد ذلك العليب الأشيب بعد أن حلف على ماهر فى رياسة الوزارة ، خلا له المسرح ، ونسى إنه إنما يمثل دوراً ؛ وراح يتصل سراً بجماعة الإخوان بعد أن تعذر اتفاقهم مع جمال .

وقيل ، وقيل ، وقيل الشىء الكثير .

وكان لى مع الإخوان دور ، من قبل الثورة بسنين .

كنت أهاجم سياستهم فصلا ، وأنا أصدر مجلة (الخبر ـ لصاحبها) فى عام ١٩٤٥/١٩٤٦ ثم وأنا أصدر (السوادى) من بعد النصف الثانى من سنة ١٩٤٦ وما تلاها من سنين .

وكنت أسميهم بالخط الكبير وعلى عرض الصفحة الأولى من جريدتى (رهبان الليل ، وفرسان النهار) .

وليس من الفروسية فى شىء أن أطيل فى عرض هذه الخصومة بعد أن نسحقوا من ميدان السياسة .. وإنما أشير إليها ، ولى آرائى فيهم لأضع إلى جانب هذا الرأى ، عناية الثورة بالتعاون معهم ، ومحاولة إقناعهم بالمشاركة فى الحكم ، وانتهز الخصوم الفرصة وأشاعوا أن جمال عبد الناصر كان هو نفسه (إخوانيا) وأن الثورة نفسها ، كانت من إعداد الإخوان وإخراجهم ، ولم تقم إلا لحسابهم .

و إذا كان هذا ، هكذا ، فكيف أعود إلى إصدار (السوادى) لتأييد الثورة وهى إخوانية ، بعد أن ظلت (السوادى) تصبا تهاجم الإخوان ، وتسميهم « رهبان الليل ، وفرسان النهار » ؟

و بدأ الشك القديم ، يزحف إلى الصدر من جديد .

والشيوعيون؟

وفى الوقت الذى كانت الرءوس تتقارب فيه لتهامس بإخوانية الثوار .. ترامى إلىّ أن من أعضاء مجلس القيادة ضباطاً ذوى ميول يسارية ، وأن أحدهم كان قد أوشك على أن يدفع بالقيادة إلى هوة حمراء ، وأن آخر يؤمن بالماركسية من الناحية المذهبية الخالصة ، ومن الناحية العلمية التجريدية .

* * *

والموقف — إذن — يوشك أن يجاوز حد السخف .

ومن حقى — إذن — كواحد أن أقف مفتوح العينين ، على كل ما يجرى فى البلد .

و إذا كان مجلس القيادة قد اتسع لضباط من أقصى اليسار وضباط من أقصى اليمين ، و إذا كان « الطبيب الأشيب » قد بدأ يتصل بالوفد والإخوان ليقلب بهم كل الموازين ، فمن هو القائد الحقيقى للثورة ؟ هل هو إخوانى ؟ هل هو شيوعى ؟ هل هو وطنى ؟ أم هو شيء لا تدريه ؟

* * *

ثم خف نشاط هذه الشائعات ، وانتقل الحديث إلى الثوار و (الأطبيب الأشيب) ..

قيل إن « جمال » بدأ يظهر على المسرح ، وأن (حامل اللائحة) أصابه فزع .

وقيل إن (حامل اللائحة) أشير عليه من البطانة أن يتحين فرصة البلبلة التى

أحدثها اتجاه (جمال) إلى تصفية الأحزاب ، ليخطو (الطبيب الأشيب) خطوة نحو الوفد ، وليفتح عيون الوفديين على ما يراد بالحريات ، وبالدستور ، وعلى الأنجاه الجديد إلى إقامة « ديكتاتورية » تحكم بالحديد والنار ، وتسخر كل مقدرات البلد لخلق « فاشية ناصرية » .

ولما اعترضت بأن من غير المعقول أن يحاول القائد الشاب إقامة ديكتاتورية فى بلد محتل ، قيل لى — وكان الرد يبدو يومئذ معقولا — إن المحادثات التى كانت قد بدأت فى ذلك العام مع بريطانيا وتوقفت.. والنشاط الفدائى الذى بدأ القائد الشاب يوجهه من جديد إلى منطقة القنال ليقض به مضاجع الاحتلال ، — وكان قد بدأ يؤتى ثماره فعلا حتى جرى اسم « ناصر » على ألسنة الجنود البريطانيين يحمل إليهم صوراً عجيبة من الرعب والهلع — قيل إن الشاب إنما يرجىء إعلان الديكتاتورية إلى ما بعد الجلاء .

وقت لنفسى تمنياً على هذا الذى قيل : ليته يفعل

وليت هذا الشاب ينجح فيما فشلت فيه ثورات الشعب عبر سبعين عاماً أو تزيد ، فيحقق لنا حلم الجلاء ناجزاً ، فإذا أراد وهو ابن من أبناء مصر أن يستغل أهله وأن يفرض نفسه سيداً عليهم ، وحاكماً مطلقاً فيهم ، فهم أحرار فيما يختارونه لأنفسهم ، حرية الأب الرخو أو الأب الحازم ، إزاء الإبن الذى يشق عصا الطاعة .

وأياً كانت النتيجة ، فتحرير مصر من الاحتلال تهون إلى جانبه كل النتائج .

فترة مهزوزة

والمهم أنى فى خاتمة هذا الفصل أقول سافلته فى مطلعه أن جميع الموازين اختلت فى يدى ، وأنها لا بد أن تكون قد اختلت فى يد القيادة .

ويبدو أننى وكثيرين من الثائرين القدامى ، كنا قد تأثرنا فعلا بالجو الحزبى الفاسد وانجذبنا إليه ، والدليل أنى أحسست بالمضض عند ما حلت الأحزاب .

وعلى الرغم من أن هذه القضية تناقض فرحتى بتحديد الملكية الزراعية ، فإنى

أصغيت إلى ضجيج الخصوم ، وإلى صيب الخصوم وهم يلطمون الخدود ويشقون الجيوب ويؤبنون الحريات ، غداة حل الأحزاب ، وتعالم للوقف عند إعلان الجمهورية .

ودقوا بهذا الإعلان على اتجاه القائد الشاب إلى حكم الفرد .

وبدأوا يتحدثون عن السجون التي ضاقت بالأحرار من الزعماء (؟!) .

ورأيتني أضرب بذراعي في هذا البحر اللجي ، والأمواج تحملني بعيداً عن الشاطىء ، وسفن الإنقاذ تلوح لي بعيدة عن الأخرى .

ومصيري عالق بيد القَدَر .

. . .

وفي ميزاني أن هذه الصورة للهرورة لتلك الأحداث ، إنما تشكلُ المرحلة الثالثة في موقفي من « الرجل الذي تآمرت عليه » .

الفصل الرابع

أمواج تتلاطم .. وآمال تتهدم

من بواعث ارتياحى أن تأذن لى — وأنا أدير المفتاح فى مكانه من باب هذا الفصل — أن أشير إلى (حقيقة منهجية) ذات شأن ، وهى أنى لا أحرص أبداً فى هذا الكتاب على اقتفاء الثورة فى كل أطوارها ، طوراً بعد طور ، ولا على بيان خطاها ، خطوة تلو خطوة ، ولا أحرص أبداً على بسط ما أدته لمصر فى كل المجالات ، صنيعاً بعد صنيع ، ولو أن الأمر كان هكذا ، لما كان أيسر على من أصنع أمامى (مجموعات الصحف) التى صدرت خلال السنين العشر ، وأنهض بهذا العبء فى غير جهد .

ولكن الأمر ليس هكذا ..

إنما أتناول (الأحداث) التى تتصل عوقفى فقط من (الثورة) ، لأنى أنا الذى تشككت وترددت ودنوت منها وزدت عنها وكفرت بها ، ثم آمنت .. فالحدث الذى كان له أثر فى أى وضع عانيته من هذه الأوضاع ، هو وحده الذى أتناوله ، غير مقيد حتى بالترتيب الزمنى فى وقوعه بين الأحداث الأخر ..

هذه الملاحظة ذات أهمية بالغة ، وأنا أقف بباب مرحلة ، باطالما ازدهرت خلالها آمال ، ثم تهدمت ، ويا طالما هب نسيم البحر يحمل إلى رئتى سحراً وحلاوة ، ثم لم يلبث البحر أن هاج ، وتلاطمت أمواجه ، فحملتنى موجة إلى مقربة من الشاطىء ، وردتنى أخرى بعيداً .. بعيداً .

من هنا رأيت أن أنبه على هذه الحقيقة .

سنة .. غنية ؟!

وسنة ١٩٥٤ التى يعنينى أن أتصدى الآن لجانب من أحداثهـــا ، كانت غنية بالأحداث وأعنى أنها كانت غنية بالأحداث التى تتصل بموقفى من الثورة .

فى سنة ١٩٥٤ بدأت شبهات السنة التى سبقتهـــا تتحول إلى حقائق أو تلوح لنا كالحقائق .

بدأت الخلافات تبدو واضحة بين (الطيب الأشيب) حامل (اللافتة) و بين (صانع الثورة) .

وحدث أكثر من صدع فى جبهة الثوار ، ورأينا التشقق فى مبنى القيادة بالعين المجردة أو هكذا خيل لنا أننا نراه .

* * *

وكأن الناضبون من المستعمرين وفلول القصر والإقطاع والأحزاب ، قد نشطوا فى تسميم الجو ، و برعوا فى صنع الأكاذيب ، وأمسى الجو مهيأ لتصديق كل خبر مكذوب ، من أى شر (مزعوم) يراد بالأمة ، أو أى حق (موروث) يراد اغتصابه من أبناء الأمة .

وركب (الطيب الأشيب) ، قمة هذه الموجة أيضاً ، وأمسك بعصا تشبه (عصا موسى) — لا ليهش بها على غنمه وإنما ليحقق بها (مآرب أخرى ؟!) — زاعماً أنه إنما يحملها باسم الأمة ، ليقول لفرعون الجديد : (مكانك .. قف) ، وزاعماً أنه الحفيظ على حقوق الشعب فى الحياة النيابية ، وفى الديموقراطية السياسية ، وفى سيادة حكم الأغلبية ، وفى رفع راية الإسلام أيضاً .

* * *

وأشهد أنه أحسن تمثيل دوره الجديد ، وترك فى بعض النفوس المهيأة أثراً غير

حين ، وبدأ الناس يتساءلون ويتهامسون ، وبدأت الفرقة تدب في صفوف الأهلين ، وبدأ الرأي يتشعب في البيت الواحد ، وبين الولد والوالد .

* * *

وأطل (الإخوان المسلمون) برؤوسهم — ليتبوأوا الموزع ، في مساندة (الطيب الأشيب) — بزعامة مرشد ، هو مستشار سابق ، وهو أيضاً (طيب وأشيب)[1] ، وكانت الأحزاب قد حلت ، وكان أضعف الإيمان أن هوى الحزبيين لا بد أن يكون هو الآخر مع (القائد الشيخ) ، وكان بعض صغار الأحلام من الضباط المخدوعين في سلاح الفرسان قد صلوا طريق الثورة وأيدوا هذا (الشيخ) .

وكانت جريدة (الجمهورية) قد أصدرتها (هيئة التحرير) وعهد بها إلى أنور السادات — أحد الأحرار الذين يقدسون القائد الشاب — فبدأت التلميحات تنساب في براعة بين السطور .

* * *

وبدأت ظلمة الليل تمشي بنا ، إلى ليال معتمة لا تبين لها نهاية ، ولا يكاد الناظر فيها يستبين يده ، فكيف يستبين أسرار الأحداث ومعميات الموقف ؟

وكنت قد شرعت في وضع كتابي « مملكة في الميزان » أرسم فيه الأهداف عربية وإسلامية ، وإفريقية وأسيوية ، فتجنبت الدخول فيما يمس من قرب أو من بعد تلك الخلافات .

وكان الملك سعود قد تحدد لزيارته القاهرة شهر مارس من ذلك العام ١٩٥٤ — وهو الشهر الذي حفل بالحوادث التي نذكرها جميعاً ولا ننساها .

---

(١) ظهر فيما بعد أن المحسبي مرشد الإخوان « غير المشول » كان يتصل سراً من سبتمبر سنة ١٩٥٣ بمستر أيفانز مستشار السفارة البريطانية ليفاوضه في شروط المعاهدة التي كان عبد الناصر يفاوض الإنجليز فيها « كمسئول » .. ولعل ذلك « العدوان » كان سبباً في تعثر المباحثات « الرسمية » في ذلك الحين ... وزيادة التفاتيهم إلى القتال .

سعود وحوادث مارس

وكنت فى الحج قد لقيت « الأمير سعود ولى العهد » فى قصره بجدة ، وفى حفل أقيم بمناسبة تنازل والده « المريض » عن « سلطانه الملكية » لولى عهده ، ودعينا نحن الضيوف إلى الحفل ، فجلت من المنى الذى أقيم من أجله ، ولكن الشيخ عبد السلام غالى (مدير الضيافة وأصله مصرى) ألح علينا فى أن نسترد فلبينا الدعوة .

ولما جاء سعود إلى القاهرة فى مارس — وكان قد (بويع) بالملك بعد وفاة أبيه — تلقيت دعوة أقامها لعدد محدود من المدعوين فى قصر الطاهرة — و بالأسماء على المقاعد والبطاقات — فأكبرت هذه العناية من جانب ملك ، وحييته فى (السوادى) تحية بالغت فيها ، تأبيناً لحكومة مصر التى لم تدعنى إلى أى حفل أقامته للرجل .

* * *

وكانت آخر الحفلات التى أقيمت لتكريم الملك ، حفلة عشاء فى فندق «هليو بوليس بالاس» دعا إليها سعودى بارز اسمه (السكمكى) كان يملك (فندق مصر فى مكة) ولم أكن أعرفه ، ولعله نقل اسمى ضمن أسماء مَن كانوا مدعوين إلى قصر الطاهرة .

ولبيت الدعوة طبعاً .

وكان مقرراً أن يصل الملك إلى القاهرة فى مغرب ذلك اليوم عائداً من الاسكندرية حيث كان يتناول الغداء على مائدة شكرى القوتلى) ليجىء (مع القائد الشيخ والقائد الشاب) إلى حفلة السكمكى ثم يبارح القاهرة فى الليلة نفسها عائداً إلى جدة .

* * *

وطال انتظارنا الملكين وضيفهم ، ولم يجيئوا فى موعدهم .

وبدأت (مصانع الشائعات) ترسل إلينا ألواناً عجيبة من إنتاجها عبر الردهة الكبيرة التى تكدس المدعوون فيها ، وتفرقوا إلى جماعات متجانسة أو متآلفة ، ولم يكن لهذه الجماعات من أحاديث غير أسرار هذا التأخير ، وغيرما أرسلته مصانع

الشائعات من ألوان الإنتاج ، وحسبك أن من هذه الألوان شائعة تقول إن القائد الشيخ اغتيل في الاسكندرية بيد أنصار القائد الشاب .

* * *

وبعد بضع ساعات أذّن فينا بوصول الملك .

ودخل من الباب الكبير — بين حلة سيوفه — عابس الوجه مقطب الجبين ، فوقفنا تحية له فرفع إحدى يديه يرد التحية ، ومضى وفي أثره الحاشية إلى مائدة الصدارة لافتتاح العشاء ، فانتهزت فرصة مرور سكرتيره الخاص — عبد الله بالخير — على مقربة مني وجذبته من كم العباءة وسألته في لهفة عن الشائعة الخطيرة فتفاها وهمس في أذني : (جلالته يبسي الصلح بينهم ، أجل سفره الليلة ، والرجال (بتشديد الجيم المفتوحة) — ويقصد (الطيب الأشيب) وصل ممنا بخير وسلامة .. اطمئن ، والحمد لله .

وأحسست من الإجابة أن هوى السعوديين مع حامل اللافتة .

وتناول الملك قليلا من الطعام — على غير عادته — وقام .

وانصرف وانصرفنا .

وفي الصباح أذيع أن الملك أرجأ سفره يوماً ، وأنه استقبل جمال عبد الناصر ، و بقي معه إلى ساعة متأخرة من الليل ، وكلام يفهم منه أن الصفو قد عاد إلى النفوس بفضل الضيف الكبير ، وسافر الملك — وهو عليم أو غير عليم — بما خبأته الأقدار من حوادث مارس بعد أيام من رحيله .

ومرة أخرى أقول : أحسست أن هوى السعوديين مع حامل اللافتة ، فهل كانوا يحبونه لأنه « طيب أشيب » ولا شيء إلا « الطيبة والشيب » ؟ أم أن الأمر لم يكن (حباً في معاوية ..) ولكن (كرهاً في علي ..) ؟ وترجمة هــذا (القول المأثور) إن الأمر لم يكن حباً في (نجيب) ولكن كرهاً في (ناصر) .

ولكن ناصر .. لماذا يكرهونه؟

أغلب الظن أن التعبير غير دقيق، والدقة أن نقول: (كانوا يخافونه)، فإذا صح أن الأمر كان هكذا، فمن الإنصـــاف أن نشهد لم ببعد النظر، بعد أن أثبتت الأحداث أن (الناصرية) أمست تثير مخاوف (الرجعية) فى كل البلاد العربية.

...

ونعود .. فنقول:

وقعت حوادث مارس، وتعاظم الخلاف ..

وذهب (جمال) بنفسه إلى سلاح الفرسان، وواجه صغار الأحلام، وبسط الموقف على حقيقته، وأفاق من أفاق، وتجمد من تجمد.

وقيل فيما قيل أن صفوة من أنصار (جمـــال) أصروا على أن يفتكوا بالقائد «الشيخ»، فوقف (جمال) فى وجوههم، وردهم عما أرادوه.

وكانت الحريات، قد أطلقت للصحف والمجلات، وما كان أشد دهشتنا ونحن نرى «أحمد أبو الفتح» — الصديق الصدوق — لناصر — يؤيد اتجـاه «الطيب الأشيب»، وأصبحت جريدة «المصرى» التى كان القائد الشاب يقضى الجانب الأكبر من أمسياته فيها، أصبحت منبراً لكل من يريد أن يطالب بعودة الأحزاب وعودة الدستور وعودة البرلمان.

واختلط الحابل بالنابل، ولم يعد أحد يدرى على التحديد شيئاً.

ومشت الصلة إلى نفسى، فشعرت بهواى إلى جانب «القائد الشيخ» ولكنى تحفظت، وسيطرت على هذا الهوى، (لا ثقة) فى (القائد الشاب)، بل (عدم ثقة) فى (القائد الشيخ)، وهو يوزع وده على قوم لا يجمع بينهم ود، كالإخوان والوفد.

وأحسست — كما لم أحس من قبل — أن الأمر كله ملتو على، وأن الخيوط كلها عادت تتشابك وتهتز بين يدى .. وأن الجانب الخفى من الموقف أشد خطورة

من الجانب الظاهر ، وأن (الطبيب الأشيب) ليس هو الذى تصوره (المصرى) ، شعبي العقيدة ، ملائكي الخلق ، دستورى النزعة ، وأن (القائد الشاب) ليس هو الذى يصوره الخصوم فى صورة (فرعون) .

وأحسست — كما لم أحس من قبل — أن (حمى البلبلة) بدأ دبيبها يتمشى فى أوصالى ، ويهدد بالعىّ ، طاقةَ الإدراك فىّ .

* * *

ومشى الانقسام إلى جماعات المثقفين ، فانقسم المحامون ، فى اجتماعات صاخبة وعاصفة ، انعقدت فى دار النقابة ، وكاد الفريقان يتضاربان .

وعلى حين غرة ، تفجرت طاقات الشعب الملهم ، ونزل العمال إلى الشارع ، واكتسحت المظاهرات القاهرة ، وهى تنادى بالموت لكل من يعترض طريق (الثورة وصانعها) هاتفين بسقوط المحامين ، وكل مثقف تنتهى به ثقافته إلى (الخيانة) .

وربطتُ على قلبى بيدى ، وجنى على جيش الاحتلال فى القنال ، خشية أن يتحرك ، وأن يضرب .

وارتفع جمال إلى مستوى الأحداث ، وأصر على الاستقالة ، وأعلن تسحّبه من القيادة ومن كل تشكيلات (النظام) — وهو صانعه — حتى يبقى (النظام) .

واشتدت ثورة العمال ، وأرغموه على أن يسترد الاستقالة ، وعلى أن يعود من جديد رئيساً للوزارة .

وسنحت الفرصة للتخلص من القائد الشيخ من غير أن تهرق قطرة من الدم ، وأبى جمال إلا أن يبقيه رئيساً للجمهورية (يملك ولا يحكم) بلغة دستورنا القديم .

وجرت الأحداث فى الطريق التى رسمتها الأقدار وكلكم تذكرون تلك الطريق .

وليس مما يتصل ببحثى فى هذا المقام أن أثبت عددها ، أو أفصلها ، أو أطيل الحديث عنها .

وحسبي أن أعود إلى نفسى لأحاول مرة أخرى تحديد مكانى .

أين مكانى ؟

نعم .. أين مكانى من هذه الأحداث ؟

بل أين مكانى من أحداث سنة ١٩٥٤ بأ كلها لا من أحداث مارس وحده ؟

وأعترف أنى لم أجد لى مكاناً ، إلا أن تشدنى (اليمين) فيعاودنى الحنين إلى (الشمال) وتشدنى (الشمال) فيردنى الحنين إلى (اليمين) .

نعم .. كان لى عقل وضمير وحس كالشكل الأساسى ..

كان لى عقل .. وللعقل تفكيره .. وللتفكير أسلوبه .

وكان لى ضمير .. وللضمير (صوته) .. وللصوت تأثيره .

وكان لى حس ، وكان الحس أسبق من أخويه فى التأثر ، حتى حدث منفسه لجسده ، بحيث يرى كل شىء ولا يثيره شىء ، وخفضت يدى من الأمر كله ، وجلست فوق رمال الشاطىء ، أحدق فى الأمواج يطارد بعضهـــا بعضاً ، ولا تدرك إحداها الأخرى ، وإن كانت كلها تتكسر فى النهاية تحت أقدام الشاطىء ، وأحدق فى البواخر تمخر العباب ، ثم ترسو أو تغيب ، وأحدق فى الأفق البعيد وهو يرمز للغروب ..

***

وقد يكون مفيداً فى هذا المقــام أن ألتقط من حوادث العام بعض ما انعكس تأثيره على العقل فخطا بى إلى النور ثم ارتد ، وعلى الضمير فصحا من النوم ثم همد ، وعلى الحس فأ كل منى حتى أتخم وتجمد ، وتركنى فى صحراء الرأى جيفة .

• فى ذلك العام حاول الإخوان اغتيال (جمال) فى المنشية .. فواجه الرصاص فى شجاعة تدير الرؤوس واكتشفت أجهزة الإرهاب ومخابىء الأسلحة .

• وفى ذلك العام وقع جمال — رئيس وزراء مصر — اتفاقية الجلاء عن مصر ،

واعتبرها فى خطبة له خلاصاً من المستعمر بعد الاتفاقية التى كان قد وقعها مع انجلترا حول قضية السودان .

• وفى ذلك العام صفيت رياسة (العليب الأشيب) وبدأت الصفحات المطوية تنشر فى الصحف .

• وفى ذلك العام بدأت مصابح الأخيرة تنتج .

• وفى ذلك العام قرأت كتاب (فلسفة الثورة) .

* * *

وأحب أن تعرف أن (تصفية الإخوان) صادفت هوى من نفسى بعد أن امتد نشاط الإرهابيين فيهم إلى الآمنين فى دورهم ، وإلى سابلة الطريق ، وإلى دور القضاء ، وكنت أعرف أن هذا اللون من إشاعة الذعر وبث الفوضى — كما حدث فى حريق القاهرة — عمل من أعمال (الشيوعيين) ولبس علاً من أعمال (المسلمين) مهما تكن (البواعث) ، وكانت لى آراء فى (الإخوان) حتى لى صدقهما ، ذلك الذى جرى منهم ، وذلك الذى جرى عليهم ، وكان المعقول أن يشتد هذا (التطهير) إلى (سياسة الثأر) ، كما شدنى (قانون الإصلاح الزراعى) إلى (اتجاهات الثوار) .

ولكن (الخصوم) كانوا واقفين بالمرصاد ، لكل ما هو (معقول) ، حتى يبدى فى نظر الجماهير (غير معقول) فأشاع (مصنع الشائعات) بين الناس أن (حادثة المنشية) كان (مدبراً) وأن (جهاز الإرهاب الإخوانى) كان جال على علم به من سنين ، وكان قد شارك فى إعداده ليسيل صد المختلين ، وكان يعرف مكان كل قنبلة ومدفع ، فلما اشتدت قبضته على الحكم ، واشتدت معارضة الإخوان له ، عمد بهم ليتخلص منهم ، وزعم أنه كشف عن مخابئهم ، بعد أن اطمأن إلى الاتفاقية التى أبرمته مع الإنجليز بشأن القنال وقاعدتهم فيها .

وعاودتنى البلبلة ورحت أقول لنفسى :

— إذن فالقائد الشاب يستهدف إجلاء الأعداء عن أرض الوطن ، بمعونة

الإخوان وغير الإخوان ، فإذا سلمنا جدلا بأنه غدر بهم ، فهل تقيد لحسابه (الدائن) قضية إجلاء العدو عن أراضينا بأى ثمن ، أم تقيد لحسابه (المدين) غدره (المزعوم) بإخوان له ، ربط (العهد) بينه و بينهم ؟

وتـسحّب العقل فلم أستطع أن أبدى رأياً .

والجلاء ؟

وكنت قد فرغت من كتابى عن رحلة الحج ، عند ماوقع (جمال) اتفاقية الجلاء ، فأضفت إليه — وآخر ملزمة فيه يهيؤها عمال (للطبعة العالمية) للطبع — صفحة جديدة قلنا فيها تحت عنوان (مجرى التاريخ) إن رئيس وزراء مصر ووزير حربية المملكة المتحدة قد وقعا فى السابع والعشرين من يوليو ١٩٥٤ و بالأحرف الأولى من اسميهما (الخطوط الرئيسية للاتفاق الذى يتضمن المبادىء التى يقترح إعداد اتفاق على أساسها خاصاً بقاعدة السويس) ورغتُ من إبداء الرأى فقلت بالحرف : « وكل مرجوى ، وقد بدأ مجرى التاريخ المصرى يتحول ، أن يكون هـذا التحول موضوعاً لكتابى السياسى التالى » .

والقائد الشيخ ؟

وكان عجيباً — بعد حوادث مارس — أن يفتتح أمور السادات (والمرحوم) صلاح سالم الحملة على القائد الشيخ — وهو يمارس سلطات رئيس الجمهورية فى عابدين — فى فصول ضافية ترفع الستار عن القصة الكاملة الرجل الذى طلب إليه أن (يمثل) دور الرئيس ، فمثل ، وكان عجيباً أن يتسابق الصحفيون والكتاب ، إلى إصدار الكتب تحمل إلى القراء ، ما لا يكاد يصدق عن تصرفات شخصية القائد الشيخ ، يجعل من نسبتها إليه أى مواطن عادى ، فضلا عما كان قد أثير فى المحاكمات عن اتصالاته السرية بالإخوان وغير الإخوان .

وثبت أن القائد الشيخ لم تكن له صلات أصلا بتشكيل الضباط الأحرار وإنما وقع على الشيخ الاختيار ، بعد أن مهدوا لظهوره كلواء له قدره بين لواءات الجيش

فرشحوه لرياسة نادى الضباط ليسقطوا به حسين سرى عامر ، كلواء له مكانه بين رجال الملك ، ونجح القائد الشيخ ، وغضب الملك وأمر بإلغاء نتيجة الانتخابات ، ونقل الشيخ مديراً للحدود ، وبدأت الحرب المكشوفة بين الملك وطلائع الثورة .

ومن أسباب اختيار القائد الشيخ أيضاً لقيادة الثورة رغبة الضباط الأحرار ، فى أن يحتفظ (صانع الثورة) بحرية الحركة حتى يستكمل تشكيله السياسى بعيداً عن الأضواء ، وحتى يصنع تخطيطه وتكتيكه فى مواجهة المحتلين والإقطاع ورأس المال والأحزاب .

وكان ينبغى أن (أعقل) هذا الذى قيل ، لأنه (معقول) .

ولكنى ترددت ..

ترددت لأن الخصوم رسموا صورة مقابلة للشيخ (المسكين ؟) ذكروا بطولات له جرح خلالها ثلاث مرات فى فلسطين ، واستشهدوا عليها بأقوال الثوار أنفسهم أن قيام الثورة عن تلك البطولات ، وذكروا أن الشيخ لا يريد أن يستقبل ربه وهو يحمل على كتفيه التمهيد .. لفرعون جديد .. بدأ يذل قومه باحتمال أصحاب الماضى المجيد فى مكافحة الحتل .

وقال الخصوم إن الشيخ لم يفعل أكثر من أنه أصر على أن ترد حقوق الشعب للشعب وأن يعود كل جندى إلى ثكنته ، فلم يكن منهم إلا أن حشدوا فى الطرقات كل مأجور من العمال المحترفين ، وشنوا على الشيخ أشنع ما يشن من الحملات ، وجردوه من كل السلطات ، وشتتوا أنصاره من الضباط ، فنفوا منهم إلى أوربا الفريق المحظوظ أو المخوف ، ملحقين عسكريين فى السفارات ، وحاولوا بلوره الخاص على أن يطير إلى السعودية لاجئاً سياسياً ليذيعوا رسمياً أنه (هرب) .

ومرة أخرى فتحت عينى على السعودية ، وذكرت سكرتير الملك يوم حفلة هليوبوليس بالاس ، والعبارة العجيبة التى همس بها فى أذنى ، ولم أتمت عند هذا الخاطر ، ولم يدر بخلدى أن الغد سوف يتمخض عن ضوضاء رهيبة ، نتيجة لتلك الهمسة الخاطفة ، ومضى الخاطر ، أو كان ومضة ، وتلاشى الوميض .

* * *

ومضيت أقول لنفسي بعد أن ملأها الخصوم شكوكا :

— لو أننا سلمنا — جدلا — بأن الناقد الشيخ ، بلغ من (السوء) المبلغ الذى صوره لنا (دعاة السوء) ، فلماذا اندفع الثوار من فجر الثورة يزفون بالشيخ إلى السماوات العلا ، ولماذا أسرفوا على ثورتهم فصوروه للشعب ، مبعوث العناية لإنقاذ العرب ، حتى لقد كادوا ينادون به نبياً لولا إيمان المسلمين بأن محمداً بن عبد الله هو خاتم النبيين .

والحق أن الثوار — والأنصار المتخصصين فى قرع الطبول والنفخ فى المزامير — لجوا فى الدعاية للشيخ حتى لقد قالوا إن محاذ الأمريكان أصابهن الهوس ببطولة الجنرال (وأن كثيرات منهن أبرقن إلى المسئولين فى الاستعلامات يطلبن صوراً له تزدان بها صدورهن) وأن موسم السياحة قد يحمل لنا من الفولارات أكياساً أو أكداساً ، لأن أصحاب الملايين من الأمريكيين مشوقون إلى رؤية الجنرال الأعزل الذى طرد الملك وهزم بريطانيا وقوض الاستعمار .

مضيت أسأل نفسى :

— بأى حق صلونا على هذا النحو ، وهم يعرفون أن كل ما قالوه ، عن (الطيب الأشيب) لا يمت إلى الحقيقة بسبب ؟!

وفى غمرة الغضب ، قيدت التصفية — التى كنت أرنو إلى تقييدها لحساب الشاب الدائن — فى حسابه المدين .

عدوان على ...

ثم جاءت الضربة التى سددوها إلى صدرى شخصياً ، فأسهرت على كل ترددفيه ، وملأتني (ضغينة) .

أقول (ضغينة) ولا أتردد هذه المرة ، لأنها تدخل ضمن « الصدق الرهيب » الذى توجيته فى هذا الكتاب .

نم .. وفجأة .. وفى غير مقتضى — وكنت لا أرم مكتبى أصغى ولا أتحدث .. وأحايد ولا أخاصم — تلقيت كتاباً مسجلا من وزارة الإرشاد القومى — كما كانوا يسمونها — وبتوقيع وزيرها .. بإلغاء رخصة جريدتى .. وبحجة أنها لا تصدر بانتظام .

وأذكر — وأرجو ألا تكون الذاكرة قد خانتنى فى عدد أو عددين أو ثلاثة — أن « الوادى » كانت تصدر بانتظام ، وتطبع فى (المطبعة العالمية) التى تحمل عبء هذه الطبعة من هذا الكتاب ، ولم تكن توزع فى السوق ، وإنما كانت تصدر فى أضيق نطاق ممكن ، احتراماً للقانون ، وكنت أصمنها (مذكرات من الذاكرة) عن ربع قرن قضيته فى الصحافة ، وكانت بعض المؤسسات الكبيرة لا تزال تجاملنا وترسل إلينا إعلاناتها ، وكان بعض المشرفين على الدعاية للأفلام لا يزالون يجاملون .

وأكثر من هذا ، أن البلد كانت — ولا تزال — ملأى بالمجلات التى تصدر فى أى وقت تجد فى صدورها نفعاً ، وتكف عن الظهور فى أى وقت يصيبها الظهور فيه .

ودارت الضربة برأسى وحاولت عبثاً أن أجد سبباً .

والحادث فى ذاته قد يبدو عادياً فى نظر القارىء العادى ، أما أنا فالذى يعنينى منه وقد تأثرت به ، أنه وقود جديد صبوه بأيديهم على تشككى فيهم وعلى كل ما دفع بى إلى كفرى بهم .

(إنى يا عبل ، من لحم ودم) هكذا قيل إن عنترة .. قال لعبله .

وهكذا يقول واضع الكتاب لقراء الكتاب — وفى مقام الاعتراف لا فى مقام الدفاع : إنى — يا قوم — من لحم ودم .

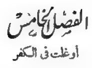
وقد سددوا الضربة ، إلى مصدر رزقى ، فاستقر فى ذهنى وقلبى ، أن من يضرب

بريئاً) أعزل ، وعلى هذا النحو ، وبهذا العنف ، ومن غير داع ، يصدق فيه كل ما يقوله الخصوم عنه .

وعلى ضوء هذا المنطق ، رأيتني أدخل في دائرة (الكفر) أو (الخصومة الحاقدة) القائد الشاب .

* * *

وعسى أن أكون بهذه الصورة ، أو بهذا الفصل ، قد رسمت المرحلة الرابعة . في موقفي من (الرجل الذي تآمرت عليه) .



الفصل الخامس

أوغلت فى الكفر

وجاءت سنة ١٩٥٥ حافلة بالأحداث ، جساماً هذه المرة .

ولم تكن الأحداث على مستوى مصر والملك ، والإقطاع والإخوان .

ذلك مستوى ، لاح لى أنه يتراجع باحثاً إلى زوايا النسيان ، وأنه يبحث فى حطو المهزوم عن مكان له فى التاريخ .

كانت صفحة الأحزاب قد طويت منذ حلت وصودرت أموالها وممتلكاتها فى ١٨ يناير سنة ١٩٥٣ وإن كان قد تركت خلفها أذيالا من الحقد ، لم يكن من بقائها بد .

وكانت أسرة محمد على قد دفنت فى ضريح معتم فى مقابر التاريخ منذ قام الحكم الجمهورى فى سنة ١٩٥٣ أيضاً .

• • •

وأعود قليلا إلى الوراء لأذكر أن الثوار كانوا قد تكتلوا ، إثر اتخاذ تلك الإجراءات الحازمة ليقدموا إلى الجماهير ما يبررها فعمدوا إلى حامل اللافتة يخطب أعدوها ليلقيها ، وانطلق بها إلى خارج الأقاليم بين عواطف مشبوبة وقلوب جياشة وهتافات تواصى مرسلوها على أن يملأوا بها كل شبر يزوره من الإسكندرية إلى أسوان ، وظهر فى تلك الفترة « جمال » .

ظهر (جمال) ليخطب فى (هيئة التحرير) أول خطبة له فى ٦ فبراير سنة ١٩٥٣ وأوفد إخوانه الثائرين إلى مختلف الأقاليم ليتعرف الشعب عليهم فشهد الشهر الرابع من

نفس العام مبلغاً «شبابياً» بينهم ، وسافر عبد الحكيم عامر إلى بلده (المنيا) فخطب في أهله ، كما خطب أنور السادات وزكريا محيي الدين وكمال الدين حسين وحسين الشافعي في نفس الشهر في كفر الزيات وبنها وغيرهما من مدن الوجه البحري .

وكان (جمال) قد أمر بتشكيل حرس وطني من شباب الجيل الثائر . ثم تشكيل (الحرس الوطني) .

وأحس القائد الشاب أن البيروقراطية التي أجهز بها على الإقطاع والأحزاب في حاجة إلى مساندة واعية ، فطلب إلى (هيئة التحرير) أن تضطلع بهذه المهمة ، فصدرت جريدة (الجمهورية) يشرف عليها (أنور السادات) ، فأحسن القيام عليها ، بعد أن حاولوا ملء الثغرة ، من مطالع الثورة ، بمجلة (التحرير) ولم تكن تقدر وحدها على سد حاجة القراء كل صباح وهي نصف شهرية ، وإن كانت بعض نجوم الضباط قد لمت فيها لماناً عسكرياً حاسماً لم يخل أبداً بخاطر ، فالتقينا لأول مرة بثروت عكاشة وكمال الحناوي ، ومصطفى بهجت بدوي ، يعاونهم بعض الصحفيين المعروفين استعاروهم من جريدة (المصري) صديقة الثورة في ذلك الحين ، مثل عبد المنعم الصاوي وحسن فؤاد وكثيرين لا أذكرهم .

سنة ١٩٥٥

وأعود إلى سنة ١٩٥٥ وحوادثها الجسام ..

ولم تكن هذه الأحداث على مستوى مصر والملك ، والإقطاع والإخوان كما قلت في بداية الفصل ، وإنما لمردات تلك السنة بوثبات جريئة فجرت حوادثها على المستوى الأسيوي والإفريقي ، وعلى المستوى العالمي أيضاً ، فشهدت محاربة حلف بغداد وشهدت انعقاد مؤتمر باندونج ، وشهدت زيارة عبد الناصر الهند ، وشهدت صفقات تسليح الجيش المصري من روسيا وتشيكوسلوفاكيا .

ودارت الرؤوس مرة أخرى ، ومن بينها كان رأسي .

وهجوم إسرائيل

وكان مما استرعى الأنظار وقوع الهجوم الإسرائيلي الغادر على « غزة » فى ٢٨ فبراير من ذلك العام .. وفى هذا الهجوم منينا بخسائر جاوزت الحدود التى ألفناها فى المصادمات المألوفة بين « الداوريات » فراعنى الحادث ورحت أقول لنفسى :

● فى سنة ١٩٥٤ عقدنا المعاهدة بيننا وبين انجلترا .. واتفقنا على الجلاء .

● وفى ٢٤ فبراير سنة ١٩٥٥ أقامت انجلترا نفسها « حلف بغداد » تصد به تيار « القومية العربية » التى يرفع ناصر رايتها .

● وفى ٢٨ من الشهر نفسه فبراير — أى بعد أربعة أيام من قيـــام (حلف بغداد) — حرضت انجلترا نفسها .. جيش إسرائيل فشن الهجوم علينا فى (غزة) وهى تعلم أننا لا نملك من السلاح ما نرد به هذا العدوان إذا تحول حرباً ، وكنا قد طالبناها بتسليحنا فراغت منا وسلحت جيش إسرائيل .. فكيف يستقيم فى الذهن — وهذا هو الوضع — أن جلاء سيتم ؟

● وفى غمرة هذا الظلام الذى أمسى يملأ نفسى .. توالت شائعات الخصوم تعقب على ذلك الهجوم ، وتعقد المقارنات بين هتلر وناصر ، وتؤكد أن سياسته لابد أن تنتهى بإسرائيل إلى احتلال أرضنا ، وتحقيق حلمها الصهيونى القديم : (من الفرات إلى النيل) كما احتلت أرض ألمانيا المغاربة ، جيوش الروس والحلفاء .

حقيقة كبيرة ؟

وحقيقة ـ (كبيرة) ـ أميل الساعة إلى (التركيز عليها) ، بعد أن أثبتت التجربة وجودها وبعد أن عشت بنفسى هذه التجربة ، وصح عندى أن لهذه (الحقيقة) أثراً بعيد المدى — فى نفوس الكثيرين — ولا أتهيّب أن أقول : (فى اتجاهات الجماهير) .

حقيقة تشبه الوباء الذى أزمن و (توطن) ، وتلازم (فترات الانتقال) التى تمر بها الشعوب الغنية بالأمجاد ضاربة الجذور فى التاريخ والتى تركت بصماتها واضحة على

صفحات ماضيها القصى ، ثم توالت عليها الليالى السود ، وعوملت كما يعامل العبيد ، وقاتلت ، كالوحدات إلى القتال سبيلا ، وعانت من عوامل (التعرية البشرية) ما تعانية الجبال الشم من عوامل (التعرية الطبيعية) ، فتعقدت هذه الشعوب تجاه أى جيل ، يجيء ، وأصيبت ، بالحساسية تجاه أى حاكم جديد .

* * *

هذه (الحقيقة) ، عرفتها (مصانع الشائعات) من بداية الحكم الثورى الجديد فتكفت عليها ، وأحسنت استغلالها وأعنى بالحقيقة فى معناها الواسع : (تشكك الجماهير فى كل حاكم جديد) ، وفى معناها الضيق (أحقاد الفاشلين على كل حاكم ناجح) .

ويبدو أن هذه (الحقيقة) هبطت على شعبنا بجناحيها معاً وأطبقت عليه بكل ضراوة فيها ، ضراوة الطير الجائع ، ينقض على الفريسة والفريسة بين يديه تتلوى .

وناصر (حاكم جديد) من حيث (المعنى الواسع) .

وهو حاكم ناجح من حيث (المعنى الضيق) ، والفاشلون فى عهده وبسببه ، قطاع غير هين ، قطاع كان يملك كل شيء ، ولم يعد يملك شيئاً .

ويكفى أن تجد نفسك — مصادفة أو عمداً — فى هــذا القطاع الذى يخاصم الحاكم ، حتى تحتكر أذنيك شائعاته ، تنصب على أذنيك وتنصب ، وتنسل إليك من كل حدب وصوب ، وتتسرب إليك فى المقهى وفى البيت وفى المكتب ، مرة فى صورة (خبر مثير) وأخرى فى صورة (رواية) عن (شاهد عيان) ، وتارة فى صورة (بشرى) تزف إليك إن كنت فى ضيق ، وطوراً فى صورة (نكتة) تملأ سمعك فى السهرة أو العمل أو فى الطريق .

و (الشريحة) السياسية على الحاكم الناجح ، عدوى قابلة للانتشار ، وفى أقصر وقت وعلى أوسع نطاق ، وقد تصاب بهذه العدوى من غير أن تكون خصماً لهــذا الحاكم ، لا لشيء إلا لأنك تعيش فى بيئة من بيئات الخصومة .

وأنا أعيش فيها ، و برغمى ولو تأبيت عليها .

لقد أمضيت العمر كله فى الصحافة ، التى تمثل الأحزاب والساسة ، ومعظم الأصدقاء من الحزبيين والسياسيين ، وإذا أنا أوصدت أبوابى دونهم وثبوا إلىّ من النوافذ ، وقد تجاهلتنى حكومة الثورة فى غير سبب ، وألغت رخصة جريدتى من غير خصومة ، وفتحت أمام أصدقائى من أعدائها ، كل طريق يؤدى إلىّ ، من غير حاجة إلى (باب) أو (نافذة) .

هكذا وجدت نفسى بين الخصوم وأنا على مطالع سنة ١٩٥٥ .

* * *

وأرجو أن يكون مفهوماً ، أنى لا أعنى بالخصوم (أشخاصاً) معينين .

إنها (جو) ، جو كل الأجواء يتسع لكل من يتنفس فيه ، لرواد المقاهى نسمع منهم (الأخبار الزائفة) ، ولسابلة الطريق نسمع منهم (النكتة) المثيرة ، جو موبوء بخصومة كل حاقد ، وموبوء بخصومة كل فاشل .

ومرة أخرى أقول : هكذا وجـــــدت نفسى بين الخصوم وأنا على مطالع سنة ١٩٥٥ .

* * *

وقد يكون من الانصاف (للكرامة الفكرية) — إن صح هـذا التعبير — أن أقرر أنى لم أكن — برغم ظروف — (صيداً سهلا) لكل من (يحمل بندقية صيد) .

وقد خضت فعلا معارك حامية بين العقل والعاطفة ، وصراعاً عنيفاً بين (هواى) أو (هدواى) من ناحية وبين (منطقى) الذى كنت بطبيعة (تكوينى) أحب له دائماً أن يستقيم على الجادّة ، من ناحية أخرى .

وكنت أحس أن (منطقى) يحاول أن ينهض (بالتزاماته) ، وأن يُذكّر (مواطن الضعف) فى (الهوى) أو فى (العاطفة) بما صنعته الثورة لهذا البلد ، من أمجاد ، وفى

سنوات ثلاث ، ولكن العاطفة كانت تحتدم بهواها الجديد ، وكانت تلود بزواهب التجرب القديم ، فكان المنطق السكين ، ينسحب من قلب المعارك ، شاحب الوجه ، متعثر الخطى ، أشبه بالجريح .

وشددت الرحال

ولم أجد — وأنا أحاول أن أطِبَّ لنفسي — خيراً من أن أنتزع هذه النفس التعسة من هذا (الجو الحربي العاصد) ، إلى جو أكثر هدوءاً وأوفر طهراً .

لم أجد — وأنا أطالع ذات صباح أنباء (الزيارة الرجبية) خيراً من أن أشد الرحال إلى الرسول ، وكنت قد تعلقت به ، وبالروضة التى أستنشق عبيرها فأستروح فيه روائح الجنة ، و(بالمدينة) التى أتحدث إلى الأعلين فيها ، فأذكر الأنصار وأذكر يثرب ، وأرى التاريخ ممتداً بكل نفحات الرسول إلى البقاع التى ثوى فيها عبر أربعة عشر قرناً .

وشجعنى على الزيارة ، سهولة السفر إلى مكة لأعتمر ، ولأدعو رب البيت أن يفتح بصيرتى على الحقائق ، وأن ينير طريقى إلى الحق ، ولأرى ما صنعت (السكتيات) فيها بثلاثة آلاف من نسخ كتابى كنت قد صدرتها إليها عن طريق البحر الأحمر قبل ذلك ببضعة أشهر ، وداعياً نفقت فيها ، شفافية الروح بكثافة المادة ، حكمة الله فى الإنسان الذى سواه ، فنفخ فيه من روحه ، وأكرمه وقوّمه ، وحاف عليه أن يتطلع إلى السماء فلا تستقر به أرضه ، فزين له المال والبنين ، ليصفو ويأمه ، أويستقر ويتوازن .

وهكذا شددت الرحال ، يهفو الروح منى إلى رسول الله . ويهفو الضعف فىَّ ، إلى كسب مادى أسوعه فأسميه (فضل الله) .

* * *

وزرت واعتمرت ، زرت رسول الله وبيت الله ورفضت أن أزور الملك ، بحجة أن أحداً لم يدعنى لزيارته .

وكان مريضاً فى الرياض ، وكانت الفرصة سانحة لما يسمونه (التسلم على جلالته)

ولكن برنامجي لم يكن يتضمن مقابلة ملوك ، وخفت إذا أنا أدخلت عليه تعديلا ، أن يدخل (الملك الكبير المتعال) تعديلا آخر عليه تأديباً وعقاباً .

وكان الأمير فيصل على مقربة أمتار مني ، فلم أزره ، ولم أبرق إليه .

ولم أزر أحداً من الأمراء ، لأني لا أعرف حتى اليوم أحداً منهم ، وقد يدهش لهذه الحقيقة كثيرون من الصحب الذين ظنوا أني (وصلت) .

ولكني لقيت الكثيرين من المصريين المقيمين في جدة ومكة ، موظفين أو منتدبين أو مقاولين أو محاسبين أو عمالا .

وكانت العلاقات من (الناحية الرسمية) بين مصر والسعودية على خير ما تكون العلاقات الحميمة بين الأشقاء المتحابين ، أما من (حيث الواقع) فقد لاحظت أن ضحايانا الغالية في الهجوم الغادر على (غزة) ، لم تكن تقابل بالأسى المفروض أن يعتصر الأحاديد في كل القلوب ، في قلب كل عربي ودود .

وأعترف أن هذه الملاحظة أعجبتني وطويت الجوانح عليها في صمت ، ولم تنقضني ولاء للناصرية أو ولاء لناصر ، وإنما أغضبتني ، لأن الوطن كرامة تثور ، إذا هي مست من (غريب) ، والحساسية من هذه الناحية تبدو أعراضها واضحة على كل مواطن وهو في (الغربة) .

ولكن المهم في موقفي من الثورة ، أن تلك (الملاحظة) زادت نفوري من السياسة المصرية التي لا ترى أبعد من مواطىء أقدامها ، ولا تدرك حقيقة السعوديين كما أدركتها ، أو هكذا خيل إلىّ يومئذ .

كما قيل لي إن (خصوم الناصرية) كانوا محقين ، عند ما كانوا يقولون إن السياسة (فن) لا (أقطابه) ، وكانوا يرددون كل ما عرضه إليهم من أخطاء بالمثل العامي المدام « إدى العيش لخبازه ، ولو أكل نصه » .

هذت من الزيارة الرجيية أكثر كراهية للناصرية .

ولكن .. حتى هذه (الكراهية) لم تخلص لى ، ولم أخلص لها ، فكنت إذا عدت إلى البيت آخر السهرة ، وأسلمت رأسى إلى الوسادة ، ومر شريط التوار أمامى — يعرض صوراً مما أدوه إلى مصر فى هذه الفترة القصيرة ، شعرت بحنقة فى القلب ووخزة فى الضمير ، وومضة فى الرأس ، وكلها تصرخ فىّ أو تكاد (لا تكن أعمى) .

وأشعر بالبرودة تسرى فى أوصالى ، فأعضى حياء ، وأشد الغطاء فوق كأنى أحصن به جسدى ضد هذه البرودة ، أو كأنى أحجب به عن عينى رؤية الحقيقة .

ويتسلل مع الدفء الصعوج ، إلى أحضانى ، أخ وأخت ، أنتشى طلعتيهما فى مثل تلك اللحظة الراعشة ، أو اللحظة اللاهثة .. يتسلل (الهوى) وتتسلل (العدوى) ويتقصّان على « الحنقة » فتمحى .. وعلى (الوخزة) فتسكن .. وعلى (الومضة) فتخبو .. ويمر شريط الخصوم بكل ما يحمل من قتامة فأغمض عينى على العتمة ، وأنام .

وهذه .. « الخبطة » ؟

وفجأة سافر القائد الشاب الذى صوروه لنا مهتزاً (على المستوى الوطنى) ، سافر إلى (باندونج) ليقف إلى جوار (نهرو) و (ماوتسى تونج) وليمشى رابط الجاش ثابت الخطو .. إلى (الساحة العالمية) .

وفركنا أعيننا كما لو كنا صحونا ساعة النبأ .. من النوم .

إنه خبر دام .

خبر يقع على رءوس الخصوم .. وقع الصواعق .

هكذا تصورت .

ووددت لو ألتقى الخصوم وأسمع آراءهم فى هذه الخطوة .

وأذكر أن أحدهم لقينى — وخمة لا أذكر اسمه — وقال كلاما كثيراً نسيته وبقى فى الذاكرة سؤال وجهه إلى : « لكن هو جمال يعرف انجليزى كاف للتفاهم مع نهرو وأمثاله » ؟

وأذكر أنى رمت شفتى استنكاراً لهـذه السطحية فى التفكير .. وشنت على السائل يومها حملة شعواء بقى صبهـا فى الذاكرة أنى طلبت إليه فى عنف أن يرتفع بالسخرية إلى مستوى الحدث .. وأن يسأل إن شاء عن الأفق السياسى لناصر وعن مدى اتساعه لوعى الدوليّـات على المستوى الموضوعى للمؤتمر الخطير الذى يشارك فيه ؟ أما الأمة فهتلر نفسه لم يكن يعرف إلا الألمانية وخروشوف لا يخطب إلا بالروسية .. وليس هناك ما يمنع أن يكون جمال متمكناً فى الإنجليزية .

• • •

ونجح مؤتمر باندونج .. وأسفر عن قرارات عشرة .. ترسم لإفريقيا وآسيا مخططاً جديداً .. وترمع شعلة الحياد الإيجابى وهى تتوهج فوق سارية الدنيا وتحركت فوق الشاشة الدولية صورة شاب من الشرق .. فارع العود .. عريض المنكبين .. تلوّح وجهه سمرة .. يدرك ما يقول .. ويزن كل كلمة .. ويقيس كل خطوة .. ويحوطه بالاحترام نهرو أكبر سياسىّ مفكر فى هذا النصف الأخير من القرن العشرين .. كما كان غاندى أقدس سياسى صوفى فى النصف الأول من القرن نفسه . يحوط بالاحترام سعد زغلول .

وكل ما استطاع الخصوم أن يقولوه فى تلك الرحلة .. أن الخطاب الذى ألقاه جمال فى المؤتمر هو من وضع علان وعلان .. وليس من وضعه هو .

ومرة أخرى .. زممت شفتى استنكاراً لهذه السطحية فى التفكير .. ولهذا التهوين الهازل من تلك الرحلة الجادة .. ولهذا الغمص الصبيانى من جلال الوقفة التاريخية ، وكنت أقول — أنا « الخصم » — لأولئك « الخصوم » إن الخطورة ليست فى الصياغة يتولاها وزير متمرس أو كاتب متمكن .. أو خبير مدرب .. أو لجنة منهم .. ولم يقل أحد عبر تاريخ الحضارة الحديثة أن من شروط القيادة أن يكون القائد أبلغ خطيب أو أبرع كاتب .. وكلنا نعرف أن رئيس أكبر دولة فى العالم لا بد أن يرافقه أكبر خبراء القانون فى الصياغة إذا كان يعتزم إبرام اتفاق أو معاهدة وأكبر خبراء السياسة إذا كان يعتزم الدخول فى محادثات سياسية .. ولكن الخطورة أن جمال عبد الناصر وقف بجدارة وكفاية وثبات إلى جوار شيوخ الفكر والسياسة .. وعلى الصعيد الدولى .

وكنت أشعر .. ولم يكن قد مضى على ارديادكراهيتي للناصرية غير أمد قصير .. كنت أشعر أن سطحية التفكير من جانب الخصوم تكاد تضعف هذه الكراهية .. بل تكاد تزودني على أن أدنو من الناصرية مرة أخرى .. وكدت أدنو .. ولولا أن احترامي لنفسي ، أبى علىّ أن أبدو أمام هذه النفس مهزوز التفكير .. حادث يشدني إلى الشمال .. وحادث يشدني إلى اليمين .

وكنت أحلّ الضحكة الساخرة محل الغضب الهادر .. كلما كان الخصوم يعودون إلى التعقيبات « البائخة » على الرحلة « الناجحة » .. ويقولون إن كل ما يصدره ناصر من قوانين .. وكل ما يقيمه ناصر من مشاريع .. وكل ما يلقيه ناصر من خطب .. وكل ما يصنعه ناصر من خطط .. إنما هو من صنع عباقرة (مأجورين) من علماء النازية الضاربين في الأرض يلتمسون قوتاً ، أو من خبراء الماركسية الضاربين في الأرض يحاولون المعاول الهدم لا للبناء .. ويوقدون النيران بين الطبقات .. وينشرون الفوضى والدمار بين الفلاحين والعمال .. ويجهرون على الاستعمار حيث كان .. ليخلو لهم الجو .. ولتمهيد الطريق أمام « المذهب » الأحمر .

وكنت أقول لهم ضاحكا .. وهادئاً .. كأنما أسمر :

— ولكن هؤلاء العلماء والخبراء .. لماذا لم يستأجرهم كل زعيم ناشيء ، ولماذا يجيئوا مع « أحياناً » ، ولم ينصحوا مع الزعماء الذين يماثلونه في الدول المتطلعة إلى التقدم ؟ بل لماذا لم يستأجرهم خصومه من الرجعيين الحاكمين وغير الحاكمين ، ليعاونوهم على إزاحته من طريقهم ، وعلى استرداد سلطانهم ونفوذهم ؟ .

بغداد — وبانتونج

وفي شهر أبريل والمؤتمر قائم في باندونج ، وردهاته تموج بأروع رجال المخابرات في كل دولة ، وحال يعلن من فوق منبره عداءه الصريح للاستعمار وللأحلاف — والعراق ممثل في المؤتمر بوفد كبير يجيء في رداء عربي فضفاض ، فوجيء العالم بمستر إيدن — طيب الله ثراه — يقف في مجلس العموم ويقول : إن حلف بغداد يرفع صوتنا عالياً في هذه المنطقة بل يصبح هذه المنطقة كلها داخل نفوذنا .

وأفرك عيني من جديد وأعيد قراءة التصريح ، وأربط بين حلف بغداد الذي قال عنه نورى السعيد إنه إنما أقيم لرد العدوان الشيوعي عن الشرق الأوسط ، وقاله صاحبه إيدن إنه أقامه ليضم الشرق الأوسط كله داخل النفوذ البريطاني ، عدت أربط بين هذا الحلف .. وما قاله ناصر في مؤتمر باندونج . ولم يسعنى إلا أن أرى بوضوح ، أن جمال أصبح في نظر العالم كله عدو الاستعمار رقم ١ ، وأن حلف بغداد إنما أقيم لرد العدوان الناصري عن النفوذ البريطاني في الشرق الأوسط . وأن هذا الحلف يعمل في خط واحد — وفي اتجاه واحد ، مع إسرائيل ، أراد بعض أبناء الحلف أو لم يريدوا .

* * *

وواضح من هذا العرض الذي مر شريطه أمام عيني ، وبأسرع الأحداث بعضها إلى بعض داخل إطار محكم ، من خالص المنطق ، أن القائد الشاب أحرز نصراً لاشك فيه — أردها أو لم نرد — وأن حصيلة النصر يجب أن أقيدها في (الرصيد) لحسابه الذي لا لحسابه المدين .. ولكنى لم أفعل .

* * *

وكان المنطق — القائم على وجهه داخل رأسى الحلم — يحتم على أن أخطو إلى الناصرية خطوة واسعة في هذه المرة — ولكن شيئاً من الخطو لم يحدث .. كما أن شيئاً من قيد الحصيلة في الرصيد لحسابه الدائن لم يتم .

فلماذا ؟

الجواب عند (الهوى) وعند (الأحقاد) .

وقد عاد (الهوى) يميل بي من جديد إلى حيث تكمن (الأحقاد) في حنايا السلطة وقلت أحاول أن أبرر هذا (الميل) وأدارى هذا (المنطق) :

— نعم ، أشهد أن (أخانا) يمشى رابط الجأش على طريق النصر ، ويخطو ثابتة أعترف أنها تثير الإعجاب ، ولكن إلى أى الأهداف هذى الخطى ؟ إلى أمجاده

الشخصية لا إلى أمجاد العروبة ، والدليل أنه أعلن الثورة والدول العربية لها جامعة تضمها في إطار من التضامن العربي المحترم ، وانتهى هو بهذه الدول إلى الخصومة تأكل بينها. وواضح أن ناصر إنما يدمن بنداء ما أرادمنها هو لا كو والفتر، لا ما يريده لها العرب ، وأن (الوحدة العربية) إنما يتخذها ستاراً يخفي وراءه أطماعه ، والدليل القياسي في هذه المرة ، الدليل أنه قال لأحرار بمصر ذات يوم (مطى نفسك) وأدركت الأحزاب ما يرمي إليه (وانشقت على نفسها) فانتهز فرصة الانشقاق و (أجهز عليها) ، والدليل أنه استعان (بالإخوان) على الأحزاب والاحتلال والحكم مهدد ، فلما اتفق على الجلاء وتخلص من الأحزاب ، التفت إلى (الإخوان) و (أجهز عليهم) .

وظللت أستوحي كل حادث (حقاً يراد به باطل) وأعكس الأوضاع التي كنت أراها بعيني رأسي حتى تبتدى مقلوبة أمام عيني .

ولم أتردد هذه المرة في قيد الحصيلة لحسابه المدين لا لحسابه الدائن .

والامبراطورية أيضا ؟

ولبيت دعوة (السعودي الكبير) وسافرت إلى الحجاز لأؤدي فريضة الحج الثانية في صيف نفس العام ولأنهي مع (المكتبات) حساب الكتاب ولأرى إن كان (الإخلاص) السطحي الذي كان يرطب به السعوديون الرسميون ألسنتهم وهم يتحدثون عن (مصر الناصرية) لا يزال يرطبها .

وقال لي بعض المصريين ، إن ذلك (الإخلاص) عملة لا يزال معمولا بها . ولكن مثل هذه (العملات) القابلة التداول الآن ، يمكن أن تسحب من الأسواق في أي وقت ، من غير أن يحدث سحبها أية هزة .

وضربوا مثلا الموقف ، قصراً منالق الأبواب أشاروا إليه ، وقالوا إنه بني خصيصاً لاستقبال الملك فاروق ، فلما خلع عن عرشه ، أقسم المسئولون ليظلن القصر مغلقاً حتى يعود المخلوع .

ولا أحب أن أتوسع فى هذه الناحية ، كالا أحب أن أسىء إلى أحد ، وليس من أهداف الكتاب أن يسىء .

وإنما أردت أن أقول إن فكرة الخوف من الناصرية ، كانت مختمرة من البداية فى أذهان السعوديين الحاكمين ، وكانوا يؤمنون بأن جمال ، إنما يتصل ودهم . وود كل من تتصل أسبابه بأسبابهم . لصرف الأذهان عن (الإمبراطورية الناصرية) التى يحلم بها .

وحتى الخدمات التى كان يؤديها لهم ، كانت تستغلها تلك (العسكرية المختمرة) فى أدمغتهم فإذا هو أوفد إليهم ضباطاً مصريين يدربون قواتهم ، فهو إنما يوفدها لبث (الروح الثورى) بين الضباط السعوديين توطئة لإحداث انقلاب .

ونقابة الصحفيين؟

وانتهى الحج . واعتزمت العودة .

ولكن حادث تصادم وقع ذات ليلة لسيارة كنت أستقلها ، ونقلت إلى المستشفى اللبنانى بجده فى حالة سيئة ولم أعد إلى القاهرة إلا فى السابع من نوفمبر ، أى أنى بقيت فى الحجاز ثلاثة أشهر كاملة . أشيع عنى خلالها أنى عينت مشرفاً على النشر فى السعودية • وكانت نقابة الصحفيين — التى كنت عضواً فى أول مجلس إدارة منتخب لها — تعيد تنظيمها فاستبعدتنى من العضوية لذلك (السبب المزعوم) ولا أزال — والله العظيم — مستبعداً .

وكانت لطمة جديدة من (الناصرية) للشعبى الضعيف •

لم يكتفوا بإلغاء جريدتى ، بل استبعدونى أيضاً من العضوية (المادية) فى النقابة هذه العضوية التى يتمتع به كل تلاميذى بتزكية منى . . ولا أريد أن أتوسع فى وصف الأثر الذى تركه فى نفسى ، ذلك التصرف .

والتسلح ؟

والأهم من هذا كله ، أنى فوجئت وأنا فى جدة ، بالمذياع يحمل إلى أذنى ، صوت تفجير سياسى مروع فى وجوه كل الخصوم — خصوم ناصر والناصرية — من الحاكمين فى الشرق الأوسط أو فى خارجه — وكنت أحد نفسى يوماً جهلاً — وأعنى بالتفجير تسليح المعسكر الشرقى للجيش المصرى • عملية تجارية ، عادية ، تدفع مصر بمقتضاها ثمن هذه الأسلحة ، منتجات مصرية •

واستمعت إلى « حال » وهو يلقى فى (معرض القوات المسلحة) ذلك الخطاب التاريخى ، ويسرد فيه قصة الأسلحة الثقيلة التى تتحكم فيها الدول الكبرى فى الغرب . وترفض أن تزوّد بها جيش مصر ليحمى بلاده ، وتزود بها جيش إسرائيل ليعتدى على (غزه) ، وعجب الصحفة الكبرى التى تحت عواصم أوروبا وأمريكا ، وذكر أنه طلب من فرنسا السلاح فساومته على أن يترك الفرنسيين أحراراً فى شمال أفريقيا . وطلب من انجلترا السلاح فراوغته لتستغل الوقت فى تسليح إسرائيل منها ومن فرنسا وبلجيكا وكندا وإيطاليا ، وطلب السلاح من أمريكا وروسيا وتشيكوسلوفاكيا ، وكل دولة تصنع الأسلحة ، وكلها كانت تعرض شروطاً سياسية تنافى مبادئنا الحيادية ، ما عدا تشيكوسلوفاكيا فقد قبلت ، بغير أى شروط تعاقدت معنا !

* * *

وامتدت الصحة فعلا إلى كل عواصم الدنيا ، ولم يكن للصحف العالمية من حديث إلا حديث مصر وتسليحها والخطر المتوقع منها .

ولكن الصحة لم تمد تجد طريقها إلى آذان المصريين .

* * *

كانت الصحة قد هدأت ، قد حجبتها صحة أقوى ، من إدارة الشئون العامة للقوات المسلحة المصرية .. صحة أسبوع التسليح الذى أقامه وقتئذ للدعاية له ، ضابط من الضباط الأحرار كان يرأس هذه الإدارة ، وكانوا يسمونه الديناموه ، واسمه محمد حمدى عاشور ، وأحسبه الآن محافظ الاسكندرية .

وافتتح الأسبوع اللواء عبد الحكيم عامر (المشير الآن) بنداء مؤثر وحار ، ما كاد يذاع حتى أقبل المصريون على (التبرعات) بصورة مذهلة ، وتبرع الرأسماليون (خوفاً وطمعاً) وتبرع العرب فى كل مكان تثبيتاً لدعائم الناصرية العربية الزاحفة .

وإذا كانت ذكرى الأسبوع العجيب قد استهوتنى فأفضت فيها ، وأعطيتها هذا الحيز من كتابى فإنما قصدت إلى القول ، إن هذا الذى يستهوينى اليوم كان يملأنى حقداً فى سنة ١٩٥٥ .

كان المنطق — وياشقاء المنطق معى عبر السنوات العشر — يفرض على ضميرى أن يبارك هذه (الضربة الناصرية) التى سددها «جمال» على غفلة من الغرب وإلى صميم صدره وأن يهتف لها كما هتف كل برىء من أهلى وأهلك .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث .

كان الأخوان — الهوى والعدوى — يصلان .

وكان الخصوم يصلون .

جمال كشفته قصة التسليح هكذا بدأ الخصوم يقولون .

جمال .. شيوعى أحمر ، أحمر لحماً ودماً ، وأحمر من قمة الرأس إلى أخمص القدم .. وإن كان لا يريد أن يبدى قانى الحمرة .

جمال يمشى عصر الأسلحة إلى الستار الحديدى الأحمر لحساب خروشوف الشيوعى ولكن من الباب الخلفى ، من الباب التشيكى وتحت لوحة رائقة كتب عليها : اتفاق تجارى .

جمال ... لم يلغ الحكم الملكى حباً فى الحكم الجمهورى ، وإنما ليضم جمهورية مصر إلى **الجمهوريات السوفيتية** .

وجمال لم يصفِّ **الاخوان** بسبب الإرهاب الذى اتخذوه سلاحاً ، ولم

يلغ المحاكم الشرعية والمجالس الملية بسبب فساد فى قضائها ، ولا بسبب الرجعية فى قضائها ، وإنما صنع . وألغى ، لحساب الماركسية التى لا تعترف بإسلام أو مسيحية ، أو دين من الأديان السماوية .

وجمال .. ، إنما حل الأحزاب وأجهز على الإقطاع ، ليمشى بالبلاد إلى حكم البروليتاريا .

وجمال ، إنما اتخذ من نهرو صديقاً ليتخذه ستاراً لأن نهرو اشتراكى معتدل وهو أميل على أى حال إلى اليسار .

إلا ربى .. وإيمانى ؟!

قضى الأمر — إذن — وحددتُ مكانى ؟!

استغفر التردد قصدت أن أقول : وكدت أحدد مكانى

كل شىء فى الوجود أتهاون فيه ، إلا ربى وإيمانى

السياسى العربى أخاصمه اليوم ، وقد يصطلح الأمر بيننا غداً ، وقد ينضم إلىّ ، وقد أنضم إليه ، تحت وطأة ظرف سياسى ، أو بدافع من مصلحة بلاده و بلادى ، إلا الشيوعى أخاصمه حتى الموت

وأنا إذن أخاصمك يا أخى جمال ، حتى الموت

هذا هو القرار الذى انتهيت اليه سنة ١٩٥٥ وقلت بملء الفم (وحددت مكانى) وعلى على (التردد) فلت أعدل ثمار القرار : (وكدت أحدد مكانى)

ألم أقل لك أن كل الخيوط ظلت تهتز فى يدى طوال السنين العشر ؟

نصر .. ولكن

ومع أن الباندیت جواهر لال نهرو وجه الرئيس جمال عبد الناصر دعوة إلى زيارة الهند فاستجاب لها «جمال» وعرف كيف يحرز بها لحارسة الباب الشمالي لأفريقيا، مصراً وزراً في الهند العريقة، والهند الصديقة، وطوف «جمال» بكل أرجائها، واستقبله الهنود بالقلوب وبالورود، وخطب في البرلمان فخلّف في النفوس أثراً غير هين، وكان ينبغي أن أشعر كمصرى بشيء من الزهو، ولكن (اللون الأحمر) المزعوم ردني عن هذا الشعور، وذهب نصره في الهند من غير أن يترك في حسى أى أثر، بل على النقيض نحيت عن كل أثر الشوامخ، من قصص بامدونج وتسليح الجيش، وزيارة الهند، وبدأت أعنى بالصغائر، التي كانت هواية لخصومه، وكنت دائماً أمقت هذه الهواية، بدأت أعنى بألوان منها لا ينبغي أن يُعنى بها راشد كقصة المنشورات المعادية للناصرية، والتي ضُبط أحد الوزراء السودانيين وهو يطبعها في القاهرة، ورحت أتخذ منها دليلا على فشل (السياسة الناصرية) التي فصلت السودان عنا، ثم جعلته عدواً، فشرع وزراؤه يتولون بأنفسهم طبع (المنشورات) ضدنا، وفي عقر دارنا أو في عاصمة بلادنا.

«الجمهورية» .. تهاجمني

وكأن القرار الذى اتخذته ضد (الناصرية)، وطويت عليه قلبي، قد أفلت من هذا القلب، وانقلب إلى دعاة الناصرية، يقدم إليهم ذاته أو عباراته.

نعم، حدث — ومن غير مقتضى أيضاً — أن سبوا إلى جريدتي وإلى كل صحيفة ومجلة اتهاماً لا أنوى أن أثيره الساعة من ناحيتي وإنما أرجئه إلى (مذكراتي عن ربع قرن في الصحافة)، والذي يعنيني أن جريدة (الجمهورية) تركت وراءها كل أصحاب الصحف وعقدت فصلا رئيسياً خصت فيه شخصي الضعيف بالمحوم العنيف، ونسبت إلى ريشتي — كناقد برلماني — كل التضليل الذى يدل الجماهير، وأنا أرسم بها صوراً خلابة وكاذبة، للسياسيين القدامى في البرلمان المصرى.

ولم تقنع (الجمهورية) بفصلها الضافى، وإنما أطلقت الحرية لبعض المحررين الذين

كانوا يصلون يومئذ فيها وراحوا يتساءلون فى مهاجتى أنا الذى لم أقابل فاروقاً ، ولا عرفت قصوراً ، ولا زرت دار حزب ، ولا سهرت مع زعيم .

وأياً كان حسيب ذلك المحموم — عبير المفهوم — من الخطأ أو من الصواب ، فهو من غير شك زيت جديد صب فوق النار التى كانت تتأجج يومئذ فى صدرى .

استعرت النار — إذن — وازدادت استعاراً .

وأترعت كأسى بخمر الكراهية لا بخمر الشكوك .

وأنا — إذن — أحاسبك بالأخى حال ، حتى الموت

* * *

وعسى أن أكون بهذه الصورة التى رسمتها لك عن تلك الفترة المضنية ، قد أفلحت فى تصوير الحلقة الخامسة فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل السادس

حديث التآمر

واسمح من الساعة ، أن أذنى الإثنتين ترحبان بكل حديث غير سار ، عن جماعة الثوار وكان لى صديق شاب يسميني — كرماً منه — استاذاً له ، لا لشىء إلا لأنه كان يهوى الصحافة ، فلما تخرج (من كلية الآداب) أشبعت فيه هذه (الهواية) فألحقته (محرراً) بجريدتى (السوادى) ، ثم التحق بجريدة (المصرى) ، ثم انفصل عنها أو فصل منها — لا أذكر — وتعرض للبطالة ، فأعدته إلى (السوادى) فتوكأ على (خزانتها) المتواضعة ، حتى التحق بجريدة (الأهرام) فشكر لى تلك (الضيافة) .

* * *

ويهمنى أن أتجنب من الساعة ذكر اسمه — وهو صاحب أخطر دور فى (المؤامرة) — حتى أكون أكثر تحرراً فى الحديث عنه — من غير أن أشهر به أو أسىء إليه — وله على كل حال حق (الصديق القديم) مهما ينحرف به الظرف أو المطمع . وهو أولا وأخيراً ، والد . . لأطفال ستة .

وسأحرص على أن أشير إليه — عبر الحديث الطويل عنه — بكلمة (الشاب)

. . .

ولعل الشاب كان يسميني استاذاً له ، لسبب آخر ، يتصل بالسن أو بالأناقة فأنا أكبره بستة عشر عاماً ، وكنت فى الحقيقة صديقاً لأخيه الأكبر لا له — وأخوه الأكبر أديب معروف ومحقق لغوى — وقد عشت حياتهما منذ كان (تلميذى ؟) طالباً ثانوياً وشهدت الكفاح المضنى المرير الذى خاضه الأخ الأكبر فى إصرار (يثير الشفقة والإعجاب) لكى يكمل لأخيه الأصغر دراسته الجامعية .

وكان الأخ الأكبر « محرراً » فى « السوادى » أيضاً .. عند ما ألحقت أخاه الأصغر بها ..

وكان الأخ الأكبر يشتى آلامه وشكواه من تنكر الأخ الأصغر له وتمرده عليه بعد أن تخرج ، وكنت أواسى الأكبر .. وأؤنب الأصغر .. وأحاول — عبثاً — أن أصلح ..

* * *

وقد ألمحت إلى تلك اللمحة .. لتدرك عراقة الصلة بينى وبين هذا « الشاب » ولتدرك — بالتالى — مدى اطمئنانى إليه .. إذا هو تحدث إلىّ هازلا أو جاداً .. فى السياسة أو فى غير السياسة .

وكنت أعرف مواطن النقص .. والضعف فيه .. ولم أكن أحقرها .. اعتقاداً منى أن كل إنسان فيه مواطن النقص أو الضعف مع التفاوت .. وكان يكفينى منه وفاؤه السطحى .. ولم يكن من عادتى أن أتطلب فى الأصدقاء سَرفاً فى الوفاء .. ولو أنى من ناحيتى كنت أباشر هذا اللون من « السَّرف » مما دس حياتى أو كاد .

* * *

وكان « الشاب » قد استطاع أن يثب — بوساطة الصحفى الكبير الدكتور محمود عزمى — رحمة الله عليه — إلى منصب « السكرتير الصحفى » لوزير الخارجيـــة الوفدى الأسبق الدكتور محمد صلاح الدين .. فأولاه ثقته — « أفرط ثقته بعزمى » — واستصحبه فى رحلاته المشهورة إلى منظمات هيئة الأمم فى نيويورك وفى باريس .. كما وثب من ناحية الوظيفة وفى مدى قصير — أحسبه عاماً أو يزيد — إلى الدرجة الثالثة مع أن صلاح الدين كان « الوزير الحرفى » الأوحد الذى لا يرقى الموظفين استثناء إلا عن اقتناع بالجدارة ومدى على أنه لم يكن له « محاسيب » .

ولم يكن خلال تلك « الفترة الذهبية » فى حياة « الشاب » يلقانى أو يراه ..

فلما قامت ثورة ١٩٥٢ نقل إلى وزارة الإرشاد .. وأعطى نفس المرتب ولكن على التعاقد لا على الدرجة — مما معناه أن يصبح عرضة للفصل إذا ألغى الاعتماد المعين عليه.. وعاود الاتصال بي .

* * *

وكنت قد عدت إلى مكانى من « المقهى » فى كل ليلة — بعد احتجاب « السوادى » — فبدأ « الشاب » يتردد على — بين الحين والحين — فى « مكتبى » نهاراً أو فى « مقهاى » ليلا ، وكان يصحب معه ابنه الطفل أحياناً .. وكنت أحب ذلك الطفل لفرط ذكائه .. فازدادت الصلة توثقاً .

وكان « الشاب » يحسن التعبير عما يريد .. فى عبارة سليمة .. وفى طلاقة مستأنية .. وكان من أظهر عيوبه .. إصراره على أن يعرض عضلات معارفه ومواهبه عنوة على جلسائه .. أحسنوا الإصغاء أو لم يحسنوه .. وثقل عليهم أو لم يثقل .

* * *

وواضح أن « هواه » لم يكن مع الثورة .. استمساكا بعروة الوفدية كما زعم . وعضباً على وضعه المسكوى كما كنت أظن ..

والذى يعنينى من هذا الحديث .. أنه التقى بهواه مع الاتجاه الذى كنت أستريح اليه وأرضاه .

ممهد الطريق

وكان « الشاب » قادراً .. على صقل أى بأ تافه يترامى إليه .. بحيث يغتدى فى مطرك بعد الصقل بما له خطورته .. فما بالك إذا ترامت إليه أنباء لها خطورتها ؟!

وبدا لى — وأنا أتحدث الآن عن سنة ١٩٥٦ — أن فى « جعبة الشاب » أنباء « خطيرة » .. وأنه « يتحفظ » فى الإشارة إليها رغم ثقته بى .. أو رغم اعتقاده أنى على شىء مما يسميه الناس « خلقاً » .

وكنت أقيم في حي (العجالة) .. وكان يقيم في حي (العباسية) .. وكانت (سهرتي) في (قهوة عيكس) بشارع عماد الدين .. وكانت (سهرته) في (كاريتو أوبرا ..) فإذا أمضى السهرة ضيفاً علينا .. رافقني عند نهايتها إلى أول (العجالة) ليستقل (الترام) إلى داره .

وكانت تلك الرحلة القصيرة .. هي الفترة الفريدة .. التي يخلو فيها إليّ ، ويلقى في أذني ببعض الأنباء (المثيرة) يطمئنني فيها — في (تحفظ واقتضاب) — إلى قرب زوال (النظام الناصري) الذي يضيق به كما أضيق .

وكنت أدع له (حرية التحفظ) كاملة .. ولم أكن أبدي من ناحيتي أيّ رغبة في استدراجه إلى مزيد من (الأنباء) أو إلى مزيد من (التبيين) .

واستطعت مع البال أن أفهم أن في صفوف الجيش انقساماً .. واستطاع هو أن يدعي أنه من خلال حديثه الغامض أن ضباطاً كثيرين يفكرون في تخليص البلاد مما كان يسميه (ديكتاتورية ناصر) .

وملأتُ رئتي — طبعاً — بتلك «الرائحة الزكية» وعقبت نكهات أدرك منها أني أتنفس بارتياح في تلك الأمسية .

وبعدها .. شرع يحظو إليّ .. في مهارة .. وعلى حذر .

و .. إذا أفضى بـ «معلومة» جديدة — كما كان يسميها — وسألني الرأي فيها .. اكتفيت بضحكة قصيرة .. أو بعبارة مازحة من عباراتي .. مألوفة من كل أصدقائي : «ربنا يتمم بخير» فتنبسط أساريره ويشارك في الضحك .. ويهز يدي مودعاً .. ويثب إلى «الترام» .

أمريكا والثورة؟

وإلى جانب تلك الحظى التي بدت لي مرسومة وهادفة .. كان «الجو السياسي» نفسه «مشحوناً» بكل ما يغرى الغاضبين بالولوغ في التعصب ، وبكل ما يغرى «مصانع

«الشائعات» بصنع المزيد منها والجديد ، وكان في طليعة تلك « المريات » — جهود عبد الناصر في محاولة التقرب من « أمريكا » .

وقد أتاحت تلك « المحاولة الناصرية » لجماعات الخصوم ، فرصة ذهبية ، فانطلقوا يدللون بحوادث « مزعومة » .. على أن الثورة من بدايتها إنمـــا قامت لحساب «الأمريكان» ، وأن «كافري» إنما حمى الملك وأشار عليه بأن ينجو بحياته ليتخلص منه في هدوء .. ولتمضى الثورة في طريقها « بيضاء » من غير سوء ، حتى تأخذ الطريق على أى تدخل بريطانى .

وأكد الخصوم — وكانت هناك قرائن تؤيد ما أكدوه — أن «أمريكا» هي التي استحدثت نفوذها ووالت ضغطها على «انجلترا» حتى عقدت مع «القاهرة» اتفاقية الجلاء .. وبهذه البراعة ، تخلصت أمريكا من الملكية التي كانت قد تمتنت على يد الملك وأسرته .. بعد أن قيل ما قيل عن صلة الملكة بأحمد حسنين .. ومن حادث ابتهامع رياض غالى .. ومن تدبير الأمريكان التصادم الذي ذهب أحمد حسنين ضحية له .

أكد الخصوم أن أمريكا التي عاونت على عقد اتفاقية الجلاء ، وعلى التخلص من الملكية والملك والأحزاب ، هي بعينها التي انتهزت «حريق القاهرة» فأغرت الضباط الأحرار بالتعجيل بثورتهم ، وتعهدت بحمايتها لهم .. وهي التي أشارت عليهم أن يرسلوا الفدائيين إلى القتال .. ليحمل المحتل عصاه فوق كتفيه ويرحل .. ولتترك أمريكا عصاها خارج الباب .. حتى يصفو الجو وتدخل .

تمويل السد ؟

وكانت أقوى ضربة سددها الخصوم إلى الناصرية هي ما أسموه « فضيحة السد العالى » والمساعى التي بذلها جمال ليحمل أمريكا على أن تمول له حلمه الكبير ، وتبنى له حلمه العال ، لتتدفق أموالها وخبراؤها على مصر ، وليضعوا أيديهم على كل شىء فيها ، ضماناً للتمويل ، وتجديداً لمأساة القروض في عهد إسماعيل .

ولم تقنع « الشائعات » بهذا « الإطار الأمريكي » تصنع داخله « القائد الشاب » و « مشروعه الكبير » ، و « إنما تدعمت » إلى الطعن في سلامة المشروع نفسه من الناحية الفنية ، واستحالة تحقيقه من ناحية السودان وغير السودان من « الجيران » .

ولو أن أمريكا تدرك كل هذه « الحقائق !؟ » وهي ترى إلى توريطنا فيها ، حتى يتسنى لها . أن تمكّن لأخطبوطها أن يتسلل بكل أذرعه .. إلى القبض على مصر من قمة الرأس في الثورة « على طريقة باما وكوما » إلى أخمص القدم فيما بعد أسوان . « وباسم السودان والجيران » ، ولتصل بين هذا كله وبين مهام لها سيدة المدى سماً أسموه « الحزام الإفريقي » .

وبهذا تبدّى جمال عبد الناصر في « آخر طبعة » له — أصدرها خصومه — أمريكياً لحماً ودماً . ورأساً وقدماً . بعد أن كانوا قد درسموها « شيوعياً أحمر » . ولا كوا نفس الكلمات : لحم ودم .. ورأس وقدم .

دمي يغلي

في ذلك الجو . الذي أعمته مصانع الشائعات عمومًا .. وساندتها رأسمالية قوية لم تحد الثورة من قوتها ، والإقطاع طاع لم يؤثر في عقاراته وممتلكاته ما استولت عليه الثورة مما يزيد على المائتين من الفدادين بعد أن رخص لهم أن يبيعوا الزيادة بالنقد لمن يريد الشراء .

في ذلك الجو ، الذي تحمست في صدري خلاله حصيلة مجنونة للأطماع الناصرية تقريبة الطابع حيناً ، ومحاربة الاتحاد حيناً ، وشيوعية الرأس والقدم حيناً ، وأمريكية اللحم والدم أخيراً .

في ذلك الجو . وبعد أن همست بـ « الشاب » أن في الجيش انقساماً .. وكانت قد ظهرت فعلا « مؤامرة البوربانتي المصري » وصدرت أحكام فيها . ودكرت الشائعات اسم ضابط كبير في سلاح الفرسان أطلقه « التكلاوي » . على رأس مؤامرة أخرى .

في ذلك الجو . ظهرت « محطات سرية جديدة » تؤلف شبكة رهيبة . وتضرب

حصاراً أثيرياً من حولنا ، لتذيع علينا أكاذيبها ، وتستخدم فى إذاعاتها .. مصريين من الخصوم.. كانوا قد تمكنوا من الفرار إلى أوروبا ولم يعودوا . واتصلت قلوبهم الملأى بالأحقاد .. بقلوب الأعداء فى « حلف بغداد » .

واستمع المصريون إلى محطة قوية الإرسال إسمها (صوت الحق) وإلى أخت لها ، إسمها (صوت الحرية) .

فى ذلك الجو ، الذى أرى فيه « صانع الثورة » موضوعاً بكل « كيانه الثورى » داخل الإطار الأمريكى المحكم . صنيعة لهم وعميلا ، دوى انفجار جديد ، ملأ الجو دخاناً ولم نعد نرى شيئاً .

القنبلة الجديدة

ثم وفى العشرين من شهر يوليو سنة ١٩٥٦ على التحديد فوجئنا — كما فوجىء العالم كله — ببيان أمريكى لا ينسى .. ترفض فيه أمريكا تمويل السد العالى .

وتقول فى البيان أن هذا المشروع « لا يمس حقوق مصر ومصالحها فحسب .. ولكنه يمس أيضاً مصالح وحقوق الدول الأخرى التى تقع فيها منابع النيل وهى السودان وأثيوبيا وأوغندا » وأن « التطورات التى حدثت خلال الأشهر السبعة التى انقضت على تقديم العرض لم تكن مواتية لنجاح المشروع » و « بناء عليه فقد انتهت الحكومة الأمريكية إلى أنه من غير العملى الاشتراك فى الظروف الحاضرة فى تمويل مشروع السد العالى إذا لم يتم الاتفاق بين الدول المشتركة فى مياه النيل » .

وفى اليوم التالى تابعتها انجلترا فسحبت عرضها وتابعهما البنك الدولى فسحب عرضه أيضاً .

* * *

وكأن البناء كله قد انقض فوق رأسى أنا وحدى ! ؟

وكأنى تقل دولى فى السد العالى .

وكأنى طرف فى التمويل كأمريكا وانجلترا والبنك الدولى .

شعرت بأن خيوط الموقف تشابكت بين يدى كما لم تتشابك من قبل ، ورحت أقول لنفسى وكأنى أحلم :

— سنوات أربع عبث الخصوم خلالها بمالطقى ووجدانى وإدراكى . . وتنقلوا بى فى معرض التصوير لا نهاية للقطات فيه فرأيت فى إحدى اللقطات جمال عبد الناصر « وفديا » ورأيته « اخوانيا » ورأيته « شيوعيا » ورأيته « انجليزيا » وتركت حصيلة العرض الأخير داخل « الاطار الامريكى » وقامت كل القرائن على أن الرؤية فى هذه المرة واضحة ، فإذا البيان الأمريكى يمزق الإطار تمزيقاً ويكاد يعلن على الأشهاد أنه إنما يسترد عرضه ويرفض عونه نكاية فى « ناصر » وحده . بدليل حرص البيان على أن يقول « الشعب المصرى » أن هذا الرفض لا يحدث أى « تغيير » فى علاقات الود بينه و بين « الشعب الامريكى » .

• • •

وناصر — إذن — رفض أن يتآمر فرفضت أمريكا تمويل السد .

وكل ما ترامى إلى أذنى — إذن — ومن « مطالع الثورة » ومن « ناصر » يقتضى « مراجعة الحساب » . والبدء من جديد فى دراسة « القائد الشاب » .

هو إذن ليس وفدياً ولا إخوانياً . وليس شيوعياً وليس أمريكياً .

وهو — إذن — « جمال عبد الناصر » فقــــــط . فمن هو — إذن — « جمال عبد الناصر » . ؟

أيكون — إذن — أملم « رسالة جديدة » تنزلت على قدير من (بنى مر) — ومن طريق الإلهام لا من طريق الوحى — ويكون مكانى من الصف مكان أبى لهب — مع كل الفوارق ، أم أن الخصوم على (حق) ، ويكون من (حقى) أنا أيضاً أن

أفكر فى هذا (الحكم) كما أفكر فى أىّ نسخة (بشرية) من نسخ الديكتاتورية تصل على عرار تترى ، أو غرار هتلرى ، أو غرار فاشى .

ولم أستطع أن أجيب ، ولم أرد أن أجيب .

وآثرت أن أنزوى سيداً ، حتى أستطيع أن أرى ، أو حتى تتصح الرؤية .

وانقطعت عن مكتبى ومقهاى أياماً ، ثم حننت إلى العودة إليهما ، عسى أن أسمع من أى زائر .. ما يعلق به الخصوم تسحب أمريكا من تمويل السد العالى وما كانوا يذيعونه عن الصيل الأمريكى ؟ .

وكنت أعتقد أنهم لاذوا بالجحور ، خجلا من الصدمة ، وأنى لن ألقى أحداً منهم ، ولاأحداً ينقل همهم وبائحبائهم . عدت فرأيتهم شوامخ ورواسخ ، ورأيت عيونهم وهى ترسل إليك تحية النصر وصاحبة الثمرات .. أحادة الرين ! .

لقد كانت هناك عبارة واحدة جديدة يرددونها فى تحد ويقين .. وهم يقولون : انتظروا خطبة جمال بعد أيام .

وكنا — فى شهر يوليو ، وهم يقصدون — طبعاً — خطابه فى عيد الثورة .

— وماذا فيها أيها الإخوة ؟

ولم يجيبوا بصراحة ، لأن ياه « الجمال » لم يعد مقصوراً على الشاب — الذى أعماق كرمكه أستاذاً له — وإنما عم الوباء معسكرات الخصوم جميعاً ، وازدادت رءوسهم اهتزازاً ، وأرسلت شفاههم ابتساماً ، واستطعت بعد الجهد أن أفهم ما يعنيه الخصوم بعبارة : « انتظروا خطبة جمال بعد أيام » . استطعت أن أفهم أن (ناصر) ركع على ركبتيه أمام (البيان الأمريكى) ، وأنه سيعلن فى السادس والعشرين من يوليو ، عودة الأحزاب ويحدد موعد إجراء الانتخاب ورد الأطيان التى استولى عليها إلى أصحابها .. ولم يشترط إلا أن يبقى رئيساً للجمهورية إلى نهاية مدته .

وفى الخامس والعشرين من يوليو تراجع الخصوم خطوة ، فاختفت شائعة رد

الأطيان إلى أصحابها ، وبقيت قصة عودة الأحزاب وإجراء الانتخاب ، وإعلان الجمهورية (برلمانية) بدلا من (رياسية) مقابل أن تعلن أمريكا وأعانتا والبنك الدولى استعدادها لتمويل (المشروع) .

ركوع . . ولكن؟!!

وفى السادس والعشرين من يوليو ١٩٥٦ احتشد خلق كثير فى ميدان المنشية السكبير. وفى تلك الليلة كنت أمام (الراديو) فى (الفيلا) التى كنت أستأجرها فى (المطرية) وأسموها فى (المؤامرة الكبرى) بـ (البيت الكبير) .

وبدأ عبد الناصر يلقى خطابه :

وأحسست أنى أتأهب لزم شفتى .. لكل كلمة يلقيها ، فى انتظار إعلانه المحتم ركوعه المخجل أمام السادة الأمريكيين .

ولكن الرجل تبدى — من أول كلمة فى الخطاب — فى (أحسن حالاته) ، فعجبت له ، ثم عدت معك الأمر بأن كل ما يعنيه ، أن يظل رئيساً للجمهورية ، ولاشك أن أمريكا (أمّنته) على هذه (الأمنية) هى وحلفاؤها ، كما فعلوا مع (محمد على) يوم ديس بالأقدام ، ورد على الأعقاب ، وقنع من الغنيمة بالإياب ، مقابل تأمينه على أن تكون مصر وراثية فى أسرته .

مفاجأة مذهلة

وفجأة ، أعلنها جمال .. ؟ !!

ولم تكن ركوعاً أمام الأمريكان أو عبر الأمريكان . . ؟ ! !

أعلنها جمال ، أعلن تأميم القنال .

ووثبت من مكانى فى الكرسى بضعة أمتار ، وكاد أحد عبد الشرقة يشج رأسى وأنا أصرخ وحدى : (إيه ده ؟ إيه ده ؟) .

ثم رأيتنى أنخرط فى البكاء ، كالطفل .

كانت لحظة من لحظات العمر ، لا تنسى .

لحظة برئت فيها من كل شكوك .

لحظة رددت فيها إلى يوم مولدى ، لا يرين على قلبى غضب ، ولا يأكل صدرى الحقد ، ولا يساور خاطرى مطمع .

وخيل لى لحظتئذ — أنى وقعت على اكتشاف بديع ورائع . اكتشفت أنى (مصرى) بكل ما تحمله هذه الكلمة من شموخ وعزة .

وتاريخى ؟

وعندما تلا جمال قرار التأميم ، (باسم الأمة) ، لم أشك لحظة فى أن تاريخى المتواضع قد جرى بكل جروحه ، إلى القاعة الناصرية ، وفى هزة انفعال راعش سجل ناصى فى القاعة .

وفى الليل رحت أسأل نفسى : أتراى أصبحت (ناصرياً) . ؟

أم تراها (ناصرية مهزوزة) ناصرية اندلاع فى الوجدان واندفاع فى العاطفة ، لا ناصرية اقتناع من الفكر الحتير ، ومن التفكير المادى ؟ ولم أستطع أن أجيب ، كنت سعيداً ولم أشأ أن تفلت منى سعادة الساعة .

***

وعسى أن أكون بهذه الصورة الصادقة قد رسمت الحلقة السادسة فى موقفى من (الرجل الذى تآمرت عليه) .

الفصل السابع

عراك دولى

ظللت أياماً ، أسأل نفسي إن كنت قد علوت (ناصرياً) على مستوى التأميم أو بسبب هذا التأميم ، أم كانت (لحظة انفعال) ، أملاها (موقف مثير) ؟ .

واستطعت أن أدرك أن مثل هذه (الوثبة) إلى الناصرية بسبب (عمل طيب) ليس بالأمر الهين وأن الاعتراف بالعمل الطيب ، لا يعني حتماً تغيير الرأي في صاحبه لمجرد أن عملا طيباً تم على يديه .

ومع إدراكي هذه (الحقيقة) ، لا أستطيع أن أنكر أن هذا (العمل الطيب) ترك بصماته على صفحة قلبي — بعد زوال الانفعال — و بدأت أحس براحة من نوع جديد (راحة) الضال الذي يضرب في الصحراء — ولا نبتٌ ولا ماء — ثم يعثر فجأة على (واحة) ، فيها نبع وفيها ثمر ، فيأكل ويشرب ، ويحمد ويشكر ، ثم يغمض عينيه ، لينام ملء جفنيه ، تاركاً لله أحداث الغد !!

* * *

ولم يكن أشهى على نفسي في تلك الأيام الحلوة ، من أن يتوارى عن عيني ذلك « الشاب » — حتى أستطيع أن أتتبع الأحداث في « جو » لا يعكره « شبابه » .

* * *

و بدأ العراك الدولى — الذى تعرفونه — بين « ناصر » من ناحية ، و « انجلترا وفرنسا » من ناحية أخرى .

ولاح لى — بدءاً من الدعوة إلى مؤتمر لندن وانتهاء إلى « لجنة الخمسة » التى زارت مصر برياسة الأسترالى « منزيس » — لاح لى أن ما حدث لحمد على « التركى المغامر » ، هو ما يدبّر لجمال عبد الناصر « المصرى الثائر » ، وأن « نافارين » أخرى فى الطريق .

ولكن أمريكا ، ما أمرها ؟ وما موقفها من هذا الذى يدبّر ؟

وهل هى خصم أصيل لناصر ، أم هى صديق ، ترتدى « ثوب الخصومة » فى مهارة ، حتى تقضى على النفوذ البريطانى والنفوذ الفرنسى فى الشرق العربى بل فى الشرق الأدنى ، لتسكون « الوارث الشرعى » لها ، و رضاء « الحكام الشرعيين » فى المنطقة ولها « ركائزها » التى لا تفكر فى إيران وتركيا والسعودية و بعض الشمال الأفريقى ؟

* * *

عاد شيطانى يذكرنى بالسد العالى .

عاد الشيطان يهمس فى أذنى : إن أمريكا تلعب من بداية الثورة دوراً تمثو لعمق الخبث فيه جباه كل الشياطين ، وقد أغرت « أمريكا » حليفتها « بريطانيا » بالتسحب من « تمويل السد العالى » ، ليغضب « ناصر » ويؤمم القنال ، لتثور بريطانيا ومعها فرنسا — أم القنال — وتقاتلاه ، فتمتد يد الإنقاذ من «أمريكا» إلى « ناصر » فى ساعة العسرة والشرق لا ينسى (اليد البيضاء) أبداً .

هذا إذا أحسنا الظن بناصر ، وكنتُ فى هذه الأيام أحسنه .

أما إذا ماشينا خصوم ناصر من الرجعيين (المصريين) ، وقلنا كما يقولون إنه (عميل أمريكى) طلبة (أمريكا) تكون أكثر وصوحاً ، وهى تمسى بيد (اليد البيضاء) ثابتة الخطى ، وعلى وفاق معه ، أو على اتفاق بينها و بينه .

وقال شيطانى : «وأحسن الغرضين سيء ، وأحلى الاحتمالين مر» .

وقلت للشيطان : ولماذا نبحث دائماً عن (الوجوه السود) كما ذكرنا (ناصر) ولماذا لم تفترض الاحتمال الثالث الذى عشت — من يوم التأميم — سعيداً كواطن تحت ظله الوارف .. احتمال أن يكون (ناصر) هو (البطل) الذى أعدته العناية لتحرير بلاده وليس (العميل) الذى ينكس راية الإنجليز ، ليرفع مكانها راية الأمريكان ؟

* * *

وتلقينا جانباً من الإجابة عند ما طار (فوستر دالاس) بأعوامه السبعين ، يعبر المحيط إلى لندن ، ليأخذ بين يديه زمامه ، وليسيطر عليه سيطرة تكاد تكون تامة ، وليدور النقاش كله حول ما أسموه يومئذ : «مشروع دالاس» .

وسألت نفسي :

— هل انقلب (دالاس) (صديق ناصر) في ساعة العسرة ، (خصما لناصر) مرة أخرى ، أم هي (الصداقة) ترتدي ثوب (الخصومة) كما قال شيطاني ؟

ولم أشأ أن أفرض تفكيري على الموقف ، وأنا لا أملك من أسراره أكثر مما يملك قارىء الصحف ، ورأيت أن أتتبع تطورات المؤتمر ، والخطب التي تلقى فيه ، واللجان التي يشكلها ، والقرارات التي يصدرها ، والنتائج التي يحصل عليها .

كما رأيت أن أترصد من ناحية أخرى ، خطى عبد الناصر تجاه ذلك العراك الدولي

* * *

ولاحظت أن « ناصر » يواجه « مناورات المؤتمر » بمناورات مضادة ..

لاحظت أنه يعنف ثم يلين .. ويضرب ثم يتراجع .. ويوافق على تعديل « معاهدة القسطنطينية » ثم يرفض « تدويل القناة » .. ويرحب بمقدم الأسترالي منزيس .. ثم يرفض عروضه . ويرحب بالتفاوض مع « إيدن ومولييه » ثم يستثير «دول باندونج» . ويرد « إيدن » بإعلان من وزارة حربه أن الأساطيل البريطانية غادرت الموانى البريطانية إلى شرق البحر الأبيض المتوسط .. وترد فرنسا بأن أساطيلها يتحرك من ميناء طولون إلى قبرص .. فيعلن « ناصر » أنه يحمل بريطانيا وفرنسا مسئولية ما يحدث للملاحة في القناة ..

* * *

كل هذه الخطى من « ناصر » قد تفهم ..

وكل هذى الحطى من « إيدن وموليه » قد تُفهم .

ولكن الذى لم يُفهم يوماً . . أن جون فوستر دالاس (صاحب سياسة : وضع العالم على حافة الحرب) يدفع العالم بمشروعه إلى هذه (الحرب) . . ثم يعلن بلسان الرئيس (أيزنهاور) أنه لا يفكر فى (استخدام القوة) ضد (ناصر) .

أتراها (الهبة الأمريكية) . . التى وسوس بها فى صدرى . . (شيطانى المصرى) ؟

أتراه يدفع بالجانبين الواقفين على حافة الحرب إلى الحرب . . ثم يلعب هو الدور ؟

لا أريد أن أقحم نفسى على الإجابة ولست مؤهلا لها .

وإنما أريد أن ألاحظ أن دالاس لم يقنع بالقول أن أمريكا لا تفكر فى استخدام القوة ضد مصر . . وإنما خطا خطوة رهيبة . . فطلب إلى الرعايا الأمريكيين فى مصر أن يستعدوا للرحيل عنها وأمر أسطوله السادس بإجراء مناورات فى المنطقة الوسطى للبحر الأبيض المتوسط وفى غير أوانها .

مجلس الأمن

وتحرج الموقف بعد أن رفض (ناصر) قرارات الدول الثانى عشرة ، وعروض لجنة الخمسة . . وقيام (هيئة المنتفعين) ، تحرج الموقف بعد فشل المؤتمر وقراراته ، وبعد تحرك شعوب افريقيا وآسيا لمناصرة مصر ، وبدأ (مجلس الأمن) ينهض بواجبه .

وانتهى المجلس إلى (المبادىء الستة) التى قرر أن يدعو الجانبين إلى التفاوض داخل إطارها . . أو إلى التوصل بها للتوصل إلى تأمين الملاحة فى القناة .

ولعب همرشولد على هامش اجتماعات المجلس دوره على المستوى الإنسانى . . واستطاع أن يجمع بين وزراء الخارجية الثلاثة محمود فوزى وسلوين لويد وكريستيان بينو وأن يتم الاتفاق بينهم على إجراء المفاوضات التى دعا إليها المجلس . . تاركين لهمرشولد تحديد الزمان والمكان .

وحدد الرجل .. مدينة (جنيف) مكاناً .. والتاسع والعشرين من أكتوبر .. زماناً ..

وسافر وزير خارجية مصر إلى جنيف فعلا .. قبيل الموعد .

وبدا أن باريس ولندن تحاولان التهرب من الموعد .

عذر غير مسبوق

وفى هذا اليوم المحدد لبدء المفاوضات بيننا وبين انجلترا وفرنسا فى جنيف . . .

ومن غير سابق إنذار ، أذيع بأ تحركات (القوات الإسرائيلية) وهجومهـا على الأراضى المصرية عند (الـكونتيلا) ، وهبوط كتيبة المظلات عند مضيق سدر الحيطان .

وفهم (المسكريون) أنه (هجوم عام) .

* * *

وهى الحرب إذن ؟

ومن إسرائيل ، وعلى مصر ؟ ! وربطنا على القلب باليد .

وكان العدوان الذى تعرفه .

وكانت (بور سعيد) التى دخلت التاريخ تحمل فوق صدرها (وسام الشرف) بعد أن أنقذت كرامة أمة .. لها على هذا التاريخ يد .. ولها على الحضارة البشرية يوم لم يكن للبشر حضارة .. كل حقوق المربّى وكل حقوق الوالد .

وانتهى عدوانهم .. بأ كبر خيبة منى بها عدوان .. فى التاريخ الحديث .

عود إلى الشيطان

ولم يدعنى (شيطانى) — هذه المرة أسعد أياماً .. بالهم الذى شربنا منه حتى

ارتوينا — دم القوة التي أذاقتنا سبعين عاماً .. ودم الأسد الذي «قلم» غاندي ونهرو « أظافره » في الشرق الأقصى ، وجاء « للمصري الأسمر » فانتزع منه « الأنياب » وأودعه « حظيرة الدواجن » .. أمثولة لا تنسى على طريق العالم المتحضر .

عاد الشيطان يتسرب إلى أذني .. في صورة وادعة من صور الهمس الخادع .. يقول وكأنه يسمر معي :

— أرأيت ؟ أمريكا ، ولا شيء غير أمريكا ، هي الأول والآخر ، والظاهر والباطن . أمريكا الديموقراطية الحرة ، تمد يد الصداقة (الحمراء) ، إلى روسيا (الحمراء) الشيوعية ، لأول مرة في تاريخ (الحرب الباردة) بين المعسكرين ، لتقفا معاً جنباً إلى جنب ، في وجه الاستعمار الأوربي (المعتدي) ، ولترغما .. انجلترا وفرنسا على الجلاء الناجز عن بور سعيد (المعتدى عليها) .. ولتنهي التاريخ السياسي العريق .. لإيدن — خليفة تشرشل — إنهاء مخجـــــلا وغير مسبوق .. أتستطيع أن تقول لي ما الذي يعنيه هذا الموقف ؟

— قل أنت .

— نعم . أقول .. والموقف نفسه يقول :

أما أن تقف روسيا معنا ، فمعقول ، لأن مصلحتها في أن تقف في وجه الاستعمار حيث كان ، ومع كل من يحاصم الاستعمار .

وأما أن تقف الشعوب العربية معنا ، فمع من تقف .. إذا لم تقف معنا ؟

وأما أن الهند والصين الشعبية وإندونيسيا وكل الشعوب التي عانت من الاستعمار تقف معنا .. فمعقول ، لأنها فرصة العمر ، تثأر فيها من كل مستعمر .

وأما أن أمريكا — زعيمة المعسكر الغربي — تخذل حلفاءها في نفس المعسكر ، وتمد يدها إلى روسيا — زعيمة المعسكر الشرقي — ومن أجل (مصر) ، وحباً في سواد عيون (ناصر) ، فقل أنت .. إن كان معقولا ، أو غير معقول .

حديث التآمر

وما كاد شيطانى يلقى بهذه الهمسات إلى أذنى ويتوارى .. حتى ظهر « الشاب » وبى المقهى والمكتب على التوالى .. وكأنما قرأ فى عينى .. كل ما جرى بين الشيطان وبينى .. فجاء هو الآخر يواصل السمر .

ولم يدر بخلدى قط .. أن « السامر » قد يكون الطريق السلطانى .. إلى « التآمر »

وبدأ يسمر ..

بدأ يتحدث عن « بور سعيد » وما جرى فيها .. وعن الحكومة وتقصيرها وعن الفدائيين من الأهلين .. وما سجلوه من بطولات .

وكان يميل إلى أذنى بين الحين والحين فيحصى عبارات بعينها .. ثم يستأنف حديثه إلى السامعين .

واستطاع أن يتركنى — وحدى — أفهم أن خلاص مصر من كل « عميل أمريكى » بات وشيكا ..

وكثر تردده علىّ ..

وكثرت همساته .. إلى أذنى .

واشتد حرصه على أن يلف عباراته فى غموض دبلوماسى يثير الشبهى لما هو خلف العبارات .

* * *

وذات ليلة ..

وكنا فى طريقنا إلى « الصحافة » قلت للشاب ما معناه :

— أراك تكثر فى هذه الأيام من العزف على أوتارى .. وأنت تعرف أنى

أعرفك .. فهل لك غاية .. أم هى هواية الصوص تزاولها لحساب أعصابك على حساب أعصابى ؟

ولاذ بالصمت . ثم عاد فرفع وجهه إلىّ .. وحدق عينيه تحديقاً مسرحى السمات فى عينى .. وقال وفى نبراته رنة الجلاد .. وكان الترام الذى يستقله قادماً من ميدان « باب الحديد » قد جاء :

— أليس من الجائز .. أن تكون أنت شخصياً .. مدعواً إلى أداء واجبك نحو بلادك .. إذا دقت الساعة ؟

وأطلق ضحكة .

وجرى خلف الترام فأدركه ..

وعدت إلى بيتى .. وأذكر أن النوم فى تلك الليلة تخلى عنى ..

* * *

وتمنيت — لأول مرة — لو عجل بالزيارة التالية .

وعجل ..

وأصبحنا السهرة .. وعدنا معاً .. من نفس الطريق .

وطلب له أن يتمالى فلم يطرق باب الحديث الذى تركه مفتوحاً .

وصفت بتعاليه فسألته فى شىء من الجفوة عما قصده الليلة الماضية بالعبارة التى قالها .

وابتسم وقال : « هزار » .

وازداد ضيقى بطريقته فقلت له فى شىء من الحد الصارم :

— إسمع يا أحانا ، كفانا دوراناً ، ثقة أو لا ثقة .

وابتسم مرة أخرى — وفى زهو للنتصر هذه المرة — وقال جاداً ما معناه :

— هى ثقة ، وأكبر من ثقة ، وأنت تعلم ، ولكنى مقيد بيمين ، وعطى مرسومة لى ، فإذا أنا جاوزت حدى معك اليوم ، فقد أجاوز حدى مع غيرك ، ويفسد كل شىء ، ولكن من حسن حظى معك ، أنه رُخص لى من الأمس فقط ، فى مفاتحتك والتحدث إليك وداخل حدود لا أتعداها .

ورضيت .

وبدأ يتحدث .

حديث خطير ؟

تحدث .. وأصغيت .

ولا أذكر طبعاً نص الحديث .

و إنما أذكر معناه .

واستطعت أن أفهم من حديثه أن قيادة رشيدة وواعية ، هى التى تتولى الأمر كله ، وأنها من صميم الضباط الأحرار ، وأن زعيمها من زعماء الثوار ، وأن دورنا — نحن المدنيين الذين وقع عليهم الاختيار ، سلمى وطيف ومأمون العاقبة ، بل لا يقع أصلا تحت طائلة العقاب ، بل لا سبيل لحاكين إلى العلم به أو الكشف عنه إذا فشل مشروع الانقلاب ، لأن دورنا لا يبدأ إلا بعد نجاح المشروع ، ونحن إذن خارج دائرة التآمر ، وأعضاء التشكيل العسكرى لا يريدون بحركتهم إلا ما نريده .. إلا رد حقوق الأمة إلى الأمة ، ولهذا السبب قرروا ألا ينتقلوا إلى مرحلة التنفيذ إلا بعد أن يكون « جهاز الحكم » معداً إعداداً سليما ، وقائماً على مدنيين أكفاء وأمناء ، يتولونه عندما يُستدعون من منازلهم بعد ساعة الصفر ونجاح الانقلاب .

وسادنا الصمت لحظات ثم سألته :

— لكن .. لماذا كل هـــذه العناية بالجهاز المدنى ؟ ومَن ، مِن المدنيين لا يوافق — خوفاً أو طمعاً — على التعاون معهم إذا استدعوه بعد نجاح حركتهم ، وثبت له أنهم إنما جاءوا ليردوا الأمر كله إلى الأمة ؟

وقال الشاب من غير أن يفكر فى الجواب :

— الجواب بسيط ، بساطة الحقيقة ؟! الجهاز ككل... ليس من الضرورى أن يكون معداً ، وإن كانت أسماء الساسة قد طرحت كلها على بساط البحث ، ولم يحتل أى اسم من مطمن ، ولكن هناك مناصب يقترن عملها بساعة الصفر ، ولابد من الاتفاق على شاغليها قبل تلك الساعة ، بحيث يكونون جاهزين عند أول دقة من دقاتها ، وهم رئيس الجمهورية كرأس للدولة ، ورئيس الوزراء الذى يحكم ، ووزير الخارجية الذى يتصل بالدول ، ووزير الداخلية الذى يسيطر على جهاز الأمن ، ووزير الحربية الذى يسيطر على الجيش ، ووزير الاستعلامات الذى يتصل بالشعب ، وسيعود العسكريون إلى ثكناتهم إثر تشكيل الوزارة لينفضوا أيديهم نهائياً من السياسة .. وقد تم اختيار هؤلاء جميعاً ما عدا وزير الاستعلامات ، ولا أملك أن أفضى إليك باسم أحد منهم باستثناء رئيس الجمهورية الذى رُخص لى فى أن أذكره لك وهو : « محمد نجيب » أما منصب وزير الاستعلامات فقد رشحتك له ، ولكن رؤى أن الاستعلامات لا تزال مصلحة وليس لها وزير ، وأن الإذاعة جانب خطير من وسائل الإعلام ، وأن التفرغ لهذه المسائل فى الأيام الأولى يجب أن يكون على مستوى التفرغ فضلا لا على مستوى الوزير السياسى ، فتقرر الاكتفاء بإسناد منصب مدير مصلحة الاستعلامات إليك ، لتشرف بنفسك على الاتصال بالشعب من أول لحظة . ورؤى إسناد منصب مدير الإذاعة إلىّ ، لأتولى الاتصال بالشعب اتصالا مباشراً ، ثم يبت فى مصيرنا بعد أن يستتب الأمن ويستقر الأمر ، ولا أخفى عليك أنى لا أنوى أن أقبل أى منصب وزارى ، وقد صارحت زعيم الحركة بإصرارى من الآن على منصب مغير ، لأنى أقدر على خدمة بلدى ونفسى فى السلك السياسى منى فى المنصب الوزارى .

وقلت للشاب : دع الحديث يقف بنا إلى هـذا الحد .. وفى الليلة المقبلة أعطيك كلمتى .

وأعطيتها ...؟!!

وفى اليوم التالى قلت لصديقى الشاب مازحاً .

— أيها التلميذ النجيب .. يقول الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : « قبلت » .

ووثب التلميذ الفتى فقبّل أستاذه الشيخ .

* * *

ومن عجب — ومن باب الفكاهة المُرّة — أن شاباً من ممثلى هيئة الاتهام فى قضيتنا طالب له وهو يشن الحملة على ، أن « يتظرف » فيعير لرسم الحديث الذى رسم « الشاب » فى « تقاريره » أنه دار بينى وبينه ، تعبير ممثل الاتهام أسلوب عميد الأدب العربى أطال الله بقاءه فقال — أى وكيل النيابة المترافع : « وهنا قال التلميذ الفتى لأستاذه الشيخ كيت وكيت » و « هنا قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى كيت وكيت » .

* * *

وبعد فأرجو أن أكون بهذه الصفحات قد رسمت المرحلة السابعة فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .



الفصل الثامن

المؤامرة

أكبر الظن — وقد انتهيت بك إلى هذه المرحلة من مراحل عبر السنين العشر — أن يكون قد تبادر إلى ذهنك أني سأخوض بك في بحر لجي من تفاصيل « المؤامرة الكبرى » — كما أسموها — وبكل ما تنطوي عليه هذه التفاصيل من بحوث في الفقه والقانون .. وبكل ما جرى في جلسات المحاكمة من كر وفر .. ومن اتهام ودفاع .

كلا .. وما استهدفت بكتابي شيئاً من هذا ..

إنما استهدفت — فيما يخص « المؤامرة » — أن أتحدث إليك عنها الحديث الذي يخرج بك من تلك الظلمات التي ظلت تملأ أنهار الصحف والمجلات شهوراً .. وتسطرها المحطات المصرية العشر التي كانت تشكل في ذلك الحين شبكة رهيبة تحاصر مصر بالأكاذيب .. وتحارب « ناصر » بها — وبكل أداة تصلح للحرب — وبكل الأساليب .. واستهدفت ، فيما يخص « المؤامرة » أيضاً أن أتحدث إليك عنها الحديث الذي يتيح لك الرؤية الواضحة لكل الأسباب التي دعت بي إلى التكفير بالقائد الشاب حتى تآمرت عليه .. فإذا عرجت بك — داخل السجون الثلاثة التي تنقلنا بينها — على بعض ما جرى لنا أو علينا فيها .. فلكي إبرز معنى يتصل بالمصرية وبمراحل قربي منها أو بعدي عنها .. أو لكي أطلق قسوة الجو في السجون مادرة تحمل إلى شفتيك بعض الابتسامات أو تحمل إلى قلبك بعض الرضى ..

* * *

ولك بعد أن تفرغ من قراءة هذا كله — قراءة أرجو أن تكون متأنية وواعية وعادلة — أن تقول مستريح الضمير إن كان ما قرأته وثيقة من وثائق الصدق

جديرة بشرف الانتماء إلى مهمة التأريخ .. لهذه الفترة من تاريخنا .. أو أن الكتاب .. كتاب رخيص من كتب النفاق .. يأخذ مكانه من «مكتبة المنافقين» وما أكثرهم على مطالع كل «ثورة» .. وعلى باب كل «ثائر» .

ولن أحسّب القلم — مداهنة — «كل» ما جرى في التحقيق أو في المحاكمة .. أو في السجون التي أطبقت علينا .. إن أجنب القلم شيئاً يستدعيه هدف الكتاب .. ولا مفر من أن ألتقط بالقلم حادثة من هنا .. وحادثة من هناك .. إذا تطلب «الهدف» هذا «الالتقاط» .

مثلث الضلالة

وأعود إلى «الثالوث» العجيب .. الذي جمع «بيني» .. وبين «الشاب» الذي قام بضمي إلى المؤامرة و«الشيطان» الرجيم الذي أغراني بهذا التآمر ..

وقد تدهش إذا قلت لك صادقاً أن الأمر كله — وعلى خطورته — قد مر بي كما تمر مسرحة الخيال المهرور باثنين من الشعراء الفاشلين .. جمعت بينهما ذات يوم جلسة «حشيش» أو «أفيون» .. فوق مجرى ماء .. أو تحت ظلة نخيل .

* * *

بدأ الأمر — كما رأيت — بعرض مثير .. من جانب الشاب كحلقة أولى .

وجاءت الحلقة الثانية من جانبي .. عندما أعلنته بقبولي .

وهكذا أصبحنا .. بسرحة حشاش .. أو بخيال قصاص .. عضوين في «مؤامرة» لم يقدم لي على طول طريقها — كما سترى — أي «دليل مادي» على وجودها .

ولعل الأمر استهواني في البداية .. بوصفه «حركة عنيفة» بعد خمول طال مداه .

ولعلّ شدت يمص هذا الشعور عن بعض ما انطوى عليه الصدر من غضب على

« الثورة » بسبب ما ألقى على يديها من أذى .. كصاحب جريدة وكعضو مؤسس فى النقابة .. أو فى القليل كمواطن له الحق فى العيش الكريم .. ثم بسبب ماعبئت به من شحنة الأكاذيب بأيدى الخصوم .

بل لعل « الخيال » قد شط بى أياماً .. فرسمت خطوط « المحكمة » التى يمثل أمامها خصومى « الثوار » — وعلى رأسهم « صانع الثورة » — لتسألهم عن حقوق المواطنين — وحقوق — التى وئدت .. بأى ذنب قتلت ..

ولعل فاصلت — فى الخيال — بين الثأر منهم أو العفو عنهم .. فآثرت أن أتأسى أنا الآخر بالرسول الكريم .. وقررت أن أطلب إلى رئيس الوزارة التى أكون قد اشتركت فيها أن ينادى فى الثوار الحيارى : « كل من دخل بيت عبد الناصر .. فهو آمن » .

وطبيعى .. لا أذكر اليوم — على التحديد — كل الأصداء التى ألقاها الخيال على طريق تفكيرى .. أو استمدها من كل ما ترسب فى الذاكرة عبر تلك السنين الست أو .. من معالم باهتة لصور مهزوزة .. لخيال مريض صاحبنى أياماً ، منذ قات الشاب : « قبات » .

* * *

أما « الشاب » فقد تبيرت — من لحظة قبولى — كل صلته بى .. وتخيل لى أنه بالدعوة التى وجهها إلىّ .. قد تخيل هو الآخر أنه انتزع زمام « الأستاذية » من يدى .. وراح يرتب لنفسه « حقوقاً » علىّ — أشير إليها عابراً وبرغمى — وأدقّ عن أى بيان لها .. لأنى حريص على ألا ألحق به أى تجريح .. وحسبه ما يلاقيه وما لاقاه ، ولنا حيناً لقاء محتوم بين يدى الله !!

المؤامرة .. لها أصل

ولعلك تحب أن تسأل :

هل كانت هناك « مؤامرة » أم لم تكن ؟

والجواب :

— كانت .

وقد تحب أن تسأل أيضاً :

— هل كان كل الذين اخبتوا فيها يعلمون أن هناك مؤامرة جادة ويؤمنون بأنها ستتم حتماً ، وأن كل واحد فيهم انضم إليها عن ايمان بها ؟

والجواب :

— ذمة وضميراً ، لا أستطيع — حتى هذه الساعة — أن أدين أحداً بعينه ، بكلمة نعم ، ولا أستطيع أن أبرىء أحداً بعينه بكلمة لا وإنما أستطيع أن أتحدث عن نفسي فقط ، وهو ما أنوى أن أفعله .

• • •

وبعد قلت للشاب : « قبلت » ، أمضى الأمر بعض الوقت

وأنا أعلم علم اليقين أن كل إنسان ميسر لما خلق له .

وكنت أعلم علم اليقين أنى غير ميسر للتآمر ، وغير مؤهل لأى عمل « تحتى » .

وعلى ضوء هذا العلم ، رحت أسائل نفسي فى حزن وحيرة : كيف قلت للشاب : «قبلت» .. وبدأت الحروف الأربعة[1] تتمايل فى نوى وهوى ، وغدوت نهباً اليمين والشمال ، أرانى على الصبح مشدوداً إلى الشمال ، وعلى المساء مشدوداً إلى اليمين .

كنت أستريح إلى المشاركة فى «المؤامرة» عندما أذكر أن الحياة — فى إدراكى — مجموعة من «القيم» تمثل «القاعدة» التى تقوم عليها «الحق والخير» ، ومجموعة من «المثل»

---

(١) « الحروف الأربعة » التى أشير إليها هنا هى التى تتألف منها كلمة « قبلت » كما أن « الحروف الأربعة » التى أشرت إليها فى السطر الثانى عشر من صفحة ١٢ هى التى تتألف منها كلمة «جمال» وقد رأيت أن أرجع إلى تلك الصفحة ، كاستدراك من ناحية أن يكون الأمر قد التبس على القارىء فيها .

تمثل «القمة» التى نتجه إليها ، ونصل لها ، حتى نكتشف عن وجه « الجمال » منها .. وننعم (بالنور) المستور فيها .. وندرك معنى (الحق) وقيمة (الخير) .

وكنت أستريح إلى (المشاركة) فى (المؤامرة) عندما أذكر أن الديموقراطية السياسية ـ كما تباشرها بريطانيا ـ هى فى رأيى أقرب السبل وأقوى الوسائل إلى إدراك معنى الحق وقيمة الخير وتحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس مادمنا عاجزين عن « الردّة الخيرة » بالحكم والحكام ، إلى صدر الإسلام .

وكنت دائماً أكره من (معالم العصر) كلمة (الديكتاتورية) وعلى أى صورة وعلى أى وضع وداخل أى إطار وتحت أى شعار ، مأشد ما أكره كلمة (الزنا) ـ مثلا ـ كجريمة مروعة الخلق ، منافية للذوق ، هدامة للمجتمع ..

وكنت أقول لنفسى إن (الزنا) قد أكره ـ ديناً وضميراً ـ أن أقع فيه ، ولكنى أمام إغراء الجمال (المريد) فى أى حسناء (متوهجة) قد أشتهيه .

أما (الديكتاتورية) فعلى النقيض ، قد أقع فيها وأخضع لها على كره منى ولكنها لا تستطيع أن تغرينى بتشهيها .. أو تمنعنى عن الحرية التى حرمتنى منها .

وكنت قد اقتنعت ـ كما رأيتَ ـ بما قاله الخصوم عن «الديكتاتورية الناصرية» وخيل إلىّ أن الأحداث التى وقعت تؤيد كل ما قالوه ، وأنا الآن أرى قوماً يريدون أن يحررونا من هذه (الديكتاتورية) ويردوا الأمر كله إلى الأمة ، لتقيم حكما جديداً ، مبرءاً من أخطاء الملك والأحزاب ، أقرب ما يكون إلى الحكم النيابى فى انجلترا ، فهل يكون خطيئة أن أسهم بهذه النية إلى هؤلاء القوم ؟ بل ألا يكون « واجباً وطنياً » محتوماً أن أستجيب لهم ، بعد أن وجهوا الدعوة إلىّ ؟

وكان هذا هو « اليمين » الذى أراق (على الصبح) مشدوداً إليه .

فإذا جاء المساء ، وألقيت برأسى إلى الوسادة ، راح الشريط يمر ، شريط صاعد تقدم أنا من عارفيه .. وقد عشت العمر فيه أيام المِلكية والحزبية ، وشريط جديد لا أشتهيه ، لوجود (الحكم الفردى) فيه ، ولكن (أضواء) تخايلنى من خلاله

و رغبي ، فلا ألبث أن أحدق فيها ، فأرى شيئاً إسمه (الجلاء) قد تم ، وأرى شيئاً إسمه (القنال) قد أمم . وأرى شيئاً إسمه (التصنيع) قد بدأ ، وأرى شيئاً إسمه (الإقطاع) قد تحطم ، أفيستحق (صانع هذه الحقائق) أن يُعزل ، فضلا عن أن يؤتمر به ؟

وكان الجواب : (كلا) .

ولكن النفس اللئيمة بالضغن ، لا تلبث أن تعود بي إلى الردة .. ولا تلبث أن تريني ، مستقبل البلد في ظل (التحرر) وتحصل (التآمر) .

فلسفة الثورة ؟

وذكرت يوماً كتاب (فلسفة الثورة) ، وذكرت أن فيه (أشياء) قد تعاون على تحديد الموقف .

وما كدت أتصفحه حتى وقفت عيناي في الجزء الثاني منه على أهداف الثورة ووسائلها ..

وقرأت لقائد الشاب أنه كان يعرف ما يريد أن يفعله ، ولكنه لم يكن يعرف الطريق إليه .. كان يريد أن يحلم بعصر التحررة .. أما الطريق إلى (التحرر) فتلك كانت (عقدة العقد) .

ويقول أخيراً أن رأيه استقر على أن (العمل الإيجابي) هو الطريق ..

ولكن (الصورة التالية) لهذا (العمل الإيجابي) كانت دائماً (تتغير) .

* * *

تبدّى « العمل الإيجـابي » في نظره — أيام دراسته الثانوية — في صورة مظاهرات قتاد المظاهرات ..

وتبدى (العمل الإيجابي) بعد ذلك في (تضامن الزعماء) فشارك في إجبار الزعماء

على (توحيد كلمتهم) فنجح فى أمنيته .. وكانت معاهدة ١٩٣٦ (وليدة) هـذا « التوحيد » .

وجاءت الحرب العالمية واعترف أن الاغتيالات السياسية (توضحت) فى خياله المشتعل (على أنها العمل الإيجابى الذى لا مفر من الإقدام عليه) . وفكر فى اغتيال الملك وبعض رجاله .. وقام هو وإخوان له ببعض المحاولات فعلا ..

* * *

ولبس يعنينى — هنا — أنه اقتنع أخيراً بأن العنف (ليس خير الوسائل) .

وكل ما يعنينى من المساعى إلى ما قاله فى كتابه .. أنه رخص لنفسه فى الاغتيالات وفى التآمر .. « إنقاذاً لوطنه » من الملك ورجاله وكل حاكم ظالم .

* * *

و إخواننا (العسكريون) الذين حدثنى عنهم « الشاب » لابد أنهم « فكروا » مثل تفكيره « إنقاذاً لوطنهم » .. ومن (الرجل) الذى يرونه — خطأ أو صواباً — (حاكماً ظالماً) فلماذا يحرِّم اليوم على غيره ما أحله بالأمس لنفسه ؟

* * *

رحت أضع المسألة فى هذا الوضع .. وأضيف إليه أننا نحن (المدنيين) لانشارك فى أى اغتيال أو فى أى انقلاب ، كما أكد لى (الشاب) ، وكل ما فى الأمر أننا مدعوون إلى تسلُّم زمام الحكم بعد نجاح حركتهم .. فأية جريمة فى تسلم هذا الزمام ؟

واطمأن قلبى — إلى سلامة وضعى .. ورحت أحس لنفسى بصوت مسموع وعن رضى واقتناع هذه المرة : (قبلت) .

عمرى .. فى المؤامرة ؟!

وعشت فى قلب المؤامرة .. ثلاثة شهور كاملة ، بدأت بعد (العدوان) وانتهت

فى فبراير ١٩٥٧ ، هذه الشهود الثلاثة هى . كل مصرى فى المؤامرة . . أو هى « الفترة » التى اقتطعتها « المؤامرة » من عمرى

وأنا أشعر أنك مشوق إلى معرفة الكثير من أخبار هذه الفترة ، والدور الذى لعبته خلالها ، ومن حقك كشاهد دفع فى « تذكرة » الدخول الثمن .. أن تستمتع بهذه المشاهد .

وكنت أود أن أحقق لك هذه الرغبة .

ولكن يبدو أن الأمر ليس سهلا كما قد يبدو لك .. لأن الكتاب لا يستهدف أن أحتكم إلى القراء ، فيما ارتكبت من أخطاء ، حاكمنى عليها القضاء ، وإنما يستهدف الكشف عن الأسباب التى دفعت بى إلى التآمر على القائد الشاب ، والأسباب التى انتقلت بى إلى الإيمان به ، وليس من بين أهداف هذا الكتاب ، تفاصيل دور لعبته فى المؤامرة أو لم ألعبه .

ثم إن هناك حقيقة أكثر خطورة ..

وهذه الحقيقة تقول إن الأمر لا يخرج عن واحدة من اثنتين : إما أن أكون قد قمت بدور إيجابى له اتصال بغيرى من المتهمين ، وفى هذه الحالة لا أرى أن من الرجولة أن أعترف على غيرى أمام القراء ، أنا الذى لم أعترف على أحد أمام القضاء ، وإما أن يكون دورى كله كلاماً فى كلام جرى بينى وبين هذا الشاب ، نفخ فيه « من روحه » أمام المحققين فاستوى (أحداثاً) حوكمتُ عليها ، وأخشى إذا أنا ركزت على هذه (الحقيقة) أن يوجد من بين القراء من يظن أنى انتهزت فرصة (الكتاب) لأبرىء نفسى ، وما إلى هذه التبرئة أهدف ..

* * *

ولكن بعض القراء قد يجهلون دورى من القضية نفسها برغم كل ما ثار حولها من ضجيج ، ولهم علىّ إذن أن أقول لهم شيئاً عن هذا الدور بعد أن مضى عليه أكثر من سنوات خمس .

والاتهامات كلها لم يوجهها إلىّ أحد غير هـذا (الشاب) ، وكل ما فى القضية ناطق بأن (الشاب) هو وحده الذى يقول عنى كيت وكيت . .

يزعم (الشاب) أنه طلب إلىّ — باسم التشكيل العسكرى — كتابة (منشور) أسفِّه فيه السياسة الناصرية فكتبته بخطى ولكن (عاطف نصار) الرئيس العسكرى للتشكيل عاد فعدل عن (فكرة المنشور) ومزق (أصل المنشور) ، فاستعدم جسم الجريمة .

ويزعم (الشاب) أنه طلب إلىّ ، إعداد (الفيللا) التى كنت أقيم فيها فى ضاحية (المطرية) ، ليجتمع فيها (المتآمرون الضباط) ، ولتكون مستودعاً لأسلحتهم ، وللابسهم العسكرية التى يرتدونها ساعة الصفر ، وأنى قبلت تهيئة (الفيللا) لهذا الغرض وكان (التشكيل) يطلق عليها اسم (البيت الكبير) .

ويزعم الشاب أنه بعد أن أعد (المنشور) رأى أن من الخير أن ندفع نحن المدنيين ثمن طوابع البريد و (المظروفات) التى توضع فيها (المنشورات) وأنى أسهمت فى هذه المهمة بعشرة جنيهات — كما أسهم صلاح الدين وعبد الفتاح حسن وكما أسهمت بكتابة (بعض المظروفات) .

ويزعم أخيراً أنى كنت على علم بأسماء الشركاء فى المؤامرة وأنه كان ينقل لى أولا بأول كل أخبارهم .

هذه هى خلاصة الاتهامات التى وجهها إلىّ (الشاب) .

* * *

وليس لدى مانع من أن تأخذ بها أو تدعها .

وكل الذى يعنينى أن أقرر ، أن (الشهور الثلاثة) التى عشتها فى قلب هـذه المؤامرة ، كان (الشاب) يتولى ملء الفراغ فيها ، بحيث لا يفقد عن دورى ، وعن (الكيفية) التى أدير بها أجهزة الإعلام فى (القوة الجديدة) وكان يطيب له — وقد اتضح أمامه مجال « التعالم » — أن يعدنى بالخبرة التى اكتسبها من العمل فى وزارتى

الخارجية والإرشاد ومن رحلاته إلى أمريكا وأوربا فى معية وزيره ، وفى مهام.. كلها تقوم على أحدث وسائل الإعلام .

إلحاح وهروب

وكنت إذا أحرجته مرة أو مرتين فى كل شهر بسؤال معاد ومتواضع عن الوعد الذى حدده التشكيل الصرية .. زم شفتيه استنكاراً لتشاؤمى وقال : « عمه رضه معذورين فى التأخير .. لازم يستكملوا كل شىء » .

وفى شهر يناير ١٩٥٧ كنت قد ضقت بأساليبه وداخلتنى الشكوك فى جدية الأمر ورأيت أن أضايقه بدورى.. وصارحته ذات يوم أنى لا أستطيع أن أبقى طويلا « تحت السلاح » .. ووعد بأن يطلع التشكيل على هذه الرغبة من جانبى ويحمل إلىّ الجواب .

* * *

وفى شهر فبراير قال لى ذات ليلة :

— يبدو أن المسألة صرف عنها النظر لأسباب أنا نفسى أجهلها والزعيم العسكرى سافر فعلا إلى النمسا فى مصالح تجارية له .

وقلت فى بساطة :

— طيب .. مين عارف كان حايجرى إيه ؟

— على رأيك .

وأسدلت الستارة على « المؤامرة » ، وإن كنت لا أكتمك أنى أسأت الظن فى « الشاب » نفسه ، وأخشى أن أقول إنى ملت إلى الاعتقاد بأن المؤامرة كانت من نسج خياله ، أخشى أن أعلن هذا القول ، فتتهمنى بحق — بأنى أبديت رأيى ، وقلت إن الأمر لم يكن إلا كلاماً فى كلام وبكنى — إذن — أن أعيد القول إن « الشاب »

صارحتى بأن الأمر صرف النظر عنه ، وأن صاحب الأمر فيه سافر إلى الجبسا ولم يعد الحديث عنه محل .

* * *

وأعترف أنى تنفست الصعداء .

وأعترف أنى شعرت كأن صحوت من كابوس ثقيل .

* * *

ومضى فبراير ومارس واثنان وعشرون يوماً من أبريل (وكان يساير شهر رمضان يوماً بيوم) ، من غير أن أسمع منه كلة واحدة عن « التشكيل » ، ولو كلة « سباب » يعرب بها عن ضيقه بهم ، أو يعلق بها ، موقفاً له بات فى نظرى مكشوفاً .

وأرجو ألا تعجب إذا أنا قلت لك إنى لم أقابل تصرفه بأى استنكار ، لكثرة ما ألفت منه — أو مر بى — من تصرفات غير مألوفة .

* * *

وقد لا أعدو الحق إذا أنا قلت لك إنى نسيت الأمر كله أو كدت . أو على التحقيق لم أعد أفكر فيه ، أو لم يعد له وجود بالنسبة إلىّ ، حتى قبض علىّ .

* * *

وفى الدرجة القصوى يهمنى أن تدرك أن صلتى بهذه « المؤامرة » لم تقم على صلتى بالمتآمرين ، ولا بالزعيم العسكرى ولا بإخوانه العسكريين ، وإنما قامت على صلتى (بالشاب) ، وأنه وحده الذى وجه الاتهامات إلىّ ، ولم يوجهها أى شخص آخر ، ولم توجهها أية جهة أخرى .

* * *

وعسى أن أكون بهذه الصورة قد رسمت صورة صادقة للمرحلة الثامنة فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل التاسع

المفاجأة المذهلة

اثنان وعشرون يوماً مضت من أبريل سنة ١٩٥٧ — ومثلها من شهر الصيام الذى كان يساير أبريل فى الأيام — وكان من عادتى ألا أذهب إلى مكتبى إلا فى الحادية عشرة من الصباح لأصل صيامى مع زوارى ساعتين من الزمن .. أعود بعدها إلى البيت لأنام .. حتى يوقظنى أهل البيت قبيل الإفطار .

* * *

وفى يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من أبريل ومن رمضان .. دقّ جرس التليفون فى مكتبى وكان المتحدث زوجة هذا « الشاب » وهى ابنة خالة له . ولم أكن رأيتها قبلا ولا سمعت صوتها .

وفهمت من السيدة أن زوجها دعى تليفونياً أمس ذلك اليوم (أى الإثنين) من مكتب شركة مصر للطيران بميدان الأوبرا لتسلم طرد مرسل باسمه ، فبارح البيت ولم يعد .. وأنها سألت عنه فى كل مكان يتردد عليه .. وكل صديق يعرفه فلم تعثر له على أثر .. وأن جارة لها .. طُلب أيضاً زوجها تليفونياً فى الفجر .. بعد أن قيل له إن « الشاب » أصيب إصابة بسيطة فى حادث سيارة ودعى إلى لقائه فى مكان حددوه له .. بعد أن حذّروه إلا يُقلق أولاد « الشاب » وذهب الجار ولم يعد أيضاً .

* * *

ولو لم يكن المتحدث زوجة « الشاب » .. لما أعرت الحادثة اهتماماً .. لأن « الشاب » كان لا يدخل بيته إلا وجه الصباح عادة .. وله سهرات لا يبالى أن تستغرقه يوماً ويومين .. ولكنى أردت أن أجاملها فأوقفت مهتماً فى مصلحة الآثار

كان يزورنى .. وصديقاً آخر من « التجار » كان موجوداً عندى .. إلى الأقسام والمستشفيات لم يعثرا له على أثر أيضاً .

ولا أدرى كيف مر الأمر بى بسيطاً .. هكذا .. ومن غير أن يثير فى ذهنى أمر المؤامرة .. التى كان قد صمَّى إليها ثم حددها .. وحتى هذه الساعة لا أجد تعليلا لهذه الحقيقة .

وفى اليوم التالى — الرابع والعشرين من أبريل (ومن رمضان) ذهبت إلى مكتبى كالعادة .. وفتح لى « بَوّاب العمارة » باب (التاكسى) كالعادة أيضاً .. ولكن الذى لم يكن عادياً .. إمارات الذعر التى خيل إلىّ أنى أراها مرتسمة على وجه الرجل .. ولم أتلبَّث عندها .. ومضيت أصعد الدرج وأفسر إمارات الذعر .. بالأثر الذى يتركه الصوم على وجه كل صائم .. إعياء فى القوى وامتقاعاً فى اللون .. وذهولا فى النظرة أشبه بالخوف أو بالذعر أو بالجمود .

وواصلت الصعود .. وإذا نداء مهذب ناعم يلاحق أذنى ..

وتوقفت واستدرت إلى الذى ينادينى فرأيت أمامى شاباً يبين عليه التهذيب يقول فى أدب جم :

— فلان .. ؟

— نعم

— أنا يافندم .. الصاغ (وقتئذ) إبراهيم حليم من المباحث

— أهلاً وسهلا .

— والله يافندم إذا سمحت .. عندى أمر بالتفتيش .. وإن شاء الله ما أزعجكش .

— أبداً .. تفضل .

وكان (ساعى المكتب) يفتحه فى الثامنة من صباح كل يوم .. وكان ابن أحمق (فتحى محجوب) الطالب — عامئذ — فى السنة النهائية فى كلية الحقوق .. يقيم فى غرفة من غرفات المكتب .. ليستذكر دروسه مع إخوان له فى مكان هيأ .. ولكنى لاحظت أن الباب (موارب) وما كدت أدفعه بيدى حتى حدث لغط .. وألفيتنى أمام ثلة من المخبرين كانوا يجلسون فى أول غرفات المكتب و بينهم ابن أحمق وساعى المكتب .

ولأول مرة بدأ جهازى المتعطل يعمل .

ولأول مرة ربطت بين هذا المشهد .. و بين « الشاب » الذى لم تقف له زوجته على أثر .

ولأول مرة من شهرين أو ثلاثة .. ذكرت المؤامرة والمتآمرين . وساورتنى المخاوف .

* * *

وفرغ الضابط من تفتيش « المكتب » ولم يجد شيئاً يريبه ..

وظننت أن الأمر وقف على ذلك الحد .. ولكن الضابط سألنى إن كان من الممكن أن أرافقه إلى بيتى فى « الفجالة » .. وإلى « الفيلا » للتفتيش أيضاً .. فأدركت أن لديه بيانات وافية ولم أعد أشك فى أن الإجراء يتعلق بالمؤامرة .. وخطر لى لحظتئذ — فى شكل الخاطر الذى يتوهج فى الرأس وينطفئ — أنى ظلمت «الشاب» وأسأت به الظن .. وأن هناك — إذن — مؤامرة جادة .. ومتآمرين جادين .

* * *

و يبدو أن الضابط كان صاحب ضمير .. ولم يكن أخا تهذيب شكلى فقط .. لأنه انتهز فرصة تفتيشه فى « دولاب ملابس » وقال فى مرح يهوِّن به وقع التفتيش علىّ .. أنه يرى من باب الأخذ بالأحوط فقط .. أن آخذ معى بعض الملابس الخفيفة

لأن التحقيق قد يستغرق ليلة أو أكثر .. فأدركت حقيقة الأمر .. وملأت إحدى الحقائب ملابس .. وكان عندى عشرون علبة من سجايرى فأخذتها معى وتمنى نصحه أيما شيء .

واتجهت بنا العربة — بعد التفتيش — إلى طريق تؤدى إلى العباسية .. وفجأة خرجت إلى يسارها ومرقت من تحت قوس .. آخذة طريقها إلى ملا أدريه .. حتى وقفت أخيراً أمام مبنى رهيب كتب على بابه : « السجن الحربى » ورأيتنى أتمتم :

إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة

* * *

واستقبلنا صاغ مهذب آخر علمت من الحديث أن اسمه « إبراهيم خليل » أو لعله « خليل إبراهيم » ورق الرجل فى حديثه .. وكأننا أعزاء تنزل عليه ضيوفاً .. ضجبت لمثل هذه الرقة .. تستقبل الضيوف فى سجن رسم له الخصوم فى الأذهان صوراً مرعبة .. وعدت قلت لنفسى : « لعل الصور التى رسموها تبين بعد حين » .

وانصرف « إبراهيم حلمى » لشأنه وأسلمنى « خليل إبراهيم » إلى الجاويش بعد أن أعرب لى عن أسفه وتمنى لى إفراجاً قريباً وأدخلت إلى إحدى الحجرات فى « المعتقل رقم ؟ » ..

ولم أجد فى ملامح الجاويش الشاب .. ما يستريح إليه السجين .. فأردت أن ألطفه .. فشكرت له متاعبه وهو يضع الحقيبة فى غرفتى فاستدار على عقبيه وعقد ما بين حاجبيه ولم يرد كلمة الشكر التى وجهتها إليه وكنت أسمع صوته .. إذا طرق سجين آخر باب غرفته من الداخل .. كنت أسمع صوت « الشاويش فؤاد » وهو يرد على الطارق « طيب .. يزبانه بقى .. أسكت » .

ومضى الأربعاء ومضى الخميس .. ولا صدى .. إلا صدى صوت « الشاويش » يصدر تعليماته إلى جنوده .. وإلا وقع حذاء .. وخطاهم .. يروحون ويجيئون ..

التحقيق

وإذا كنت أرخص لنفسي في لمحة من التحقيق الذي جرى معي في « السجن الحربي » فليس معنى هذه السمحة أني سأتابع كل التحقيقات في مختلف مراحلها .. وإنما معناها أن لماصلة عوقتي من الناصرية ومراحل كفرى وإيماني .. وأهداف كتابي .

* * *

وفي يوم الجمعة السادس والعشرين من أبريل (ومن رمضان) جاءني الجاويش يسعى إليَّ .. أني مطلوب في مكتب (قائد السجن) فاستمهلته حتى أرتدي ملابسي فقال (لا داعي) فتبعته بجلبابي الصيفي الأبيض .. ودلفنا إلى حجرة القائد .. فرأيت « المحقق » يتصدر « المكتب » وقد خلع عنه سترته وهو شاب فارع العود سمح المحيا رياضي التكوين تأنس النفس به ويسكن الخاطر عنده وتستريح العين إليه أو هكذا خيل إليَّ ..

وإلى يمين المكتب صفت كراسي شغلها ستة أو سبعة .. وإلى اليسار صف عدد مماثل شغله عدد مماثل ، وكان معظمهم يرتدون وجوهاً عابسة وملابس باشة فقدَّرتُ أنهم لابد أن يكونوا ضباطاً في أزياء مدنية .. وأن يكون المحقق من رجال النيابة والقضاء ، ولم يكن في الغرفة زي عسكري إلا الذي يرتديه قائد السجن .

الكذب الأبيض

وفي مثل هذه القضايا لا تصدق أن متهماً يقول « الحق كل الحق .. ولا شيء إلا الحق » ..

وأشرفُ المتهمين من يقصون من « الكذب » باللون « الأبيض » الذي يجنبه المتاعب .. ولا يقصيه عن « الصدق » إلا بقدر ما يبذل من الجهد في تجنب هذه المتاعب .

وكنت خلال اليلتين اللتين قضيتهما وحيداً داخل غرفتى .. أكرس جانباً كبيراً من وقتى وتفكيرى لإعداد « الأكاذيب البيضاء » التى ألمحت إليها ، وأعتقد أنها لا يمكن أن تعرف ، وأنها لابد أن تمر هينة وفى يسر ، لأن دورى « فى المؤامرة » هين فى حقيقته ويسير .. وبدأ المحقق حديثه معى رقيقاً ومشجعاً وسألنى بما معناه :

— إيه حكاية المؤامره دى يا فلان ؟

وكنت قد قررت أن أتجاهلها تماماً ، وهى « كذبتى الكبرى » فقلت فى لهجة مَن خلا ذهنه منها :

— مؤامرة إيه يافندم ؟

وابتسم فى وداعة وقال :

— أنا عارف إنك صايم .

— صحيح .

— وأنا صايم مثلك .. دعنا نحلوق .

— يافندم أنا على أتم استعداد .

— أنا عارف .. وأعرف كمان أنك راجل صريح .. وآمل ألا تتصنى .. شرفاً ألا تعرف شيئاً عن المؤامرة التى قبض عليك من أجلها ؟

— إطلاقاً .

قلت « إطلاقاً » ولا أدرى حتى الساعة : كيف كان وقعها على الرجل ، وإنما الذى أدريه وأذكره .. أن كلمة : « شرفاً » التى وجهها إلىّ .. وَخَزتنى .. فهل ارتسم على وجهى يا ترى انعكاس لتلك الوخز .. وإن كان الانعكاس قد ارتسم .. فهل تنبه عليه الرجل .. ومفروض فيه أنه محقق مدرَّب تمرس طويلا بالكذب الأسود والكذب الأبيض ومختلف ألوان الأكاذيب ؟

لا أدرى أيضاً ، والذى أدريه مرة أخرى أن المحقق صمت قليلا ثم سألنى فجأة وكنت أتوقع سؤاله :

— تعرف فلان (يعنى الشاب) ؟

— طبعاً .

— ولماذا طبعاً ؟

— لأنى أعرفه مذ كان تلميذاً .. بحكم أنى كنت صديقاً لأخيه الأكبر .

— إذن مفروض وقد كبر أنه هو الآخر صديق ؟

— برضه طبعاً .

— عظيم . ما رأيك إذن فى أن هذا الصديق هو الذى يقول إنك تآمرت معه .. وأنه هو الذى ضمك إلى تشكيل المتآمرين ؟

وأذكر — أو شعرت ساعتها — أنى أحسنت تمثيل الدور وأنى كنت أتكلم فى حرارة يَبين عليها الصدق ، ولا أستطيع أن أحدد مدى تصديق المحقق لهذا الذى تبدى « صدقاً » أو « كالصدق » وأما أجيب بما معناه إذا لم يكن قريباً من النص :

— يؤسفنى وبكل الصراحة التى أعرفها عن نفسى أن أقرر أن كل ما يقوله هذا الشاب غير صحيح ، وأنا شخصياً أمضيت الليلتين فى هذا السجن أحاول عبثاً أن أجد سبباً يبرر اعتقالى ، فلو أنى أعرف شيئاً عن مؤامرة شاركت فيها لما أتعبت نفسى .

ضمير وذمة

وتوالت الأسئلة من السيد المحقق وتوالت الإجابات منى واختتم هو كل هـذا المكر والفر بقوله :

— طيب يا أستاذ سوادى .. أحب أن تلخص لنا فى تقرير — وأنت الكاتب — كل

ما جرى بيني وبينك اليوم من سين وجيم وسيضع السيد قائد السجن تحت تصرفك كل ما تطلبه من تسهيلات ، من ورق وقلم وشاى وقهوة ، وقد أصدرت تعليماتى إليه أن يحقق لك كل ما يعاونك على الإقامة المريحة هنا حتى ينتهى التحقيق ، وكل ما أطلبه منك أرجوك وأحتمل المسئولية أمام الله أن تفطر اليوم حتى لا يدفع الصوم بالقلم للانزلاق إلى أية عبارة قد لا ترضى عنها وأنت فى قواك المادية والسيجارة فى يدك .

* * *

وأحسست أنى أمام محقق يجمع بين الضمير والذمة ، ويحقق قلبه بمشاعر الإنسان ، ومشاعر المسلم ، وشجعنى سلوكه على أن أقول له :

— ما دمت قد ذكرت السيجارة .. فأرجوك أن يكون من حقى أن أشكو إليك منع السجاير عنى .

وأبدى الرجل دهشته وقال لقائد السجن فى غضب :

— إصرف له من الكانتين كل ما يطلبه ، ما هذه التصرفات ؟

— يافندم ألف شكر ، وأنا على فكره عندى أظن حوالى عشرين علبة سجاير فى خزانة أركان حرب السجن ولدىّ فى « الأمانات » اثنا عشر جنيهاً وبعض القروش كانت فى جيبى وقت اعتقالى وأظن أنها تكفى مطالبى من الكانتين حتى تسمحوا لإبن اختى أن يرسل لى مزيداً من النقود .

وأمر المحقق فخىء بالسجاير وناولنى منها علبتين ورخص لى أن أطلب ما أشاء منها .

وأعادنى (الشاويش فؤاد) إلى (الزنزانة) فى شىء من الرقة لم يكن يعاملنى بها قبلاً .. ولم تكن مفصلة على قده أصلاً .. وقال وهو يغلق الباب (تلزم خدمه يا حاج ؟ وابتسمت وشكرت . فتمتم يقول وهو يغلق الباب ولم ينس العنف فى إغلاقه كما تعود : « يظهر إنك انت الراجل الطيب اللى فى جاكتك » .

ومن هذه العبارة ، أدركت أن آخرين اعتقلوا معى ، وأنهم شركاء فى نفس المؤامرة.. وحزرت أن يكونوا أعضاء فيما كان «الشاب» يسميه «التشكيل العسكرى» و «التشكيل المدنى » ولكن من هم يا ترى ؟

وأحيانى الجواب .. وإن كان تفكيرى قد امتد إلى الكثيرين من الساسة الذين يصلحون للتآمر .. ولعل اتهامى امتد إلى خمسين منهم ..

من هو المحقق؟

وعاد المحقق يوم الثلاثاء (وقفة العيد) فاستدعانى مرة أخرى ولم يكن معه من شلة العابسين أحد ، وكان يرافقه كاتب تحقيق شاب ، أنيق هو الآخر ورقيق .. وبدأ المحقق يفتح محضراً و يقرأ التقرير الذى كنت قد كتبته ويستخرج منه أسئلة يوجهها إلىّ وأثبت الكاتب إجاباتى عليها حتى إذا أتم المحضر قدمه إلىّ لأرى إن كان أميناً فى إثبات ماقلته ، ووقعت بامضائى وشكرت الله على أن اختار لى من السلك القضائى محققاً نظيفاً ومسلماً وصائماً وذا ضمير ولم أر الرجل مرة أخرى ، فمن هو ياترى ؟

والجواب سيجىء ..

التعذيب ؟

وجاءت ليلة العيد ..

وكان كل همى أن يتسرب إلىّ من خلال القضبان قبس من نور ، نور يبدد شيئاً من الظلمة التى أعيش فيها ، أو يرينى شيئاً يطمئننى إلى مصيرى ، ومأنذا فى يوم عيدى ، أقضيه خلف أسوار السجن الرهيب .

ولم يغمض لى جفن ليلة العيد .

وكان المرح بادياً على صوت الجاويش وأصوات مساعديه ، وإذا سعد السجان ، شق السجين ، أو هكذا لاح لى والجاويش « يدندن » على مطالع العيد .

وخيل لى أن حرب الأعصاب قد بدأت ، لأن باب المعتقل كان يحدث صريراً

مخيفاً كلما فتح وكلما أغلق ، كما خيل إلىّ أن الجاويش ومعاونيه يتعمدون بث المخاوف في قلب كل سجين ، لأنهم أكثروا من فتح الباب وإغلاقه .. وتراءى إلينا من خلف نوافذ المعتقل .. نباح كلب .. تبدى في خيالى كلباً بالحشاً ، أعد لنهش المتهمين بأنياب لا ترحم ، كما حدثنا قبل السجن خصوم ناصر عن هذه الكلاب وما لها من أنياب ، وعن مختلف وسائل التعذيب .

* * *

وجاء يوم العيد ، ولم يجىء معه أى تعذيب .

والذى جاءنا هو قائد السجن يحف من حوله ضباطه ليزجوا إلينا التهانى بالعيد ، وليقدموا لنا الحلوى ، وليؤكدوا أنها « محنة وتنتهى » و « شدة وتزول » ، وعنى القائد بسؤالى عما إذا كان في وسعه أن يقدم أية خدمة فسألته عن الطعام ولماذا لا يرخص لأهلنا في إرساله إلينا من منازلنا فأكد الرجل أن المطلب سيتحقق في خلال أيام وأخذ منى رقم تليفونى ليتصل بابن أخى ، وبر بالوعد فعلا .

***

وجاءنا العيد بمشهد يثير الدهشة .

جاءنا بصول من صولات السجن عليه سمات الصالحين ومعه شيخ كبير في السبعين وقد يزيد ، هو إمام مسجد السجن .. للمعايدة ، وكانت عينا الشيخ مليئتين بالرقة والحنان ـ ولا أقول : « وبالدموع » — وراح يؤكد في تهدج الواصلين والعارفين أن الفرج بإذن الله قريب .. وأن الصبر الجميل هو أمضى سلاح في معركة الشدائد .

وأشهد أنى تأثرت بالشيخ والصول ، أكثر مما تأثرت بالضباط والقائد ، وما كاد الشيخ والصول ينصرفان ، والباب يغلق علىّ ، حتى شعرت بحاجتى الملحة إلى الدموع ، فبكيت لأول مرة في سجنى . وانشرح لأول مرة صدرى وأحسست أن الدموع غسلت كل ما كان قد ران على الصدر والقلب والروح من أثقال وآلام وجروح .

وأرجىء الآن الحديث ليجىء فى مكانه عن المعاملة التى عوملنا بها فى هذا السجن وكيف كانت «ركيزة» من «الركائز» التى قام عليها تفكيرى فى «الناصرية» كسلوك.

فى النيـابة

وجاء دور انتقال التحقيق إلى مقر نيابة أمن الدولة الأستاذ على نور الدين. وكان قد اتخذ لهـذا التحقيق مكاناً .. غرفة من غرفات الدور الأول فى مبنى وزارة الداخلية.

وكان المتبع أن يصل أحد ضباط المباحث إلى السجن فيطلب إلىّ الجاويش أن أرتدى ملابسى كاملة، ويذهب بى إلى مكتب أركان حرب السجن فيتسلمنى ضابط المباحث منه فأرافقه فى سيارته الفاخرة حيث يسلمنى إلى على نور الدين فيحقق معى وبعد التحقيق يعود بى الضابط إلى سجنى.

وكان بعض الضباط يذهبون فى حسن المعاملة إلى حد بعيد.

وكانت الشوارع فى ذلك الحين (مايو ١٩٥٧) قد ازدانت بلوحات الدعاية عن الانتخابات التى كانوا يزمعون إجراءها لإقامة أول مجلس أمة فى «جمهورية مصر» ليجتمع فى الثانى والعشرين من يوليو من نفس العام فكان الضابط يسألنى — وقد يكون له هدف من وراء حسن المعاملة — إن كان يطيب لى أن أتفرج على الزينات.. ويأمر السائق فيطوف فى شوارع عماد الدين وسليمان باشا وغيرهما ثم يذهب بى أخيراً إلى وزارة الداخلية، وليتنى الساعة أحسن قصة ولا أضع كتاباً لأحدثك عن شعورى والعربة تمشى ببطء أمام المقهى الذى كنت أسهر فيه، وأشهد الخدم الذين أعرفهم يمرقون بين الموائد «أحراراً» وفوق أيديهم أكواب وأقداح، ولا يدرون أى نعيم مقيم هم فيه، وأن داخل العربة التى مرت أمامهم .. عزيزاً يعرفونه لا يملك أن يلقى التحية عليهم.

ولكن مالنا .. وهذا الشطط؟

ولقد..

استغرق تحقيق النيابة معى أربع جلسات .

وكنت أراجع كل صفحة كتبها كاتب التحقيق قبل أن أضع عليها توقيعى .

وقد فقدت أعصابى مرة واحدة .. لكلمة — لم تعجبنى — من ضابط كبير كان يشهد التحقيق — وكانت تنم على أنه لا يصدق ما أمليه على الكاتب ، فاحتججت احتجاجاً عنيفاً ، وسارع الضابط إلى الاعتذار وأكد أنه لم يقصد إلى المعنى الذى ذهبت إليه وأوقف على نور الدين التحقيق ، وطلب لى قدحاً آخر من القهوة ، وشارك فى تأكيد ما أكده الضابط ، ومرت العاصفة .

ورضيت عن سير التحقيق .

وبعد عشرين يوماً من اعتقالى كان التحقيق قد انتهى بالنسبة لى .

وظلت بقية الشهور الثلاثة التى قضيتها فى السجن الحربى آكل وأشرب .. وأصلى وأقرأ .. وأدخن وأفكر .. ولا أجد جواباً كلما سألت نفسى : « وبعد » ؟

ثم أسلم رأسى إلى الوسادة وأغمغم « إلى الغد .. » .. أى غد يشاؤه القدر ..

صلاح الدسوقى

وفى يوم العيد الخامس الثورة .. عندما التقينا عبن الجمة — أفراد التشكيل المدنى — لأول مرة فى غرفة القائد .. اكتشفت سراً لم يحل لى قبلا خاطر .. اكتشفت أن الشاب الذى أوليته تقديرى ظناً منى أنه من الأسرة القضائية .. وأنه وكيل نيابة أوفد إلى السجن الحربى للتحقيق معنا ، لم يكن من أسرة القضاء يوماً .. وإنما هو ضابط البوليس صلاح الدسوقى (أركان حرب وزارة الداخلية يومئذ ومحافظ القاهرة اليوم) .. وقد رأيت لحساب التاريخ وقد بدأ الشاب يقرع بابه — ساعداً مفتولا من سواعد ناصر — أن أسجل التاريخ هذه الواقعة .

الفصل العاشر

عود إلى التعذيب

قد يدور بخلدك — قبل أن نبرح هذا السجن الرهيب — أن تسأل : إن كنا قد مضينا فيه بقية الشهور الثلاثة بنفوس مطمئنة .. بعد أن هومنا تلك العاصفة العاتية ؟

وبكل «الصدق الرهيب» الذى أتوخاه فى هذا الكتاب .. أقول : « كلا » .

وبيان هذا « النفى » — وأفضل أن أتحدث عن نفسى فقط — أنى أمضيت الشهور الثلاثة فى قلق .. وكنت طوالها فريسة للمخاوف ونهباً لسوء الظن .

وكان لظن السيء ما يبرره .

وجاءت إحدى الحادثات .. فلم تبرر القلق الذى كان يفترسنى فقط .. ولا برّرت الظن السيء الذى كان يلازمنى الشهور الثلاثة فقط .. وإنما جاءت حادثة التاسع عشر من مايو لتملأنى رعباً .. ولتفر أمامها شجاعتى فراراً .. وكنت أظن — غروراً منى — أن الشجاعة إحدى صفاتى .. كريفى وصعيدى .

ويحسن أن أبدأ بالحديث عن القلق .. ثم أنتقل إلى الحادثة التى ملأتنى رعباً .

قلق .. وسوء ظن

انتهى التحقيق بالنسبة لى بعد جلسات أربع .. أمام على نور الدين كما سبق أن ذكرت .

ولكنى كنت أجهل أنه انتهى ..

وكنت فى كل يوم .. وفى كل ساعة .. أتوقع أن يستأنف .

ولم أكن أعلم أن المعتقلين معى — قضية « المؤامرة » — ثلاثة عشر .. وأن من بينهم ثمانية من ضباط الجيش .

ولم أكن أعلم أن من بين العسكريين ذوى رتب عالية كالأميرالاى عاطف نصار الذى يرأس التشكيل العسكرى .. والذى اعتبر فى إحالته إلى المعاش « لواء » .. وأن من بين المدنيين الخمسة وزيرين وفديين هما الدكتور محمد صلاح الدين وعبد الفتاح حسن .

ولم أكن أعلم أن التحقيق كان مقدراً ألا يجاوز أياماً وكان مقرراً أن يجرى فى سرية .. وأن هذا الوضع كان يحتم على المحقق أن يواصل ليله ونهاره .. وقد يمتد التحقيق مع أحد المتهمين إلى منتصف الليل ثم يستدعى آخر .. وقد يمتد التحقيق معه إلى الفجر أو إلى الصبح ..

* * *

لم أكن أعرف شيئاً من هذا كله ..

وكنت أسترق السمع دائماً .. رجاء أن أعرف شيئاً ..

ولم أكن أسمع غير خطى « الجاويش » مقبلة بعد منتصف الليل .. تتبعها خطى « إنسان » آخر .. ثم أسمع باب غرفة يفتح .. ويتغيّب خلفه ذلك الإنسان ثم يغلق عليه .. وتتجه خُطى الجاويش — وقد ألفتها أذناى — إلى غرفة أخرى .. يخرج منها « إنسان ثان » .. وتتجه خُطى الإثنين إلى باب الخروج ليدور .. ويرسل صريره كأبشع صرخة تشق قلب السكون .. ويخرج الإثنان .. وتتلاشى الخطى ..

وأظل أنتظر دورى .. حتى يعود الجاويش بالمتهم الثانى قبل الفجر أو بعده .. وتسكن الحركة .. وأغمض عينى وأنام .. أنام بنصف عين فقط .. لا للقلق الذى يلازمنى فحسب .. بل لأن (الشاويش فؤاد) .. يطيب له بعد كل ما قام به من « عمليات استيراد وتصدير » إلى مكتب التحقيق .. أن يرفه عن نفسه .. وأن يغنى فى الفجر أو فى السحر .. « عاد السلام .. السلام يا بيل .. بعد الكفاح .. الكفاح المجيد »

وعلى الرغم من أن التحقيق فى السجن .. وفى النيابة انتهى .. ولم يعد أحد يُستدعى .. ولا ترامت إلى مرة أخرى أصداء تلك الحفل .. برغم هذه الحقيقة .. لم أستطع أن أطمئن إلى السجن الحربى أبداً .. إلا بعد أن « أخلوا طرفنا » منه .. وبارحناه مودعين من القائد والضباط فيه .. بأطيب التمنيات .

* * *

وهذا « الشعور » الذى رحمته لك بأمانة .. يكشف عن الأثر الكبير الذى ترسّبه فى الأعماق أكاذيب الخصوم وهم يعبثون فى فجاج البلد يروون « الحواديت » ويرددون الأقاصيص عن السجن الحربى وما يجرى فيه .. وعن لوحة علقت ببابه وكتب عليها : « الداخل مفقود والخارج مولود » فلما زار المشير عامر هذا السجن وقرأ اللوحة غضب غضباً شديداً وأمر بنصفها الأخير فرفع .. رحمة برجولة السجين .. من أن يعود وليداً .. وأصبح المكتوب « الداخل مفقود » فقط .

كانت هذه « النكتة البائخة » تُروى لنا فى المقهى .. وكنا نضحك لها فى راحة الشامت الســاخر .. حتى دخلنا « السجن الحربى » وعشنا فيه .. وفى قضية كان عبد الحكيم عامر نفسه هو الذى تلقى أول بلاغ عنها .. وهو الذى أشرف عليها .. وندب صلاح الدسوقى لتحقيقها .. وخرجنا .. ولم يعتبر أحد منا « مفقوداً » .

الحادثة المرعبة

أما الحادثة التى ملأتنى رعباً فقد وقعت كما قلت فى اليوم التاسع عشر من شهر مايو و « أظنه كان يوم ثلاثاء » وكان التحقيق بالنسبة إلىّ قد انتهى .

كنت فى ذلك اليوم أحدق فى الفضاء من خلال قضبان النافذة الوحيدة فى الغرفة كعادتى .. وكانت هذه النافذة هى التى تصل بين مشاعرى وبين الحياة .. ومنها وحدها أتجه دائماً إلى الله وإلى سماء الله .. ومنها وحدها أتلقى أضواء النهار ونسمات الليل فى ذلك الصيف .. وفجأة ترامت إلى سمعى دقات مجار يدق « مسامير » .. أو يفعل شيئاً فى إحدى الزنازين .. وظلت الدقات تقترب وأنا أرهف السمع .. حتى ترامت

إلى .. من الغرفة التي تلاصق غرفتي .. واستطعت أن أدرك أن ألواحاً خشبية تثبت بالنوافذ لإغلاقها .

ومشى الرعب إلى قلبي .. وذكرت كل ما كان الخصوم يقولونه عن التعذيب في السجن الحربي ، وإغلاق النوافذ .. معناه أن تسبح الغرفات في ظلام دامس في قلب الظهيرة .. ولا تفسير لهذا الظلام .. إلا أن دور التعذيب قد حان .

* * *

ورأيت السلم الخشبي تنقل « يد في خارج الغرفة .. وتثبته على حافة النافذة .. ورأيت « نجاراً » يرتقي السلم وفي يده لوح من الخشب و « قدوم » و « مفصلات » و « مسامير » و « مشابك » .. حتى أطل عليّ .. وأنا جالس في سريري والمصحف بين يدي .

حدق الرجل بعينيه في عيني .. وبان عليه الأسى — أو هكذا خيل إليّ — وتلفت يمنة ثم يسرة وألقى السلام عليّ .. فرددت التحية بأحسن منها — طبعاً — وأنا أغتصب له من بين شفتي ابتسامة رائعة .. وانتهزت فرصة عطفه وسألته في نبرة المغلوب على أمره :

— انتم حاتسدوا الشباك ؟

وفهمت من إجاباته المتقطعة وهو يواصل التلفت .. أن تعليمات من أركان حرب السجن صدرت إليه بسد هذه النوافذ ولا يعرف لها سبباً .

وقلت الرجل فيما يشبه الرجاء أني مريض بالقلب (وهذا أيضاً من الكذب الأبيض) وفي حاجة ملحة إلى الهواء في الليل قبل النهار .

وفكر قليلا ثم اقترح أن يترك أحد الوجهين بغير « شنكل » أو « مشبك » حتى يتعذر عليهم إغلاقه .. أو ليتحه أي هواء يهب عليه .

وشكرت له حسن صنيعه وهو كل ما يملكه .. وإن كانت فكرة التعذيب ظلت تلاحقني وتفرض نفسها على تفكيري .

وانتقل إلى غرفات أخر .. وفرغ من المهمة .

* * *

ولم تمض دقيقتان .. حتى سمعت الضابط يستدعي الجاويش ويسأل غاضباً : كيف ترك نصف هذه النافذة بغير « شيك » ؟

وحدث هرج وجرى بالسلم من جديد .. وارتقاها النجار كاسف البال ، وأدى ما طلب إليه وهو يتمتم بعبارات اعتذار تصلح لي ولرجل من خلفه ذي شأن عرفت فيما بعد أنه الضابط .

وقعت الواقعة !!

وبعد ربع ساعة تقريباً .. حدث هرج جديد .. وترامت إلى أذني أوامر الضابط تنطلق من بين شفتيه في لهجة عسكرية صارمة : « اقفل يا عسكري » .. وترامت إلى أذني أصداء إغلاق النوافذ .. وجاء دوري فأغلقت نافذتي .. وسمعت غرفتي في بحر من الظلمات لا أكاد أتبين فيها يدي .. وأطبق المحذور .. ووقعت الواقعة .

ورفعت عيني إلى السماء .. فالتقت بالسقف ولم تلتق بالسماء .. فلم أقو على الضراعة والدعاء .. وانهمرت دموعي .. وكان البكاء الصامت الثاني داخل سجن .

وسمعت الضابط يقول : « مظبوط يا عسكري ؟ » وعاد يقول « طيب افتح بقى » وفتحت النوافذ .. وعاد النور .. وتنفست الصعداء .. وتطلعت بعين الحرمان إلى السماء .

ولكن إلى متى .. تظل مفتوحة ؟

ألا يكون الأمر قد أعد نهاراً .. ليجرى ما قدر علينا بعـــد أن ينقلوها في الليل ؟

وومض رأسى خاطر .. فوثبت من فراشى ودققت الباب بيدى .. وجاء الجاويش .. ففتح الباب .. فطلبت منه استدعاء « حضرة أركان حرب » وأغلق الباب ومضى .. وبعد فترة عاد إلىّ يطلب « ذكر أسباب الاستدعاء لأنه مشغول » فقلت له « قل له إنها أسباب خاصة لا أفضى بها إلا إليه » وأغلق الباب .

ومرت ساعة من الزمن لعلها أثقل على النفس من عام .

وتراءى إلى أذنى هرج تحيات .. ووقع أقدام .

وفتح الباب .

* * *

وكان أركان حرب السجن ضابطاً سودانياً متمصراً .. بشوشاً ومهذباً فصافحنى وسألنى إن كان فى وسعه أن يقدم أى خدمة .. فسألته بدورى أن يوضح لى سبب غلق الشباك لغاقدتى فقال إن زميلا لنا — يجاور غرفتك — شكا من البرد الذى يتسلل إليه فى الفجر .. وبصيغة يزكام فأمر قائد السجن بعمل شبابيك خشبية للنوافذ حتى يتسنى إغلاقها ليلا حرصاً على سلامتكم .

وقلت للضابط إنى على نقيض الجار .. مريض بالقلب وضيق التنفس .. وفى حاجة إلى كثير من الهواء فى الليل قبل النهار .

ووعد الضابط أن يرفع الأمر للقائد .. ورحلت على القلب بالبد .

* * *

وبعد فترة قصيرة — مضت ثقيلة وحشية — رأيت النجار يرتقى السلم المرة الثالثة — صاحبك الوجه هذه المرة .. وراح ينتزع اللوحين فى ابتهاج ورضى ..

ويتلفت يمنة ويسرة ... ويقول وكأنه عثر بالورقة الرابحة « امت راسل طيب ياحاج « الفرج قريب إن شاء الله .. خليك مع الله » .

وما كاد يتوارى عنى — هو وسلة المشمش — حتى سجدت لله شكراً .. وانهمرت دموعى للمرة الثالثة والأخيرة طوال الشهور الثلاثة .. وكانت دموع العرفان لله فى هذه المرة .. ورأيتنى أنظر فى المصحف أمامى : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها » .

يا شعيب ..

وفى شهر يونيو أو يوليو — ندب لمعاونة الجاويش محمد حديد « دهشة » اسمه « شعيب » من أبناء الوجه البحرى — وأذكر اسمه لأنه أتم الخدمة وعاد إلى بلده — وأولانى شعيب عطفه من أول وهلة ولغير سبب.. وأمسى منذ أيام صادق الود حميمه .

وكانوا يدعونه لمراقبتى مرتين فى كل يوم « الفسحة » فى حدائق السجن بعض الوقت .. مرة فى الضحى ومرة بين العصر والمغرب .. وكان محظوراً على الجندى (كسجان) أن ينبس ببنت شفة مع المتهم (كسجين) .. ولكن (شعيب) كان يختلس النظر من بعيد إلى الجاويش (الذى اعتاد أن يراقب الجنود وهو مستخف خلف الشجر) حتى إذا اطمأن (الدهشة) إلى عدم وجود المراقبة .. التى إلىَّ .. ينقل كل ما يتصل به من أنباء .. وكان أهمها أنه سمع الضباط وهم يتحدثون عن قرب الإفراج عنا .. يوم افتتاح مجلس الأمة يوم ٢٢ يوليو أو فى عيد الثورة يوم ٢٣ لأن قضيتنا تقرر حفظها .

وكنت أنتظر مقدم (شعيب) كل يوم لأسأله إن كان قد سمع جديداً .. فيضيف ما يؤكد أنباءه أو لا يضيف .

وكان يؤسفنى أن يأخذ شعيب (راحة) وأن يحل محله آخر غيره .. وكنت أمضى مع الجديد إلى (الفسحة) صامتاً .. وأعود معه صامتاً .

وكنت إذا ناديت الجمع باسمه وقلت بملء فى : « ياشعيب » أحسست كأن النداء يحمل إلى .. أريج النبى — سَمِىّ شعيب فى القرآن — من فرط ارتياحى إلى هذا التواطن .. وتفاؤلى به ..

* * *

وسألت « شعيب » ذات مرة .. إن كان فى وسعه .. ومن غير إحراج — أن يقول لى شيئاً عن أوصاف المعتقلين معى ؟ فبدأ يدلى بكل ما يذكره من أوصاف كل سجين لو قال عن أحدهم إنه كان كما يقال وزيراً وفدياً للخارجية وعن آخر إنه كان وزيراً للداخلية فى وزارة الوفد فسألته أن يصفه لى فقال « أسمر وقصير ولسانه حلو وعصبى » فأدركت أنه يعنى (عبد الفتاح حسن) بطارق « العصبية » فقد كنت أعرفه سليم الأعصاب ولكن السجن يفعل الكثير .. ولم أبذل جهداً فى معرفة مَنْ قال عنه (وزير خارجية) وأدركت أنه (صلاح الدين) .

وتولى شعيب وصف مدنى آخر أدركت أنه (الشاب) وأكد لى صحة الوصف عند ما قال (ويلبس نضاره .. وبعيد عنك شايف نفسه شويه) وأضاف أخيراً أن هناك شاباً آخر يقولون عنه إنه وفدى واسمه (أحمد السادة أو السادات) فقلت له (هو بحاى ؟) فقال (أظن) ولم يدر بخاطرى أنه (أحمد السقا) ولم أكن أعرف « السادة المحامى » حتى أطلب مزيداً من الوصف .

وهكذا عرفت أسماء ثلاثة من الزملاء الأربعة .. بفضل صديقى شعيب .

وأوصيت « صديقى » أن يعنى فى عيد الثورة إلى الإذاعة صباح يوم افتتاح مجلس الأمة .. عند ما تحلق الطائرات فى الفضاء .. إيذانا بتحرك ركب الرئيس .

وفى ضحى ذلك اليوم .. أصخيت بكل أذنى .. إلى الفضاء .. فلم أسمع أى أزيز أو أى ضجيج وعشت بحيرة مريرة .. ولم أعلم إلا بعد أن بارحنا السجن .. أن المجلس افتتح جلسته —على غير عادة البرلمان المصرى— فى المساء ولم يفتتح فى الصباح .

وجاء اليوم الثالث والعشرون من يوليو عيد الثورة .

وكنت قد رأيت فيا يرى النائم حلماً لا محل لتفصيلاته فى هذا المكان . . وإنما يعنينى منه أنى فسرته على ضوء الأرقام التى وردت فيه والأحداث الناطقة التى تخللته . . بأن الإفراج عنا فى هذا اليوم الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٧ أمر مفروغ منه .

وتعاظم الإيمان بهذه الرؤيا . . حتى ألهب أعصابى . . ولم أنم طول ليلى . . فى انتظار صدور القرار بالإفراج . . تفسيراً للحلم واستناداً إلى ما كان (شعيب) قد سمعه من الضباط .

وجاء الصبح . . ولم يجىء الإفراج .

ومرت الساعات الأولى من الصباح من غير أن تحمل إلىّ أى قرار آخر أو أىّ إرهاص بالقرار . . فخزنت . . كأن القرار قد صدر ثم أُلغى .

وفى الظهر أو قبله . . سمعت خُطى الجاويش تقترب من غرفتى فخفق قلبى . . وعند ما فتح بابها ازدادت ضربات قلبى . . ولكنه مدَّ يده بعلبة السجائر التى يجيئنى بها يومياً وأغلق الباب فيئست . . وانقلبت على عقبى . . أؤنب النفس وأزدريها . . وأسألها كيف تدهورت إلى هذا المستوى من الضعف و « التخريف » كأنها لم تتجذب بالمعرفة يوما ولم تعبر وادى الثقافة ولو عبرا .

وفى هذه المرة من الأسى على تدهور تفكيرى انفتح الباب فجأة وسمعت الجاويش يقول فى لهجة العسكرى ينفذ الأوامر :

— إلبس هدومك وجهز شنطتك وكل حاجاتك وانتظر التعليمات .

ووثبت من السرير أقاوم الفرحة وأحاول أن أخفيها وهى تطل وقلت للجاويش :

— ليه ؟ فهمنى .

وقال الجاويش :

— الأوامر كده بس .. مافيش حرف زيادة .

ومضيت أجمع حاجياتي .. وأترك لهم كل ما ليست في حاجة إليه من الأطعمة وارتديت ملابسي ورحت أذرع الرقة .. وقلبي يحدثني بأن شيئاً ما له صلة بالغيب يحاول أن يعبث بمشاعري وأن من الخير أن أسيطر عليها حتى أرى ما يخبئه القدر .. لأن « السعادة » على هذا النحو — وتفسيراً لها — لا تكاد تصدق .

ومر الوقت .. ولم يعد الجاويش .

مرت ساعة وأكثر من الساعة . وبدأ القلق يساور نفسي .. فطرقت الباب فجاء الجاويش فسألته :

— إيه الحكاية ؟

وأجاب :

— خليك لابس وانتظر التعليمات .

وحضر غداؤنا اليومي فأعدته مع (شعيب) إلى الخادم ومعه (السود) الفارغ الذي كان قد حمل لي طعام الأمس .. ولم أعد أتصور أن آكل شيئاً وأنا في الطريق إلى ليمان .

صدمة .. ؟!!

وجاءت الأوامر أخيراً ..

ومشى الجاويش أمامي .. والجندي من خلفي يحمل حقيبتي وانفتح باب المعتقل رقم ١ في طريقنا إلى مكتب القائد .

ولم ألبث أن جلست في مكاني .

رأيت «الشاب» من بعد .. واقفاً .. وعلى سيماه كل علامات الأسى والألم

ورأيت شاباً آخر جاء يقدم لى نفسه (أحمد السنا سكرتير الرئيس السابق مصطفى النحاس) ولم يكن وجهه هو الآخر يحمل بشرى الإفراج .

وسألته :

— إيه الحكاية ؟

وقال ضاحكا :

— يظهر حايودونا سجن الاستئناف .. عشان احنا مدنيين .. وعايزينا نكون تبع النيابة مش القيادة تصحيحاً للأوضاع .

وكان كل تعليقى : « ياه ! » .

ولم يدرك أحد حتى هذه الساعة .. ماكانت تحمله يومئذ كلمة « ياه ! ! »

وأقبل الأستاذ عبد الفتاح حسن .. فصافحنا .

ودخلنا إلى مكتب قائد السجن .. فوجدنا قوة من ضباط البوليس جاءت لتسلمنا .. وانتظرنا مقدم الدكتور محمد صلاح الدين من المستشفى العسكرى حيث كانوا قد أجروا له عملية جراحية بسيطة .

ونقلنا إلى سجن الاستئناف .

* * *

وفتحت أبوابه ..

وهبت من ورائها .. نسمات جديدة ونديه .. نسمات الطمأنينة فى السجون العادية .. نسمات ضباط بوليس فيه يرحبون بمقدمنا .. ونسمات (زملاء .. ! ! !) من (المساجين) يقبلون علينا (بالأحضان) ولا يبالون أحداً .

واجتمع شملنا فى غرفة الضابط .. أربعة من المتهمين بالانضمام إلى تشكيل .. وخامسهم .. الذى ضمهم .

ولكن هناك سادساً .. وجهاً جديداً لا نعرفه .. مدنياً .. كان يرافقنا في رحلتنا من السجن الحربي إلى سجن الاستئناف ويرافق الضباط .. وقد انصرفوا هم .. وبقى هو ..

فمن هو ؟

قرار الاتهام

وتبين أنه « المحضر » جاء إلى السجن الحربي ليعلمنا بقرار الاتهام .. فطلبوا إليه أن يرافقنا ليتم الإعلان على (أرض النيابة) لا (على أرض القيادة) أى في سجن الاستئناف لا في السجن الحربي .

* * *

وأنقل عليك فأنقل لك بعض سطور من هـذا القرار لتستكمل ملامح القضية والاتهام فيها إذا لم تكن تتبعتها .. ولأثير ذكراها في ذهنك إن كنت من الملايين الذين تتبعوها في مصر وفي كل بلد عربي .

أمر إحالة

في قضية الجناية العسكرية رقم ١١٧ سنة ١٩٥٧ الوايلى

(١١٣٧ كلى شمال القاهرة سنة ١٩٥٧ — ١٧ أمن الدولة سنة ١٩٥٧

٧١ حصر أمن الدولة سنة ١٩٥٧)

نحن رئيس نيابة أمن الدولة . . . .

بعد الاطلاع على التحقيقات التى تمت في هذه القضية

وعلى (كيت .. وكيت .. من القرارات والأوامر)

نأمر بإحالة

(وعدد ذكر ثلاثة عشر اسماً) .

إلى المحكمة العسكرية العليا .. لمعاقبتهم بالمواد (كذا وكذا) من قانون العقوبات لأنهم فى خلال المدة من شهر أبريل سنة ١٩٥٦ إلى ٢٣ أبريل سنة ١٩٥٧ بدائرة محافظة القاهرة :

اشتركوا فى اتفاق جنائى الغرض منه ارتكاب جناية الشروع بالقوة فى قلب دستور الدولة وشكل الحكومة فيها وهى الجناية المنصوص عليها فى المادة ٨٧ من قانون العقوبات وذلك بأن يؤلفوا من بينهم ومن ينضم إليهم من ضباط الجيش عصابة مسلحة تقوم بغزو رياسة الجمهورية باعتيال رئيس الجمهورية والوزراء أو اعتقالهم والاستيلاء على مقاليد الحكم وقلب دستور الدولة وتغيير شكل الحكومة والمناداة بآخر (يقصد محمد نجيب) رئيساً للجمهورية وتنصيب المتهم الخامس — أى الدكتور صلاح الدين — رئيساً للوزارة والمتهم السادس (يقصد الأستاذ عبد الفتاح حسن) وزيراً للداخلية وكان المتهمون الأول (يقصد الأميرالاى عاطف نصار) والثانى (يقصد البكباشى حسن صيام) والثالث (يقصد الصاغ محمد أمين فوزى) والرابع (يقصد الشاب الذى لا أريد أن أسميه) المحرضين على هذا الاتفاق ومديرى حركته ومرفق بهذا قائمة بأسماء شهود الإثبات وفحوى شهاداتهم ؟

تحريراً فى ٢٢ يوليه سنة ١٩٥٧ — رئيس نيابة أمن الدولة

إمضاء (حامد بسيونى)

* * *

ويلى هذا تلخيص لشهادة أحمد قدرى محمد (شاهد الإثبات) والمبلغ وصديق الشاب .. وسنه ٢٧ سنة وموظف بمصلحة الفنون بوزارة الإرشاد وضابط سابق (وكان عضواً فى مؤامرة اليوز باشى المصرى .. وحكم على قدرى هذا بالسجن خمس سنوات مع إيقاف التنفيذ لأنه ساعد فى الكشف عن تلك المؤامرة) .

* * *

ويلى تلك الشهادة تلخيص لأقوال كل منهم من المتهمين .

وتسلم كل منا نسخة من قرار الاتهام . ومضينا إلى الحجرات التى خصصت لنا .

* * *

وأعتقد أن هذا القدر من تاريخ المؤامرة يكفى لقد كبرك بها ..

كما أعتقد أنى بهذا الفصل .. استطعت أن أرسم المرحلة العاشرة .. فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .



الفصل الحادي عشر

من السجن .. إلى الليمان

كنت أقدر لهذا الفصل أن يجيء — بحكم موضوعه — أقل إثارة من أى فصل آخر .. لأنه يعرض لمحاكمة جرت ونحن فى سجن الاستئناف .. ولأحكام صدرت علينا .. و « لترحيلنا » — بلغة الإدارة — من السجن الظريف — إن صح أن فى السجون ظرفاً — إلى الليمان الرهيب — ليمان طره — واسمه يكفى .

ولكن الفصل جاء — على غير ما توقعت له — فصلا مثيراً .. أو هكذا يبدو لى .

ويبدو أيضاً أن « الكفر والإيمان » — والأصل فيهما أنهما عدوان لا يجتمعان — يبدو أنهما على صعيد هذا الفصل يجتمعان اجتماعاً ، بل يلتحمان التحاماً ، ويخوضان معركة كبيرة ومريرة ، وإن لم تكن حاسمة .

وعاون على هذا الالتحام ، وجودنا فى سجن الاستئناف .

معركة حامية

نقلنا إلى سجن الاستئناف فى يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٧

واستمرت المحاكمة من يوم ١٢ أغسطس إلى يوم ١٢ سبتمبر .

وصدر الحكم فى يوم ٢٠ أكتوبر .

ونقلنا إلى الليمان فى يوم ٢١ أكتوبر ١٩٥٧ .

وأسدل علينا ستار النسيان حتى أفرج عنا مساء السبت ١٨ يوليو ١٩٥٩ .

* * *

وكان فى وسعى أن أقنع بهذه الأرقام ، أؤرخ بها تلك الفترة ولا أزيد ، لأن المحاكمة وما جرى فيها ، ليست من أهداف هـذا الكتاب ، ولأن السجون وعجائب الحياة التى يحياها القاطنون خلف أسوارها ، إنما تستأهل كتاباً ضخما ، أؤكد أنه لم يصدر بعد ، برغم كل ما صدر عنها من كتب .

فى سجن الاستئناف

لكن الذى حدث ، أن معركة حامية نشبت ، وأن قتـالا مريراً دار ، فوق أرض المعركة ، و « الأرض » دارت بين « الفكر والإيمان » وهذه « النفس » ، وهذان هما الكتاب . . ولا سبيل إلى التجاهل .

نقلنا إلى سجن الاستئناف ، وقضينا فيه ثلاثة أشهر كالتى قضيناها فى السجن الحربى ، وشتان كان هناك خوف من المجهول ، وكان هنا خوف من المعلوم ، وشتان كنا فى السجن الحربى فرائس لما ترسب فى أعماقنا من شائعات الشارع وأكاذيب الخصوم عما يجرى خلف أسوار السجن الرهيب من تعذيب ، فقضينا كل يوم من الأشهر الثلاثة ونحن ننتظر المتاعب التى لم تجىء ، وطال انتظارنا لها ، حتى تركنا هذا السجن .

أما فى سجن الاستئناف و رغم المحاكمة التى جرت والأحكام التى صدرت ، فقد كانت أيامنا فيه كلها سعادة ، إن رخص للسعادة أن تعيش خلف الأسوار .

* * *

كان كل ما فى سجن الاستئناف — بالنسبة لنا — « جميلا » .. وأقدم اعتذارى لأعداء « الجمال » .

كانت « الحرية » مكفولة لنا ، ولن سامك أن أتحدث عن « الحريات » وراء « القضبان » .

أعدوا لنا نحن الخمسة ، خمس حجرات ، وجعلوا بين كل واحدة وأختها ، حجرة خالية ، حتى لا يتصل أحدنا بالآخر — كما يجرى العرف فى القضايا الخطيرة — ولكن « الواقع » أننا كنا نجلس معاً ، ونسهر معاً ، ولا يفرق بيننا إلا النوم .

ولم نصدق أننا منحنا كل هذه الحرية . فبدأت الرواسب تعمل عملها فى تفكيرنا ... وبدأنا نعتقد أنها « حرية مدبرة » و « حرية مقصودة » ... وأننا مُنحناها لنتكلم ونثرثر . وتمنحوها لتتسمع آذانهم علينا ... ولتنقل إلى المسئولين كل كلمة نقولها ... فكنا نمسك عن الكلام كلما أقبل علينا ضابط أو سجان ... بل كلما جيء بغلام سجين ... من اللصوص أو من الشالين .. ليغسل أرض حجراتنا .. وليصيبه منا بقية من حلوى أو طعام .

وحتى « المحكوم عليهم بالإعدام » من أصحاب الأردية الحمراء ... الراسفين فى الأغلال .. وكانت حجراتهم امتداداً لحجراتنا ... وكان مرآهم تجفل منه النفوس وتنقبض له الصدور .. حتى هؤلاء... كنا نستمع إليهم ... وهم يسردون علينا التفاصيل الحقيقية للجرائم المنسوبة إليهم .. وكان عددهم إثنى عشر شخصاً — وهو عدد قل أن يجتمع فى سجن واحد وفى وقت واحد ... وقد تركونا ومضوا ... وكل ما أذكره أننا سد الحسكم علينا تركنا على قيد الحياة السيد أمين ناظر المدرسة ، وكبير المتهمين فى قضية الجاسوسية ، لتلتقى فى الميان بابنه الضابط البحرى احمد لطفى السيد .. و بابن أخته (صالح) المحكوم عليهما بالأشغال الشاقة مع بقيــة زملائهم المصريين و (سوينبرن) الاسكتلندى و (راوس) المالطى (بريطانى الجنسية) ، تركنا وراءنا السيد أمين مؤمناً بأن الحكم لا يمكن أن ينفذ فيه ، إذا أتيح له أن يشهد مطلع القمر ، فى أول شهر عربى .. وعاد إلى حجرته إثر تلك الرؤية حلا اسم الله (يا لطيف) عشرة آلاف مرة ، ومعه صيغة بينها تلقّى أسرارها عن المغاربة عند ما كان فى بلاد المغرب ذات الأسرار والأحجبة خلال الحرب العالمية الثانية .

ورأينا — رحمة بأعصاب الرجل ورغم بشاعة التهمة المنسوبة إليه — أن ندبر أمره مع بعض القادرين على أن يهبطوا به إلى (حوش السجن) ليطالع (وجه القمر) .

وليقوم بتجربته ، وأجراها ، ورغبها ثم إعدامه ، وكنا يومها فى « الجان » .

* * *

أذكر هذا كله لتدرك مدى الحرية التى مُنحناها فى ذلك السجن ، ولتدرك معها أن (الحق) كان صالحاً للتفكير المستريح ، الذى يمارسه كل مواطن فى حياته العادية وفى بيته الآمن .. مع الفارق ؟!

وكنت ـ نتيجة لهذا التفكير المستريح ـ كبير الرجاء فى الحكم ببراءة الثلاثة الأواخر فى قائمة الاتهام بعد أن قرأت (ملف القضية) قراءة واعية ، وبعد أن لاحظت أن سلطة الادعاء (النيابة) قد رتبت المتهمين فى (قرار الاتهام) ترتيباً (تنازلياً) يتناسب خطورة ما أسندته إليهم من تهم ، ولا يتصل من قرب أو من بعد بأقدارهم ، والدليل أن الأربعة أو (المحرضين والمدبرين) جاءوا فى طليعة القائمة وبدأوا بالأميرالاى عاطف نصار والبكباشى حسن صيام والصاغ أمين عوزى و (الشاب) الذى أحدثك عنه (وهم الذين حكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة فعلا) ثم جاء الدكتور محمد صلاح الدين — على قدره — بعدهم (وحكم عليه فعلا بعقوبة أقل من عقوبتهم خمسة عشر عاماً) ثم جاء الأستاذ عبد الفتاح حسن (وحكم عليه بعقوبة أقل اثنى عشر عاماً) .

وأنا إذن كنت منطقياً مع قائمة الإتهام نفسها عندما كنت كبير الرجاء فى أن يحكم ببراءة الثلاثة الأخيرين فى القائمة التى ضمت ثلاثة عشر متهماً إذا كانت هنالك أحكام بالبراءة وهم بالترتيب التنازلى أيضاً بدءاً من المتهم الحادى عشر (فتحى اسماعيل كوكب ومحمد السوادى وأحمد السقا) وكانت التهم الموجهة إلى ثلاثتنا بادية التفاهة — أو فى القليل لا يصح تسميتها بالخطيرة — سواء أصحت أم لم تصح ، وثبتت فى ذهن القضاء أم لم تثبت .

* * *

واسم (فتحى اسماعيل كوكب) كان بالنسبة لى شخصياً ، (مفاجأة) أو (فكاهة) والسبب أن والده كان (وفدياً) ، وكان يعمل معى فى جريدة (السوادى) وأذكر أنى

— إذا لم تخنى الذاكرة — تحدثت ذات علم إلى المرحوم عبد الرحمن عمار وكان يومها وكيلا لوزارة الداخلية وكان أديباً وكان صديقاً ، فى أمر الطالب الصغير (فتحى) ابن اسماعيل كوكب المحرر بجريدتى ليساعدونه بنفوذه فى قبوله فى الكلية الحربية ، وكان (فتحى) معروفاً بالهدوء والاستقامة ، حتى لقد جهل بعد تخرجه كيف يسهر مع أترابه من الضباط ، وسهر مع (كتبه) كما كان دائماً يفعل ، وحصل على ليسانس الحقوق وهو ضابط ، ففجع نفسك مكانى ، وتصور نفسك وأنت تطالع اسمه فى قائمة الاتهام وفى مؤامرة كبرى تضم وزراء سابقين وضباطاً عظاماً .

وأرجو ألا يكون هذا الاستطراد قد خرج بى عن أهداف الكتاب ، إنما أردت أن أرسم بهذا اللون من تفكيرى المادى، فى هذا الشاب .. صورة الجو الآمن ، والجو الصالح لمراجعة الحساب والجلو فى سجن الاستئناف .

* * *

وبدأت إذن أراجع الحساب كله وأسأل نفسى فى هدوء ، رأيها الصريح غير المتحيز فى « الرجل الذى تآمرت عليه » ؟

وطالعتنى من جديد قصة « السجن الحربى » ، وما يلقاه فيه كل من تلقاه جلادوه ، قصة مشى بها الخصوم فى المقاهى والمكاتب والدور ، وراحوا بها فى العواصم والبنادر .. قصة أبى زيد الهلالى فى ريف مصر وصعيدها .

وها نحن أولاء قد دخلنا هذا السجن ، وعشنا فيه ، وخرجنا منه ، ولم نجد لتلك الاتهامات ظلا ، إلا إن كان وجود كلب ينبح طوال الليل داخل أسواره ، مؤيداً لما كانوا يقولونه عن كلاب مدربة ، تترك مع المتهم داخل زنزانته لتداعبه طوال ليله ، وتتناول عشاءها بنهش شرائح من فخذه .

وسبحاً على منوالى ، فى الشك الذى يفترس كل تفكيرى ، عدت أقول لنفسى :

— قد يكون عند غيرى ، شىء يقال ، عن متاعب صادفها ، وقد تكون بساطة الاتهام الموجه لى ، سبباً فى المعاملة الطيبة التى صادفتها .

وكان « الاحتمال » معقولا .

ولكن حادثاً وقع فى اليوم التالى أجهز على كل « معقولية » فى هذا « الاحتمال » .

* * *

كان كل منا — نحن الأربعة — يطوى صدره طمعاً على أحقاد لا نهاية لها على « الشاب » أو — فى القليل — على شعور بالنفور من الاتهامات التى كالها لنا فى « تقاريره » ، ولم نكن نتصور وقد جمع « سجن الاستئناف » بيننا ، أى عذر يمكن أن يقدمه لنا ، أو يمكن أن يدلى به ، ما فرط منه فى حقنا .

وجاء الشاب ، وتحدث ، وقال كلاماً عجيباً ، قال إنهم عذبوه ، وأين ؟ فى السجن الحربى الذى كنا فيه ، عذبوه ، وأملوا عليه ما كتبه فى التقارير ، ولم يكن له يد فيها « كتب » إلا « يد الصياغة » وراح كل منا يسأل أخاه إن كان قد عذب . . وأجاب كل منا ببساطة أن أحداً لم يعذبه ، بل إن أحداً لم يمسه بسوء ، وكان (أحمد السقا) هو وحده الذى سجل على السجن سوءاً « متواضعاً » يمس الملابس ، لأنه لم يحضر معه شيئاً منها عند القبض عليه ولم يصرحوا له باستحضارها من منزله إلا بعد وقت غير قصير ، فلقى فى هذا السبيل شيئاً من المتاعب ، انتهت عندما شكا أمره إلى المحقق .

وإذن كان الخصوم يكذبون وهم يشرون بين الجماهير تلك الأكاذيب الجريئة عن ذلك التعذيب المزعوم ...

وقياساً على هذه الأكاذيب ، يكون الحكم إذن على كل أكاذيبهم عن « الرجل الذى تآمرت عليه » .

امتحان مقطوع النظير

وشاء القدر أن يقدم لنا صورة مروعة لحقيقة « الشاب » الذى عاشرناه عمراً ... ولم نعرف من حقيقته شيئاً ... صورة ترسم اقتداره على « التشكل » بكل ما يشاء من

« أشكال » ... اقتداراً يسلكه فى زمرة « الخالدين » من رجال « الفن » ... ويدخل به إلى « وادى عبقر » ... ولكن من باب خلفى ... أو من باب « عبر خلق » .

ولا أظن أنى نادم على أن أخص هذه الصورة بحيز من هذا الكتاب .. ولا أظن أنى نادم على أن أضع هذه الصورة تحت ناظريك لتطيل التأمل فيها ... ولترى فى كل خط من خطوطها دليلا على أنه لم يعقب قط ... الأمر الذى له صلة بأهداف الكتاب ومعتريات الخصوم ... وتأتى بهذه المفتريات .

***

جاءت المحاكمة ...

وجىء بنا صباح الثانى عشر من أغسطس إلى القاعة التى أعدت لمحاكمتنا .

وكان قد جىء بالعسكريين من « السجن الحربى » قبلنا ... وأخذوا فى « قفص الاتهام » الأماكن التى اختاروها لجلوسهم ... وكان كبيرهم « عاطف نصار » يأخذ أول مكان من مدخل القفص .. وقيل فى تعليل الاختيار أنه أصعب داخل السجن شللا ... فإذا صح ما كان قد قيل ... فمن حقه أن يأخذ أول مكان يلقاه ... وكان شقيقه « وزير الصحة التنفيذى فيما بعد » يعمل يومئذ كبيراً لأطباء الجيش وطبيباً لأطباء مصر ... وقد شهد كل جلسة من جلسات المحاكمة .

وما كدنا نصل إلى القفص فى ذلك اليوم حتى تصاعدت « الترحيبات » بنا من وجوه لا أعرفها — باستثناء فتحى كوكب — وسارع « الشاب » فقدم إلينا زملاءنا العسكريين فى « المؤامرة » وقدمنا لهم ... وبان على وجوه الجماهير التى ضاقت بها القاعة علامات الدهشة ... ولعل من بينهم من ظن أننا نقوم بمشهد تمثيلى .

وكانت الجلسة الأولى جلسة إجراءات ... لأن المحكمة التى تحاكمنا « عسكرية عليا خاصة » ... خاصة بنا تنتهى مهمتها بانتهاء محاكمتها لنا ... والمحاكم العسكرية لها إجراءات يتخللها قسم من الرئيس والأعضاء على المصحف أو على الإنجيل . ثم يسأل

كل متهم : « هل أنت مذنب » أو « غير مذنب » ؟ وعليه أن يقول : « مذنب » أو « غير مذنب » ولا يزيد ... وقلنا جميعاً « غير مذنب » ورفعت الجلسة .

وجيء بنا في اليوم التالي للجلسة التالية .

موقفان

وما أزال عند قولي أني لن أعرض بالبيان أو بالتبيين لكل ما جرى في المحاكمة من مرافعات أو بحوث أو دفوع .. ولكن موقفين اثنين من المواقف أستأذنك في عرضهما لاتصالها — في تقديري — بأهداف كتابي ، وأرجو ألا أكون قد أسأت التقدير .

الشاب « الفنّان »

كان « الشاب » قد أكد لنا أنه سيقول للمحكمة « الحق ... كل الحق ... ولا شيء غير الحق ... » وكان قد أعد لهذا الحق « كراسات » ... عكف على إعدادها أياماً في حجرته ... وحملها معه في الجلسة الثانية .

وبعد افتتاح الجلسة .. التفتنا رئيس المحكمة إلى أن المتهم منا ، إذا دعي للشهادة اعتبر مطلق السراح أو مفرجاً عنه حتى يفرغ من شهادته ، وله كافة الحقوق التي لكل مواطن طوال المدة التي تستغرقها الشهادة ، وله أن يستعين بما شاء من مذكرات ، وأن العبرة — في القانون العسكري — بالأقوال التي تذكر أمام المحكمة لا بالأقوال التي وردت في التحقيق .

وأدركنا أن ما يقوله الشاب في هذه الجلسة هو الذي يعول عليه ، وأن كل ما أدلى به في التحقيق ، وما كتبه في التقارير ، تسقط كل ماله من (حجيّة) إذا هو تسحّب منه .

وعلت إذن قيمة (الشاب) .

ونودى .. بوصفه شاهداً .

وخرج من القفص ثابت الخطى ، وأخذ مكانه من كرسى الشهود فى ثقة وعزة ، وسلطت عليه أضواء المصورين ، وأحسن تلقى هـذه الأضواء ، كخبير مدرب على وسائل الإعلام .

وكانت المحكمة والله أعلم ـ أو أغلب الظن ولا أجزم ـ تميل إلى الاعتقاد أن الأقوال التى سيدلى بها أمامها ، لابد أن تجىء ـ بحكم منطق الأشياء ـ مطابقة لما كتبه فى تقاريره ، ولما أدلى به فى التحقيق الابتدائى أمام صلاح الدسوقى ، وفى تحقيق النيابة أمام على نور الدين .

وبدأ الشاب بداية تؤيد هذا الاعتقاد .

ولم يفته أن يكون بارع الاستهلال فأسبغ صفة الإكبار والإجلال . . على رئيس المحكمة الموقر . . وعلى أعضائها الضباط العظام . . وأعلن أنه يلوذ بعدالة يعرفها فى رئيس هذه الهيئة ، ويطلب حمايته من أى مقاطعة من جانب النيابة أو الدفاع أو الجمهور ، وركز على « الدفاع والجمهور » وأكد له الرئيس ـ وكان لواء اسمه الدجوى ـ أنه فى حماية المحكمة ، وأن حريته مكفولة ، وأن له أن يستغرق أى وقت يشاؤه ، هو أو أى شاهد ، وأن يستعين بما شاء من أسانيد ومراجع .

* * *

وكانت هيئة الدفاع رهيبة هى الأخرى ـ توكيلا وانتدابا ـ بلغ عددهم ستة وثلاثين محامياً إذا لم تخنى الذاكرة ، وكان من بينهم أساتيذ لهم فى القانون صدارة ، ولهم فى الفقه أسانيد ومراجع ، كالقللى ووحيد رأفت ومحمد عبد الله وغيرهم ، وكان من بينهم وزراء سابقون كالدكتور محمد هاشم ومن اشتغلوا بالسياسة أو احترفوا القلم كعبد الحميد نافع وأحمد حسين وعدلى المولد .

وكان واضحاً أن « الشاب » كان محقاً وهو يطلب من المحكمة حمايته من تألب هذه القوى عليه .

ولقد قلت في أحد الفصول أن الشاب يحسن التعبير «بالفصحى» عن المعنى الذي يريده في طلاقة مستأنية ، وأحب أن أضيف — إنصافاً وأمانة — إنه قادر أيضاً على إحداث تأثير في السامعين شأن كل خطيب مدره ، وإذا « تدفق » قل أن يتعثر .

* * *

وبدأ يعيد ..

وبدأ صوته يتدرج في (طبقــات صوتية) مرسومة لا يحسنها غير (المطرب المدرب) ـ وهو يعاهد الله والمحكمة والضمير على أن تجيء شهادته على مستوى الشهادة يوم الدين ، صراحة وصدقاً ، لا يبالي مهما شخصاً أو شيئاً ، ولا يتوخى بهما إلا وجه الله والحق .

وظل يضرب على هــذا الوتر — لا بهذه الكلمات التي جرى بها قلمي الملف بالصدأ ، بل بعبارات أشد روعة وأكثر مَضاء حرت على لسانه الذرب ، حتى أرهفت آذان الجمهور ، وبان على رئيس المحكمة أنه معجب ، فراح يشجع (الشاب) على مسلكه الطيب — والسكون يسود القاعة ، والوجوم يمسـاو وجوهاً ، والبشر يبسط وجوهاً .

وظل الصوت يتصاعد في تماوج فني ، أو في سلم موسيقي إلى طبقاته العليا ، حتى إذا استوى عند طبقة « الخطيب » من (درجة مفوه) ، جلجل الصوت ودوى ، وردده جنبات القاعة في رهبة .. وأعلن الشاب أنه يقسم بالله الذي أمر بالحق .. وبالرسول الذي عاش للحق .. وبشرف الـعدالة وقدسيتها ، وبشرفه الشخصي إنساناً له عزة المثقف ، أن كل حرف كتبــه في التقارير ، وكل كلمة وقع عليها في التحقيق الابتدائي ، وكل صفحة ذيلها بإمضائه أمام النيابة ...

* * *

وأتمهل قليلا ، لأؤكد لك أني أحسست ساعتها أن أنفاس الجماهير تركض لاهثة خلف (الشاب) ... واستهواني المشهد أنا المتهم الذي يتوقع الشهادة ضده حتى نسيت

حكاني من القصص ، وكان واضحاً أنه سيقولها ، سيقول إن كل حرف كتبه ، هو الحقيقة بعينها .

وقالها فعلا .. مع فارق واحد .

أكل وقال : إن كل حرف كتبه في التقارير ، وكل كلمة وقع عليها أو ذيلها بإمضائه ، كذب في كذب ، وتزوير في تزوير ، وكلها أمليت عليه إملاء ، وبعد تعذيب يشيب لهوله الوليد أو لا يشيب ، فما عدت أذكر عباراته .. وإنما أذكر المعاني ... وأعيشها ... وأحاول جاهداً أن أجد من البيان قوالب لها ... ولا أحسبني موفقاً .

* * *

وصدقني أني فزعت ...

فزعت أنا المتهم الثاني عشر المتضع أكبر انتفاع بهذه الشهادة ...

فزعت من هول الندرة على النهوض بالدور ...

وشهدت ...

شهدت — وبعد سنوات خمس ما أزال أشهد من حيث (البناء الدرامي) — وكناقد ومؤلف مسرحي في مطلع شبابي — ما أزال أشهد من حيث هذا البناء ، ومن حيث التأليف والتمثيل والإخراج ، أن هذا المتهم (الشاب) كان رائعاً ، وأنه جاوز من حيث التأثير ما كنا نحدث به الجماهير عن كيانتوني الإيطالي — وتلميذه يوسف وهبي — أو عن سيلفان الفرنسي وتلميذه جورج أبيض .

ولكن الأمر كان محكمة ولم يكن مسرحاً .

وكان الله في عون رئيسها .

واستطاع الرجل أن يملأ كرسيه بجدارة ، وقال — بعد فترة — للشاب : « تفضل قل ما تشاء .. إثبت يا كاتب كل كلمة يقولها » .

و (تفصل) طيباً و (تدق) .. وأنا أتابع المشهد (الرائع) فى ذهول (مطلق) .

* * *

لم يكر (المفتريات) التى دسها عليا فى تقاريره فقط ، ولا اعترف حتى (بالحقائق) التى اعترف بها (نص) التسويد أنفسهم ، بل أنكر كل شىء ، كل حرف وكل واقعة ، ودافع عن هـذا الإنكار بكل قدراته وبكل طاقاته ، ودافع دفاعاً يُسمع ويـؤهل كتاباً بوضع ..

* * *

وكان ما فعله فى مصلحتنا طبعاً .

ولـكن للأمر هنا زاوية أخرى ، أحب أن أنظر منها .

ومن أجل هـذه الزاوية ، رخصت لنفسى فى أن أصور لك على قدر جهدى ذلك المشهد ، ومن ذلك المشهد أصل بك إلى هدفى من الـكتاب . إلى مراحل تطورى من الـكفر إلى الإيمان .

وإليك الحقيقة التى أراها وأنا أنظر من هذه الزاوية :

ــ هـذا (الشاب) ، كان يوماً من أكبر أجهزة الإعلام التى كانت تنشر الشائعات فى المقاهى والمكاتب ، وكانت علائم الصدق والإيمان ، بادية على كل كلمة يقولها وعلى كل نبأ يسوقه ، وكانت هذه العلائم ـ (لماعاً) فى (العين) ، وعمقاً فى الصوت ، وتهدجاً فى النبرة ، كانت كل هذه العلائم هى بعينها ـ التى رأيتها بادية على كل كلمة قالها فى المحكمة .

هذا « الشاب » — إذن — « عينة » من الخصوم الذين أصلونى وأصلوا الـكثيرين غيرى .

وها هو ذا يقوم بالدور المضاد .. وفى حرارة وإيمان ودار رأسى .

وودت لو تسللت ورأسى فوق الوسادة مساء ذلك اليوم إلى صميم موقفى لأحاول إنصاف « الرجل الذى تآمرت عليه » من خلقى.. ولكن هاتفاً ردنى وكأنه يقول لى : « كفى يا أحمق .. تذكر أنك الآن خلف أسوار سجن .. وداخل جدران أربع .. انتظر حتى تقضى لك المحكمة بالبراءة وبعدها حاول » .

وأغمضت عينى ونمت .

وهذا هو الموقف الأول الذى استأذنتك فيه .

الموقف الثانى

وجاء الموقف الثانى بجسد الحادثة تحديداً .. وردنى عن « الناصرية » من جديد بعد أن كاد موقف « الشاب » يخطو بى إليها .. تماماً كما حدث عبر كل المراحل السابقة .

كان الموكل للدفاع عنى هو المحامى الكبير عبد المجيد نافع .

وعبد المجيد — ولا أدرى إن كان قد حاور السجين أو لم يحاورها بعد — لا يزال قوى الصدر جهورى الصوت شاباً فى انفعاله .. جياشاً فى عاطفته .. سريعاً فى تأثره ..

كان يؤمن ببراءتى — بعد أن زارنى أكثر من مرة فى السجن — إيماناً يجرى مع الدم فى عروقه ويتردد مع الهواء فى أنفاسه .. وساعد على هذا الإيمان أنى كنت صديقاً لابنه فلم يكن الرجل يطيق أن يجرى على لسان النيابة أن تذكرنى بسوء .

وفى إحدى الجلسات طلب لأحد وكلاء النيابة — أو ممثل الادعاء — من الشبان الذين يجدون متسعاً فى مثل هذه القضايا لامتحان مواهبهم — أن يشتد فى الحملة علىّ .. فغضب المحامى عنى واحتج .. فقابل المدعى الشاب هذا الاحتجاج بالمزيد من العنف .. فانفعل المحامى الشيخ انفعالا شاباً .. واهتز جو القاعة اهتزازاً رهيباً عندما جلجل صوت عبد المجيد بوصفٍ وجّهه إلى النيابة .. وجفلت النيابة من الوصف ورأت فيه

عدواناً غير مسبوق على كرامتها .. وأصرت على تقديمه إلى المحاكمة التأديبية[١] .

وانسحب المحامى يومها من الجلسة ..

ويبدو أن تهجم المحامى على النيابة بهذا العنف ملأ صدر المدعى الشاب موجدة على شخصى — من غير أى دخل لى فى الخلاف — فما كاد المحامى ينسحب .. حتى وقف المدعى الشاب ليثأر من المحامى فى شخصى وتمادى ضدى ولم يبق فى جعبته سهماً لم يسدده إلى صدرى .. وفى غيبة المحامى عنى .

ولا أنكر أبداً أن الموقف ملأ صدرى أنا الآخر موجدة .

ولم أكن واجداً على المدعى الشاب وحده .. فقد كنت أرى فى شبابه وطموحه ما يلطف مرارة الغضب .. وإنما امتدت الموجدة إلى العهد وصاحبه .. وإلى « الناصرية » و « ناصر » .

وكان المدعى الشاب سبباً .. فى أن يدفع بى إلى الوراء .. خطوات وخطوات .. بعد أن كنت على وشك أن أتقدم إلى الأمام خطوة جديدة .

وكان المدعى الشاب سبباً .. فى ازدياد موجدتى على « الناصرية » من غير أى دخل لناصر .. تماماً كما كان الخلاف بين المحامى والشاب .. سبباً فى ازدياد موجدة المدعى الشاب على شخصى من غير أى دخل لى .

الأحـــكام

وانتهت المحاكمة فى يوم ١٢ سبتمبر .

وكان المفهوم ان يصدر الحكم خلال أسبوع .

ولكن هيئة المحكمة ظلت تجتمع يومياً وتنفض .. وتضع الحيثيات ثم تراجع

---

(١) ومما يذكر أن المحامى الكبير قدم فعلا إلى محاكمة تأديبية ظل يحوم شبحها بضع سنين حتى قضى له بالبراءة .

والصحف تكتب عن الحكم وموعده .. وتعود فتعدل الموعد .. وتعود فتذكر أن الرئيس أعاد إلى الهيئة حيثيات الحكم مرة أخرى وطالت المدة .

وبدأت الأنباء — من العليمين تتسرب إلينا داخل السجن وكلها تجمع على أنى برئت من التهمة — أنا وأحمد السقا — وأن ثمة خلافاً ثار حول الحكم على عبد الفتاح حسن .

وجاء يوم ٢٠ أكتوبر وفوجئنا باستدعائنا لسماع الحكم وتواصينا على أن نتلقاه بشجاعة مهما يكن .. وفعلنا .. وعدت مع السقا إلى السجن يحمل كل منا فوق كاهله عبء سنوات سبع « مع أشغال شاقة وعاد « الشاب » يحمل عبء أشغال شاقة مؤبدة وجموداً فى عينيه .. وعاد صلاح الدين يحمل عبء خمسة عشر عاماً .. وابتسامة دائمة على شفتيه .. وعاد عبد الفتاح يحمل عبء إثنى عشر عاماً .. ولا شيء .

* * *

وعسى أن أكون قد رسمت مرحلة جديدة فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل الثاني عشر

أحزان وتأملات .. خلف الأسوار

بدأ تاريخنا فى « ليمان طره » فى صباح الحادى والعشرين من أكتوبر ١٩٥٧ — غداة الحكم علينا — وانتهى بالإفراج عنا فى الثامن عشر من يوليو ١٩٥٩ .

* * *

وليس فى نيتى — وعجائب « الليمان » لا تعرف نهاية ولا يحدها كتاب — أن أذكر لك كل ما حدث لنا أو لغيرنا .. إلا ما اتصل منه بأهدافى .

* * *

وأعود إلى آخر يوم قضيناه فى سجن الاستئناف .

وكنا قد تواصينا — كما قلت لك — باستقبال الأحكام التى تصدر علينا .. بأعصاب سليمة ، وأدينا أدوارنا بنجاح .. فلما عدنا إلى السجن كانت تفاصيل الأحكام قد سبقتنا إليه .. فاستقبلنا معظم من فيه بعبارات العزاء .. وأجهش بعضهم فى البكاء وعادوا فتنبهوا إلى الاستخفاف البادى علينا .. فأخجلهم أن يكونوا « ملكيين أكثر من الملك » فانقلب العزاء إلى تشجيع رقيق .. وتحول البكاء إلى تعليق ضاحك .

* * *

وطاب لنا أن نستمر فى تمثيل دورنا — حتى على أنفسنا وفيما بيننا — فقضينا السهرة نستعيد مشاهد الجلسة التى تلا خلالها نائب الأحكام .. نص الحكم على كل متهم .. ونعلق على الشجاعة التى تحلت من « فلان » وعن « فلان » .. وظللنا نسمر حتى تفرقنا لننام .

وأعتقد أن كل واحد منا .. ما كاد يثب إلى سريره ويطفئ « نوره » .. حتى رمى عنه قناع التزييف وقذف به من النافذة .. ومضى يعرض شريطه .. أمسه الذى أدبر .. ويومه الذى أظل .. وغده الذى لا يكاد يبين .

وأعتقد أن ألوان التفكير عندى لا بد أن تكون قد خالفت عن ألوان التفكير عند الآخرين .. فأنا مثلا لم أكن يوما متزوجا .. ولم أكن أبا لأطفال .. أذكرهم فتتقطع نياط قلبى .. وأطوى الروح على ما أثخنت به من جروح كما كان يحدث مع عبد الفتاح حسن كلما ذكر أطفاله الثلاثة .. ولم أكن وزيرا أخر ورائى ماضيا على المستوى الدولى ويعنينى أن يرى الناس ذلك « الراسخ كالجبل » كما كان الأمر مع محمد صلاح الدين .. ولم أكن فى شرخ شبابى أحيا عربدة شابة .. أقول « بصح سين وتمصى » و « السجن رصيدى فى بنك المستقبل » كما كان الأمر مع « أحمد السقا » وأعجز طبعا عن العرض بالتصوير لشاعر « الشباب » فى تلك الليلة .. ولعله كان أكثرنا ألما .. لأن موقفه كان أكثر سوءا .

* * *

أغلقت باب الحجرة .. وأطفأت النور .. ونمت .. وبدأت أفكر .

والخلوة إلى النفس فى غرفات السجون .. ليست ميسورة بمعناها الكامل .. ففى كل باب « نظارة » يملك « السجان » أن يطل منها على السجين .. بين الحين والحين .. ومفتاح النور من الخارج .. يملك « السجان » أن يديره إلى الشمال أو إلى اليمين .. وكل ما كان لنا من « ميزة » حصونا بها — كرما منهم — أن « السجان » لم يكن يباشر حقوقه فى التطفل علينا باستخدام « النظارة » .. أو فى تعكير صفونا بإدارة المفتاح .

نمت لأفكر .. وتزاحمت الصور .

أنا أحب « الناصرية » أو أكرهها .. ذلك أمر يتصل بالضمير .

وأنا أجهر بالكراهية أو أخفيها .. ذلك ورقى .. وأنا حر فيما أملك من الموازين .

أما أن أقضى فى السجن سبع سنين .. وقد تخطيت الخمسين لأخرج منه وأنا أزحف فى بطء إلى الستين .. محدودب الظهر .. أو فاقد البصر .. لا لشىء إلا لأنى ألقيت أذنى .. إلى شاب من الشبان .. عرفته عشرين عاماً أو تزيد .. ولم أسمع له خلالها إلا الخير « ولا شىء غير الخير .. » فيكون جزائى منه أن ألقى فى غيهب السجن .. بل فى غياهب « الليمان » بين القتلة والمجرمين .. أما هذا كله .. فأمر غير مفهوم .

الليمان .. ؟ يا لها من كلمة !!

غداً — إذن — نرحل إلى الليمان ؟!

وهل نعامل — يا ترى — معاملة المعتقلين من السياسيين فنظل كما نحن بملابسنا ويجيئنا الطعام من منازلنا .. أم نعامل معاملة المحكوم عليهم من المجرمين — فنرتدى الملابس الزرقاء التى تثير الشبان .. وتوضع فى أيدينا الأغلال .. كما كان الأمر مع الذين « يرحلون » من سجن الاستئناف إلى السجون الأخرى .. على مشهد منا ؟

وثقل رأسى .. وأطبق « الملعون » على جفنى .. الهم لا النوم .

وحدت فحدقت فى المقاتب أمامى .. وكان شعاع من النور خارج الغرفة ملق عليها ، فدنوت منها ، وأخذت أقلب ما فيها ، فى أسى وشرود .. ترى هل يسمحون لنا بالاحتفاظ بشىء منها .. بالملابس الداخلية مثلا .. بشىء من الجوارب والمناديل .. بمشط أو فرشاة .. أو معجون أسنان .. أو بنظارة القراءة .. أو بملابس صوفية الشتاء ؟ أم تراهم يقصون شعرنا كما يفعلون كما غيرنا ونبدو أمثولة وأضحوكة ؟

لا أدرى ..

وكل الذى أدريه أن السجناء أو « المساجين » الذين رأيناهم سمح لبعضهم بلبس الأحذية فقط .

و « الأشغال الشاقة » التى وردت فى الحكم ، ما معناها ؟ بالنسبة لأمثالنا ؟

وهل نساق — ومنا وزيران سابقان — إلى الجبل الذى قرأنا عنه .. لنحمل

قروشاً ونقطع أحجاراً . وتحت وهج الشمس فى الصيف ووابل الأمطار فى الشتاء ؟

والنوم ؟ أفوق « أراش » كالتى تراها فى « زنازين النشالين » ومعها « بطانية » يجاء بها من « المخازن » تقيم بين خيوطها الهوام . . وتحمل فى طياتها ما لا ندريه من جراثيم ؟

كل الشريط مر .. وأنا متكىء بمرفقى فوق الوسادة ، أحدق مرة فى فضاء الغرفة وأخرى فى الحقائب ، وشعرت أنى أحنو بكل قلبى على كل قطعة من ملابسى ومددت يدى ، وتناولت حزمة من « الفانلات » و « بيجامات » من الحرير « فلثمتها » فى صمت ، قطعة بعد قطعة ، تماما كما يفعل الوالد مع أطفاله الأحبة ، وهم يُنتزعون من بين يديه انتزاعاً .

ومن شريط جديد ، شريط « المساجين » الآخرين الذين تردد جنبات السجن أصداء ضحكاتهم طوال النهار وزلفاً من الليل ، وهم « يرفلون » فى ملابس السجون ، وقد أثقلت بالتراب أو ازدانت بالطين ، ولا يشكون ، ورحت أسأل نفسى : أى فرق بينى و بينهم ، ولماذا لا يجزعون مثل جزعى ؟

— لا يجزعون .. لأنهم لا يملكون « البيجاما » التى أملكها .

— ولماذا ملكت أنا ، ولم يملكوا .. هُم ؟

— لأن فرصة هيئت لى فتعلمت ، فصرت كاتباً ، وأعطيت قلماً وأوراقاً ، فبحثتُ عن قضية ، وصنعت طريقى ، وملكت « بيجاما » ، وغداً سيحيتون ، وعلى الرغم منى سينزعون « البيجاما » عنى ، أمامهم ، إخوانى « المساجين » ، أبناء بلدى ، ومثلهم أقارب لى فى قريتى ، فكل ذنبهم ، أن أحداً لم يهيىء لهم فرصة التعلم ··· فلم يملكوا رغيفاً ··· فبحثوا عنه فضلوا مسفورين . وضللت غير مسطور ··· والتقينا فى السجون ··· فحزنت ولم يحزنوا ··· حزنت لأن المجتمع مسح لى من حياته

العرق الذى يتصبب من جباههم ، بيجلما ، وغداً ينزعونها عنى ... ولم يجرنوا هم لأن المجتمع رفض أن يعطيهم مقابل العرق رغيفاً ، فجاءوا إلى السجن ، فأعطاهم الرغيف .

* * *

وتراءت لى من خلال الدخان المتصاعد من لفافتى صورة « الرجل » ، وهو يحدق باسماً فى عينى ، وكأنه يقول لى : « ألم تكن برسالتى وكنت أقيمها على أساس تكافؤ الفرص بين هؤلاء جميعاً ؟ » .

وكدت أعمى حياء وأستمر ، ولكن العزة بالإثم ، سيطرت على مشاعرى فاستويت على فراشى ، وتنفست بعمق ، وفركت العينين باليدين وغمغمت كمن يصحو من حلم مزعج : « أعوذ بالله ، ماهذا التفكير المتم ، وماهذه الفلسفة المختلة ؟ أهذا وقت تفلسف ، وعلى هذا النحو القابض ، وبينى وبين الصبح ساعات ، وكل « عد » بالنسبة لى هو تيه أضرب فيه ؟ لا محل لندم ، نم ، وتوكل على الله .. وفوض أمرك إلى الله ، أو فاعتبر يا أخى أنك مت ، وأنك من الغد تحاسب ، وأن المدبر فى الليان والأمور .. ها منكر ونكير .. وواجه الواقع .

وفى ظلمة الليل ابتسمت ، لأن قدرة الله عند ما ذكرت التوكل عليه ، جذبت إلىّ .. روح الفكاهة . ومشت بها إلى قلبى الحزين .

ولا يعرف الله إلا سجين .. أو هكذا خيل إلىّ .

تحية الصباح

مت .. وصحوت .

ولم أدر — يومها — كيف مت أو كيف صحوت .

والذى دريته أن الساعة كانت قد تخطت السادسة من الصباح ، وأنى تحت — وكنت فى طريقى إلى (الحمّام) — ضابطاً ودياً من ضباط السجن ، يروح ويغـدو

— والحيرة تبدو عليه — أمام غرفة الأستاذ عبد الفتاح حسن ، ثم رأيت عبد الفتاح يخرج من غرفته ويتجه إليه ، ويحييه تحية الصباح ، ويتبادلان حديثاً خاطفاً — ويشده من كمه ، والرجل يمر بمنديل فى إحدى يديه على عينيه ، ثم يربت فيناديني عبد الفتاح فألحق بهما فى غرفته ، وأسمعه وهو يلقى على الضابط الشاب بعباً مغلظة ، ليحضرن له الملابس ، وليكونن أول مرتد لها فى غير أى تأثر ، وأدركت من الحديث أن لواء اسمه (صمت) — كان يومئذ وكيلا لمصلحة السجون — اتصل بالضابط تليفونياً وسأل إن كنا قد ارتدينا ملابس السجن لتجيء القوة المنوط بها (ترحيلنا) إلى (الليمان) .

* * *

وكان الأستاذ عبد الفتاح حسن أول من ارتدى فعلا ملابس السجن الزرقاء .

وكنت أول من وقعت عيناه عليه فى هـذا الزى العجيب ، وعلى مطالع الصبح الذى يقول الناس فيه للناس : (صباح الخير) و (صباح النور) .

وكانت لحظة لاهثة فى تاريخ الشاعر ، لعل الشعور بالامتياز الطبقى هو الذى أملاها .

وأقبل علينا الدكتور صلاح الدين — وهو دائماً مرح — فقال وملء فمه ضحكة لطيفة عرفت بها : « وأنا يدلق فين يا عبد الفتاح ؟ وفين بدلة السوارى ؟ أنا عاوز أقضيها له بإيدى ، وانت يا أحمد ، فين بدلتك انت بقى ؟ » .

وبين الضحكات — التى تحمل فى رينها دموعاً تجمدت ، كان « الشاب » يحدق فينا هو الآخر فى جمود ، ومن سيد ، ثم أقبل على الجمود يتهادى فى وقار ، أو فيما لا أدريه ويصطنع ابتسامة ، ويلقى تحية ، ويتخير زيا .

* * *

ونزلنا إلى غرفة المأمور . .

وأذكر ولا أنسى أنى — ونحن فى طريقنا إلى هذه الغرفة — ذكرت ماطير

« الرجل الذى تآمرت عليه » وكان الطبيعى والمعقول أن أذكره بكل ما تحمله المشاعر من سوء .. ولكنى ذكرته بلون من ألوان الخير — غير المقرون طبعاً بأطيب التمنيات — عندما غافلتنى عينى ، ونحن فى طريقنا إلى الباب — فألقت نظرة عجلى على الغرفة السوداء رابضة فى الركن الأيمن منى ، وذكرت ، كيف كان فى مقدوره لو أنه كان عاطشاً إلى الدم وباطشاً لوجه البطش أن يوجه خطانا اليوم إلى ذلك الفناء الذى يجثم أمام هـذه الغرفة ليستقبل هيئة التنفيذ ، تتلو على الذبيحة صيغة الحكم بالإعدام ويسأل المسكين عن أية أمنية له فى الحياة .. غير تمنى الحياة .. فيطلب لفافة أو يطلب شاياً .. أو يطلب قهوة .. أو يطلب ماء أو يتمتم بدعاء .. أو يرسل سباباً .. أو صراخاً .. وتمضى حياته لتتردى فى الهاوية ، كما مضت صرخاته لتتبدد فى الهواء ..

ومن هنا كان الخير الذى ذكرته به .

* * *

نزلنا إلى غرفة المأمور ، فرأينا ضابطاً فارع العود ، برتبة عقيد ، يتحدث إليه ، فلما رآنا ، أقبل يصافح كل واحد منا — ويهوّن الأمر علينا ، ويؤكد أنها شدة إلى زوال ، وأحاطنا المأمور وضباطه بعواطف طيبة أو بعبارات المجاملة ، وأقبل يوزباشى لا نعرفه فصافحنا هو الآخر ، وطلب إلينا أن نحمل معنا إلى « الليمان » ما شـاء من الملابس الداخلية ، وأذن لكل منا فى « مشط » و « فرشاة » .. وفى « معجون أسنان » وكل ما نرغب فيه باستثناء « البدل والمعاطف والبيجامات والجلاليب والساعات » فقد تسلمها وكيل السجن ، وكان أهلنا قد بكروا بالمجىء فتسلموها ، وإذن لتفويدنا للوديعة بأسمائنا فيما يسمونه « أمانات السجن » فى أن ترافق « الركب » .. وتولى هـذا اليوزباشى « المنتدب » إلقاء نظرة على « الحقائب » ، هى بمثابة « تفتيش » لما بوصفه ضابطاً من ضباط « الليمان » — حتى يوفروا لنا شيئاً من الكرامة عند ما يبلغ أبوابه فندخل إلى غرفاتنا من غير تفتيش ، أو هكذا قالوا .. وليس بمستبعد أن يكونوا قد قاموا بمهمة تفتيش الحقائب « فى سجن الاستئناف » تلافياً للمتاعب فى الليمان ، وحتى نمضى إليه فى غير جلبة من هواة الاستطلاع فيه أو من محبى الفرجة من النازلين عليه

أو من موظفيه ، ولعل الذى أثار هذا التعليل فى ذهنى ساعتئذ ، موظفو المحافظة «القديمة» فى باب الخلق وهم يطلون علينا من النوافذ ونحن وقوف فى فناء السجن ، حباً فى الفرجة أو لما تريد أن تسميه .

• • •

وبلغنا « الليمان » .. غير مصفدين فى الأغلال ..

ولم يعد شعورنا متجهاً إلى الأسى على ما انتهينا إليه من مهانة الزى ، أو غير الزى ، وإنما اتجه بنا الشعور — أو بى على الأقل — إلى الإرتياح والترحيب بأقل رعاية نلقاها من أصغر ضابط ، وما أشد حاجة السجين — مهما يعظم — إلى أقل رعاية من أصغر (سجان) .

بلغنا (الليمان) — وكل حرف من هذه الكلمة ينضح بالبشاعة والثقل — فاستقبلنا المدير العام يحيط به ضباطه — وكان رجلا مهيباً ، أوتى بسطة فى الجسم والشخصية — وحيانا أجمل تحية ، يمكن أن تلقى على سجين ، واتجهوا بنا بعد إجراءات بسّطوها — إلى صف من الغرفات الملاصقة يحجبها عن بقية المبانى باب ، وتجاور حدائق القسم الطبى ، ويسمون هذه الغرفات (إيراداً) يستقبل فيها كل سجين (وارد) ليظل تحت الرقابة الطبية أحد عشر يوماً تقريباً ، (يُصنَّف) بعدها أى يوزعون على (الصناعات المختلفة) فى الليمان و (صناعة) السجين الذى لم يجاوز السنين — ولا يقعده مرض خطير — أن يرسل إلى (الجبل) ليقطع أحجاراً ، أو ليحملها فوق كتفيه إلى مكان لها ويكسّرها فيه أمتاراً ، إلى آخر فنون الأشغال الشاقة ، وما أقبحها من فنون .

• • •

وكان علينا — إذن — بعد أن نستريح أن نزور القسم الطبى .. ليرى رأيه فينا .

وهش لنا الأطباء واكتفوا بالترحيب بنا فى لقاء بيننا وبينهم ما عدا «طبيب أول الليمان» فقد تبدى عابس الوجه .. ثم عاد يبثنا تحياته « على حذر » و « فى خفر » فقدرنا أن يكون ناصرياً أو منافقاً للناصرية .. ولم نقف على سر هذه « المفرية » فى التحية

إلا بعد زمن طويل .. عند ما علمنا أن شقيقاً له ضابطاً كان معتقلا معنا لذمة القضية لأنه صديق لعاطف صبار زعيم التشكيل العسكري في المؤامرة .. ولم يقدم ذلك الشقيق للمحاكمة وبقي معتقلا مدة ثم أطلق سراحه بعد أن ثبت المحققين أنه لم يكن يعلم عن تآمر صديقه شيئاً ولكن ما جرى له .. خلف وراءه أثراً .. ملأ قلب شقيقه الطبيب خوفاً .. يضاف إليه ماض للطبيب مريب .. إذ كان مديراً لمبرة إحدى الأميرات.. وذكرى الإمارة ظلت تطارده من غير أن يفكر أحد في مطاردته .. وقيل إنه عرف في الهيان بالقساوة على السجناء .. وقلت إن هذه القساوة وليدة تلك المخاوف .. وأشد عجباً من هذا كله أن نكتشف في الرجل غير المحبوب من نزلاء الليمان .. إنه « عالم » كبير في « تاريخ مصر القديم » .

وعدنا من زيارة القسم الطبي إلى غرفتنا في « الإيراد » .

* * *

وما كدنا نستريح .. حتى ترامت إلينا أصداء هرج وجلبة .. ثم فتح الباب .. ودخلت ثلة من الصحفيين والمصورين ، ومعهم (مأمور الليمان) وبعض الضباط — ومن بين الزائرين زملاء لى ومن بينهم تلاميذ كانوا يعملون في (السوادى) ، وسلموا .. وعزوا .. وراحوا يطلبون إلينا أن نجلس في أوضاع صالحة للتصوير ، بين أكداس من الكتب كنا نحملها معنا ، وفي يد أحدنا مصحف مفتوح.. وفي يد الآخر مسرحية لإبسن أو لشكسبير ، أو لأى اسم مشهور نختاره نحن لأنهم (شبان عاديون) لا خبرة لهم بتلك الأمور ..

وأعلن لهم صلاح الدين في القول .. وأغلق دونهم بابه ، وحمّل للأمور مسئولية أى تحايل منهم .

وتوليت من ناحيتى إقناعهم بأن من غير اللائق نشر صور لنا بملابس السجن وأن هذه الصور لا يرضى عنها المسئولون إن كانوا يستهدفون بهذا النشاط إرضاءهم .

ولكن فريقاً كان يتهز فرصة اشتغالنا باقناع الفريق الآخر ، ويلتقط بعض الصور (اختلاساً) وانصرفوا .

وأعترف أنى — يومها — غلبت حرقتى وأحسست بالضعة التى تلازم طبيعتها وأخجلنى أنى كنت يوماً من الأيام من أبنائها . . وتمنيت لو كنت « سجاناً » برتبة « نفر » ولم أكن « صحفياً » بدرجة « أستاذ » .

* * *

وجاء المدير — يحف من حوله ضباطه أيضاً — جاء زائراً هذه المرة .

وإلى جوار هذا « العملاق » — الأميرالاى سيد والى — مشى مأمور أول برتبة قائمقام ، قصيراً مسرفاً فى القصر ، ضئيلا مسرفاً فى الضآلة ، مشرب الوجه بالحمرة ، أقرب إلى « الأتراك » فى السمات وفى البشرة — وكان اسمه رحمة الله عليه « اسماعيل طلعت » — يتبعهما رهط من الضباط ومن خلفهم جنود « سجانون » يحملون « كابينهات » من الطراز الفرنجى الراقى المستخدم فى دورات المياه فى المنازل .. وقد صنعوها — كما علمنا — فى « ورش الليمان » ، وأمر المدير بوضع كل منها فى كل غرفة من غرفاتنا وقال مبتسماً :

— الحقيقة يا اخوانا أننا صنعنا إحدى عشرة قطعة (أى بعدد المحكوم عليهم) ولكن يظهر أن نصيبنا كان فى خمسة منكم فقط (وكان العسكريون الستة قد اختيروا لهم السجن الحربى) فأودعنا القطع الباقية عنابرنا .

* * *

وأدركت من حديث المدير أن كل ما « صادفناه » من رعاية وعطف ، فى السجون الثلاثة ، إنما كان « بناء على تعليمات من جهات عالية » وشعرت بأمواج من الرضى تنساب بيضاء إلى صدرى موجة إثر موجة ، وبأمواج أخر — سوداء معتمة — تنسل خارجة من هذا الصدر ، حقداً إثر حقد ..

وأدركنا — مع الزمن — أن أغلب المسئولين فى السجون إذا طُلب إليهم إحسان معاملة سجين قيراطاً .. أحسنوها قيراطين ، وإذا طلب إليهم استخدام « الحزم » فى معاملة السجين قيراطاً ، حزموا أمرهم عشرة قراريط ، بدافع من رواسب الماضى المظلم ، يوم كان السجين مهدر الآدمية إلى حد يثير الغثيان ، يعاقب بلبس « الجنش »

فوق جسمه العارى عشرة أعوام تسبح فيه الهوام ، ويجيء المفتش الإنجليزى بمشيئته من البقايا ، لتخرج على « لابس الجيش » وهو يجلد خمسين جلدة من غير أن يئن أو يتأوه ، ليثبت أنه « صعيدى » أو « منوفى » أو « رجل » .

* * *

وأمر المدير ، فنحى بالمشرفين على « الكانتين » ، وفى أيديهم قائمة بما لديهم من « مربى وجبنة وزيتون وسجاير هوليود » ، وطلب منا أن نملى عليهم ما نرغب فى شرائه من مأكولات حتى يذهب ضابط الكانتين ورجاله إلى السوق لشرائه ، وتبارينا مرحين ضاحكين — والعجب — فى عمل قوائم لا أول لها ولا آخر ، وبدأ بتلك المباراة عهد ذهبى فى تاريخ الكانتين لم يطفئ بريقه إلا رجل — لا أسميه — خلف السيد والى فى منصبه — وكان يعيش عمره فى الخوف من المسئولية الموهومة وهو الآن يحمل حلقة المعاش فى بيته — فأضاع كل ميزات ذلك « الكانتين » ، حتى « السكر » فى آخر شهر لنا فى الليمان حرم بيعه فأمسيت له « سوق سوداء » رهيبة .

* * *

وأخيراً وقَّع الكشف الطبى النهائى علينا فاعتبر ثلاثة منا مرضى — لأنهم جميعاً دون الستين من العمر — وأكبر الثلاثة صلاح الدين وهو يكبرنى بثلاث سنين وأصغر الثلاثة عبد الفتاح وأكبره بثلاث سنين .. وأعفينا بسبب المرض الذى (اكتشفه) القسم الطبى من (الجبل) ولم يعفوا منه (احمد السقا) إلا بعد أسابيع قليلة زار فيها (الجبل) زيارات معدودة ، ولم يعفوا «الشاب» من الصعود إلى الجبل إلا بعد ثمانية أشهر تقريباً ، وكان يعود مثقلا بتراب الطريق ، ولكنه لم يكن يقطع أحجاراً ، وإنما كان يحمل معه كتاباً ، يشغل به وقته فى مكان ظليل ، يجمع بينه وبين الجاسوسين البريطانيين (سويبرن) و (رارب) وكانت حكومتنا تحرص على أن يعاملا معاملة طيبة .

وأدركنا ـ طبعاً ـ أن هذا الإعفاء ، كان عطفاً من الجهات العالية ، وكان يسيراً عليها أن تقسو ، وأن تمعن ما شاءت فى القساوة .

ولعل قلبي أنعم بقدر من الرضى ، أكبر من القدر الذى أفعمت به قلوب زملائى ، — أو قلب صلاح وقلب عبد الفتاح على التحديد — وهذه الثقة من قلبى ، أرى لزاماً أن (أركز) عليها . . لأنها كانت (المفتاح) الذى أديرته فى (باب تفكيرى) — من جديد — فى حقيقة (ناصر) ، وعذراً إذا أسرفت فى تسميه (عبد الناصر) — على طريقة الأجانب — باسم (ناصر) فهو اسم فى الحقيقة يستهوى الريشة .

كنت أعمق شعوراً بالرضى من الزميلين — أو هكذا خيل إلىّ — لأنهما وزيران سابقان وأنا صحفى من الصحفيين وكاتب من الكُتّاب ، ولعلهما يريان فى هذه (المعاملة الكريمة) ، أقل ما يجدر بالحاكم القائم بالأمر فينا أن يعامل بها حكاماً سابقين ، أما أنا فليس من اليسير أن يغرر بى مثل هذا التعليل ، ثم إن الزميلين الكبيرين ، أصدقاء من الكبراء ، وأصهاراً وأقرباء ، أكفاء لبذل الجهود والنهوض بالمسعى الحيد ، لدى رئيس الجمهورية (جمال عبد الناصر) أو لدى وزير الداخلية (زكريا محيى الدين) لإحسان معاملة الوزيرين السابقين ، أما أنا فأسرتى فى (سوادها) إذا قيل إن لها (مكانها) بين الأهلين فإنّ هذه المكانة تلهث ، وهى آخذة طريقها إلى (القاهرة) ، حتى إذا بلغ البارزون من الأسرة باب (ناصر) ، طُلب إليهم — أغلب الظن — أن يقفوا طويلا بين صف طويل من الشاكين الكثيرين ، وحسب هذه الأسرة أنها تولت الإنفاق على داخل سجنى سجناء صعيدى مكّن لى من الوقوف كريماً إلى جانب الزميلين ، وإذا قيل إن من أسرة والدتى وزيرين سابقين أيضاً هما (عبد الحميد وعبد المجيد عبد الحق) فقرابتهما أولا بعيدة (أولاد بنت خال والدتى) ، وهما أولا وأخيراً ، يحمدان الله على السلامة ، وليس من العدل أن يطلب إليهما الزج بنفسيهما فى قضية (قريب يتآمر) ؟!

أما أسرة أبى وأصهارى فقد جرت خفيفة إلى الوقوف إلى جانبى ، ولكنها لا تملك لى بحكم مستواها الشعبى أن ترسل صوتها عبر صعيد مصر إلى القاهرة تطلب لى (امتيازاً) من الحاكمين ولو كان على رأسهم (ابن بنى مر) ، ولو كان فى طليعة إخوانه للنباوى (ابن عباس) .

وقصارى ما بلغته أسرة أبى من قدر فى صعيد مصر ، هو (فضل) لها (أوحد)

تباهى به — بحسن نية — سائر الأسرة ، ولا تدرى أنها بهذا (الفضل) قد ارتكبت أبشع جناية ، ارتكبتها أسرة في تاريخ مصر الحديثة من حيث لا تدرى ، ومن غير أن يتنبه هذا التاريخ على هذه الجناية .

ولعل مما رفَّه عنك — قبل أن تخوض غمار السياسة — ومما يتصل بأعماق من بعض نواحيها أن أمر معك بهذه القصة التي لا تخلو من ظرف وطرافة ، وأنت ترى أن هذا الفصل كله وإن اتصل بأعمق مشاعرى تجاه «الرجل الذى تآمرت عليه» ، لا يخلو من روح القصص أو من روح السمر .

أسرتى .. تجنى على مصر

نعم .. التاريخ .. أذكر أن أسرتى — الفقيرة الآن « فى سَواده » — لا تزال تمتّ على بقايا آل سلطان « باشا » عبر أجيال أربعة بقولها : « إحنا فكينا جدكم أبو سلطان من الحبل اللى رجلوه بيه فى الصـــارى .. ولولا جدنا .. كان السنجق خد أجله » .

فما هذه القصة ؟ وكيف كانت جناية ؟ وجناية على تاريخ مصر ؟

لعلك تذكر أن محمد سلطان (باشا) الكبير (رئيس مجلس النواب المصرى وقائمقام الخديو توفيق أيام حرب عرابى) هو الذى خان مصر .. ورشـا البدو .. ومكن الإنجليز من هزيمة عرابى واحتلال مصر سبعين عاماً .

هذا الرجل كان يقيم فى بلدة اسمها « زاوية الأموات » ولعل اسمهـا الآن « زاوية سلطان » أو « زلة سـلطان » ، تجاور « سواده » التى ترقد من قديم وديعة مسالمة على الصّفة الجنى النيل .

وكان الرجل فى مستهل حياته شاباً مفتول الساعدين موفور القوة « أقرع الرأس » ملوحاً ذكياً .. فيه روح المغامرة .. يعمل مع أبيه « الجـمّـال » الذى وفد على « زاوية الأموات » — قرية المقابر والآثار — يبحث عن عمل له فى مناجر تابعة لها (ليحمل "جِله") أحجاراً وبقايا ..

وظل (محمد سلطان) الشاب التركى الناعس .. يدخر من أجره .. ويرفع فى مستواه .. ويزحف على مهل إلى صاحب الصدارة فى القرية حتى غدا (شيخاً) فيها .. ثم (عمدة) لها .

وكان أحمد (السناجق) فى عصر إسماعيل — إذا لم تخن الذاكرة — يمر (بذهبيته) .. يذرع النيـل ويتلقى (الهدايا) .. حتى إذا جارت (الذهبية) قرية سلطان .. قلّ الماء وسط النيل .. وكثر عند الشاطئ ، فاضطرت أن تحاذيه فى خط سيرها .. وكان على الشاطئ صبية يلعبون فقذفوا (الذهبية) بالطوب والأحجـار .. فأصابوا السنجق بطوبة منها وهم يهرجون بأغنية فيهـا سباب الترك والشماتة فهاج السنجق .. وأمر بإلقاء مراسى السفينة عند الشاطئ .. وأمر بالقبض على العمدة .. وبأن يجاء به موثق اليدين .. وأن يُربط بالحبـال إلى (الصارى) .. وأنت يجلد حتى الموت .

وبدأ أتباعه ينفذون أمره .

وخطر لتركى من أهل القرية خاطر .. فركب جواداً .. وركض به إلى سواده ينقل الأمر إلى جدى الخامس (وكان اسمه حمزه وكان عمدة سواده) .

وكان « حمزه » مشهوداً له بحسن الرأى .. وحل ما تعقد ..

و (سواده) كانت — وما تزال — أشهر قرى النيل بكثرة عدد السفن فيها .. وربع أهليها من (المراكبية) .

وأعلن (حمزه) ذكاءه .. وأمر سفن القرية أن تقلع .. وأن تسد النيـل (بالعرض) فى صورة (مظاهرة بحرية) تقف فى وجه سفينة السنجق ولا تسمح لها بالمرور .

وأقبلت (الذهبية) .. ووقف (السنجق) على ظهرها .. وخرج له (حمزه)

فى السفينة (الشعبية) التى عقد له لواء القيادة فيها على حد التعبير البحرى .. وقال يخاطب السنجق :

— دى عادة بلادنا يافندينا .. السنجق لما يفوت من هنا .. تحييه البلد بالشكل اللى أنت شايفه — علشان لازم تدبح له الدبايح .. وتدق الطبول .. ويتعدى عندنا ويفرح به الشعب .

وقهقه (السنجق) وسر .. وانتفخت أوداجه وتمطى (بواخد عداً عد واخد فلاخ تمام) — وقيل إنه رأى الشر فى أعين الناس تخاف العاقبة وقبل الدعوة — وأياً كان الدافع .. فقد رست السفينة وصعد إليها حزه (لتقديم ولائه وتمنياته) هو وأعيان البلد .. وما كادوا يرون (محمد أبو سلطان) مربوطاً إلى السارية .. حتى تظاهروا بالدهشة فسألهم (السنجق) إن كانوا يعرفون هذا (السكاب) فقالوا : هو ده ابن عمنا يا فندينا » فأمر أتباعه بحلوا عنه الوثاق وهو يقول : « حرسبس .. حطه تمام .. كان يبحى أكل كوبس .. السمك بتاع الميه » .

وهكذا أعتق الفلاح جدى .. ذلك الشاب (أبا سلطان) ليعيش .. وليتصل بأسرة الشربى محسوباً عليها .. لتصل بينه وبين الخديوى بعد أن كان (أبو سلطان) قد أصبح (ناظر قسم) مكافأة له على نجاحه فى تسخير الفلاحين من أهل المنيا وأسيوط فى حفر ترعة كبيرة أمر بحفرها الجناب العالى .. ومضى أبو سلطان قدماً يرقى المناصب العالية بفضل رضاء الخديوى إسماعيل ، حتى خان أبو سلطان مصر فى عهد توفيق وأسلمها للانجليز .

وكنت أخفض رأسى خجلا .. كلما سمعت جاهلا من أفراد أسرتنا .. يمنّ على آل سلطان ذلك الفضل .. ويذكره بالمباهاة مجداً من أمجاد الأجداد ، وهو لا يدرى أنها جريمة فى حق مصر ، ارتكبها جدى حزه .. يوم لم يترك السنجق فرصة الإجهاز على رأس الأفعى ، وكبير الخونة فى حرب عرابى محمد سلطان (باشا) ، وجد (محمد سلطان) الحالى .. صديق النجمة العالمية (جابى مورلاى) قبل الحرب العالمية — وزوج بنت يهودى كبير فى مصر ، و (باشا) لم يهنأ (بالباشوية) يوم أنعم عليه بها فاروق ، فخلع

بعد أيام ، وانتزعت من (محمد سلطان) كما انتزعت ضمن الأطيان التى اشتراها له جده (محمد سلطان) الكبير .. بعد أن كوفى ، بعشرة آلاف من الجنيهات ذهباً .. وأقطع ما أقطع من الأرض .. ثمناً لهزيمة عرابى .. واحتلال مصر .

عود إلى الليمان

وأعود بك إلى « الليمان » ، لا أراكه الله إلا مسطوراً على ورق .

أعود لأذكر لك أنى انتهزت فرصة إدراكى ، أسباب المعاملة الكريمة التى تلقاها ، وانتحيت جانباً بالقائمقام إسماعيل طلعت .. لأسأله إن كان شقيقاً لمحمود طلعت «محافظ السويس يومئذ» — وكنت أعرف أن المحافظ شقيقاً ضابطاً فى السجون — فقال « أيوه ، مضبوط » فقلت له «طيب قل له السوادى بسلم عليك ومش عاوز يد عن كده » وقال «حاضر» وتركته .

وبعد أيام عاد متهلل الأسارير يحمل لى تحيات أخيه بعد أن عرف أنى كنت ناقداً برلمانياً لجريدة « البلاغ » يوم كان أخوه قائداً لبوليس البرلمان ، وكان حبل الود موصولا بيننا .

ولا تستطيع أن تتصور أى « كسب » شعرتُ به — فيما بينى وبين نفسى — بقيام هذا « الود » بين مأمور أول ، وبينى ، فأنا سجين وهو صاحب الأمر والنهى فى السجن ، وكان الرجل مصدر رعب « للمساجين » ، قاسياً فى معاملتهم قساوة كنت أعلمها — عفر الله لى هذه المرة — عركب النقص فيه ، بوصفه قصيراً مسرفاً فى القصر ، وكانت هذه القسوة التى يصطنعها ، تحجب طيبة قلبه عن كل سجين ، وكان كل من فى السجن يتنفسون الصعداء إذا علموا أنه قام بأجازة مثلا .

وهكذا ، بدأت أتخايل ، لأتوازن .

* * *

وانتهت أيام المخبر الصحى .

وتقلنا إلى الطابق الرابع من العنبر رقم ١ ويسمون هذا الطابق « دور السياسيين » لكثرة من أقام منهم فيه .

وفى دخولنا إلى هذا الطابق ، صادفنا عطف جديد آخر ، فلاحظنا أن الغرفات الخمس الأخيرة من الصف قد أخليت خصيصاً لنا ، وطليت بالزيت ، وأمست كل غرفة منها صالحة للسكنى — وبما يؤنسها سكنى — وماج « دور السياسيين » فرحاً بمقدمنا ولعلهم أحسوا أيضاً أن وجودنا بينهم قد يرد بعض غارات السجن عنهم ، وأصبحت غرفاتنا كخلايا النحل من كثرة القادمين للتسليم والترحيب .

وكانوا يقدمون إلينا بأسماء قضاياهم إلا إن تعذرت ، فثلا « دول بتوع حسن البنا » أى الذين اتهموا بقتله و « دول بتوع عبد القادر طه » و « دول بتوع قضية الجاسوسية » و « دُول، بتوع قضية الصهيونية » و « دول بتوع قضية الصولات » و « دول اللى قتلوا أبورياش عالى » و « دول اللى حطموا البطرك » و « ده فتحى يونس ابن عم شوكت التونى » و « ده كمال عبد العزيز زوج زورو مانى » و « ده عبد الحميد الطرزى وزيدان بتوع قضية مورو »

* * *

أما قضيتنا فأطلق السجناء عليها اسماً لطيفاً لم نتنبه عليه إلا بعد أيام ولا نعرف « صاحب الامتياز » فى تلك التسمية .

أسموها « قضية الباشوات » .

ونتج من هذه التسمية أن أسم علىّ شعب الايمان العزيز .. شعب السجناء الطاهيين والحراس وصغار الوظفين .. والتمورجية .. رتبة لم يتلق مثلها يوماً ... أحد من أسرة أبى .. لا من خديوى ولا من سلطان ولا من ملك .

أصبحت أنا الآخر (باشا) .. كصلاح وعبد الفتاح .

وشعرت بالحاجة إلى هذه الرتبة التى لم أفكر فى مثلها طوال حياتى ولا أشتهيتها يوماً ، شعرت بالحاجة إلى الرتبة الزائفة ، لفرط حاجتى أنا الأعزل إلى أى سلاح ولو (فاسد) ، وكنت أضيق بهذا (الزيف) أحياناً فأم برد (السجانين) عنها ، فيدركنى (الشاب) — هاوى العظمة — وينهانى عن المحاولة وهو يصرخ فىّ جاداً (خلينا نكسب حوقة) ، وكان هو نفسه لا يخاطبنى أمام (السجانين) و (التورجية) إلا بهذه الرتبة .

أما (المتعلمون) فكانوا يعرفون الحقيقة طبعاً .. ويُمْضون .

راحة وتفكير

رسمت لك صورة عابرة لبعض مشاهد السجن وأرجو أن أكون قد رفهت بها عنك .

بيد أنى أرجو أيضاً أن أكون قد سجلت بها هدفاً .

وهدفى أن تدرك أننا وجدنا فى (الليمان) شيئاً من (الراحة النفسية) وإن كانت محكومة بالواقع ... وأن هذه (الراحة النسبية) عاونتنى على أن ألم شعث أفكارى ... وعلى أن أجمع أشلاء نفسى ... وعلى أن أعدّ مراجعة ماضىّ كله ... وبكل ما حفل من أخطاء ... مراجعة أمينة وجريئة ... رجاء أن أرى إن كان قد تبقى لنا غد ... غدٌ لى يستحق أن أحرص عليه ... أو أن كل شىء تبدد .

نحن هنا ... فى الطابق الرابع من العنبر الأول فى « ليمان طره » ... وبملابس السجن ... ولنا (نمره) .

ليس فى الإمكان ... أسوأ مما هو كائن .

وعندما ينتهى الإنسان ... إلى الدرك الأسفل من المجتمع ... يشعر أن أى حركة جديدة ... تعنى الصعود إلى فوق ... أو تعنى التقدم ...

وهذا الشعور فى ذاته خير ... محرك ... رجاء ... نور على الطريق ...

وبدأت أفكر ..

وبداية التفكير .. أختتم الرحلة الثانية عشرة فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل الثالث عشر

دفاتر قديمة . . وجديدة ؟ !

أحب أن أستهل هذا الفصل بحقيقة . . أخشى إذا أنا « حجبتها » عنك . . أن يؤدى هذا « الحجب » إلى « سوء فهم » .

أحب أن أعلن أن السجن سجن . . وأن أحاديثى عن « المعاملة الكريمة » التى عوملنا بها . . لا تعنى أبداً أننا كنا بمنجاة من اللوائح وأحكامها . . أو أننا لم نصادف « بعض المتاعب » و « بعض المضايقات » من جانب « بعض الأطباء » أو « بعض الضباط » أو « بعض التصرفات » أو « بعض النظم » . . ولا تعنى « المعاملة الكريمة » مطلقاً أننا كنا نعيش فى « أمن » كما تعيش أنت « داخل بيتك » أو كنا نتصرف أحراراً داخل مجتمعنا الصغير كما تتصرف حراً داخل المجتمع الكبير .

أبداً . . أبداً . . ما قصدت إلى شىء من هذا مطلقاً .

كنا نعيش بالقلق الذى يعيش مثله كل سجين .

وكنا ننام بأنصاف العيون . . التى ينام بها كل المسجونين .

بل لعل زعماء القتلة من صعيد مصر وريفها . . أرسى قلوباً وأرسخ أقداماً . . لأن لهم أتباعاً يحسب السجن لهم حساباً . . بل لعل « المجرمين » من اللصوص والنشالين أشد استهتاراً باللوائح والنظم . . لأنهم أقل حرصاً على ما نسميه « كرامة » . . بل إن من بينهم من يفقأ بيديه . . إحدى عينيه . . ليتهم ضابطاً يكون قد أنزل به عقوبة . . أو سجاناً يكون قد ضبطه متلبساً بقطعة أفيون .

أما نحن فأكثر تفكيرنا كان مستنفداً فى المحافظة على ذلك القسط من الكرامة التى وفروها لنا . . أو ذلك اللون من المعاملة التى خصونا بها .

ويحسن أن تعرف أيضاً أن « الحرب » دائماً « سجال » بين « السجين » و « السجان » بطبيعة الوضع الموروث فى السجون .. ومما يجعل هذه « الحرب » مشبوبة على الدوام .. ولا تخبو الا لتتقد .. أن « المحظورات » أو « الممنوعات » فى لوائح السجون لا حصر لها .. وحتى المرخص به منها .. أجازت هذه اللوائح للمسئولين فى السجون أن يصادروه لأى سبب يعن لهم أن يتذرعوا به .. وحول هذه « الممنوعات » أو « المحظورات » يدور القتال .

ولعل هذه « الحرب » المستمرة .. تحجب وراءها حكمة حمية .. فالزمن مستهلك فى هذه « الاشتباكات » .. اليوم .. والشهر .. والعام .. وفى ظل انشغال السجين بالتحايل على اللوائح والقوانين .. وبالتحفز المستمر لمواجهة ما يجنبه له « عدو » .. كنا نخلص بما جاء به « يومه » .. يخف حمل السنين عليه ويهون .. وتسعون فى المائة منهم محكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة .

ومداهمة « الغرف » بحملات تفتيشية بين الحين والحين .. بحثاً عن « الممنوع » أمر متوقع فى كل حين .. ولكن عانينا من الحروجة وعانى الضباط بسبب هذه الحملات .. لأن المفروض أن يداهموا « غرفاتنا » كما تداهم « غرف الآخرين » .. ومن غير المعقول أن تخلو من « ممنوعات » كالبن أو الشـاى .. أو « الوابور » أو « السخان » فكان علينا تلافياً للحروجة أن تدارى هـذه « الممنوعات » .. وكان على الضباط أن يدخلوا غرفاتنا .. وأن يخرجوا منها .. ليقولوا للمطلين عليهم من الغرفات الأخرى .. أنهم يسوون فى المعاملة بين الجميع .

كنا إذن نحسب ألف حساب لهذه المفاجآت .

وكنا نعيش فى « القلق » الذى يعيش فيه كل سجين .

والسجون لم تستطع حتى الآن أن تتخلى عن الكثير من « السخافات » التى ورثتها عن الماضى المتخم .. ورجالها — فى حماية هذه « السخافات » — يحرصون على السلطات التى توفرها لهم — سنة الله فى الخلق وفى غرائز السيطرة والاستعلاء والتسلط ومع أن عبد الحكيم عامر استطاع بقرار يوم كانت السجون تابعة له أن يرد إلى

السجين المصرى « كرامة » ظلت القرون مهدرة يوم ألغى (الأغلال) التى كان السجين يرسف فيها ويبيت بها طوال مدة عقوبته — أى عشرين عاماً أو تزيد — حتى لقد سماها السجناء : « محطم السلاسل » .. واستطاع بقرار ثان أن يجرد « الحرب العوان » بين « السجين والسجّان » من أبشع أداة لها أو وقود لنارها .. عندما رخص للسجين بالتدخين .. وكانوا قبلا يشمون رائحة فمه — إذا لم يضبطوه متلبساً بلفافة — وكانوا يجلدون الرائحة عدداً من الجلدات .. واللفافة عدداً أكبر .. وكان « عبدالحميد عبد الحق » هو الوزير الأوحد الذى استطاع يوم كان وزيراً للشئون — وعبر العهود الماضية كلها — أن يصدر قراراً جريئاً بحرم « لبس الخيش » ولم يستطع تحت وطأة الروح الرجعى الذى كان يحكم .. أن يقدم على ما أقدم عليه عبد الحكيم ..

أقول : مع أن عبد الحكيم عامر حدد بقراريه .. سياسة الثوار إزاء السجون .. فإن عقلية « السجان » بكل ما حلت من صور الرهبة لا تزال تسوس السجون سياسة تثير الغثيان .. ويحجبها المسئولون فى السجون عن العيون ببضع حفلات يقيمونها كل عام .. تحية لعيد الثورة .. أو احتفالا بعيد الأم .. إلى آخر ألوان النفاق التى يغلف بها كل رجعى تصرفاته ...

وقد حدث مرة فى عهد سيد والى — مدير الليمان — أن ضبطت مطواة عند سجين .. وأراد المأمور أن (يمسك) له (عصراً) ليجلد .. فثار المدير وقال لزميله المأمور « تعاقبه على المطواه ازاى .. وأنت مصرح له بشراء البطيخ وعلب الخضار المحفوظ من الكانتين .. يفتح العلب بايه ويشق البطيخ بايه ؟ » ولكن المدير الذى جاء بعد سيد والى — وهو فى المعاش — كان من مخلفات الإنجليز .. فحرم بيع (السكر) فى الكانتين حتى لا يقال إنه يعاون السجين على عمل الشاى ..

وأعجب من هذا التعفن فى التفكير أن يؤخذ أربعة آلاف سجين بخطيئة سجين واحد .. وأن يحرموا — وحرمنا معهم طبعاً — ثلاثة شهور من (نعمة الكانتين) لأن (حشيشاً) أو (أفيوناً) ضبط فى غرفة تضم عشرين مسجوناً ولم يعرف صاحب الأفيون فوجب أن يؤخذ الليمان كله — ويسمون هذا العقاب (تكديراً) فى مختلف

(العنابر) — بحرمة مذنب واحد .. فى طابق واحد .. فى غرفة معينها من عنبر بعينه .. وتنشط (السوق السوداء) ... ويزداد (الوارد) من خارج الليمان ... وترتفع الأسعار ويجد ضعاف النفوس من (السجانين) و (الموظفين) و (أسطوات الورش) و (المدرسين فى مدرسة الليمان) فرصة لا تعوض لجلب (الممنوعات) معهم من خارج الليمان إلى داخله .. ويتساءل كل سجين : « فيم كانت الثورة إذن ... وفيم كان تحرير العبيد .. وفيم أتعب عبد الحكيم عامر نفسه فوضع الأغلال عنهم ... ليتلقاها مدير أو مأمور ويعيدها إلى عنق السجين ... بمختلف الحيل » ؟

وليتهم عاقبوا أو (كدروا) العشرين المقيمين فى الغرفة التى ضبط فيها الأفيون وإنما عاقبوا أربعة آلاف برىء .

لماذا .. ؟

وقد تسألنى الآن :

— لكن ... لماذا كل هذا الاستطراد وأنت تضع كتاباً عن كفرك بناصر وإيمانك به ... ولا تضع كتاباً عن الحياة فى السجون وما يجرى فيها .

وجوابى :

— إنما أعرض هذه النماذج ولا أقصد إلى وصف السجن والحياة فيه ... لأن (الحياة فى السجون) تموزها بحوث ... وددت لو عنى الوزير الاجتماعى حسين الشافعى أو الوزير الثقافى ثروت عكاشة بدعوة فريق من المثقفين الذين قدر عليهم أن يسجنوا للنهوض بهذا العبء الكبير ... وإنما أعرض هذه النماذج لصلتها بأهداف كتابى ... أعرضها لأنها دارت برأسى — قبل أن آلفها — فألحت علىَّ من خلال هذا الرأس صورة قديمة كان خصوم الناصرية قد اختبوا فى التقاطها من (الدواوين) والشركات والمصانع . تدليلا على أن ما يقال فى خطب الرئيس عن العدالة ... لم يكن إلا كلاماً تمر عليه يد الحقائق فإذا هو زاهق ... وأن الرجعية التى كانت تسيطر على مرافق البلد وكنا نجد متنفساً لها وعداء ... عند ما نعزوها للاحتلال وأعوانه ... قد ارتدت اليوم

فى إدارة هذه المرافق ضراوة ... منسترة خلف شعارات الثورة ... وحفلات أعيادها... واللافتات تعلق على الواجهات .

أعرض هذه النماذج الآن لأذكر الأمر الذى علقته فى نفسى على مطالع سجنى وأنا أحل على كاهل النفس عقوبة السجن السوداء ... وعلى كاهل الجسد كسوة السجن الزرقاء ...

وأعرض هذه النماذج لأمر أهم وأخطر — بالنسبة لهذا الفصل من فصولى — وأنا أواجه مرحلة جديدة من مراحلى .. وأريد أن أقول لك — بمناسبة (الممنوعات)— أن الصحف كانت قبل وصولنا إلى الليمان — ولفترة طالت حتى رخص بها — تدخل ضمن هذه (الممنوعات) ... وكان التصرف عجيباً ... إزاء جيل من المسجونين ... يجب أن يبصر بالثورة وأهدافها الستة .

خطب الرئيس .. ممنوعات

وأريد أن أتطرق فى قصة الصحف الخطورة على السجين خطوة أخرى ... هى أكثر وضوحاً أو أشد التصاقاً بأهداف كتابى .

كنت قد حملت معى من مخلفات (عهدنا الذهبى) فى (سجن الاستئناف) بعض ما تبقى من الصحف التى كنا نشتريها ... وكان من بينها (صفحة) نشر فيها (الخطاب) الذى ألقاه الرئيس فى افتتاح (مجلس الأمة) يوم ٢٢ يوليو سنة ١٩٥٧ أى يوم نقلنا إليه من السجن الحربى .. ونسخة من (الأهرام) نشر فيها حديث الرئيس مع رئيس تحريرها فى ٨ سبتمبر ... وبضع نسخ نشرت فيها أحاديث الرئيس أيضاً مع مراسل الإذاعة الأمريكية فى الشرق الأوسط قبل صدور الحكم علينا بأيام .

ولم أكن قد قرأت من هذا كله شيئاً ... فقد كنا فى شغل عنه بانتظار الحكم علينا فلما نقلنا إلى (الليمان) ... وعرفنا أن (إحراز) الصحف جريمة يؤاخذ عليها ... اتخذت من الصحف (مفارش) لحاجياتى ... حتى إذا جاء الليل ... استلتها

— إن صح التعبير — لأستوعب ما فيها .. وكان الضباط يرونها خلال النهار «مفروشة» ويتساءلون عنها ... في الوقت الذي كان مذياع السجن يذيع على المسجناء فيه كل خطب الرئيس التي تصبح من (الممنوعات) إذا نشرت في (الصحف) .

بداية التفكير

وفضل هذه (النسخ) عليّ .. لا أنساه .. باعتباره بداية لمرحلة جديدة .

كان باب (الزنزانة) يغلق في الخامسة أو السادسة من المساء — حسب مواعيد إغلاق السجن — وكنت أتناول عشائي وأؤدي فريضتي المغرب والعشاء ... وأعد القهوة أو الشاي .. وأستل هذه الذخيرة من أعداد تلك الصحف ... وأعكف على قراءة ما بها من أحاديث وتصريحات وخطب ..ومنها — و بسببها — بدأت عجلة التفكير — في الرأس — تدور .

* * *

وكان في (الليمان) جوّان : جوٌّ في الليل .. وجوٌّ في النهار .

جو النهار ألتقي فيه (المساجين) .. أسايرهذا .. وأستمع إلى ذاك .. وأرد على ثالث يسأل .. وأضحك لرابع (ينكت) .. وجلّ (المساجين) حاقدون .. وألوان الحقد لا حصر لها .. ولكل سجين ظروفه .. وعلى ليلاه — طبعاً — يغني .

وفي النهار أيضاً أجتمع زملائي في (المحنة) — أو في (القضية) — وكنت أقرب في (الود الحميم) إلى (صلاح) .. وأقرب في (التفكير المتشائم) إلى عبد الفتاح .. ولم أكن أضيق بمرح (السقا) وأخباره الغريبة ينقلها عن مصادر مجهولة ويؤكد أنها «علمية» وكثيراً ما بشرت مصادره بقرب الإفراج عنا ولم تشأ الأقدار أن تحقق هذه البشائر لصاحب المصادر ، كما لم أكن أضيق (بالشاب) المعروف لك . إذا هو خرج من غرفته — التي كان يعيش فيها معزولاً — ليزورني في غرفتي .. وليشكو لي جفوة عبد الفتاح في معاملته .. أو خشونة (السقا) في مهاجمته .. أو غرور (صلاح) في بشاشته .. وكنت

أشعر أحياناً بالعطف على (الشاب) برغم كل ما سببه لنا من آلام وكل ما جره علينا من متاعب .. وكان (صلاح) يشاطرنى بعض هذا (الشعور) فى بعض الأحايين على نقيض (عبد الفتاح) الذى كان يتأذى من مجرد وقوع عينه على (الشاب) المعزول .

ولم يكن جو النهار المليء بالصخب . صالحاً للتفكير

* * *

أما حوى فى الليل .. فالأمر فيه كان على النقيض .

كان كل شيء هادئاً . وكانت القهوة والشاى والسجائر — وهى كل (مكيفاتى) فى الحياة العادية موفورة . وكانت تحيات (حراس الليل) تلقى علينا بين الحين والحين ومن خلال قضبان (الشراعات) كريمة ورقيقة — وكان الباب الكبير (للعنبر) كما مغلقاً .. ولم يكن يسمح — عادة — بإدارة المفتاح فيه إلا استجابة لاستغاثة .. وإذا دار المفتاح فى أى ليلة .. أحدث صلصلة . وأيقظ كل نائم .. فإذا استثنينا مثل هذه الحالات .. فالسكون شامل لا يعكره فى بعض الليالى إلا ضحكات بعض (أصحاب المزاج) من (المساجين) — وفى جو الليل بدأت أقرأ .. هذه الصحف .. وبدأت أفكر فى كل ما جاء فيها .

والعميل الأمريكى ؟

ولست أدرى لماذا لم يقع اختيارى — من كل هذه البيانات والخطب التى ألقاها الرئيس — إلا على ما يتصل بالاتهام « القديم » الذى أحسن المصسوم عزل خيوطه حول ناصر من سنين . حتى رددى عن الناصرية أكثر من مرة بعد أن دونت منها أكثر من مرة .. وأعنى به قولهم : إنه (عميل أمريكى) .

وقرأت ردود (ناصر) ... وملأ (الزنزانة) نور ...

قرأت الردود .. وطويت الصحيفة .. ورفعت عينى إلى السماء . أستوحيها وجه الحق فى هذا الاتهام .

« عميل أمريكي » ؟ تعلقت بالكلمتين فيما يشبه الهمسة أو الهمس .. وقلت لنفسي :

— حسناً .. لنعرض الوقائع من جديد .. ولنحاول مرة أخرى أن نتجرد من الخصومة .. حتى أن نرى وجه الحقيقة .. والجو سا كن ؟! اتهموه بهذه « العمالة » .. بدءاً من (كافري) يوم التمس الترخيص لفاروق بمغادرة الاسكندرية سليما معافى إلى روما .. وبأبهة الملك .. ومعه صداقته العالية .. وانتهاء إلى العرض الأمريكي بتمويل السد العالي .. ولم يشأ الخصوم أن يبرئوا (القائد الشاب) من هذه (العمالة) يوم تسحبت أمريكا من التمويل كما قلنا في فصول سابقة .. وقالوا ــ وصدقنا قولهم ــ إنها إنما انسحبت لتتيح لانجلترا .. ليغضب « جمال » .. ليؤمم القنال .. لتتألق انجلترا وفرنسا .. لتتقدم أمريكا .. لتتقاضى الثمن .. لتحل بنفوذها محل النفوذين البريطاني والفرنسي في مصر وقناتها وفي الشرق الأوسط ..

وهأنذا أقرأ (حديث ناصر) مع محرر (الأهرام) بعد العدوان بعام .. وقد طرد الإنجليز من مصر إلى غير رجعة .. وأمست القنال ملكا لنا .. وبدأ المال يتدفق منها على حزينتنا .. فهل ارتفع العلم الأمريكي (الصديق) على سارية القنال ؟

كانت أمريكا قد زحفت فعلا إلى المطالبة بالثمن .. ولكنها أدركت ــ كما لم تدرك من قبل ــ أن (ناصر) يعرف لما يدها .. ولكنه لم يطرد الإنجليز ليلقى بنفسه في أحضانها .. ولم يحارب المستعمرين ليخون قرارات باندونج من أجلها ..

وبدأت أمريكا تمارس أشد أنواع الضغط على مصر حتى تقبل مشروع أيزنهاور — وكانوا قد جندوا للدعاية له .. كل أجهزة الإعلام الأمريكي وكل مساعي الدبلوماسية الأمريكية — ولكن جمال لم يكتف رفضه .. وإنما جند لمقاومته كل أجهزة الإعلام المصري وكل مساعي الدبلوماسية العربية حتى أجهز عليه ، وتبدى أمام العالمين في صورة حلف بغداد .

***

ولاحظت السياسة الأمريكية أن ضرب (ناصر) فى (مصر) فات أوانه .. وأن ضربه فى (سوريا) جاء أوانه .. فسوريا كانت قد حذت حذو مصر واتجهت إلى روسيا تطلب أسلحة تدافع بها عن نفسها بعد أن ضرب الغرب حصاراً عليها وحشد الجيوش التركية على حدودها ، وتحركت جيوش نورى السعيد من ناحية أخرى ، ومصر كانت قد تحالفت مع سوريا لرد أى عدوان عنها ، تحت قيادة موحدة معقودة اللواء للمشير عامر ..

وفشلت السياسة الأمريكية ، أو هكذا لاح للناس جميعاً .

وفى هذا الجو تحدث (ناصر) إلى رئيس تحرير (الأهرام) وكان طبيعياً أن يكون أول سؤال يتقدم به المحرر هو عن ذلك الفشل الذى أصاب سياسة أمريكا .

ودهشت وأنا أرى عبد الناصر ينفى بشدة فشل السياسة الأمريكية ويحذر المحرر من مثل هذا الاعتقاد ويؤكد أن خير ما يتمناه واضعو هذه السياسة أن يعتقد الناس هنا فى شرقنا الأوسط أن هذه السياسة فشلت .

● واستبان لى من (حديث ناصر) ، ما لو استبان (للخصوم) من البداية ، لترددوا كثيراً قبل أن يقولوا عنه : إنه (عميل أمريكى) .

● استبان لى من (حديث ناصر) أنه كان يعرف خفايا السياسة الأمريكية ومراميها ويتنبأ عنها لحكمة عنده وبدءاً من سنة ١٩٥١ يوم عرضت على الدول العربية المشروع الأمريكى للدفاع عن الشرق الأوسط ورفضته هذه الدول وانتهاءً إلى ما بعد العدوان يوم حاولت استدراج الدول العربية إلى مناطق نفوذها .

● واستبان لى من حديث (ناصر) أنه خاض ضد أمريكا حرباً خفية ومريرة عبر سنوات خمس غيرت أمريكا خلالها كل أساليبها ولم تكن تيأس أبداً ، وتوسلت بحلف بغداد فقاتلتها مصر بشن الحرب على الأحلاف لتجميد الحلف ، وتوسلت أمريكا

باحتكار السلاح فكسر ناصر الاحتكار وتسلحت مصر ، وتوسلت بتمويل السد ثم عادت فسحبت منه فأمم القنال ليبنى السد ، وغيرت الأسلوب فدخلت انجلترا وفرنسا إلى العدوان ووقفت أمريكا فى وجهه فشكرنا لها موقفها ورفضنا الانحياز إليها لأننا لا ننحاز أبداً . . . فرفضت هى أن تعطينا قمحاً لنجوع ونركع ، فتحملنا الجوع على الركوع ، حتى حصلنا على القمح من غيرها ، وتحدث الأمريكان عن « الفراغ » الذى أحدثه انسحاب بريطانيا من القنال . فأبينا عليهما أن تسد هى «الفراغ» ... وأعلن الأمريكان فى ٥ يناير سنة ١٩٥٧ مشروع أيزنهاور ليزودنا بالمساعدات الاقتصادية والعسكرية مقابل ارتباطنا بالسياسة الأمريكية فرفضنا المشروع ، وبدأت الصحف الأمريكية تطالب علناً بعزل مصر عن العالم العربى ، وقالوا بصراحة : «إن الخطر الداهم ليس الشيوعية الدولية ولكنه القومية العربية التى تمتد من المحيط الأطلسى إلى الخليج الفارسى» .

● واستبان لى من (حديث ناصر) أن هذا كله لا يعنى فشل السياسة الأمريكية ، لأن المشروع الأمريكى نجح فعلا فى خلق أخطار وهمية من بعض العرب على البعض الآخر ، وفى تخويف الملوك والرؤساء العرب بأن الخطر الشيوعى الذى بدأ ينقض على سوريا يوشك أن ينقض عليهم ، وصرفت أنظارهم بهذا التخويف عن اسرائيل وبدأت الطائرات الأمريكية تحمل إليهم بعض الأسلحة فاطلقت عليهم الخدعة — وما تزال السياسة الأمريكية تجرب .

قرأت هذا كله ، ورحت أسأل نفسى وأنا داخل الزنزانة .

— أهذا هو (العميل الأمريكى) .. الذى تآمرت عليه ؟

وهززت رأسى ولم أجب .

* * *

فى هذا الجو الذى جرى فيه هذا الحديث كانت أمريكا تتهم سوريا رسمياً وعلناً

بأنها ألقت بنفسها فى أحضان الشيوعية الأمر الذى يهدد السلام بالخطر .؟! وبات العالم كله يتوقع عدواناً من أمريكا القوية على سوريا حليفة مصر؟! فانتهز محرر (الأهرام) الفرصة وسأل (ناصر) عن موقفه إزاء التهديد الأمريكى المسلح لسوريا الصغيرة؟! وكان المتوقع أن يروغ (ناصر) من الإجابة بمسوح دبلوماسى يوائم خطورة الموقف .

ولـكن ناصر، لم يغمض ولم يَرُغْ، وإنما قال، وقالها فى إصرار عجيب :

« ومع أن موقف مصر واضح لا يحتاج إلى تحديد جديد ، إلا أننى أعود فأؤكد : أن مصر ستقف بجانب سوريا إلى غير حد ودون قيد أو شرط ، ومهما تكن تطورات الضغط على سوريا فإن شيئاً واحداً لا يجب أن يغيب عن الأذهان ، ذلك أن جميع إمكانيات مصر السياسية والاقتصادية والعسكرية كلها تسند سوريا فى معركتها بل فى معركتنا نحن ، معركة القومية العربية كلها » .

* * *

«ويقولون : عميل امريكى » وكررت العبارة ، وحدقت فى نجوم السماء — من خلال (الشراعة) — أستوحيها بعض نورها .

وطويت الصحف ، ثم عدتُ نشرتها من جديد .

وفرشتها كما كانت ، تحت ساحياتى ..

وكان الفجر قد بدأ يرسل خيوطه عبر القضبان ، ولم أكن أسمع غير وقع أقدام السجّان وهو يروح ويجىء أمام (الزنازين) ، وعبر أنفاس الساعين من المذهولين خلف أبوابها .

وتوضأت ، وصليت ، ودعوت الله أن يلهمنى الرشاد فى الحكم على القائد الشاب .

.. ونمت .

* * *

وأرجو أن أكون قد رسمت بهذه الجولة الأولى فى زنزانتى الحلقة الثالثة عشرة فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل الرابع عشر

وحدة .. وخطبة .. ونقاش

لعلك خرجت – معى – من الفصل السابق بأن الاتهام الذى ظل معلقاً بيد الخصوم . وفى لافتة من نار .. وفوق رأس ناصر .. ومن بداية الثورة إلى ما بعد العدوان بعام .. قد انهار بالنسبة إلىّ .. وبعد أن راجعت تصريحات الرجل .. وربطت بينها وبين الأحداث ، وأنا رابض فوق « مرتفق » داخل الزنزانة ، ولم يعد ناصر « عميلا أمريكيا » كما قالوا .. بل عاد (خصماً لأمريكا) – كما كان دائماً – وكما تقول الوقائع .

• • •

وأحب أن أضيف إلى هذه الحقيقة فى مطلع هذا الفصل الجديد . أن انهيار ذلك الاتهام كان المعْلم الثانى عن طريق تحولى إلى الناصرية بعد تأميم القنال .

وبدأت أفتح « كل عينى » على الحقائق .. وإن كان قد تعذر علىّ .. أن أفتح « كل قلبى » لأنى (سجينه) ولا أقول : لأنه (سجانى) .

* * *

وأنا الآن على مشارف العام الجديد – ١٩٥٨ – أرى جيداً وبكل عينى ، أن عبد الناصر خصم لأمريكا التى أيدته فى مقاومة العدوان ، كما أنه خصم لانجلترا وفرنسا صاحبتى العدوان ، وسوريا هى الآن الميدان المهيأ للصدام .. وهذا الميدان بات مكشوفاً بعد البيان الرسمى الذى نشرته الحكومة الأمريكية فى انفعال وعصبية عن شيوعية حكومة سوريا ، وناصر حليف لسوريا ، وقد أصدر تعلياته إلى (المشير) أن يرد عنها أى عدوان .

وإذن فلندع تلك «الفسح» القديمة المفروشة تحت حاجباى فى «الزنزانة» ولنتابع

الأحداث عن طريق الصحف الجديدة التي نقرأها في «مكاتب الأطباء» أو «ينساها عندنا» «بعض الضباط» ، وكل هذه (المتابعة) كانت تتم في أثناء النهار ، فإذا جن الليل رحت أراجع حياة الرجل ، على قدر جهدي ، ولا أقول بتفكير تجريدي ، لأن الفلسفة التجريدية لا تطرق باب السجين السياسي إلا إن كان نبياً ، والسجن لم يشرّف عبر التاريخ المقصوص ، إلا يوسف الصدّيق .

* * *

وفجأة قيل إن مصر وسوريا تبحثان في إعلان الاتحاد بينهما ، وكانت الخصومة بين أمريكا وسوريا قد جرت على كل لسان وفي كل مكان . وأمست حدثاً دولياً يثير القلق حتى على الصعيد الدولي ، فإذا تحقق هــذا ، كتحد لأمريكا ، فإن معناه أن عبد الحكيم عامر سيكون مستعداً لإيفاد آخر جندي في مصر ، دفاعاً عن أصغر مواطن في سوريا ، والله وحده يعلم ، على أي أرض نهادن ، أو بأي أرض نموت .

وتحقق الاتحاد ..

ولم يتحقق (فيدرالياً) كما كنا نتوهم ، وإنما تحقق (وحدة) تذيب كل إقليم في الآخر ، والمهمة — كما ترى — أقرب ما تكون إلى المغامرة ، مهمة تذويب (المصري) في (الشامي) ، من قبل أن نذوّب (المصري في المصري) و (الشامي في الشامي) .

* * *

وأعلنت الوحدة على مراحل ، لا أنكر أحداً رغم تهجيني لها أنها بهرتني .

أعلنت على مراحل نبدت لي رائعة ومرسومة ، وكأنها الخطى المنغومة فوق سلم موسيقي مرتب .. يخطوها فنان على مطرب .

أعلنوا الوحدة (رسمياً) في يوم السبت أول فبراير ١٩٥٨ — هكذا قرأنا

وألقى عبد الناصر في مجلس الأمة المصري أول خطاب له عن هذه الوحدة في اليوم الخامس من فبراير .

وفى خاتمة ذلك الخطاب التاريخى الذى أذيع علينا . أصغيت إليه وهو فى رفرف الخطاب يقول كأنه يعزف أو يغنى ، ويقول كلاماً أعذب من الشعر ولم يكن شعراً ، وإنما كان حقائق ، يقول بالحرف الواحد :

« لقد بزغ أمل جديد على أفق هذا الشرق

« إن دولة جديدة تنبعث فى قلبه

« لقد قامت دولة كبرى فى هذا الشرق ، ليست دخيلة فيه ولا غاصبة ، ليست عادية عليه ولا مستعدية ، دولة تحمى ولا تهدد ، تصون ولا تبدد ، تقوى ولا تضعف ، توحد ولا تفرق ، تسالم ولا تفرط ، تشد أزر الصديق ، ترد كيد العدو ، لا تتحزب ولا تتعصب ، ولا تنحرف ولا تنحاز ، تؤكد العدل ، تدعم السلام ، توفر الرخاء لها ، ولمن حولها ، وللبشر جميعاً بقدر ما تتحمل وتطيق » .

* * *

استمعت إلى هذا الخطاب ، وعجبت .

لم أعجب لروعة البيان فيه فقط ، وإنما عجبت لمعانيه ، وعجبت لمراميه ، وعجبت للخطورة فيه ، وعجبت لتفصيل كل عبارة على قدّ المعنىّ بها ، وعجبت لروح التحدى ، وروح الفروسية ، وروح الإنسانية ، موزعة بإحكام وحزم وعدل .

وكانت هذه هى أول مرة ، فى حياتى ، أتذوق فيها (حلاوة) خطبة لعبد الناصر ، ولا تذكّرنى بالخطاب الذى أم فيه القنال ، فشتان بين مذاق ومذاق ، ذلك خطاب ملأنى زهواً بانتزاع حق كان مغتصباً ، وهذا خطاب ملأنى فرحاً ، لا بلقاء شقيق كان مغترباً — فقط — بل بـ (عودة الروح) إلى عربى من الشرق ، يملى على العالم دستوراً أرساه باسم العروبة ، ولا يتعامل إلا بمقتضاه مع من يريد التعامل ، دستوراً خطيراً على الصعيد العربى ، ودستوراً رهيباً على الصعيد الدولى ، ودستوراً رفيعاً على الصعيد الإنسانى ، وله فعالية ، وفيه إيجابية ، فيه الأزر الذى يشد ، وفيه الكيد الذى يرد ، وفيه الحديث عن التعصب والتحزب ، وعن الانحراف والانحياز ، وعن العدل والسلام ،

وعن العداء والاستعداء ، وعن التهديد والتبديد ، وترك لك وضع النقط فوق الحروف .

والمسألة — إذن — ليست وحدة بين مصر وسوريا فقط .

إنما هي أمل جديد على أفق هذا الشرق ، يرنو إلى بعيد ، من قريب ، بعين الدولة التي انبعثت في قلبه ، (دولة كبرى) من يوم مولدها ، تستمد جلالها من مقومات الحضارة التي ظلت القرون تستخفي في حنايا تاريخها .

وقلت لنفسي أسألها على طريقتي :

— ماذا يريد هذا الشاب أن يعمل ؟ وإلى أين يريد أن يذهب ؟وهل هي فرحة الساعة استغرقتني انفعالا ولا تلبث أن تنجاب عني وتخمد ، كما حدث لي يوم أمم قناتنا وكدت يومها من الزهو أرتد طفلا .

وعدت لنفسي أتولى الإجابة عنها :

— الأمر لا يبدو سهلا ، والجواب يحتم أن يحدد هذه المرة موقفي ، أو فلأنفض يدي من بحث لست مؤهلا له ، وأنا ثالثة متعب ، وغداً سألتقي بإخواني في الحنة وبزملائي في السجن ، وستدور كل أحاديثهم حول الوحدة وخطاب ناصر ، والخير أن أزعم أني كنت نائماً لم أسمع شيئاً ، وأن أستمع إليهم ولا أبدي رأياً .

* * *

وصح ما توقعته .

وما كاد الباب ينفتح ، حتى اخلت منه ضحايا القضايا التي يزعمون أنها سياسية ، بما فيها قضية الصهيونية وقضية الجاسوسية ، وأقبلوا علينا وفي كل فم (قفشة) أو (نكتة) .

وتحسست خطتي وتلافيت الخروجة ، وأعددت نفسي ، لِحلي .

* * *

وجاء الليل ..

ورأيت أن أعود من جديد إلى النسج القديمة المفروشة تحت حاجياتي .

وذكرت أن إحداها تحمل — كما أشرت قبلا — نص الخطاب الذى كان قد ألقاه على النواب فى افتتاح مجلس الأمة قبل الوحدة بنصف عام ، وقلت لنفسى : لعل فى هذا الخطاب أضواء ألقيها على طريق الهيئة وأنا أحاول أن أفهم الموقف الجـديد لآخذ مكانى .

ولم أكن قد قرأت هذا الخطاب قراءة واعية .

كنت قد مررت به كريماً ولم ألبث عنده .

وكنت أعتقد أن كل خطبة ألقاها أو يلقيها إنما هى حزمة من الأباطيل ، يصاول بها الجماهير ، على نحو ما يفعل جهازه العجيب الذى أعده للاعلام وعهد به إلى شيطان رجيم اسمه حاتم ، وأعجبها رع فيه أن يتمرل فى نصاعة البياض وهو يصف لنا حلمة الليل ، ويحظى بهذا التضليل حسـدودنا إلى مختلف الشعوب فهوى إليه أفئدة عاطشة إلى الأحلام ، وأعصاب مشوقة للتخدير ، وكنت أصدق الخصوم وهم يقولون إن أمرين لا ثالث لهما هما اللذان نجح بهما ناصر ، ولولا براعته فى إعدادهما لما قامت له قائمة : جهاز الإعلام ينفث السموم وينشر الأكاذيب ، وجهاز المخابرات يكشف المؤامرات ، ويجند نصف كل شعب ليكونوا عيوناً على نصفه الآخر .

هذه هى الصورة المرعبة التى كانت ريشة الخصوم قد رسمتها للثورة وصاحبها عبر سنوات خمس قضيناها بينهم .

• • •

والآن .. ؟

الآن .. وقد بدأت بعض الحقائق تبين .. ؟

الآن .. وقد انهار أضخم اتهام عن أسموه (العميل الأمريكى) .. وقامت الأنقاض — على افتراء الخصوم — شاهداً لا يبين ..؟

الآن .. أليس من واجبى نحو نفسى — ومن باب الاحترام لتفكيرى — أن أراجع الحساب كلما وجدت للمراجعة سبيلا ؟

وقلت : (نعم) وتناولت خطاب (ناصر) فى افتتاح مجلس الأمة .

* * *

وقرأت له . . يقول لهم . . بعد أن حياهم :

« لقد كان موعدنا معكم منذ خمس سنوات — أى فى بداية الثورة — فقد كنا نتصور ونعتقد أنه فى استطاعتنا أن نلتقى بالممثلين الحقيقيين للشعب » ، ولكن التجربة ما لبثت « أن أوضحت لنا أن الأمر لم يكن بالسهولة التى كما نتصورها » .

و« ناصر » إذن يقول للنواب أن الطليعة الثائرة التى اقتحمت الأبواب عنوة ففتحتها . . انتظرت « الزحف المقدس قادماً إثر خطاها شعباً يتلقى مسئولياته وينهض بها » فلم يظهر الزحف الشعبى ولم تتحقق أحلام الثوار ؟

ولكن لماذا ؟

أجاب (ناصر) أن الذى حال بينه وبينهم . . وجود ملك كان لا بد أن يذهب . . ووجود استعمار كان لا بد أن يرحل . ووجود أحزاب كان لا بد أن تحل . . ووجود إقطاع كان لا بد أن يلفظ أنفاسه . . وحال بينه وبينهم قبل هذا كله وبعد هذا كله (يأس مخيف سيطر على القلوب والعقول) بسبب تلك العقبات « فإذا الأحداث تترى على هذا البلد والمالية من شعبه تكتفى بموقف المتفرج) و « فى هذا الظرف . . ضاعت الثقة فلم يعد كل فرد فينا يؤمن أو يثق بزعمائه . . أو يؤمن أو يثق بغيره من المواطنين . . أو يؤمن أو يثق حتى بنفسه . . وكان ينبغى للإيمان والثقة أن يعودا إلينا كشعب وكأفراد . . حتى نستطيع أن نلتقى بكم . وهكذا فى الوقت الذى اتضحت فيه معالم طريقنا إليكم وطريقكم إلينا . . اتضحت فى الوقت ذاته حدود المعارك التى كان يتعين علينا أن نخوضها لكم . . ليتم اتحاد شعبنا . . ويصبح حراً طليقاً . . يفتح بيده . . آفاق غده » .

* * *

قرأت هذه السطور ورحت أسأل نفسى :

— أكان حقاً ما قاله أم لم يكن حقاً ؟

وأجبت عن نفسى :

— كان كله حقاً . . وأنت تعلم .

— نعم أنا أعلم . . لأنى (مخضرم) . . نعم أنا من أعلم الناس بأن كل ما قاله القائد الشاب . . عن الاحتلال والإقطاع . . وعن الملك والأحزاب صحيح . . وأكثر صحة منه ذلك الذى أسماه (اليأس المخيف) . . كان كل شىء ميئوساً منه فعلا . . وكانت جريدة (مصر الفتاة) أو (الحزب الاشتراكى) — لا أذكر — تكتب على عرض صفحتها : (رعاياك يا مولاى) وترسم صوراً من شعب حطموه وما يزال يقاوم . . وكانت طالبات (المدرسة السنية) يتظاهرن فى ميدان عابدين . . ويردد (الميدان) أصداء هتاف غير مسبوق . ومن فتيات طاهرات عن (بيوت الطهارة) — يقصدن الملكة فريدة الطريدة — وعن (بيوت الدعارة) يقصدن بيته الملكى الكريم . . بيت مولانا (الملك الصالح) . . وكان كل شىء يترنح . وكانت أسماء (ناهد) و (شيرين) و (ساميه) و (تحيه) و (ثابت) و (كيلى) تتردد على كل لسان . . وفى كل سامر . . وكانت أقاصيص كابرى والريفيرا . ومونت كارلو ، ورياض عالى ، صفحات (بيضاء) فى كتاب (الملك المسلم) يتصفحها الأجانب ، من ساسة وغير ساسة ، وكانت أقاصيص السكاباريهات ، واتخاذ كلمة (المصرى) فيها اسماً مستعاراً لحاكم (مصر) فى لياليها الحمراء ، تجرى على كل لسان وفى كل سامر أيضاً ، فى القاهرة (وفى الأقاليم) ومنها جمع (مصطفى أمين) مادة كتابه الظريف عن (مولانا المعظم) بعد أن ذهب !

* * *

وأرجو أن يكون مفهوماً أنى لا أستهدف بهذه المجموعة من المحملات بأن أهاجم فاروق ، فليس من أهداف كتابى أن أهاجم ملوكا أو سوقة ، ولم يعد تاريخ فاروق فى

حاجة إلى المزيد (من الصفحات السود) وإنما أردت أن أقول إن ما قاله (ناصر) عن (اليأس المخيف) كان صحيحاً.

* * *

وكان على (ناصر) — إذن — أن يزيح هذه الألغام من الطريق التي تمتد، حتى يطمئن الشعب ويزحف.

وكان على (ناصر) — إذن — أن يخوض أكثر من معركة — وأن يحارب في أكثر من جبهة، ولو تردى في (الخطأ) الذي تردى فيه (عتار)، ولو خالف — ناصر — عن أصول الفن العسكري وهو الجندي الذي عرفت فيه (الفالوجا) شجاعة لم ينكرها عليه خصومه.

وكان على (ناصر) أن يحارب حرباً هدامة في البداية، والأنقاض من حلفه ترفع، والبناء في مكانها يقوم..

وكان عليه أخيراً أن يعيد الثقة إلى الحيارى واليائسين.

فماذا فعل ناصر؟

هل حقق الوعود التي ارتبط بها مع الجماهير؟

وهل خاض — لهم — هذه المعارك وقاتل هو وأصحابه ببسالة ومهارة وإيمان؟

أم أن كل ما كان يقوله .. إنما كان دعماً لأجهزة الإعلام والدعاية.. ولعبد القادر حاتم في مجال النشر والفكر ولوجيه أباظة في مجال الفن (وقطار الفنانين) و(معونة الشتاء)؟

تولى (ناصر) محطابه في مجلس الأمة الإجابة.

قال لهم، إنه بر بما وعد..

خلع الملك، قضى على الملكية، صادر أملاك الأسرة المالكة، أعلن الجمهورية،

حل الأحزاب ، وسلح الجيش ، أمم القنال ، هزم العدوان ، طرد الاحتلال ، بدأ التصنيع .

ولم يقله كلاماً ، وإنما فعله حقائق .

ولم ينس الخامة البشرية ، فبدأ يبنى « الإنسان » إلى جوار (المصنع) ، وضرب مثلا لكل ما صنع .

• • •

وقد حرصت — وأنا أقرأ خطابه فى مجلس الأمة — على أن أحنيك ما لم أجتبه من البيانات التى أدلى بها دعماً لما نهض به — وحسبى أن أذكر لك إنى سألت نفسى بعد أن طالعت هذه البيانات السؤال الصريح التالى :

— إذا كان هذا الرجل قد فعل هذا كله عبر سنواته الخمس ، فما الذى حجب هذه الحقائق عنى ؟ .. وكيف تراءى هذا الهرم مقلوباً أمام عينى ؟ .. وأى المرايا أرتنيه على هذا الوضع المقلوب ؟

— مرايا الخصوم من غير شك .

— هل تستطيع هذه المرايا أن تريك الليل نهاراً والنهار ليلا ؟

— نعم .. ويعاونها أن تكون قد أوذيت . فينتهز الخصوم فرصة شعورك بهذا الأذى .. ليسجوا لك من هذا الشعور غشاوة على عينيك ، هى مرآتك التى تريك كل شىء مقلوباً .

— يبدو — إذن — أن لكل شىء فى السياسة وجهين : وجه يراه الأنصار .. ووجه يراه الخصوم ..

— نعم .. والمحايدون هم وحدهم القادرون على التفريق ، بين الصحيح والزائف ، أو بين الأصيل والهجين .؟

• • •

مر" هذا « المونولوج » برأسى ، وكأن شطرت نفسى بنفسى ، فخرج منها شخصان يتحاوران ، وتلك طريقة من طرق التفكير صاحبتنى طوال حياتى ، واتسع لها المجال فى سجنى ، بحكم وصى وحيداً داخل غرفة مغلقة .

ونحيت الصحيفة جانباً وبدأت أفكر فى أن لكل شىء وجهين حقاً إذا ما وجد لهذا الشىء أنصار وخصوم .

ورأيتنى أنشث بهذه (الفتة) .. وأصر على اختبار مدى الصحة فيها باختيار بعض إصــلاحات (ناصر) وتطبيقها عليها . والنظر إليها من وجهيها وبدأت أقول لنفسى :

خذ (عينة) من كل إصلاح وانظر .

١) خذ الحديد والصلب ، مثلا للصناعة .

٢) وخذ طريق الكورنيش ، مثلا لإعادة بناء العاصمة

٣) وخذ الأرض التى وزعت على الفلاحين مثلا لإعادة بناء المجتمع .

٤) وخذ إلغاء الرتب والألقاب ، مثلا لإعادة بناء الإنسان .

وكتبت هذه النقاط بقلمى فوق طرف الصحيفة ، واتكأت على الوسادة ، وبدأت أتحدث إلى الإنسان الآخر الذى تناسخ منى .

الحديد والصلب ؟

— نحن فى السجن يا أخى ، وقد ترامت إلينا عبر القضبان قرحة الخصوم وهم يقولون إن مشروع الحديد والصلب فشل ، وأن مرتاً من القرنين انشرح وهو يجرب ، وأن أموال المساهمين المساكين ضاعت .

— ولقد رأينا بأعيننا من نوافذ الليمان ، موكب الرئيس وهو يمر إلى جوارنا فى طريقه إلى حلوان لزيارة المصنع ، وسرعان ما ترامت إلينا الأخبار بأن الرئيس رأى

فى مكتب المدير من الأثاث (المترف) والسجاد (الفاخر) ، مالا يوجد فى مكاتب بعض الملوك ، فذهل ، وأمر بالسجّاد فرفع ، وأمر بالمدير فنصل .

وهذا وجه الخصومة المصطنع .

وقال أخونا يشجب هذا الوجه ويرد على أخيه الذى تسامح منه :

— لنفرض أن كل ما قيل صحيح ، فهل يعاب على أمة ناشئة ، تثور على التخلف وتُشدد جريئة ومصرة ، على هذا النوع من الصناعات الثقيلة ،فيصاب ورمن الأفراد فيها بشرخ ؟ ومكتب المدير . ؟ لو سلمنا جدلا بكل ما قيل ، فما وجه العيب فى أن يسرف موظف مثله ويسترف ، فيجد أمامه رئيس دولة « نامياً » ، لا يخدعه الرمل الأحمر تفرش به طرقات المصنع تحية لمقدمه ، ولا خطب النفاق تلقى بين يديه تمجيداً لزعامته ، ويدع هــذا كله لدراسة الوضع ، فيضبط المدير متلبساً بالإسراف ، فيأمر بالسجاد فيطوى وبالمدير فيفصل ، ولماذا يحلو لنا دائماً أن نقول من « الكوب » ونصفه مملوء بالماء بأن « نصفه فارغ » ونرفض أن نقول إن « نصفه ملآن » وأنت وأمثالك يا أخى أنما حاء بكم إلى السجن ، ذلك « النصف الفارغ » .

وطريق الكورنيش ؟

معجزة البغدادى — أحمد الرفاق — يوم كان وزيراً للبلديات .

قال عنه الخصوم إنه تشقق .. وأن المقاولين غشوا .. وأن الرشاوى استخدمت

ولست أدرى لماذا نكذّب العين ونصدق الأذن ؟

وإذا فرضنا جدلا أن بعض ما قيل قد حدث .. فلماذا تحتفل بعشرين متراً أو مائة من الأمتار "بانَ" عليها التشقق .. ولا نحتفل بكورنيش كامل خلق العاصمة خلقاً .. وأجرى النيل ساحراً وأخاذاً .. وكأنه لأول مرة يجرى .. وكأننا لأول مرة نراه .

لقد ترامت إلىّ شائعات التشقق قبل أن أسجن .. وجاءنى أحد الأطباء من

الأصدقاء ذات ليلة — الدكتور الطيب ناصر — فدعاني إلى (نزهة) في عربته على طريق الكورنيش لأراه .. وكان معنا (محمود الكولى ، المحرر بالأهرام) واتجهنا إلى شبرا البلد .. ولم أستطع ليلتها — وبرغم الخصومة — إلا أن أقول للصديقين ضاحكا : (ان هذا الكورنيش .. من صنع الذى يحيتك بمرش بلقيس .. من قبل أن تقوم من مقامك) لقد قالوا مرة بشأن كورنيش الإسكندرية ومن قبل عشرين عاماً أو أكثر، وأعادوا القول أكثر من مرة ، وبرغم السرقة الضخمة التي وكت رائحتها الأنوف فى مصر والخارج ، وعرفها القاصى والدانى عن إسماعيل صدقى والمقاول الإيطالى ، وأحد صديق مدير البلدية ، وحسين صبرى خال « الملك المعظم » ومحافظ الاسكندرية .. قالوا برغم هذا كله إن إسماعيل صدقى الذى قرر عمل كورنيش الإسكندرية حلق الاسكندرية .. وأن صنيعه هذا يجبُّ كل إساءة له ضد وطنه ..

إذا كان هذا قد قيل عن عدو من أعداء الشعب ، دهب فى التاريخ ، مثلا لا ينسى على العبقرية الفاجرة فى التقتيل والتخريب وولاء المستعمر ، أفما كان البغدادى وهو يخلق النيل خلقاً جديداً ، ويجعله هبة من مصر ولا يجعل مصر هبة منه كما قال هيرودوت ، أفما كان البغدادى وهو أحد أبطال الثورة البيضاء ، جديراً ببعض ما قيل عن إسماعيل صدقى وهو أعتى أدوات المحتل فى هدم مواطنيه ؟

والأرض الطيبة ؟

والأرض الطيبة التي نزعت من الإقطاعيين ، وأعطيت للمعدمين من الفلاحين ..

لقد مشت الشائعات بينما تقول عبر السنين الخمس ، أن كثيرين ممن تسلموا الفدادين الخمسة هجروها وأن الباقين لا يحول بينهم وبين الفرار إلا الخوف ، لأن كل فلاح تسلم هذه الفدادين ، وليس فى بيته رغيف ، عجز عن التفرغ لزرعها ، والفلاح الذى زرع .. استولى الإصلاح الزراعى وبنك التسليف ومختلف الجهات الدائنة على كل ما حصد أوجمع ، لقاء ما أعطيه من تقاوى وسماد ، وما قيدوه عليه مما لا يدريه ، وهذا الفلاح الذى يستغيث اليوم ولا مغيث ، كان ناعم البال أيام الإقطاع ، يطعمه سيده ويسقيه ،

ويعابله ويكسوه ، وإذا أكلت الآفات محصوله أقرضه السيد على محصول جديد ، وكنا من فى « الدار » من « حرمة وعيال » .

ولست أدرى كيف كنا نسمع مثل هذا القول بالارتياح ، ونتلقاه كأخبار تبشر بشيوع الخير — وإن كنت شخصياً لم أهضم هذا القول يوماً بحكم احترامى لقانون الإصلاح الزراعى — ومع ذلك افترضت — جدلا — أن يكون ما قالوه صحيحاً — وأن الفلاح فى « التفاتيش » و « العزب » كان يحيا حياة ناعمة ، كالتى يحياها أهل الشمال فى أوربا ، فهل قصد صانع الثورة بالقضاء على الإقطاع إطعام الجياع ؟ قد يكون الطعام والكساء نتيجة محتومة وهدفاً ثانوياً للقانون ، أما الهدف الأساسى لتمليك المعدم ، فقد قال ناصر عنه للنواب ما يأتى بالحرف :

« وكان بيننا وبينكم — أى من العقبات والحوائل — إقطاع استشرى خطره واستفحل ضرره ولم يكتف بأن يملك الأرض ، وإنما أراد أن يضم إلى ملكية الأرض ملكية البشر .. وكان لابد أن ينتهى هذا الإقطاع ويزول حتى نلتقى بكم » .

هذا هو الهدف : زوال هذا « الحاجز » أو « الحائل » ، حتى يتم الاتصال بين القاعدة والقمة ، وتحرير العبيد الذين ضمهم الإقطاع إلى ملكية الأرض ، أو تحرير المستعبدين و « المقيدين فى الأرض » من « سادة الأرض » ، حتى لا يسوقهم « الإقطاع » إلى « صناديق الانتخاب » كما يساق القطيع إلى الحظيرة ، ثم يقال « بحق يراد به باطل » — أن هذا المجلس النيابى وليد انتخابات حرة ، وأنه يمثل أصدق تمثيل إرادة الشعب ..

ولقد توغلن هذا « التلفيق » و « أزمن » حتى استفتنا له نحن الكتاب ، واستقمنا على « الطريق » لأنه « مطروق » ، وجرت أقلامنا مؤيدة له ومحمة عليه ، وأسمته « ديمقراطية » و « حياة نيابية » وكان الضمير لا يلبث أن يفيق فترسلها بين الحين والحين ، صرخة مدوية ، على صدى حادث — محلى أو دولى — يهز الضمائر ، فتتلقانا السجون لتهذب القلم وتؤدب الضمير ، وتصلح أسلاك الجهاز — والسجن كما لا بد أن تكون قد علمت — تأديب وتهذيب وإصلاح ، وكان لنا فيه مكان الترفيه :

.. معاملة ممتازة أسموها « حرف ا » تتم تحت ظلالها بملابسك العادية ، و بالطعام يجيئك من البيت ، وتلقاك ابتسامات مردت على الخديعة والنفاق ، من فئة المتخصصين فيما كان يسمونه « القلم السياسى » فى المحافظة أو « القسم المخصوص » فى « الداخلية » ، ورحم الله كبيرهم « سليم زكى » وما لقيه من مصرع ، وأمام كلية الطب .. كلية « الرحمة » ولم يحمه قصر الدوبارة ولا قصر عابدين ، من قصر العينى ، المنعم بالأنين .

والألقاب والرتب ؟

وخذ « الألقاب والرتب » والقانون الذى ألغاها ..

القانون .. قد يبدو فى ظاهره سطحياً وتافهاً .. ولكنه كان يوم صدوره دفعاً ثورياً يتجه إلى العمق لا إلى السطح .. ويستهدف تحرير المستفيدين روحياً وعلى « مستوى الطبقة » كما حررهم مادياً على « مستوى الأرض » .

ولا يعنينى أن أتحدث عن ثمار القانون الذى سن على مطالع الثورة .

ولا أظن أنه سيؤتى ثماره إلا بعد أن تتم الرسالة .. لأن الرواسب الطبقية ما تزال تعمل عملها .. ولأن ما صنعه بنا آل عثمان .. والاحتلال .. وصدارة الإقطاع ورأس المال .. وسيطرة ما نسميه « النفوذ والجاه والسلطان » .. وبقايا ما انحدر إلينا من تقليد للباهاة بالجد السابع أو العاشر .. أو « الدروار » الرحيب أو « المصيّفة » التى أوقف الأجداد عليها كثيراً من الأطيان .. كل هذه الرواسب لايلغيها قانون .. والدليل أننا ما نزال — وبعد أن دلفنا إلى الاشتراكية فى تجالح سريع ومتعجل .. ما نزال نتعامل بالرتب فى كل مكان .. ونقيم لها سوقها السوداء برغم القانون .. ويمنح كل منا الآخر رتبة « البكوية » مجاملة أو تحية .. ونضفيها على « الموظف الصغير » ليهتم بمطلب لنا عنده .. ولا يزال هذا الموظف يهش لك إذا أنت أضفيتها عليه .. ويطرب لها وقد يقضى حاجتك .

* * *

ولكن « القانون » كان جزءاً لا يتجزأ من معارك التحرير النفوس ومعارك التحرير القلوب ومعارك التثبيت لمعنى الاستقلال .

فن أى الزوايا — إذن — نظر الخصوم إلى القانون .. ومن أى الجوانب شنوا عليه الغارة ؟

الجواب :

— من زوايا الأكاذيب .. ومن جانب القصص .

ولم تكن تسمع منهم إلا أن شيخاً مهيباً من سراة القوم وحلة الرتب فى « مصر الجديدة » (عرف بالعطف على الفقير وبالصلاة فى وقتها وبالصوم فى نفل) كان يمشى فى الشارع ومعه خادم صغير لا يجاوز عشر سنين .. يحمل سلة ، وتمنت الشيخ فلم يجد الصبى تخشى عليه أن يضل الطريق أو تدهمه سيارة .. وكان الصبى قد لحق به فقال له الشيخ فى عطف الوالد : « تعال ياولد .. انت رحت فين ياكلب ؟ » وقال الصبى ضاحكا : أنا هنا يا سعادة البيه .. ماتُهنش ولا حاجه » .. وكان بائع وكواء يقفان أمام دكانيهما فصاح « الكواء » فى الصبى : « ماتقولشى يا سعادة البيه .. ما فيش حاجه اسمها بيه دلوأت » وقال البائع للصبى : « وإذا حد قال لك ياكلب .. قل له يا ابن ستين كلب ما بقاش حد أحسن من حد » .

هذه القصة .. ذكرت — وأنا فى زنزانتى — أن أحد الأصدقاء من سكان « مصر الجديدة » كان قد رواها لى قبل أن أسجن .. وكان يرويها بكثير من التأثر

ولا أنكر أنى يومها تأثرت .. ولمنت قانون الرتب كما كان الخصوم يلعنونه .. ورحت أحمل عليه .. وعلى روح التمليح والتحريق فيه لكل ما أمر الله به أن يوصل .. وتعسفت يومها فى تخريج معنى لم يرده الله قط وهو يقول فى كتابه الكريم : « ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات » .

والبيسة وأنا أذكر الحادثة فى سجنى .. وفى السجن الذى أتى بى ناصر إلى غياهبه .. هل أرى فى القانون نفس الرأى الذى كنت أراه وأنا أعيش بين الخصوم ؟

— بكل قوة اليقين .. أقول : « كلا » .

وأضيف إلى هذا « النفي » أن واضع القانون لم يرد أن يتولى «الكوّاء والبائع» تحريض الصبي على شتم الشيخ الصالح . .

هذه أخطاء .. لابد من دفعها .. تمناً صغيراً للهدف الكبير الذي استهدفه المشرع

بل إن غضبة « الكواء والبائع » على ما خلناه — خطأ — إهانة سددتها طبقة ظالمة إلى طبقة مظلومة . . تكفينا .

ولتصل هذه القصية طريقها .. إلى (التعبير عن ذاتها) ، وليكن (الكواء) أو (البائع) سيء السلوك — أو ما شئت وصفا له ، أو لقلة أدبه — ولكنه بدأ يسى « أمسه » وما عاناه فيه من مهانة ، وبدأ يذكر (يومه) وما يرجوه فيه من (عزة) ، وبدأ يذكر « غده » وما تكفل القانون به من « حماية » له ، ثم راح يوجه الصبي إلى ذلك الغد المنشود ، راح يشق الطريق إلى الشموخ ، راح يتحدى خصمه حامل الرتبة ، راح يذيب الفوارق ولو بالشتائم ، وإذا كان التهذيب قد تخلى عنه في التعبير عن ذاته ، فلأن المجتمع لم يُتح له فرصة التهذيب .

❋ ❋ ❋

وقلت لنفسي :

— لم تكن الناصرية عابثة — إذن — يوم علقت في الطرقات حشداً من اللوحات ، تحمل كل لوحة منها كلمة كان قد قالهـا (ناصر) لهذا (الكواء) ولهذا (البائع) : « إرفع رأسك يا أخي » وكان الخصوم يضحكون منها ، جهالة منهم .

والجيش؟

وأخذت (نفساً) طويلا من (السيجارة) .. أعبر به ثارة نفسي .. ثم رأيتني أهز رأسي في أسى وأقول لهذه النفس : (فات الوقت .. انك يكشف هذه الحقائق تضني ضميرك وترهق أعصابك .. وكل كلمة تُقلت من شفتيك وأنت داخل الأسوار عن رشاد ناصر .. لا بد أن ترسم على شفاه السامعين ابتسامات لا ترضاها .. أمسك عليك رأيك .. واسكن) .

لم أسكن .. وإن بدا كل شيء حولي ساكناً .

مشت يدي — على غير وعي مني — إلى الصحيفة أو إلى الخطبة .. وبدأت أقرأ .

قرأت ما قاله ناصر عن الاشتباكات — التي وقعت على خطوط الهدنة بيننا و بين إسرائيل — وعن الغارة الغادرة التي شنها الاسرائيليون على غزة يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٥ .

وفي جرأة عجيبة اعترف ناصر خطأ كبير كان قد تردى فيه .. ولم يتنبه عليه إلا بفضل هذه الغارة .. اعترف أنه قبلها لم يكن يشغل نفسه كثيراً بخطر إسرائيل .. وكان يعتقد (أننا إذا استطعنا أن نبني في مصر هذه الأمة الكبيرة التي نحلم ببنائها فإن خطر إسرائيل يتلاشى وعنادها يلين) .

ولكن دخان الغارة على غزة .. انجاب عن حقيقة خطيرة .. (تلك هي أن إسرائيل ليست الحدود المسروقة وراء خطوط الهدنة وإنما إسرائيل في حقيقة أمرها رأس حربة للاستعمار ومركز تجميع لقوى أخطر من إسرائيل وأخطر من الاستعمار .. وهي الصهيونية العالمية) .

واعترف (ناصر) أن هذه الحقيقة كانت نقطة تحول في تفكيره واستبان له أن البناء الداخلي لا يكفي وحده لصيانة أمننا .. ومن هنا كانت معركة السلاح واحتكاره وكسرنا الاحتكار . وقبلنا .

* * *

وبدأت أرجع بذاكرتى إلى ما كان يقوله الخصوم يوم سلحتنا روسيا وتشيكوسلوفاكيا .

كانوا يقولون إن (ناصر) يتخذ إسرائيل ذريعة .. ليقيم جيشاً قوياً .. يحارب به مواطنيه فى الداخل .. ويكمم به أنفاس كل معارض .. ويزحف به إلى البلاد العربية الصغيرة تحت علم (الوحـــدة) .. ليحتلها دولة بعد دولة .. كما دخل محمد على الشام .

وانفرجت شفتاى عن ابتسامة باهتة أزجى بهـا العزاء إلى منطق الذى استمر يومها ذلك الاتهام التافه .. وذكرت العدوان .. وكيف وزعت الحكومة على الشعب نصف مليون قطعة من السلاح .. وكانت فرصة العمر لو أن الشعب يريد أن يحدث انقلاباً .. ولكنه لم يفعل .. فهل مثل هـذا الشعب .. هو الذى يسلح عبد الناصر قواته من روسيا ليخمد بها أنفاسه ؟

وتذكرت (العدوان) مرة أخرى .. وثبت أن اسرائيل كانت رأس حربة فعلا . ومركز تجمع لقوات الاستعمار ... ومنها — ومن قبرص المحتلة — وثبت انجلترا وفرنسا على القنال وكان العدوان .

وكذب الخصوم — إذن — وصدق ناصر .

وكان (ناصر) ملهما — إذن — حينما جعل بناء الجيش القوى مبدأ من مبادئه الستة من أول يوم فى عمر الثورة وكان (محقاً) عندما ظن فى إحدى الفترات أنه لا خطر علينا من إسرائيل .. وكان حصيفاً عندما تنبه على الخطأ وسلح الجيش من روسيا .

* * *

جئت قرية واحدة .. لم تقل الأحداث فيها كلمتها بعد .

تلك هى دعواهم أن (ناصر) إنما يسلح الجيش ليغزو به البلاد العربية .

وها هي ذي «غزوته» الأولى لسوريا .. وقد أعلنت رسمياً بإعلان «الوحدة» .. فما الذي ظهر لنا من خلال هذه «الغزوة» ؟

ظهر لكل ذي عينين أن الذي أراد غزو سوريا هو المستعمر بل توارت انجلترا وفرنسا خلف أمريكا التي لم تتردد .. وأذاعت بيانها الرسمي تتهم فيه سوريا أنها أمست شيوعية حمراء .. وتحشد على حدودها حشود تركيا وحشود نورى السعيد بوصفهما عضوين في حلف بغداد .. ولولا إصرار «ناصر» على أن يذود عن سوريا .. ولولا جيش «عامر» الذي انتقلت قواته فعلا إلى سوريا .. لوقعت الواقعة .

فهل كنا نحن الذين نهدد الشقيقة بالغزو ؟

* * *

وثبت أن سوريا هي التي جاءت إلى مصر شقيقة لها .. تمد يد «الوحدة» إليها . وتصر عليها برغم معارضة «ناصر» ..

وثبت أن «ناصر» وضع كل قواته ، وكل سلاحها رهن مشيئة الشعب السوري ، ومن قبل قيام الوحدة ، بينه وبين شعب مصر ، فهل كانت هذه البداية ، طليعة لإجاح حربي محلي .. أم كانت طليعة لأمبراطورية ناصرية تحيلوها ؟

لئن كانت الإمبراطوريات تقوم على هذا اللون من الحب والإخاء والإيثار .. لدعونا الله للعالم كله أن تقوم فيه أمبراطورية من هذا الصنف .. ناصرية أو أمريكية .. أو روسية .. أو عفريتية يستوى على عرشها صاحب الجلالة ملك الجن .

وأخيراً

أخيراً .. تمل رأسي

واستقر فيه .. أن التفكير على هذا النحو — وداخل هذا « البيان » لاخير فيه .. ولا جدوى منه .. وقد يمرضني الظن السيء .. وما أعنانى في المحنة عن سوء الظنون ..

* * *

وطويت الصحيفة ..

ورأيت أن أجمد تفكيرى ، حتى أخرج من سجنى ، إن كان قد قدر لنا ، أن نخرج منه يوماً ، ومن يدريك ، لعله يكون قريباً ..

قريباً ؟!!!

وبعد أسابيع ؟ أو شهور ؟ أم بعد سبع سنين ؟ لعله يكون قريباً ..

لم لا ؟ وأبناء البلد يقولون دائماً : « ربنا كبير » ..

وهو فعلاً كبير .. وأكبر مما تتصور عقولنا ..

ونشرت الصحيفة مرة أخرى .. « مفارش لحاجاتى » ..

* * *

وفى ميزانى ، أن هذا الفصل يشكل المرحلة الرابعة عشرة فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل الخامس عشر

سمر .. من الليمان

قلت فى رفرف الفصل الثالث .. أنى طويت على مطلع الفجر صحفى وأوراقى ، وقررت أن أجمد تفكيرى ، حتى أخرج من سجنى إن كان قد قدر لى الخروج ..

وابتسمت عند ما مر بخاطرى أن هذا الخروج (قد يكون قريباً !!)

وأحب أن أسمر معك فى خلال هذا الفصل — بعض الوقت — وأن أستأذنك فى وقفة عند ذلك الخاطر ، لترى كيف يتسرب نور الرجاء ، إلى ظلمة السجن ، أو إلى قلب السجين .. حتى يقوى على احتمال المشقة .. حباً فى البقاء وشداً للحياة .. وتلك حكمة الله ..

***

والنور فى السجن نوران :

نور ينبثق من أعماق السجين كرد فعل لما يعانيه ..

ونور ينثال عليه ، من المحيط الذى يعيش فيه ..

وهو لا يدرى على التحقيق ، أى النورين يسبق أخاه أو يؤثر فى أخيه .

ومن النورين ، ترى السجين يقوى عزيمة السجين ، بأى أمل مصنوع ، أو بأى خبر مكذوب ، عن عفو مأمول أو إفراج قريب .

والسجين إذ يُقوى عزيمة زميله بالأمل « المصنوع » ، إنما يرجو أن يعود زميله إليه يوماً بأمل (غير مصنوع) ، يبثه هو الآخر فيه ، وهكذا تتم العدوى وتنتشر ، وتلقى (البشريات) فى سهولة ويسر ، كما لو لقيت صديقاً بادى الهزال يريد من الضعف أن

ينقض" قلت له جاداً : (ضحكك النهار ده ، أحسن من آخر مره ، شفتك فيها) فرد علىّ راضياً وقد شد قامته : (وانت كان ماشاء الله تتعامل الواحد يستنّى .. ويمسك الخشب) .

* * *

وأقوى من هذا التشبيه بالحديث (الصحى) ، ومن هذا التعميم بموضوع (العدوى) أن أنتقل بك إلى التطبيق ، ليكون سمر ، ولتصنى إلى بعض ما جرى مني شخصياً وبوصفى سجيناً سياسياً ، حتى يتجسّد أمامك المعنى الذى أرمى إليه .

والسجين السياسى يمثل ظاهرة التفاؤل أكثر مما يمثلها « السجين العادى » الذى لا أمل له إلا فى عفو من نصف مدة العقوبة فى عيد كبير كالعيد العاشر للثورة أو فى حادث سعيد كعودة الوحدة بين مصر وسوريا .. وقد يتقرر العفو .. ويتخطاه إذا لم يشهد له « ملفه » أو « دوسيه » بأنه كان فى سجنه « حسن السير والسلوك » .

أما « السجين السياسى » ، فما يكاد يضع قدميه داخل السجن ويلقى السجناء السابقين ، حتى يحفوا إليه ويلتفوا من حوله ، ليؤكدوا له أن الأمر كله لن يجاوز أسابيع وإن « تهند » وأثاقل ، فبضعة شهور .

وعلى الألسنة أو بين الأشداق قائمة معدة بأسماء من سبقوك من الأحباب يتلونها عليك كأنها فى كتاب ، فلا يلبث نور الرجاء أن يتسرب إلى قلبك من قبل أن تقضى بضع ساعات فى سجنك ، أسماء من سبقوك إلى (الليمان) أو إلى (سجن مصر) من السياسيين أمثالك جاءوا وعلى كواهلهم أحكام ترتعد لهولها الفرائص ، وتتأرجح بين الإعدام — وهو البقاء — وبين الأشغال الشاقة المؤبدة ، وقل أن تجد من بينها حكماً خفيف الظل .. مدته خمسة عشر عاماً ، أولئك جميعاً لم يذهب أحد منهم إلى مدافن الإمام !! وإنما عادوا إلى دورهم وكما يعود الكرام ، وبعد بضعة أشهر فى الأعم الأغلب ، وأقلهم حظاً أخلى سبيله بعد عامين أو عام ؛ أسماء لا حصر لها يحفظونها عن ظهر قلب ، كأنها فى قائمة كما قلت . . ويتلونها كما يتلو القراء السوَر : ابراهيم عبد الهادى وفؤاد سراج الدين وإسماعيل الهضيبى وإبراهيم فرج وكريم ثابت والدكتور النقيب ..

وحسين سرى عامر ومحمود عبد المجيد .. إلى آخر القائمة الطويلة التى يختمونها باسم (المرحوم) — وما أبعده عن السياسة والسياسيين .. ثم تبدأ الأحاديث عن المساجلات التى صاحبت كل إفراج ثم يقولون لنا أخيراً : (والعوا تنسوا أن قضيتكم سلعية .. لأن الريس ما يزعلوش إلا القضية التى فيها اتصال بدولة أجنبية زى قضية المراعى أو فيها جاسوسية زى المصريين اللى فى قضية زارب وسوينبرن) .

وزمالة .. السجن ؟

وعشنا فى هذا الجو الجديد .. وتنفسنا فيه تنفساً عميقاً .. عمق الأمل الذى أرساه فى قلوبنا « الزملاء » الجدد ، وليس أعز على السجين من (زمالة السجن) ولعلها أشد رسوخاً فى العاطفة — وبحكم المحنة — من زمالة المدرسة وإن كانت زمالة المدرسة أبعد جذوراً .

ولا يعيب (زمالة السجن) إلا ضعف المستوى الخلقى بين السجناء باستثناء القلة الكريمة التى رمت بها الأقدار إلى هذه المتاهات ، وقد تخرج من سجنك وكل حاجة فيك تحمل الحب الجم لكل سجين ، وقد يلقاك أحدهم بعد الإفراج عنه — وقد تكون قد نسيته فيذكرك بنفسه وتذكره — وتفرح بلقياه ، وقد يكون فى حاجة إلى العطف فتفيض عليه من عطفك كل ما تحمله عاطفتك ، وفجأة تكتشف أن التجربة الحية عن معدن خسيس فيه لا سبيل إلى استخراج الغد منه ، أو عن عنصر من عناصر الجريمة لا سبيل إلى أن تطب له ، أو تستبدل به سلوكاً طيباً آخر ، وقد تمتد يده إلى جيبك وهو حزين ونادم ، ولكنه لا يستطيع أن يرد هذه اليد ، لأنها فى الحقيقة ليست يد الرجل الذى عطفت عليه ولا يريد أبداً أن يسى عطفك ، وإنما هى يد (اللص) الرابض فى أعماقه ، واللص الذى يجرى مع الدم فى عروقه ، واللص الذى يتردد مع الهواء فى أنفاسه .

وأعطيك مثلا طريفاً مادمت قد انتويت أن أسمر بعض الوقت معك .

كان من بين رفاقى فى السجن ، سجين متخصص فى تزوير الشيكات على الأغنياء

وكان الشاب دمث الأخلاق ، حبيباً إلى كل من عرفه ، وكان يعمل فى ورشة الأحذية فى الليمان فأتقن هذه (الصنعة) ، وكان يصنع أفخر الأنواع منها ويقبل ما تدفعه ولا يساوم ، وقد سجل أرقاماً قياسية فى العفة ، عندما كان يقوم بمهمة الوسيط بين المسجونين من ناحية و (الأسطوات الملكيين) فى الورشة من ناحية أخرى ، فكان يتفق مع (الأسطوات) على أن يحملوا رسائل (المساجين) إلى أهلهم ، وردود أهليهم عليهم ، ومع الردود كل المطلوب من بن أو شاى أو ملابس أو نقود ، لقاء (جعل معلوم) لحامل الردود .

وكان (مزور الشيكات) يرفض أن يتقاضى أى (أتعاب) من زملائه ، ويرفض أيضاً ـ وهذا هو الأعجب ـ أن يقاسم الأسطوات (أتعابهم) مع أن العرف فى السجون أن يكون الأجر قسمة بين الأصلى والوسيط ، وفقاً لاتفاق يبرم .

وحان حين الإفراج عن زميلنا (مزور الشيكات) ، وخف كل سجين ميسور إليه ، يحمله رسالة إلى أهله ، ويثنى فيها على زميله حامل الرسالة .

ولم تمض أيام ، حتى اكتشف أصحاب الرسائل أن أخانا الورع العف ، عاوده الداء ، بعد الإفراج ، فنسى العفة ونسى الوفاء ، وافتتح عهده الجديد بالاحتيال على كل من حمل إليهم الرسائل ، وحصل من الأغنياء فيهم على مبالغ طائلة ، وأحذية فاخرة ، وملابس حديثة وبن وشاى ، وحلوى وطعام ، وتوارى فى الزحام .

مثل هذه النماذج المنحلة لا تجدها طبعاً إلا بين صفوف المجرمين أرباب السوابق أو الذين انحلت داخل السجن أخلاقهم ، وكان التيار أقوى منهم ، ومعظمهم من أبناء القاهرة والاسكندرية ..

أما القتلة — أخذاً بالثأر — من صعيد مصر وريفها فنادر أن تجد بينهم منحلا من هذا الصنف ، لأن (الأخذ بالثأر) يُلهب فى صاحبه ـ مع الأسف ـ شعوراً غير عادى بعزة الجريمة التى ارتكبها ، ومثله لا تعرف (الخسة) طريقاً إلى مشاعره ، ولا يتصرف إلا على مستوى (الرجولة) التى دفعته إلى الجريمة ، وهونت عليه العقوبة ، بل إن من بينهم من تعقد له الزعامة — داخل السجن — على أهل إقليمه كما كانت

معقودة اللواء له — خارج السجن — على أهل قريته أو أهل قطاعه ، ومثل هؤلاء ، محسوب في السجون حسابهم .

زعامات .. وتعصب إقليمى

والزعامات خلف الأسوار عرف يحكم سلوكها ، وحدود لا تتخطاها ، وهى أظهر ما تكون بين أهل الصعيد ، وأهل المنوفية ، فإذا ثار خلاف بين (أسيوطى) و (منوفى) غضب الصعيد كله لابن أسيوط ، وغضبت (المنوفية) وحدها لابن (المنوفية) ، أما إذا ثار الخلاف بين سوهاجى وأسيوطى ، غضب أهل محافظة سوهاج كلها للسوهاجى وغضب أهل محافظة أسيوط كلها للأسيوطى ، وهكذا يمشى الخط يضيق ويتسع لكنه لا يلتوى ، والدستور الذى يحكمه « أنا وأخويا على ابن عمى .. وأنا وابن عمى على الغريب » .

وكان طريفاً أن تدركنى نفحة — و برغمى — من هذه التقاليد .

كانت قضيتنا تحمل طابعها السياسى ولا تنتمى لأى إقليم ... ولكنى فوجئت يوماً بزوار من العنابر الأخرى ... جاءوا للتسليم على ... بوصفى (صعيدياً) مثلهم ... بل بالغ أحدهم فى التحية — قاتل والد ريفى عالى — وهو رجل ظريف ونحيف وله شارب . وبايعنى بالزعامة على أهل الصعيد فى كل العنابر ... وحملت الأمر على محمل المزح ولم أعره اهتماماً ... ولكن الأحداث نبهتنى على خطورة الوضع فنبهتهم على حقيقة وضعى تخلف أملهم فى ... ومضوا بالرعاية يحيطوننى بها كما لقيتهم بدرجة « سياسى من الصعيد » .

وزعامة ناصر

وأعلن الآن — وبعد كل هذا السمر الذى طال — أنى لم أكن أتسامر معك لوجه السمر ... وإنما لأقول لك أخيراً ... أن هذا « التعصب الإقليمى » عند أهل الصعيد لم يقف عند حدود الصعيد ... وإنما زحف إلى « قصر القبة » فى القاهرة لا يبالى وضعاً ولا شرعاً ... وزحف مباحاً ولم يهزل ... وزحف نحو « جمال عبد الناصر » نفسه .

سم ... قد تعجب إذا عرفت أن الزعامة الناصرية التي تنضوي الآن تحت لوائها شعوب العروبة من المحيط إلى الخليج ... وتتطلع إليها العيون السود في كل أرجاء القارة السوداء ... تضيق في « الليان » وتضيق ... حتى تكون وقفاً على الصعيد ... وأحياناً على إقليم واحد هو أسيوط ... وأحياناً على مركز واحد هو أبنوب ... فإذا حدث أن أفلتت كلمة نابية من فم سجين — سياسي أو غير سياسي من القاهرة أو الوجه البحري — ضد جمال عبد الناصر ... ثار الصعيد كله وسمعتهم في القليل وهم يصرخون في عاثر الحظ الذي « نَبَا » : « اخرس يا وِلْد المحروق ... ده جمال سيدك ... وسيد اللي نفضك » ...
فإذا قلت لهم نهدىء ثائرتهم مثلا إن جمال حبيب مصر كلها ردوا غاضبين (أسد الصعيد بس) فإذا كان الذي « نَبَا » من أهل سوهاج أو قنا ... رد أبناء أسيوط (وِلْدْ أسيوط بس) فإذا كان الذي « نَبَا » من أهل أسيوط المدينة رد أبناء أبنوب (وِلْدْ أبنوب بس) .

وكنت أصلح بين المتشادين من (الأسايطة) وأمازحهم وأقول لهم ضاحكا : (أما كان مالبش زعيم ... غير وِلْدْ عامر ... لأنصباوي) فيرد ما كر منهم (ما ترعلش قوي كديه يا بوي ... ما هو وِلْد جمال العالي سميناه لسكم عبد الحكيم ... اسكت بقي ولها ... دانت مقامك عندنا كبير) ويصفو الجو ويروق .

عود إلى الدراسة

وأخرج من هذا (السر) الذي قضينا فيه بعض الوقت ... إلى جو جديد آخر .

ولا أظن أنك نسيت هذه الليلة التي تركتك فيها بعد أن أعلنت قراري إثر إعلان الوحدة بين مصر وسوريا ... بعد أن قررت تجميد تفكيري حتى أخرج من سجني .

وحاولت أن أبر بوعدي — أو أنفذ قراري — وظلت بضع ليال ... أتنقل خلالها بين القرآن وكتب الدين وبين القصص وكتب العصر ... أو المجلات الإنجليزية التي كانت ترد إلى (الاسكتلندي سوينتون) رأس قضية الجاسوسية ، أو (اليهودي

ماير مايوحاس) أبرز شاب فى قصية الصهيونية ... وقد لاحظت أن (ماير) يحجز لمداياه — فى أغلب الأحيان — المحلات التى تحمل فى صفحاتها أعنف الهجوم على ناصر ... ولا أظنها (الصدفة) .

* * *

وكان (سويدين) و (زاوب) و (الصهيونيون الخمسة) يهتمون منا ... ويعملون على توثيق الصلات بينهم و بيننا وكان الصهيونيون أكثر براعة فى توثيق الصلات ... فكيريم (ماير) إذا لاحظ مثلا أنى أستقل طل الأربعة الباقين ... أو عز إليهم أن يلتفوا بتقلهم على غيرى ... والله وحده فى التودد إلى ... حتى أتوهم أن الأمر أمر حب شخصى ... وليس أمر (تـكتيك صهيونى) .

وكان الصهيونيون يكثرون من دعوتنا إلى تناول الغداء على (مائدتهم !!!) — فى الغرفة الفسيحة التى خصصت لهم والتى افتنوا فى تنسيقها ومن بينهم مهندس بارع فى (الديكور) اسمه (ماير زعفران) جعل من الزرنانة فى ليان طرة (صالون استقبال فى هيلتون) — كما أسماها المرحوم اسماعيل طلعت مأمور أول الليمان وهو يفتشها ذات مرة و يعجز على كل جمال فيها و يعيدها سيرتها الأولى زرنانة بين الزنازين .

ولم يكن الخمسة يضيقون بأى متاعب تحط عليهم ... وسرعان ما كانوا يعيدون (الزرنانة) إلى (الميلتونية) من جديد ... غير آسفين على ما صودر أو بدد أو حطم أو مزق ... وسرعان ما كانوا يعودون إلى توجيه دعواتهم لنا ... إلى تناول « الغداء » على « مائدتهم » ولا سيما فى الأعياد والمواسم التى يسمح لهم خلالها — بأمر من وزارة الداخلية — باستيراد ما يشاءون من خارج السجن من أطعمة « تواءم تقاليد دينهم وطقوسه » وحلوى غير ما يحمله أهلوهم إليهم فى هذه الأعياد وهذه المواسم ...حتى لا يقال عنا أننا نحارب اليهودية كدين ... فى حين أننا نحاربهم — فقط — كصهيونيين .

* * *

وفكرت فى هذا الاهتمام بنا ... وضاق صدرى .

ولم ألبث أن رأيتنى — على غير وعى منى أخرج على قرارى — وأفكر من جديد فيما يخص السياسة ... وفيما يمت من قرب أو بعد إلى « الناصرية » و « ناصر » .

وجدتنى ذات ليلة أسأل نفسى :

— هل مما يشرفنى كمصرى .. أن يرى هؤلاء الإنجليز والصهيونيون فى قضيتنا .. خصومة الناصرية تلتقى بخصومتهم لها ؟ وأن يروا فينا هذه « الصلاحية » لقيام هذا « الود » بيننا وبينهم ؟ وإذا كنت قد سمحت لخصوم « ناصر » — قبل أن أسجن — أن يضللوا بى وأن يتخذوا منى صديقاً لهم وعدواً له ... حتى تآمرت عليه ... وحتى أرسلونى إلى هذه المتاعب . أفأسمح لاسكتلندى كسوينبرن ولمالطى كزارب ... ولصهيونيين كإيلى مايوحاس ومايز زعفران وروبير وفيليب وخامس نسيت اسمه ... أن يتخذوا منى صديقاً لهم ... لأنى خصم لناصر ؟ ثم لم لا يحملون إلينا من « الأخبار » — نقلا عن كبار زوارهم كالقسيس أو القنصل أو كعضو مجلس العموم الذى كان يزور سوينبرن وزارب .. كلما قدم إلى مصر وقابل عبد الناصر ليتوسط فى الإفراج عن السجينين — إلا ما يدل على قرب زوال ناصر .. وأنا تآمرت على ناصر ليزول ... أليس معنى هذا التوافق أن أمانىّ — كمصرى وعربى — هى نفس أمانىّ سوينبرن وزارب وهى نفس أمانىّ أعضاء شبكة التجسس الصهيونية للخطيرة ... التى أعدم منها واحد... وانتحر آخر ... وقذف بثالثة إلى سجن النساء فى القناطر . وجىء بالخمسة الباقين إلى الليمان ؟

وشعرت بغثيان نفسى... يلازمه شعور آخر بالمرارة... وبالحقارة معاً... ورأيتنى أسأل نفسى مرة أخرى :

— ألا يكفى زحف هؤلاء الجواسيس السبعة من خصوم « ناصر » إلىّ لكى أدنو أنا من « الناصرية » ؟

وتنبهت ... وابتسمت ...

ذلك — إذن — نبع جديد من ينابيع التحول ... ومَعلم جديد على طريقي ... وعين عزيزة ... وثرّة ... بالنور و بالهداية ... تتفجر الليلة داخل قلبي ... أتراها من السماء هبة ... أم تُراها من الله هديّة ؟

وتخايل السؤال أمامي ولم أجب .

وقلت أعنف نفسي : ما أزال أتردد . . حتى حيال هذا الشعور ؟ وحتى أمام هذا المنطق ؟

وهززت رأسي أسفاً على نفسي ... ثم عدت فأبيت أن أستسلم للتردد ... واستأنفت تفكيري ... ورحت أقول :

— الأمر واضح ... أمامي « وقائع » تعطيني « حقائق » فلماذا أتهيب مواجهة الحقيقة ؟

وخفت أن أضعف فتناولت قلمي — وكنت قد أعددت « كراسات » أقيد فيها ما يعن لي أن أقيده من خطرات نفسي ورأيتني أكتب ما يأتي :

- كل ما يرضي هؤلاء الأبالسة ... يجب أن يغضبني .
- كل ما يفرح هؤلاء التأكيد ... يجب أن يحزنني .
- كل ما يرجونه من الشيطان . . يجب أن أرجو من الله نقيضه .
- كل وجه يطالعهم من الأحداث ... يجب أن أطالع من الأحداث الوجه المضاد .

على هذه الطريق أمشي ... إذا أردت ألا أضل طريقي .

وعلى هدى هذا القياس السليم ... أستطيع أن أحدد مكاني ... وشعرت بالراحة ... وأقلعت عن فكرة التجميد ... ونمت .

* * *

وفى نوى بدأ جهاز التفكير يعمل .

وخطر لى ... أن وجه القرار مضىء من أحد جانبيه ... وأن لهذا الوجه جانباً آخر لم أحاول أن أضمه إلى جانب أخيه ... لأرى الوجه على الطبيعة ينشره الضوء .

يجب أن أحب « ناصر » لأن « الجواسيس السبعة » يكرهونه ؟

جميل .. ولكنى أجمل منه أن أحمل « ناصر » نفسه موضوع بحث مستقل عن عاطفة الحب منى .. مستمدة من عاطفة الكره منهم .. حتى أقتنع أن ناصر — كقائد — أهل لحبى كجندى .

ويكون السؤال الذى يجب أن يوجه الآن هو :

— من هو جمال عبد الناصر ؟ [1]

وذكرت مرة أخرى كتاب « فلسفة الثورة » . .

وعجبت كيف مررت به كريماً — ذات مرة — ولم أحاول وهو يؤرخ لنفسه فيه ويقدمه ، أن أعكف عليه دراسة وتحليلا . . وأن أقرأ فى أثناء سطوره ما لم يكتبه بالحروف . . وأنا مؤمن — وهوايتى المفضلة دراسة الشخصيات — أن خير مرآة يمكن أن أرى فيها أى شخص .. هى المرآة التى وضع الشخص نفسه فيها وبيده . . ومهما يكن نصيب الوضع الذى تحيره من الصدق أو من الزيف .

وصح عزمى على أن أحصل على نسخة من هذا الكتاب عن طريق طبيب أو ضابط .. إذا لم يكن فى مكتبة الليمان . . وأن أحصل معه على كل ما يمكن الحصول عليه من الكتب التى تضم خطبه وأحاديثه وتصريحاته وبياناته .. ومن خلالها أيضاً .. أستكمل ما عسى أن يعوزنى من حقائق هذا الرجل . . وفرصة السجن وسكونه « قد لا تعوض

---

(١) من عجائب المصادفات أن الأحظ — وأنا أكتب هذا السؤال — نقلا عن أوراق وكتب أقلب ما طبع من ملازم الكتاب بين يدى ... من عجائب المصادفات أن الأحظ أنى وجهت السؤال نفسه إلى نفسى فى صفحة « ... » عندما تبين لى أن ناصر ليس وفدياً ولا إخوانياً وليس شيوعياً ولا أمريكياً خلفت بالمرف « وهو إذن جمال عبد الناصر فقط .. فمن هو إذن جمال عبد الناصر ؟ » .

بكو .. » و « الليل » في « زنزانتي » بالنسبة لهذه الدراسة التي استقر رأيي على أن أبدأها .. بشبه في ميزاني .. « للعمل » الساكن .. بالنسبة « للعالم المتفرغ » .

ولا بأس بازدواج شخصيتي في هذه الفترة .. فأحاول في الليل أن أجد نفسي .. وأن أعدها لغد إن كان لها غد .. وأحاول في النهار أن أرتدي « ثوب تضليلي » وأصغي إلى كل حديث .. وأساير كل تفكير .

نجدة .. ومن الصحافة ؟ !

وكأن حرفتي .. لم تشأ أن تتخلى عني داخل سجني بعد أن تخلى كل الناس عني مذ سجنت — وهبطت عناية الله تحقق لي الأمنية . وتفرد لي من «مكتبة الليمان» مكاناً أواصل فيه بحثي .. بسبب « مهمة صحفية » طلب إليّ مدير الليمان أن أقوم بها .. ولا سبيل إليها غير « المكتبة » .

• • •

كان الأميرالاي السيد والى — المدير المهيب لمنطقة الليمان يومئذ — يود لو استطاع « الليمان » — على جلاله ؟! ! — أن يصدر مجلة خاصة به تنافس « مجلة السجون » التي كان يصدرها محمود صاحب (مأمور سجن مصر في ذلك الوقت) ، وكانت المجلة قد أحرزت تقدماً يثير الغيرة فعلا ، وكانت افتتاحيتها تذيل دائماً بتوقيع المدير العام لمصلحة السجون ، وكان « محمود صاحب » قد رقي في تلك الأيام نائباً للمدير العام للمصلحة وأصبح « لواء » .

ولا حظ « السيد والى » أن أمامه — بل « تحت إمرته » — وزيرين سابقين وكاتباً من الكتاب كان يوماً يصدر صحفاً ، و « شاباً » كان يوماً يعمل في الصحف ، والفرصة إذن مهيأة لإصدار مجلة الليمان ، تصرع « مجلة السجون » .

واتصلوا بنا ، وتباحثوا معنا .

واعتذر عبد الفتاح حسن ، بأن «القانون» صناعته وليس « القلم » ، والحقيقة

أنه اعتذر لأنه يرفض أن يجمع بينه وبين « الشاب » عمل — ورحبنا نحن الثلاثة .. وشرط اثنان منا (صلاح الدين وأنا) أن توقع مقالاتنا بتوقيع مستعار ، وقبلوا الشرط آسفين ، ومضينا — وصلاح صحفى قديم وكاتب — نعد العدة مخلصين أو كالمخلصين ، والحقيقة أن صلاح الدين وحده كان هو (المخلص) للمهنة — كعادته إذا هو أعطى كلمة — أما (الشاب) فأخلص لها لأنها كانت تمنيه من صعود الجبل ، أما أنا فأخلصت لها لأنها كانت تتيح لى قضاء اليوم كله فى مكان مريح أجد فيه مراجعى فى موضوع ناصر ، ويناًى بى عن (متاعب المنير) ، ويوفر لى قدحاً من الشاى أو القهوة الممنوعين يجيئنا بهما من البوفيه ، الضابط المشرف على المكتبة أو أى مسئول آخر .

• • •

ودع عنك مصير المجلة ، فإنها لم تر النور قط ، وما كاد الضابط المختص بطوف بمطابع القاهرة ويحمل نتائج (المناقصة) حتى فرع المدير من (المبلغ المطلوب) وعدل عن الفكرة ، وتركونا نتردد على (المكتبة) ولم أعلم بهذا العدول ، إلا بعد أن صدر عدد جديد من (مجلة السجون) ورأيت فيه مقالا لى منشوراً فيها كنت قد أعددته لمجلة الليمان التى لم تصدر ، ولم يحل لى هذا الطلسم إلا (محمود صاحب) نفسه عندما جاء الليمان فى صحبة المدير العام فيما يسمونه (التفتيش السنوى) والتقيى محمود فى حديقة القسم الطبى (وهو صديق لى منذ كان طالباً فى مدرسة البوليس أيام عزيز المصرى) وقص على كيف أنه رأى المواد التى كانت قد أعدت للمجلة التى لم تصدر فوجد المقال وعرف أنه لى فنشره فى محله ووضع اسمى فى ذيله وعلى غلاف العدد .

دع عنك مصير المجلة إذن ، والذى يهم أن المكتبة عاونتنى على المطالعة فترة من الزمن ، ثم عدت إلى (المنير) أقضى فيه النهار كما يقضيه كل سجين ، فإذا جاء الليل ، بدأت أقرأ كل ما تصل إليه يداى عن « ناصر » .

والأحلام والطوالع ؟

وحتى تجىء ثمار هذه الدراسة فى الفصول القادمة .. يطيب لى وأنا أختم هذا الفصل الذى ماج بهذه النماذج من ألوان إنجليزية وصهيونية .. وصحفية .. يطيب لى

أن أرسم جانباً آخر من الصورة أسميه « الأحــلام والطوالع » بعد أن حدثتك عن الأمل المصنوع الذى يبثه كل سجين فى قلب زميله .. رجاء أن يعود إليه بأمل غير مصنوع .. فى إفراج قريب أو فى إفراج مأمول ..

و « الأمل المصنوع » قد يكبد صاحبه جهداً .. أما الأمل السهل الجليل .. الذى لا ينتظر حادثاً سعيداً .. ولا عيداً .. ولا يكبد جهوداً .. وهو يتجدد تلقائياً كلما حاول صاحبه أن يجدده فهو هذه « الأحلام » وهذه « الطوالع » .

* * *

وأول قطر من هذا الغيث .. انهمل علينا ذات صــباح .. فتحت فيه أبواب الغرف .. وأقبل الزملاء يلقون علينا تحية ذلك الصبح .. ورأينا عملاقاً ضخم الجثة ، عريض المنكبين ، خفيف الظل ، يقبل من بعيد فيا يشبه العارة والسجناء فى أثره .. كأنهم فى مظاهرة ، وصوته يسبقه إلى آذاننا مجلجلاً فى فناء العنبر وهو يصيح « علىّ الطلاق يا باشوات .. أنتم مروّحين بعد شهر .. شهر واحد .. علىّ الطلاق » .

وفرعنا من الفرحة .. ومن قبل أن نعيها .. ثم سيطرنا عليها لنستعيد رباطة الجأش ولنسأل باسمين : « إيه الحكاية يا على » ؟

وكان أخونا هذا هو « على حسنين المتهم بقتل المرحوم عبد القادر طه والمحكوم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة من سنة ١٩٥٢ وكنت أعرفه من قبل أن يسجن وكان يحظى بنصيب أوفر من ودّه وحبه .. وهو مشهور باندفاعه المشبوب والتهور فى كل ما يقول وكل ما يفعل » .

وأسفر الأمر كله عن « حلم » رآه لنا فى نومه .. وعرانا « القرَف »

ولكن العجب أن المسجونين احتموا بالحلم .. وأرسلوا فى طلب إخصائيين من « وكلاء ابن سيرين » فى تفسير الأحلام .. فجيء بهم من السابر الأخرى وقص عليهم «على حسنين» رؤياه .. وفسروها بما وافق هوانا وهواه .. وبدأوا يذكرون لنا أحلاماً سابرت « الهيان » عبر تاريخه .. تفقأ عين المسكين « سيجموند فرويد » وتسفه رأيه

فى نفسيتها إلى الرغبات المكبوتة فينا .. وتروى كيف رأى (فلان) السياسى (ملأن) حلماً تحقق بعد أن رآه (الحالم) بيوم واحد .. وكيف وكيف ؟

وأدركنا من تلك الساعة أن الأحلام تلعب دورها الخطير فى السجون .

وأشد عجباً أن تنتقل — على الأيام — إلينا .. فإذا رأيت عزمة عبد الفتاح حسن مطلقة من الداخل .. وقيل لك أن فيها عبدالفتاح والسوادى عاشم .. ولا تتحرج .. أنه كان يقص على (رؤيا) عجيبة رآها .. ويطلب إلىّ .. أن أطوى صدرى عليها .

وبدأت العدوى تزحف إلىّ سنف .. فأحلم .. ومع الصبح أستقبل (الزملاء) الذين (حلموا) لى .. وقد أحدثت (كرامة) .. أسجل فيها كل ما جاء الليل .. كل ما كنت سمعته فى النهار من أحلام الحالمين .. وكل ما كنت أراه فى الليل من الأحلام ..

أما (الطوالع) — بكل فروعها — من كف ورمل .. وراوجية وفلك .. فهى فى المكان الثانى بعد (الأحلام) .

وقد ارتبع (الميان) يوماً (لنبأ خطير) مشى بين طرقاته . ذلك أن سجيناً كان فى (سجن مصر) تحت المحاكمة بتهمة تزييف النقود وحكم عليه بالأشغال خمس سنين فجىء به (اليوم) إلى الميان .

— وماذا فى هذا النبأ أيها الزملاء ؟

قالوا إن أخانا السجين الجديد .. يؤاخى الجن .. وقد صنع فى (سجن مصر) الأعاجيب .. وطالعه لا يخيب .

وأرسلنا فى طلبه .. وبذلنا جهـداً غير هين حتى أذن الأطباء فى نقله إلى عنبرنا فى طابق تحت طابقنا بُعد (مستشفى) .

ورأى لنا الزميل طوالعنا ، وحدد أياماً للافراج عنا ، بعد أن حدثنا حديثاً عجيباً عن طوالع رآها للمتهمين فى قضية مدير البنك الصناعى ، وتنبأ بالبراءة لأحدهم —

وهو محمود حلمى صاحب إحدى شركات الملح — وبالسجن للآخرين ولم يكن الحكم قد صدر بعد وطلب أن نعتبره امتحاناً لقدرته .

وانتظرنا الحكم ، وكان قد تحدد موعد النطق به .

وصدر ، وكان أحونا لم يزل مقيماً بيننا ، وبرىء محمود حلمى فعلا وحكم على الآخرين ، وارتفعت أسهم «العراف» الجديد حتى هبطت بسببها أسهم كل «العرافين» فى «روايات شكسبير» .

وأعترف أنى عشت أنتظر — باهتمام — اليوم الذى حدده أحونا للإفراج عنا لأن الذى حدده له صاحب الحلاقة « حربط ملك الجن الأحمر » وهو نفسه الذى قضى لحمى بالبراءة .

وجاء اليوم ولم يفرج عن أحد منا ، واعتذر أحونا خطأ غير مقصود وقع ، ثم نقل « عطاءه » على يوم آخر ، وخاب كل يوم حدده ، وكان ظريفاً فى شخصه لم نضق بأكاذيبه ولم نبخل عليه بعطف .

• • •

هذه صور باسمة ، استخلصتها لك من السجن القاتم ، ومن خلف أسواره الرهيبة قبل أن أستأنف التفكير الجاد فى « ناصر والناصرية »

• • •

وفى ميزانى أن هذا الفصل يشكل المرحلة الخامسة عشرة فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل السادس عشر

الوحدة .. والخيبة .. والعودة

أشعر أنى نثرت زهور التفكير فى فناء الزنزانة الساكنة .. وعبر لياليها الساهرة .. من غير أى تنسيق بينهـا ومن غير أن أحاول أن أقدمها لك باقة إثر باقة .. والأفكار كالزهور . وليس تكسب أن أملأ لك جنبات الغرفة أريجا وإنما المكسب أن تعرف أنواع الزهور حتى تفرق بين الغالى منها والرخيص .. وحتى تشترى ما يرضى ذوقك وترفض ما لا يرضيه .

* * *

ولقد وقفت بك – بعد سفر طال فى الفصل الأخير – عند عزم صح على أن أعرض لناصر نفسه بالدراسة والتحليل . وقبله وقفت بك عند الوحدة التى أعلنت بين مصر وسوريا وحدثتك عن فرحتى الطاغية بالخطاب الذى ألقاه الرئيس عن هذه الوحدة فى مجلس الأمة تجاه دستوراً لاتجاهات الدولة العظيمة التى قامت على كل المستويات ، وحدثتك مشدوداً إلى « ناصر الصعيدى » عن تقاليد الصعيد فى الليمان .. وحدثتك مشدوداً إلى الأمل فى الإفراج القريب عن صور باسمة من « الأحلام والطوالع » . وحدثتك عن جهود لى فى مكتبة الليمان .. وخدمات قدمها لنا أطباء وضباط .. واجتمع عندى ثماراً لهذه الجهود .. كتب وصحف وخطب وبحوث تخذت منها أدوات لدراستى وتخذت من كتاب « فلسفة الثورة » . قاعدة لهذه الدراسة .

وأرى أن الوقت قد حان . لأن أنسق . كل نوع من الزهور فى باقة خاصة به .

* * *

والسير الطبيعى أن أعود إلى موضوع الوحدة .. ثم أثب منه الى « فلسفة الثورة »

ثم أنتهي إلى الصورة الأمينة للرجل الذى استحق على" .. ثم أحمد مكانى من الرجل وأدعو الله ألا تطالعنى من دول العروبة أحداث جديدة تسوق هذه الدراسة التى صح عزمى عليها .

* * *

ولقد عشت ليالى الوحدة — من أول فبراير إلى الثانى والعشرين منه — فوق موجة عالية .. من الفرحة الطاغية بهذا الحدث الكبير .. فقد كان لى مع « الوحدة » تاريخ كما كان لى مع « تحديد الملكية » تاريخ .

وأخشى أن أثقل عليك .. إذا أنا نقلت لك .. فقرات كاملة عن كل كتاب من كتبى الثلاثة التى أصدرتها خلال عشرين عاماً تؤيد هذه الحقيقة ..[1] وحسبى هذه السطور من كتابى الثانى الذى أصدرته فى سنة ١٩٥٤ « عملكة فى الميزان » وكنت قد تخطيت به حدود مصر إلى صميم العروبة فساءلت إن كان من حقى أن أعيد سؤالى القديم[2] فى زيه الجديد ثم قلت بالحرف الواحد :

(وجوابى أيها الرفاق .. أنى أرنو من سنين وسنين .. إلى أمنية كانت تبدو لكثيرين بعيدة المنال .. وكنت أراها بعين البصيرة معلقة فى الطريق .. تحجبها عن العيون طبقة من السحاب غير الطبيعى .. صنعتها يد المستعمر .. ولم تصنعها يد الله .. وعنيت بالأمنية « الوحدة العربية » .. عنيتها مفهومة ومدروسة .. فى ولايات عربية متحدة) .

هذه لمحة قصيرة .. من كتاب واحد .. أتخذ منها « شاهد إثبات » على أن الوحدة العربية كانت هدفاً من أهدافى من عشرين عاماً .. وأن هذه الوحدة كما تمنيتها وعلمت لها — ولايات عربية متحدة — كانت الحلم الذى راودنى من أيام شبابى ولا يكون

---

(١) يعرب المؤلف عن استعداده لإهداء نسخة من كل كتاب من هذه الكتب لكل قارىء يطلبها منه بعنوان مكتبه ٣٥ شارع جامع الاسماعيلى بميدان لاظ اوغلى بالقاهرة .

(٢) يشير إلى أن المعنى الذى نقله لك فى سطور من كتابه الثانى كان قد حمله كتابه الأول « البرلمان فى الميزان » .. بصيغة أخرى .

عجباً — إذن — وأنا أرى « ناصر » يربح الجولة الأولى في حلقة الصراع العربي حول الوحدة العربية ... ثم وأنا أرى الجولة تبدى أمامى « وحدة اندماج » — لا وحدة « ولايات عربية متحدة » كما تمنيتها ... لا يكون عجيباً أبداً ... ولا يكون محل تشكك أبداً .. أن أسبح فوق موجة عالية من الفرحة الطاغية بهذا الحدث الكبير .

* * *

فرحت بالوحدة إذن بين « مصر وسوريا » ، وأدركت — كما لم أدرك من قبل — أن ساعة البعث التى تطلع إليها أجدادنا قد حانت — كما قال جمال — وأنه قد كتب لجيلنا بعد ليل طويل أن يشهد مطلع صبحها — كما قال جمال — وأن الدين تخيلوه فى المنى قد أصبح واقعاً — كما قال جمال — وأن الذى بعث المشانق لتحول دونه قد أصبحت له وحده قوة القانون وقدرته .

وفى إحدى الليالى التى كنت أعيد فيها كل ما قاله « جمال » عن « الوحدة » رأيت يدى تتسلل إلى كراسة بيضاء تحت الوسادة ... وإلى قلم رابض فيها ... ورأيت القلم يجرى — وكأن يداً غير يدى هى التى تجرى به — ويكتب الأسئلة الثلاثة التالية :

١ — ماذا صنعت لنا الوحدة ؟

٢ — ماذا فعلت بنا الأحلام التى رويت لنا خلف أسوار الليمان ؟

٣ — ماذا فعلت لنا الرسائل التى كنا قد تلقيناها من الأهل والإخوان من خارج الليمان ؟

وتنبهت .. فكففت يدى عن الجريان .. وعجبت لهذه الأسئلة البادية تنادينا على قوة خفية لا أستطيع لها دفعاً .. وفى الساعة التى هممت بأن أمعن فيها بالتفكير فى الحدث الكبير الذى تم .. فهل تُرى ما زال شيطانى القديم يطاردنى ؟ وهل تُرى ما يزال مصراً على أن يعكر صفوى .. كما رأى لهذا الصفو ظلا يتراءى على قسماتى .. أو قبساً يضىء فى عينى ؟ ثم ما هو سر رغبته فى أن يهبط بى من البحث فى الوحدة

على « مستواها العربى » .. إلى البحث فيها على « المستوى الشخصى » ، فيسألنى « ماذا صنعت لك الوحدة .. بوصفك سجيناً » ؟

وقلت وكأنى أتحدى شخصاً آخر يجلس إلى جوارى :

— سم أقبل هذا التحدى وأبحث معك موضوع هذا السؤال ولا أروع من أى حقيقة .

ماذا صنعت لنا الوحدة ؟

وقلت فى صراحة أجيب :

— لم تصنع الوحدة لنا — نحن أبناء « المؤامرة الكبرى » — شيئاً .. وكنت أحب لو أنها صنعت .

وعند هذه الإجابة رأيت الذاكرة وقد عادت بى إلى شائعة جميلة وقديمة — لعلك تذكرها — كانت قد عبرت إلينا قضبان « السجن الحربى » يوم كنا « ضيوفاً » عليه .. وكانت الشائعة تقول إن الرئيس قرر الإفراج عنا وحفظ القضية — وحددت الشائعة فى ذلك الحين يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٧ أو اليوم التالى له موعداً للافراج عنا .

وتحقق الشطر الشكلى من الشائعة فخرجنا من « السجن الحربى » فى ذلك اليوم فعلا ولكن إلى أخ له هو « سجن الاستئناف » لا إلى بيوتنا كما كان الشطر الموضوعى يقول .

وعدت بالذاكرة أيضاً إلى « سجن الاستئناف » وقد أدركنى فيه ذيول لتلك الشائعة فقد كان لهذا السجن — يوم نُقلنا إليه — مأمور اسمه « بهجت » ظل معنا بضعة أيام نقل بعدها إلى الديوان العام .. بعد أن لعب دوراً يحس « الشاب » لا محل له فى هذا العمل .

وكان « بهجت » فارع العود .. مبسوط الأسارير .. دمث الأخلاق .. وذات يوم كنت أكتب خطاباً لأسرتى .. فى مكتب ضابط .. فى حجرة خالية .. من

بين غرفات السور التى نقيم فيه .. أرشدنى إليها المأمور .. وفجأة رأيته أمامى .. فنسلم الحطاب مني ليتولى « تصديره » .. وبدأ يجاذبني أطراف الحديث ثم فاجأني بقوله إنه كبير الرجاء في براءتنا .. فلما سألته عن أسباب رجائه قال إنه يعلم علم اليقين .. أن الإفراج عنا كان قد تقرر لولا « حادث الإخوان » .. وسألته عن هـذا الحادث فدهش لجهلى وقال : « حادث اليمان .. ألم تقرأ البلاغ الرسمى عنه فى الصحف » ؟ قلت : « لا » قال « إن الإخوان الموجودين فى ليمان طره .. أحدثوا قبيل افتتاح مجلس الأمة شغباً خطيراً وتمردوا على قوة اليمان ووقعت اشتباكات دامية يؤسف لها .. فغضب الرئيس ولم يجد الجو مناسباً للافراج عنكم » .

ذكرت يومها (شائعة السجن الحربى) — بينى وبين نفسى — ولم أحدث المأمور عنها .. واكتفيت بأن أقول له : (والله يا سيدى .. لو كانت النية متجهة لتبرئتنا .. لما قدمنا للمحاكمة) وضحك الرجل وقال وهو يهم بالانصراف (يا أخى .. ربنا كبير ، وما فيش شيء كتير عليه أبداً) .

• • •

وأعود بك إلى اليمان ، ومرة أخرى لا أراه إلا مسطوراً فوق الورق .

أعود لأعيد القول : إن الوحدة لم تصنع لنا نحن أبناء المؤامرة شيئاً وكنت أحسب لو أنها صنعت ، وحادث الإخوان أمسى (تاريخاً) ، والجو أصبح بالوحدة جميلا ، والمحاكمة تمت ، والعفو فى مثل هـذا الموقف يعلى من شأن صاحبه ، وأنا أرجف الآن بعاطفتى إلى (الناصرية) ، فلماذا لم يفعلها ناصر ؟

ولم أشأ أن تقف مشاعرى فى طريق تحولى فقلت لنفسى :

— إنه — على أى حال — يملك من عناصر الموقف ما لا نملك .. وهو أقدر على وزن الأمر ونتائجه فلعل له عذراً .

ماذا فعلت بنا الأحلام ؟

وعاد شيطانى يصحك منى ويتحدى وكأنما يمابثنى .. ويقول :

— ندع الجد قليلا ، ونهزل ، ودعنى أسأل : والأحلام ماذا فعلت بكم ؟

والحقيقة أن السؤال لم يكن هازلا .. لأن قصة الأحلام التى رآها لنا الحالمون .. بلغت حداً .. جعلها لنا شغلا شاغلا .. حتى أجيز لنفسى أن أتجاسر وأعلن أننا آمنا بها وبسببها — وتفسيراً لها — بأن الإفراج عنا بات وشيكا .. فلما أعلنت الوحدة فى أول فبراير أجمع « المفسرون » فى مختلف « المنابر » على أن يوم الإعلان « الرسمى » للوحدة هو يوم الإفراج الفعلى عنا .

وأعلنت الوحدة « رسمياً » .. وأفرج فعلا عن سجناء عاديين من الفئة الذين أمضوا نصف مدة عقوبتهم .. ولم يفرج عن « الباشوات » ؟ !!

وسخرنا بالأحلام .. وسفهنا « الحالمين » .. وتركت خيبتهم أثراً سيئاً فى نفوسنا .

ولكن « السجين » لابد له من « حلم وحالم » ، ولابد له أن يحلم لنفسه أيضاً .

وعدنا نولى « الأحلام » بعض « احترامنا » بعد أن أكد لنا « العارفون ؟! » أن « الحلم » لا ذنب له .. وأن الذنب ذنب « المفسر » .. فعدنا نبحث عن « مفسرين جدد » .

ولكن « الحقائق » الجديدة كانت قد بدأت .. فرحنا نتطلع إليها .. نتطلع إلى عيد الثورة السادس فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٨ ، وهكذا تنقل الأحلام — فى النوم واليقظة على السواء — تنقل بالسجين من مَعلم إلى مَعلم .. ليقوى على احتمال الحياة .. وتلك حكمة الله .

وماذا فعلت لنا الرسائل؟

أما قصة الرسائل التى كنا نتلقاها من الأهل والإخوان من خارج الليمان فقد تداعت إلى رأسى تلقائياً ولم تكن فى حاجة إلى شيطانى .. لأنها حقائق لا شأن لها بالمفسرين .. أو الوكلاء المفوضين من « العلامة العارف بالله محمد بن سيرين » .

كنا قد تلقينا من الأهل فى الزيارات ، ومن بعض الأصدقاء فى الرسائل أنباء تؤكد أن الإفراج عنا قد تقرر — وفى بعض الروايات المتزنة « بات مأمولا » — وكانت هذه الأنباء معزوة إلى « مصادر عليمة » ، وكانت تملأ قلوبنا بهجة ، لأنها قائمة على وقائع ومنها على سبيل المثال ، أن ابن أختى الذى سبق أن أشرت إليه كان قد أنهى إلىَّ ، أنه كتب باسمى — وبخطه هو — بعض الخطابات لصحفيين لهم مكانتهم وكان يعتقد أنهم من خلص أصدقائى ، وأن « أحدهم » — وله خطره — أكد له نبأ الإفراج عنا فى عيد الوحدة أيضاً .

فلما جاء عيد الوحدة ولم تتحقق الأمنية ، جاءت هذه الخيبة الثالثة ضغثاً على إبالة .. كما يقول العرب :

وهذه هى الإجابات الثلاث على الأسئلة الثلاثة .

اطراد الدراسة

تفهم من هذا كله أنى كنت فرحاً بالوحدة ، ولم يعكر فرحى غير هذه « الخيبات الثلاث » ، ولكن عزمى كان قد صح على دراسة « ناصر » كافة ، ومن يومها لم يهتز هذا « العزم » فى يدى ، وطفقت أبداً مصراً على ألا أبرح سجنى إلا كافراً كامل الكفر .. أو مؤمناً صادق الإيمان .. وأكرر دعائى لله ألا يقع من الأحداث ما يؤجل هذه الدراسة .

عود إلى الوحدة

وعادت إليّ « قصة الوحدة » من قبل أن أعود إليها .

عادت إليّ .. عن طريق الصحف التي كانوا قد بدأوا يرحمون لنا بالاشتراك فيها وعن طريق أهلنا وعن طريق (الجهاز الإذاعي) المعلق في الصالة على مرمى أمتار من غرفاتنا .

ولقد تتبعت باهتمام كل ما كان يكتب .. وكل ما كان يذاع .

واستمعت إلى هتاف الشعب السوري لناصر . وكان قد سافر إليهم غداة فوزه في الانتخابات التي جرت في مصر وسوريا .. وفاز فيها بأغلبية بما يقرب من إجماع الشعبين .

• • •

وكنت أعرف أن الشعب السوري لا يزال — كما كان — من حيث الحماسة والحرارة .. سليل الفرسان من بني حمدان ، كلما كتب أو خطب ، وكلما استقبل أو ودع .. وكلما سالم أو حارب ، ولكن الذي لم أكن أعرفه — ولم أكن أتوقعه — أن تبلغ به حماسته الحد الذي نقله المذياع إلى أذني هتافاً .. ونقلته الصحف إلى عيني صوراً .. حد الجنون الذي لا يكاد يصدق . جنون العجائز والشيوخ والأطفال ، قبل جنون الشابات والشبان والرجال .. حد الجنون الذي يستحيل أن يحتمل ولو استوعبه الشعب كله .

ولست أدري لماذا طالعتني من خلال الماضي ، صورة من أيام الدراسة ، صورة « لقاء » لم يبرح ذهني حتى اليوم ، لقاء بين شعب مصر الثائر و « سعد زغلول » الزعيم ، وكان يومها عائداً من منفاه تحوطه قلوب الشعب وترعاه ، ولكن (تلك) كانت « ثورة شعبية دامية » تفرغ كل « طاقاتها » وكل « إرادتها » في استقبال زعيمها الشيخ ، أما « اللقاء » بين « ناصر » و « الشعب السوري » ، فلقاء الفرحة السالمة ، ولا يحتاج أمر الفرحة إلى كل هذا الهياج ، فاذا يَعْنيني هذا « الهياج » — إذن — أو ماذا يعني هذا « الجنون » ؟ ، يعني أن سوريا ترفض إلا أن تفرغ « دفعها الثوري » وطاقاتها

وإرادتنا هي الأخرى ، في استقبال زعيمها الشاب وعلى هذا النحو التاريخي المذهل الذي حيل لي والراديو ينقل « أصداءه » إليّ ... أن جدران « الليان » توشك أن تنقض .

وكان « جمال » صادقاً — إذن — عندما قال لهم في أول مقطع من أول حطاب ألقاه عليهم بعد وصوله إلى دمشق : « إنى أشعر الآن وأنا بينكم بأسعد لحظة في حياتى » .

* * *

ومضت الخطب الناصرية .. « شعبية » .. وعلى مستوى « التحية » في يوميها الأول والثانى ..

وفجأة — وفي السادس والعشرين — وقف « جمال » في دمشق على « قمة موجة جديدة » تعيد إلى الأذهان ، تلك الموجة التاريخية التى ركب قمتها في القاهرة يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وقف يهاجم بغداد ، ويهاجم أوكار الرجعية في كل مكان ، ويشنها حرباً لا تعرف الهوادة على كل رأس يحمل ذرة من خيانة ، كما أعلن أنه يساند الشعوب العربية كلها وفي غير خفاء ، ويتحدى الاستعمار وأحلافه وأعوانه ، وأعلن أيضاً أن « حلف بغداد » استعمار جديد تحت شكل جديد .

* * *

وكان وزير خارجية العراق قد هاجم الوحدة ، وكانت العراق قد أقامت مع الأردن (اتحاداً هاشمياً) ، ضحك منه الناس في كل مكان ، ولكن ناصر لم يضحك بل غضب ، وتحدى هذا الاتحاد أن يبقى ، وأكد أنه بعد أيام سيغدو (هشيماً تذروه الرياح) .

وأدركت أن القائد الشاب بدأ يضع خاتمة الخطاب الذى كان قد ألقاه على النواب موضع التنفيذ عندما وصف الجمهورية العربية بأنها دولة (توحد ولا تفرق ، تسالم ولا تفرط ، تشد أزر الصديق ، ترد كيد المعتدى)

نذير

وفي اليوم التالي — أي في السابع والعشرين من فبراير — سدد رمح الوحدة إلى صدر أعدائها و الأعداء وفي غير خفاء فقال للسوريين على مسمع من العالم :

« لقد قام سمير الرفاعي في عمان بالقبض على الأحرار . ولكنه لن يفلت من قبضة الأحرار » .

وتحدث عن باشا أعيان وزير خارجية العراق فقال :

« هؤلاء الخونة العرب لهم يوم قريب » .

وتحدث عن فاضل جمالي فقال :

« إننا لن نرد عليه .. ولكننا نتركه لشعب العراق ليحاسبه .. ليحاسب الخونة .. فيحاسب أعوان الاستعمار في كل مكان » .

ولم يعد الأمر — إذن — أمر خطب تلقى أو تحيات تزجى .. إنما هي حرب الشعوب العربية يعلنها « ناصر » على « الخونة من حكام العرب » .

* * *

وفي الثامن والعشرين من فبراير نفسه خطب في الوفود اللبنانية والأردنية فقال لهم بعد أن حياهم :

« لا طائفية ولا إقليمية .. كلنا رجل واحد .. كلنا عرب » .

والمعروف أن (لبنان) جنة الله في (الشرق) لا عيب فيها إلا (الطائفية) مصدر كل فتنة بين أهليها .. فصيحة (ناصر) بوصفه (راعي الوحدة الأكبر) بأنه (لا طائفية) و (كلنا عرب) إنما هي دعوة صريحة من الدولة التي (تجمع ولا تفرق) إلى الشقيق الذي (يتمزق ويتفرق) .

تقرر — إذن — وفي الأسبوع الأول من قيام الوحدة — أن يهاجم معاقل الرجعية الأردنية في شخص (سمير الرفاعي) ورجعية عبد الإله ونوري السعيد العراقية في شخص مالك أعيان ومرجان وفاضل جمالي وأن يدعو (لبنان الطائفية) إلى (لبنان العربية) في أشخاص وقودها الزائرة .

وفي مارس بدأ القائد الشاب يسمق هذه الاتجاهات كما زاره عربي وعاد يذكر (لبنان الثائر) بأنه عند ما قام ليكافح الاستعمار الفرنسي (كانت سوريا تقف معه في خط النار وكانت مصر تنبض فيها القلوب) والذي وقف ولم يتردد مرة .. لا يمكن أن يتردد مرة أخرى .

وعاد يتحدث في صراحة إلى مرجان — رئيس وزراء العراق يومئذ — فقال : « إن ما فعله شعب مصر في السعيد ، سيفعله شعب العراق في حكامه .. » وتحدى (مرجان) أن ينزل إلى شعب العراق في الشارع .. ليرى (الحقائق) .

وخيل لي أن (ناصر) لا يمكن أن يوجه هذه التهديدات — وباسم الشعوب العربية — إلى معاقل الرجعية .. وبالأسماء .. وبهذه القوة .. إلا إن كان قد ملأ يديه من اتجاهات هذه الشعوب .

بعد العودة

وعاد « ناصر » إلى القاهرة .. أشد إصراراً على مهاجمة الرجعية في كل بلد عربي .

عاد يحدث شعب مصر عما لقيه من شقيقه الشعب السوري ويقول في صراحة :

« من دمشق بنظرة عابرة إلى الحدود .. كان من الواضح أن هناك جيوشاً تتحرك .. وأن هناك تهديداً سافراً .. كما أن هناك تهيأ تكامل من غير حساب .. كانت هناك عبر الحدود محاولات لتفتيت الجبهة الداخلية ومحاولات التفرقة بين الشعب والجيش » .

وألقى بعض الضوء على هذا الذي يجرى عبر تلك الحدود .. فذكر (العدوان)

وما خلفه من مرارة فى (دول الاستعمار) .. فراحت تبحث عن صمام التنوس فى المنطقة ، فحدث انقلاب فى الأردن بعد أن ظن هذا الشعب أن مليكه بدأ يمشى إلى الأهداف الوطنية معه .

وبان - إذن - أن الرجل يركز مدفعاً من الآن .. على بغداد وعمان .. وإن كانت الثورة .. قد بدأت تعمل عملها هى الأخرى فى لبنان .

* * *

فى زنزانتى الساكنة وعيت هذا كله .

وأدركت أن الوحدة .. ليست إلا مركز تجمع .. ونقطة انطلاق .

وتطلعت إلى (الزحف المقدس) - كما أسماه - يتأهب للوثوب .. ويتأهب لتحرير الشعوب ..

وبعض القسمات العربية .. بدأت إذن تبين .. على وجه القائد الشاب .

وتلك آخر طبعة من القائد العربى .. لا (أمركة) ولا (جلنزة) ولا (شيوعية) فيها ولا (إخوانية) .

فهل من الخير أن نعود إليه هو .. ومن بدايته .. لنراه تحت الأضواء وعلى حقيقته .. بدلا من اللف والدوران حول الأحداث ، وهو نفسه صانعها ، كما قررت ، أم أن الأحداث نفسها ، وقد بدأت تتجمع ، وتلقى خيوطها إلى يده ستصرفنى إلى حين عن دراسته ؟

ولم أستطع أن أجيب وتركت الجواب للأحداث .

* * *

واعتقد أيضاً أن هذا الحديث عن الوحدة ، يشكل الحلقة السادسة عشرة فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل السابع عشر

ثورات ونكسات

كنت على الطريق إلى يوليو أو « تموز » .. أهفو فى شوق ولهفة .. إلى يوليو أو إلى « تموز » ، ولم أكن أتوقع أن يقع خلاله ما وقع .

كنت أستشعر بهذا الشهر دائماً، استشعاراً « تاريخياً » بحتاً، لأنه اردان على طريق التاريخ ، بثورات إنسانية غيرت مجرى التاريخ ، ولكنى فى هذا العام ١٩٥٨ لم أكن أهفو إليه على المستوى الثورى أو الإنسانى ، وإنما كنت أهفو إليه على « المستوى الشخصى » ، على مستوى « إطلاق سراحنا » ومن هنا كررت دعائى ، ألا يشهد هذا الشهر أحداثاً جديدة تصرفنى عن دراسة « جمال » أو تصرف « جمال » عن رغبته القديمة فى إطلاق سراحنا .

وكانت « الأحــــلام » قد نشطت فى (دور السياسيين) نشاطاً فاق كل حد حدثتك عنه . .

وكانت أنباء أهلينا والمتصلين بنا من خارج (الليمان) قد نشطت هى الأخرى حاملة إلينا ما يعمق أحلامنا ، حتى « ألبير مزراحى » — الصحفى اليهودى الذى أبعد عن البلاد من عامين — أرسل إلىّ قبيل يوليو ١٩٥٨ خطاباً عن الطريق الرسمى — أى إلى إدارة السجن — يؤكد فيه أن الإفراج عنا فى ٢٣ يوليو قد تقرر ، وقد عجبت لهذا الخطاب ، لأن « ألبير » خير من يعرف الطريق إلى مراسلة السجين عن غير طريق البريد ، فلماذا وقع اختياره على هذه الوسيلة ؟ وأعفانى القدر من كل قلق ، فأتاح لأحد الأصدقاء التقاط الخطاب من « حامل بريد الليمان » — قبل أن يمر البريد بالمأمور — وجاءنى الصديق بخطاب « ألبير » سليما غير مفوض . وإن كنت لا أشك فى أن ألبير إنما أراد أن يخلصنى .

وكانت الثورة فى لبنان قد اشتد أوزارها .

و بدأ « المراقبون » يركزون اهتمامهم على « لبنان » ويرون أن العراك إنما يقوم فيه ... بين « جمال عبد الناصر » ممثلا فى الثائرين على مستوى العروبة ... و بين « كميل شمعون » ممثلا فى « الطائفية » — على مستوى الدولة .

هذا ما قرأته .

أما أنا فكنت أحس أن « جمال » لم يكن طرفاً فى القتال رغم إصرار الحكومة اللبنانية على أن السلاح يهرب من « الإقليم الشمالى » إلى الثائرين فى شمال لبنان ... وكنت أحس أن انتفاضة لبنان التى تحولت إلى ثورة إنما كانت انتفاضة العروبة فيه ضد الاستعمار والرجعية .. وعندما اندلعت نيران هذه الثورة فى لبنان ... لم تكن « الجمهورية العربية المتحدة » قد قامت — و إنما بدأت انتفاضة لبنان شعبية وعربية ... لتعبر عن غضبها على موقف لبنان الرسمى من مشروع أيزنهاور .. وكان المشروع كما قلنا قبلا قد صدر فى الخامس من يناير ١٩٥٧ وكان « ناصر » قد قاومه وأيدته شعوب العروبة حتى أجهز عليه ، ولكن « لبنان الدولة » سرحت على إجماع العرب وقبلت المشروع ، فاستقالت المعارضة من المجلس النيابى واختل الأمن ... واقتحمت قوات حكومة سامى الصلح بالماضيين من الشعب فى الطرقات ... وجرح الزعماء ... وجرت الانتخابات وأسقطوا هؤلاء الزعماء فيها .. فاتهم الثائرون حكومة سامى الصلح بالتزوير ... وقاد « رشيد كرامى » المعركة فى طرابلس وخضبت أرضها بدماء القتلى والجرحى ... وكانت الثورة ... فإذا كان « المراقبون السياسيون » قد جعلوا « ناصر » طرفاً فى القضية فلأن « ناصر » كان « النجم اللامع » الذى تطلع إليه ثوار لبنان — كما يتطلع إليه الثوار فى كل مكان — وإذا كان المراقبون قد جعلوا من كميل شمعون طرفاً آخر فلأن كميل — الحاقد المتدبر مع الأحداث أصبح فى نظر الثائرين رمزاً لقوى الرجعية التى كانت توحد بين حلف بغداد .. وبين انجلترا وأمريكا .. وبين عبد الإله ونورى فى العراق ... وبين الملك حسين فى الأردن ... وبين « القوميين السوريين » فى كل مكان .

* * *

مفاجآت

وجاء يوليو ... أو جاء « تموز » .

وكنت أعد أيامه على أصابع اليد عداً ... فإذا مضى منه يوم ... قلت — على طريقة المراقبين فى لجان الامتحانات : « باق من الزمن ٣٢ يوماً » ... وإذا مضى منه يومان ... قلت : « باق من الزمن ٣١ يوماً » .

وكان عبد الناصر يخوض معركة القومية العربية من معاقله فى دمشق والقاهرة وفى حلب والإسكندرية ... ضد الرجعية فى البلاد العربية .

وكان كميل شمعون يقود « الهجوم المضاد » فى مجلس الأمن عن طريق وزير خارجيته شارل مالك .

وكانوا قد أبعدوا علينا السودان أيضاً .. فبدا جو العلاقات بيننا وبينه مشحوناً بالتوتر ...

وقرأنا أن حلف بغداد تقرر عقده فى أنقرة فى ١٤ يوليو على أعلى المستويات ليشهده من جانب العراق الملك فيصل والأمير عبد الإله ونورى السعيد .

ورغم اهتزاز خيوط يوليو فى يدى ... فقد ظلت سريعاً على « هدية يوليو » .

وفى اليوم الرابع عشر ... عددت أصابعى وقلت كالعادة — أقصد عيد الثورة السادس الذى أتلهف على مقدمه : « باق من الزمن تسعة أيام » .

* * *

ولكن الساعة دقت فى الرابع عشر من يوليو ... ومن (تموز) ... ولم تنتظر أيامى التسعة .

دقت الساعة فجأة ..؟!

وتكهرب جو « البيان » ... وعلت فيه الجلبة والضوضاء .. وأمسى دور السياسيين خلية من خلايا النحل تطن بالسؤال وتطن بالجواب . ولا يعف أى سجين مثقف عن الحلوة بأى سجان جاهل ... ليسأله فى لهفة وتواضع : « إنه حكاية العراق » ؟ ! !

وأنباء « العراق » فى ذهنى .. لم تكن تجاوز وصول عواهل الرجعية فيه إلى « مطار استانبول » فى نفس ذلك اليوم ... تعزف لهم الموسيقى وتطلق لتحيتهم المدافع ويستقبلهم جلال بايار وعدنان مندريس .

وقيل : « ثورة فى العراق » ؟

* * *

ثورة فى العراق ؟ وناصر ؟ أين مكانه ؟

وقيل : مكانه سيد .. سيد .. ولعله الآن على الطريق .

كان قد سافر إلى بريونى ... وأنهى محادثاته مع تيتو ... وأذيع أنه يعتزم أن يبحر على ظهر الباخرة « الحرية » عداة ذلك اليوم .

وتوالت الأنباء .

قيل إن المستقبلين فى مطار استانبول قد رجفت قلوبهم خشية أن تكون الطائرة التى تقل أقطاب بغداد قد ضلت طريقها .. أو لقيت حتفها .. لأن الوقت مر .. ولم تصل الطائرة .. وقيل أن نبأ « فاجعاً » قد وصل إليهم بدلا من الطائرة

وتوالت الأنباء ...

وعرف (البيان) النبأ كما عرفه العالم كله .. وأكد الضباط والأطباء — فى البيان — أنهم سمعوا صوت عبد السلام عارف من محطة بغداد يقول : « هنا الجمهورية العراقية » .

* * *

عبد الحكيم عامر

وكان لعبد الحكيم فى ذلك اليوم موقف ... لا يقفه إلا عبد الحكيم .

تلقى فجر ذلك اليوم من قيادة الجيش الأول فى دمشق نبأ الثورة فى بغداد وانتظار التعليمات . وناصر فى يوجوسلافيا أو فى عرض البحر .. والوقت لا يعترف إلا بالتصرف العاجل .. ولا يعرف الضعف ولا التردد ، ولم يضعف « عامر » ولم يتردد .. وأصدر أمره إلى جمال فيصل . أن يستعد لخوض المعركة إلى جانب الشعب العراق الثائر . وأن يقف إلى جانب الثوار وريثما يتلقى التعليمات من « ناصر » .

ومفاجآت . . أخرى

واتصل عبد الحكيم بجمال .. فأمر بإعلان التعبئة العامة والوقوف على قدم الاستعداد لمعاونة الثوار إذا تطلب الأمر .. وتعلقت الأنفاس ببغداد .

ونسى الناس كل شيء .. حتى الثورة فى لبنان .

ونسيتها أنا أيضاً مع الناس .. وإن كنت لم أنس أبداً . الإفراج فى يوليو ولكن قصة « الإفراج فى يوليو » أمست . ولها مذاق عبر المذاق .

لم أعد أطلب الإفراج للإفراج .

أصبحت أطلب الإفراج اليوم لأخوض العار .. ولأحمل السلاح .. سلاحى الذى علاه الصدأ . لأحمل قلمى مشرعاً .. ولأرسل خلف الأحداث صرخاته . بعد أن فقدت كل قدرة على الصمت . هكذا تميت فى تلك اللحظة .

وخيل لى أن « ناصر » هو الذى فعلها .. وهو الذى أعد لها . وهو الذى أضرم نارها .

كان قد قالها لنورى وموجان .. وكان قد قالها لقاصل وباش أعيان .. والدور آت

على عمان - والثورة لا بد أن يشتد ساعدها فى لبنان . وأصداء الأحداث لا بد أن تردد أصداءها أرجاء الشرق العربى فى كل مكان .

الزحف المقدس الذى حدثنا عنه . ها هو ذا يبدأ .

مرت هذه الهمة العاطفية بى . فمشتها مسحوراً بها يوماً وليلة .

* * *

ولكن عجلة التفكير لا بد أن تدور .

وعاودنى داء السين والجيم . و بدأت الأسئلة تتراقص أمام عينى :

— ما هو موقف انجلترا وأمريكا وشركات النفط من هذا الانقلاب ؟

— وهل تزحف قوى الدولتين تحت حكم (الاتحاد الهاشمى) إلى بغداد وتفشل ثورة الجيش كما فشلت ثورته فى عهد رشيد عالى ؟

— وهل تمد يد العون (العسكرى) إلى الثوار . فنرى أنفسنا فى حرب مع الأردن ومع الاستعمار ؟ ونحن محوطون من ناحية بحكومة شمعون فى لبنان . ومن ناحية بتركيا عضو حلف بغداد ومن ناحية ثالثة بإسرائيل ؟

ثم قلت أخاطب نفسى :

— وأنت؟ ما هذه الصرخات المحمومة التى ترسلها وقد تخطيت الخمسين..وتتحدث من القلم الذى يشرع . والعيار الذى يخاض .. وتتصور بعقل المراهق — لا بعقل العقد السادس — أنهم إذا أخلوا سبيلك . صحوا المجال أمامك . ووضعوا حريدتك الملتاة تحت قدميك . وفرشوا لك الأرض بالرمل الأحمر والورد الأبيض ؟

وتوارى « الخيال » بجر سمه .. « أمنية » حبيبة لم تسعد بالحياة إلا لحظات .. وقمت بتتبع الأحداث .

* * *

وعشنا فى ظل العروبة الزاحفة يوماً واحداً وليلة ، استمعنا خلالها إلى مراسيم عراقية ومراسيم ، كان المذيع يلقيها وكأنه يُغنّيها ، مراسيم بإلغاء الملكية التى سحلوها ، وقيام الجمهورية العراقية ، ومرسوم بتشكيل مجلس السيادة يمثل سلطة الدولة فى (القمة) ، ومشروع بتشكيل الوزارة الجديدة يمثل سلطة الشعب من (القاعدة) .

وتوالت الأنباء ودودة وحيية .

نبأ يقول : إن أول عمل باشره مجلس السيادة كان برقية إلى ناصر « بمزيد الفخر والاعتزاز نقدم اعترافنا بالجمهورية العربية المتحدة » .

ونبأ آخر يقول : إن الجمهورية العربية المتحدة أبرقت إلى مجلس السيادة تعترف بالجمهورية العراقية الجديدة .

* * *

وقال الناصريون من السجناء : « مصر وسوريا والعراق ، فى وحدة ؟ تبقى ضاعت لبنان » .

ورد الصهيونى السجين : « تبقى الحرب العالمية » .

وقال سجين مصرى بجد كأنه يمزح : « تبقى ضاعت إسرائيل » .

ورد الصهيونى وكأنه يمزح أيضاً : « دى تبقى من الفرات إلى النيل » .

ورأيتنى لأول مرة أحول إليهم وأقول (جاداً) الصهيونى الذى يتردد دائماً إلى :

— كان غيرك أشطر .. يا حاييم

ودهش الشاب لهجة الجد فى حديثى وسألنى :

— مين كان أشطر ؟

ولم أتردد فى أن أجيب :

— من جورجون و إيدن وموليه .

وضحك الواقفون .. وضحل (الودود) ولكنه لم يلبث أن انتشل الموقف من الحروجة فضرب كفاً بكف وهو يقول : « ده يظهر الأستاذ .. بقى من نوع ناصر خلاص » .

* * *

عشناها حوهده العروبة يوماً وليلة كما قلت .

أما اليوم الذى تلاها ، فجاء ينقل الفرحة من سامرنا ، إلى سامر سوينبرن وزارب وأبناء صهيون .

جاء يحمل نبأ نزول القوات الأمريكية من أسطولها السادس إلى أرض لبنان ، وهبوط القوات البريطانية على أرض الأردن .

وأعترف أنى وجمت .

وراد فى وجومى أن الثورة فى لبنان كانت قد أوشكت على إلقاء السلاح بعد أن تراجع شمعون عن محاولة إدخال تعديل على الدستور يجيز له تجديد ترشيح نفسه للرياسة ، ونزل الأمريكيون إلى لبنان وارتفع رأس شمعون ، واشتدت عضبة الأحرار فى كل مكان ، وبدأ الدب الروسى يتلمظ وهو يرنو إلى العراق ، وتكهرب الجو السياسى فى العالم كله ، إيذاناً بغروب الشمس ، ومقدم الليل ، أو نذيراً بنشوب حرب عالمية .

* * *

ولكن أهل « الليمان » لم يشاركوا فى الشعور بمقدم الليل ، أو هذا ما تصورته .

كان السجين الذى يحامص « الناصرية » ، يتمنى اللحظة التى تندلع النيران فيها وشعاره : « ليس فى الإمكان أسوأ مما هو كائن » ، ورأى (دهكة) قد يركب موجتها إلى خارج الأسوار وينجو ..

أما أشياء خلال الياسين من الثقة والمحرومين ، فقد بدأوا يفركون أعينهم ويفكرون

فى (عدم) ، أصبح لهم (غد) يتحدثون عنه ، وراحوا يقصون علينا من ذكريات (أمسهم) ، طرفاً عن (العدوان ، وأيام العدوان) ، وكيف سمح لهم يومها بالمشاركة فى القتال ، وكيف دربوا عليه قبلا . ولولا وقف هـذا القتال لخرجوا إلى أرض القتال وماتوا فوقها أبطالا أو عادوا إلى بيوتهم أحراراً . . ولا عجب ـ إذن ـ إن تطلعوا اليوم إلى موقف مماثل ، أو إلى حرب قادمة .

وأحس المسئولون فى «الايمان» مشاعر السجناء فاشتدت الرقابة على كل سجين ، وتوالت أوامر (التشديد) من (مصلحة السجون) ، وبعد أن كانوا (يتساهلون) معنا نحن الخمسة ، إذا خرجنا من (العنبر) إلى المستشفى وحدائقها بأى حارس نختاره نحن أو بغير حراس ، لم يعد يسمح لنا بمبارحة (العنبر) إلا تحت الحراسة وبإذن خاص ، ولم أدرك وقتها سر هذا التغيير فى المعاملة .

* * *

وبرغم هذا كله ، ما كاد الليل يجىء ، وما كدت أخلو إلى نفسى حتى بدأت أفكر وعلى النحو التالى :

— وناصر ؟ أين مكانه ؟ يمخر الآن عباب البحر فوق ظهر سفينته (الحرية) كما أذيع ؟ وهل تصل (الحرية) سالمة إلى الشاطىء المصرى ؟ والأسطول السادس . . أليس فى وسعه أن يفعل شيئاً ؟ وغواصات إسرائيل . . ألا تستطيع أن تغرقها وقد تحدد موعد وصولها وعرف خط سيرها ، من ميناء بولا ، إلى ميناء الاسكندرية ؟

* * *

وفجأة ـ وما أحوجنى إلى استخدام هذه الكلمة فى هذه الأيام ـ فجأة . . وعلى حين غفلة منى ومنك ومن كل دولة ومن كل فرد ، وفى اليوم المحدد لوصول (ناصر) إلى (الاسكندرية) ، ومراسم الاستقبال تعد ، وكل العالم يتساءل عن (الغد) ، وكل مواطن يهمهم بكلمة : (وبعد ؟) ، فجأة هبطت فى مطار (المزه) فى دمشق (طائرة) كالتى تهبط فى كل وقت ، وفتح بابها ، ونزل منها (جمال عبد الناصر) .

واهتزت أسلاك البرق ، إلى مختلف أرجاء الأرض ، تحمل النبأ ، كما لو أنها حملت نبأ هبوط « أول رجل » على « سطح القمر » ، ونسي العالم قصة لبنان والأردن ، وبدأوا يلتفون حول أجهزة الراديو ، تحكي لهم حلقة جديدة من حلقات المارد العربي ، وكيف يزحف ، بل كيف (يتصرف) ..

وحكت لهم هذه الأجهزة أن (ناصر) سمع وهو في عرض البحر أنبـاء احتلال لبنان والأردن ، فأدرك أن «دالاس» — وهوايته وضع العالم على حافة الحرب — لم يضعهذه المرة على الحافة بحيث يشده إلى الوراء أو يرده عنها في اللحظة المناسبة كما كان دائماً يعمل ، وإنما وضعه ليتردى فيها هذه المرة كما هو واضح ..

أدرك (جمال) هذه الحقيقة المخيفة فأمر بالعودة إلى يوغوسلافيا، واتصل بخروشوف ،فأرسل إليه طائرة أقلته إلى موسكو وهناك اجتمع به ثم طار سراً إلى دمشق وأذيع البيان الرسمي عن الاجتماع بين القطبين .

* * *

وعرف الشعب السوري نبأ وصول عبد الناصر ..

وزحفت بلاد الشام .. إلى قصر الضيافة في دمشق فخرج إليهم وخطب فيهم وقال لهم :

« أيها الإخوة .. إن راية الحرية ارتفعت في دمشق ، وهي اليوم ترتفع في بغداد ، وسترتفع غداً في بيروت وعمان والجزائر » .. وارتجت جنبات دمشق الفيحاء .. وارتجت تبعاً لها جنبات البيان .. وهي تردد أصـداء الهتافات التي ينقلها المذياع عن الفيحاء .

* * *

وفي اليوم التالي ، فاجأ (أنور السادات) الوفود الزاحفة إلى قصر الضيافة بأن وقف في شرفة القصر تحف به وجوه لا يعرف أهل الشام شيئاً عن أصحابها وقال يقدمهم إلى الجماهير : « هذا هو عبد السلام عارف وإخوانه جاءوا من بغداد إليكم » .

* * *

وفى هـذا اليوم نفسه التاسع عشر من يوليو — أو من تموز — وقعت اتفاقية تعلن أن البـلدين مصران على الوقوف كبلد واحد فى الدفاع ضد أى عدوان يقع على أى منهما .

• • •

وعاد عبد الناصر إلى (القاهرة) ليشهد العيد السادس لثورته .

وطار إلى (القاهرة) ـ أيضاً ـ ثلاثة من وزراء (العراق) يمثلون الثورة العراقية فى الاحتفال بثورة مصر ، ونقلت إلينا الصحف ، صورة (جمال) واقفاً فى عربة مكشوفة وإلى جواره رئيس الوفد العراقى .

• • •

واستمعنا إلى خطاب جمال .

واستمعنا إلى الخطب التى ألقاها وزراء العراق . .

وفهمنا أن (الوحدة) بينهما .. على الطريق . .

• • •

وفى نفس الشهر وصل إلى القـاهرة رئيس هيئة أركان حرب القوات الجوية السوفيتية بدعوة من المشير عامر .. فتنبه العرب على أن الطريق التى اختارها .. ليست مفروشة بالورود .

واستقبل (على صبرى) .. وزير الخـارجية بالنيابة يومئذ .. السفير الأمريكى فى القاهرة ليبلغه ـ فى صورة (تبليغ شفوى) ـ إلى أن القوات الأمريكية إنما نزلت إلى لبنان بناء على طلب الحكومة اللبنانية ، ولم يعر السياسى المصرى تبليغ أمريكا أى اهتمام وهو الرجل الذى كان يعمل فى صمت ، مراقباً لمصر فى مؤتمر لندن ، وخاض غمار المناورات الدولية من وراء ستار كثافته .. وشهد مصارع أقطاب الغرب ومنهم (دالاس) و (منزيس) .

• • •

وظل ميزان القوى يتقلب ، هبط الإنجليز والأمريكان على الأردن ولبنان فهبط ترمومتر العروبة ، وربطنا على القلوب بالأيدى . .

وطار جمال إلى موسكو ثم هبط فجأة فى مطار المزة ، فهبط ترمومتر الاستعمار ، وربط الرجعيون على قلوبهم بأيديهم .

وكانت الإذاعة المصرية تتابع هذا التطور بكل إمكانياتها ، وكان (صوت العرب) يملأ أرجاء الوطن الكبير زهواً ودوياً ، وكنت طوال اليوم والليل ، أسمع حشداً من الأناشيد المثيرة ، فبدأت أصغى إليها ، بعد أن كنت أرى فيها مجموعة من الهمو الرخيص يؤلفه مأجور ، ويلحنه مخمور ، ويغنيه تافه من طلاب الظهور .

بدأت أواكب التطور العربى بكل طاقات تفكيرى .

وبدأت أرى الموكب الكبير ، مقبلا على الطريق ، بكل طاقات الخيال فى .

وها هى ذى مصر وسوريا والعراق . .

وغداً الأردن ولبنان .

والجزائر لن تهدأ حتى تثأر ، ويوماً ما تجىء إلينا ومن حولها تونس والمغرب وليبيا لتصافح الشرق، وتعب معها من دم المستعمر .

(ومن الخليج إلى المحيط) لم تقل — إذن — عبثاً .

(ومن الخليج الثائر ، إلى المحيط الهادر) لم تنشد — إذن — عبثاً .

وأنا المتآمر على (ناصر) ، لم أخرج — إذن — من المراسة فاشلا . .

لقد دعوت من الناصرية ورددت صيحها أكثر من مرة ، وها هو مدها الثورى يرتفع بى إلى مستوى يقرب من الإيمان . فهل أنا على باب تحول كبير ، وراشد ؟

هذا سؤال ؟

ولكن هناك سؤالا يقابله أراه يزحف إلى نفسي .

وأفضيت به إلى النفس بصوت مسموع ولم أتردد :

— ما سر هذا الصمت العجيب الذي لف قصة الإفراج عنا بعد كل هذا التواتر أحلاماً .. وأنباء ، ومن داخل الليمان ومن الأهل في الخارج ؟ وهل نذهب ضحية الاحتلال الأمريكي والبريطاني ، ولا يؤمن جانبنا في هذه الآونة ، كما اتضح من مسلك المسئولين في الليمان وهم يشددون الرقابة علينا ؟ وإلى متى ننتظر ؟ قيام الثورة مثلا على التاج الهاشمي اليتيم الذي تبقى ؟

• • •

إن العلاقات بيننا وبين العراق تمشي وفق ثبات إلى مصيرها الحبيب المحتوم .

وهزيمة الرجعية في لبنان .. أمست واضحة .. وميزان القوى يميل لمصلحتنا .

وأنا وحدى الحائر بين «سجنى» الذى أفر من ظلماته ، و«سجانى» الذى أنجذب إلى كل انتصاراته ..

لا بأس بهذه الحيرة ، ولا ضير ، والله كفيل بالإجهاز عليها ، أما اليوم فيحسن أن نقف بهذا الفصل عند هذا الحد .

• • •

وعسى أن أكون قد رسمت به المرحلة السابعة عشرة في موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل الثامن عشر

ركود سعيد .. ونشاط شقى

ومر بنا « أغسطس » فى ركود سعيد .. كركود المحارب قام بغزواته ، واسترخى فى نشوة .. يحصى المغانم .

ولم تكن التحركات المصرية خلال ذلك الشهر .. إلا لم الشمل.. والتأهب للمستقبل.. فالجمهورية العراقية تمشى إلى أهدافها مطمئنة إلى أخوة قادرة.. وعبد الحكيم عامر يطير إلى السعودية لتوثيق عرى الأخوة .. والقاهرة تستقبل الأمير البدر ليباحث المسئولين فى قيام «مجلس الدول العربية » .. وهمرشولد يجيء إلينا ليباحثنا فى مشروعات التنمية فى الشرق الأوسط .

كل ذلك كان يجرى فى هدوء ــ عبر أغسطس ــ وعلى المستوى السياسى .

أما على المستوى الداخلى .. فإننا لم ندع شبراً فى أرض مصر لم نتحرك داخله لنبنى .. ونبنى .. ولم تلهنا معارك السياسة عن معركة البناء يوماً .

• • •

وحادث رائع تم أيضاً تحت سماء القاهرة .
قامت حكومة مؤقتة للجزائر قوامها تسعة عشر وزيراً واعترفنا بها فوراً .

• • •

شىء واحد كنت أخشاه على مشارف ذلك الجو السعيد ، سرعة دوران العجلة فى الإقليم الشمالى .

كانت لدىّ فكرة قديمة عن سوريا الشقيقة ، كنت أعرف أن بين شعبها وحكامها تناقضاً يتسع ويضيق ولكنه قائم ودائم ، كنت أعرف أن شعبها صادق الوطنية .. وأن

معظم السياسيين فيها يتجرون بالوطنية .. كنت أعرف أن كل دولة عربية غنية كانت تتبنى حزباً أو أكثر من الأحزاب السورية ، وحتى حزب « البعث » المتيم بالفلسفة كانت تتصارع داخله المطامع . ما بين « عفلق » شارد .. وحوراني طامع ، وأنصار في الجيش مخدوعين ، وأنصار من الشباب مندفعين ، وكنت أعرف أن القبلية في سوريا ما يزال لها شأن كبير ، وأن الدروز لهم تقاليد في السويداء — أمّ قراهم — وما حولها ، وأن العلويين في بلادهم لهم تقاليد أخرى ، وأن الزعامة في دمشق الفيحاء تخاصم الزعامة في حلب الشهباء ، وكنت أعرف أن الرأسمالية في سوريا قوية وعاتية ، وأن التجار لا يتداولون غير التهريب علة لهم ومرتزقاً ..

شيء واحد كنت أخشاه : سرعة دوران المحنة ، في بلد تتجاذب القلة المسيطرة فيه كل هذه الأهواء المتضاربة والمصالح المتناقضة ، والمطامع التي لا تقف عند حد .

• • •

وومض اسم العراق وأنا أفكر في سوريا ، خيل لي — في حدود معلوماتي — أن العراق من حيث التناقض أشد استعصاء على العلاج من سوريا ، ولم أشأ أن أواصل البحث في العراق فعدت أبحث الموقف في سوريا ..

• • •

كنت أتوجس خيفة .. ولكن لم أكن يائساً ..

كانت الوحدة — من فرط إعجابي بها — تلوح لي والداً مهيباً .. تتكسر عند قدميه كل خلافات البنات والبنين وها هو كل شيء يتقدم ..

صدر قانون الإصلاح الزراعي في سوريا .. وهتف الفلاحون لناصر ، ووجم الإقطاع .. وفرحت ؟؟

وأتى قانون التشاؤر .. ولم أفرح ، لأني — في حدود معرفتي — أتهيب الانتقال العنيف والجريء والسريع بالمشيرة إلى سلطان القانون .

وعدت فقلت :

— ولكنها ثورة وليست إصلاحاً ، والثورة إنما قامت لتقضي على المتناقضات في المجتمع ، فكيف تناقض نفسها في أبرز أعمالها بين إقليم وإقليم ؟

وعدت أسفه هذا الرأى وأقول :

— ولكنى أعرف أن «التخطيط» — إحدى هوايات الدولة — إنما يسبق بين مستويات « متماثلة » أو على الأقل « متقاربة » ، ومصر وسوريا لا تتماثل بينهما فى المستوى ولا تقارب ، مصر قطعت أشواطاً ، لم تقطع سوريا منها بعد ، شوطاً ، حتى فى « الأدب » ، شبت مصر عن « الرقيبة » ، فى حين أن (الوجبة الكلاسيكية الدسمة) ماتزال هى (الطبق المفضل) عند الأديب السورى ، كأنه لم يزل أديباً (أموياً) يرضيه من الحاكم أن يخلع عليه حلته وأن يقول : « يا غلام ، أعطه ألف دينار » ، ولا أقصد طبعاً تلك القلة من الأدباء المتقدمين ..

• • •

. و برغم هذا (الديالوج) — بين الشخصين اللذين يعيشان فى شخصى فى المزدوجة — عادت الوحدة تلوح لى من خلال هذه المخاوف والدأ مهيباً ، تتكسر عند قدميه خلافات البنات والبنين .

ودكرت شمائل العروبة وتقاليد النبيلة عبر التاريخ العربى ، وكيف كانت العدالة تستهويها كما كانت شمائل النخوة والنجدة والكرم تستهويها ، فظهر عمر بن عبد العزيز فى نفس الرقعة التى نتحدث اليوم عنها ، فبهرت بعدله واستقامته له فى يسر رائع ، هذه الفئة تطمئن (ناصر) ، و (ناصر) لم يذهب إليهم ليأخذ منهم ، وإنما ذهب إليهم ليعطيهم وليأخذ بأيديهم ، وليتقدم بهم ولا يتخلف .

رشيد عالى الكيلانى

وأمضيت سحبر أقرأ .. وأفكر على هذا النحو .. فإذا اضطرب حبل التفكير فى يدى .. عدت إلى القراءة وكان كل تفكيرى يدور حول أبرز حادث خطير يخص شخصى وقع فى ذلك الشهر .. واستنفد كل طاقات ذهنى .. وأعنى به سفر رشيد عالى الكيلانى إلى بغداد .

وحقك فى أن تسأل هذه المرة عن الرابطة بين عودة زعيم العراق إلى العراق وبين

شخصى .. حقك هذا لا شك فيه .. »

وإجابتى بسيطة ، وهى تماثل أختاً لها سبقت ..

إجابتى : لأن لى مع رشيد عالى .. تاريخاً .

* * *

سافر رشيد عالى الكيلانى .. الزعيم العراقى الحر القديم .. عائداً إلى العراق .. بدعوة من الثوار العراقيين الأحرار الجدد .. ليتحرروا باسم الوطن الحر عما صنع به المستعمرون ونورى والأعوان .. وليردوا إلى رشيد أمواله التى صادرها عبد الإله ثم اغتالها .. وإن كان الشعر جميعاً .. يحسرون عن أن يردوا إلى رشيد .. سبعة عشر عاماً من أغلى سنوات العمر .. قضاها متغرباً حزيناً .. ومؤمناً وصبوراً .. ما بين إيطاليا الفاشية وألمانيا النازية . والمملكة السعودية .. والقاهرة أخيراً .

* * *

كان النبأ بالنسبة لى ... « ساراً » و « أكثر من سار » .

لقد قلت عنه فى كتابى « عند مشرق العروبة » الذى صدر فى مستهل سنة ١٩٥٧ وقبل اعتقالى بشهور : « وإنه ما يزال — وقد جرد من إمكانيات الكفاح ... كبير الرجاء فى أن يعود ويقود[1] » .

---

(١) قلت فى ذلك الكتاب وأنا أعرض لزعماء العروبة نماذج مضيئة ما يأتى بالحرف :

« وإذا انتقلت إلى رشيد عالى الكيلانى فى العراق — وهو اليوم ضيف مصر — فقصته لم تنب عن أذهان الجيل ... ومهما تختلف الآراء على حركته من حيث النتائج ... فإن أقل ما يقال عن الرجل أنه أول رئيس الوزراء فى بلد عربى تحتله بريطانيا — سيدة البر والبحر يومئذ — قاتل بريطانيا — وإذا قيل إن اعلانه رشيد فى سنة ١٩٤١ كان عسكرياً فيجب أن يقال إنه كان أيضاً وطنياً ... فقد رفض أن يأذن لبريطانيا فى إنزال قواتها إلى العراق ومضى بجيشه إلى مطار الحبانية وقاتل ... فإذا كان التوفيق قد تخلى عن رشيد ، وإذا كان الأردن قد سحقه ... وإذا كان الألمان لم ينجدوه .. فر رشيد إلى أوربا ... ولجأ إلى ابن السعود عبد العزيز — فأكرم وفادته ... وجاء إلى مصر من عامين ولا يزال أكرم لاجىء ... إذا كان هذا كله قد حدث فالوجه الذى يعنينا من تاريخه أنه قاتل بجيشه وشعبه أكبر قوى المستعمرين فى ذلك الحين ... وأنه ما يزال — وقد جرد من إمكانيات الكفاح — كبير الرجاء فى أن يعود ويقود ... »

وها هو ذا يعود .

والأبصار كلها تتطلع ... وكلها أيضاً تتوقع أن يعهد إليه مجلس السيادة فى رياسة الجمهورية أو فى رياسة الوزارة ... وتشكيله الوزارة يعنى « الوحدة بين مصر والعراق والجمهورية العربية المتحدة ... الحدث الذى ترتعد لمجرد تخيله فرائص الغرب والرجعية العربية .. والشيوعية التى لا تعنى هذه الوحدة بالنسبة إليها .. إلا أن يتركز علاؤها فى الشرق الأوسط كله ... فى نقطة تجمع واحدة .. وهى لبنان .. ولبنان اليوم محتلة بالأمريكان خصوم الشيوعية ... وهى غداً متحررة من هؤلاء ومن أولئك .. وحتمية التاريخ التى يتشدق بها الشيوعيون هى التى ستفسح الطريق أمام لبنان الجديد ... ليمشى غداً إلى الصف وليأخذ مكانه بين الأشقاء تحت الراية ولا يجد الشيوعيون يومئذ مكاناً لهم فيه .

هذا ما كان متوقعاً أن يحدث ... لو أن الركب واصل سيره ... ولكن الركب توقف .. فدعنى أتوقف أنا الآخر قليلا ... لأتحدث عن « تاريخى مع رشيد عالى » لأن لهذا التاريخ صلة بأهداف كتابى — ثم نلتقى مرة أخرى على أرض العراق لنرى ما جرى على الزعيم العائد .

* * *

حدث ما حدث لرشيد ... وقصته مع السعوديين معروفة ... حسن بداية وسوء نهاية ... قصته معروفة يوم ضاق بتآمر أمين الحسينى المتطلع يومئذ إلى إمبراطورية عربية مركزها القدس يحميها الصليب النازى ... فرأى رشيد أن يترك له ألمانيا ... واستطاع أن يصل إلى السعودية متنكراً — بعد رحلة رهيبة نشرنا جانباً منها فى « السوادى » بقلم رفيق له سورى ... ودخل على عبد العزيز آل سعود فى « مجلسه » وأخذ مكانه بين الجالسين ... وسأله عبد العزيز عند انتهاء المجلس إن كان للضيف مطلب فقال الضيف ما معناه « عربى مستجير يريد أن تجيره ... وأرجو ألا يكون الأمر فوق طاقتك » وظن الملك أن القبيلة التى تطارد الضيف قوية ، وعز على الملك هذا التحدى المهذب فقال للضيف « عبد العزيز فى طاقته دائماً أن يجير ... مهما يكن أعداؤك ... أجرناك يا رجل » فكشف الضيف عن وجهه وقال للملك « أنا رشيد عالى يا صاحب

الجلالة ، وتعالت عبد العزيز نفسه — وكان ملكاً — وقال (أجرناك يا رشيد) وخاطب عبد العزيز بدهائه الفطرى حراسه كا سيافيا راشداً ... حتى تركوه وغضوا الطرف عن المطالبة برأس رشيد .

وظل الرجل مقيما فى السعودية حتى مات عبد العزيز .

* * *

تلك قصة نشرت ... وقرأها كثيرون ... وأحسبك منهم .. وأنت إذن تعرفها .

أما الذى لاتعرفه ... فهى قصتى مع رشيد لأنها لم تنشر .

وأنا لا أنشرها اليوم لأضيفها لتكملة القصة الأخرى ... ندا لملك أو رئيس حكومة ... إنما أنشرها ... لأن لها كما قلت صلة بأهداف كتابى ومراحل تطورى إلى (الناصرية) .

ولقد فتنت بسيرة رشيد كبطل من أبطال التاريخ ضحى بكل ملايينه وممتلكاته فى سبيل وطنه .. وعرض حياته وحياة أسرته للخطر .. واحتل فى تاريخ الفداء السياسى المكان الذى احتله تولستوى فى تاريخ الفداء الإنسانى ... كلاهما إقطاعى ورأسمالى ... وكلاهما نزل عن المال والإقطاع ... وتولستوى عرض نفسه بهذه الفعلة لوحشية زوجته واضطهادها له ... ورشيد عرض زوجته وبناته للتشريد والمتاعب والغربة ... وعرض نفسه للموت محاربا ... وللمصائب منفيا ... وللحماية لاجئاً ... وللغربة دامت سبعة عشر عاماً ...

فتنت بسيرة رشيد ولم أكن أعرفه ... وفسحت له فى صدر جريدتى «السوادى» وُددت عنه ... وكنت أفتتن دائما بكل حركة فردية تحاصر الرجعية السائدة ... وتحاصر المستعمر المسلح ... وتحاصر الطغاة من الحاكمين ... وكنت يوما أشد أيضاً أزر الحركة التقدمية التى أعلنها الأمير إبراهيم ... من « عدن » ضد أبيه الإمام يحيى حميد الدين فى « صنعاء » وظلت أؤيد الأمير إبراهيم ... وأنشر فى « السوادى » أهدافه وندااته ...

من غير سابق تعارف حتى نجحت الحركة وقتل الإمام ثم حدثت النكسة وقتل الأمير وابن الوزير وعادت الرجعية أشد ضراوة على يد الإمام أحمد « أمير المؤمنين .. ؟!! » الحالى فى « اليمن الخضراء ؟!! المهلهلة » ...

• • •

وأعود ... إلى « رشيد » واتصالى به ... وكفاحى من أجله .

شاركت بجهدى المتواضع فى جريدتى ... فى بذل المساعى التى شارك فيها الكثيرون من زعماء العروبة ... لدى الأمير عبد الإله ... وقد حسبناه « عربياً » ... وانفردت « السوادى » بنشر الصورة الزنكوغرافية المريضة التاريخية التى رفعوها للملك الأمير تحمل توقيعاتهم ... وظللنا نعقد الفصول الضافية عليها ... وثبت أن « عبد الإله » هو عبد الإله ... وعد ... وماطل وسوّف ... وأخيراً رفض ... وكان كل ما أملكه أن أبصق ... ولم تعد بصقتى ولا صفحة جريدتى ... حتى بصق « ناصر » فبصق العراق ... فذبح عبد الإله .

ويبدو أن «رشيد عالى» « العراق » ثائر وهو يقيم فى (الرياض) أو (السعودية) جطوع صحيفة (مصرية) الدفاع عنه وعن محنته ... لا يملك لأحد شيئاً ... وكان الملك عبد العزيز قد يسر لزوجة رشيد وبناته أن يقمن فى القاهرة ... على مقربة من أهل الثوار الأحرار من الضباط أنصاره ممن أعدمهم عبد الإله فهرب النساء والأطفال إلى القاهرة ... ومنهم حرم الشهيد محمود سليمان وطفله :: برعاية شقيقه (محمد سليمان) .

وكتب (رشيد) إلى أهله فى القاهرة ليشكروا لى باسمه ذلك الجهد الذى أبذله .. وجاءنى محمد سليمان ومعه نجم السهروردى المدرس العراقى الشاب « وزوج إحدى بنات رشيد » والياور العسكرى السابق لرشيد — ونسيت اسمه — ومعهم الدكتور الطبيب ناصر ليقدمهم لى .. وأخ محمد سليمان[1] — واذكر هذا الإسم واقرأ الهامش — فى أن

(١) محمد سليمان ... صديق المهذب ... ظل لاجئاً سياسياً فى القاهرة سنين وسنين ... يتحمل شظف العيش ... ولا يستطيع العودة إلى وطنه ... حتى بذلت له المساعى فعين فى الجامعة العربية وظل يرقى حتى أصبح مشرفاً على إدارة البترول فيها وفرحت له فى منصبه الكبير بعد كل ما عناه ... وفجأة ولا أدرى كيف ... عين وزيراً للبترول فى حكومة عبد الكريم قاسم ... ولا أجد حتى الساعة تفسيراً لهذا العجب .

أزور زوجة أخيه الشهيد لأرى طفله البطل الصغير المعد للثأر .. وفي أن أزور أسرة الرئيس رشيد «لأن معهم رسالة منه وبخطه يحبون أن يسلموها لك» وزرتهم .. وأحسست من يومها أني غدوت واحداً منهم .

• • •

ومرت السنون ..

وذات يوم أخطرني الدكتور الطيب أن رشيد عالي وصل من أيام إلى القاهرة .. وأنه زاره في فندق هليوبوليس .. وأنه يريد أن يراني وذهبنا معاً .

• • •

واستقبلني الرجل بالقبلات وظلال الدموع تروح وتجيء في عينيه .. وبصمات المتاعب .. تبدت على وجهه في صورة تجاعيد .. وكان يرتدي جلباباً صيفياً أبيض وعباءة خفيفة يسمونها « رفيف » وعقالا أسود .. وأمضينا وقتاً طويلا .. في جلسة لا تنسى .. وهو يقص علينا .. بعض ما لقيه في السعودية من كرم عبد العزيز .. وبعض ما قدمه لعبد العزيز من مشورة .. وبعض ما لقيه من مستشاري عبد العزيز من دس غير كريم . واختتم الرجل قصة الإقامة الكريمة .. بقصة مضادة لا تكاد تصدق — لو لم يكن (رشيد) صاحبها وراويها — ويكفي أن أنقل منها آخر عباراتها .. أمراً تلقاه فجأة — ومن غير سبب — بمبارحة السعودية فوراً .. وعلى طائرة معدة .. ولم يسمح له حتى بملابسه .. ولم يسمح له — طبعاً — بسحب أي مبلغ من أمواله المودعة في المصارف لأنها صودرت — ثم قال يخاطبني :

— ولكن بارك الله فيهم سمحوا لي بأن أرق إلى صديقك (نجم السهروردي) مطار المسكين إلى القاهرة ليكون في استقبالي .. ولولا نجوده .. لما وجدت أجر هذا الفندق الذي تراني مقيما فيه .

رشيد وناصر ؟

ثم انتقل الحديث إلى عبد الناصر — ولم يكن رشيد يعرف أنى من خصومه فقال فى براعة وحرارة أن هذا الشاب قد عوض الله به شعوب العروبة خيراً .. عن كل ما لقيته من المستعمرين والطغاة والحاكين .

وسألته إن كان يقول هذا القول مجاملة بوصفه نزيلا على مصر ولاجئاً سياسياً عند ناصر ؟ ونفى رشيد أن يكون هو .. هذا الرجل .. وأن يجرى حديثه مع السوادى هذا الحرص .. وعاد فأكد أن الله عوض به شعوب العروبة خيراً .. وأجزل فى التعويض وأنه يقرر هذه الحقيقة عن يقين بها .. وقد دعى إلى لقائه .. وتحدثا طويلا .. وخرج مقتنعاً بأن الحقيقة تفوقت على كل ما كان يطوى عليه خياله .

وأكد رشيد — وهذا هو الذى يعنينى فى الدرجة القصوى — أن كل بلد عربى سيتحرر بفضل هذا الشاب .. وأن العراق سيكون فى الطليعة ... حراً كريماً ... وأنه هو — أى رشيد — لا بد عائد ... وأنه سيعود ليقود ... وسيكون أول إجراء يتعهده مع مصر على المستوى الفردى ... دعوة توجه منه إلى شخصى الضعيف لأزور العراق ... ولأعرف أن بغداد ترعى الجميل .

* * *

وتلك هى أوجز خلاصة لما حدث بينى وبين رشيد .

وأرجو ألا تكونوا قد نسيتم أن هذا الشريط كله — شريط الذكريات التى سقتها لك مساق القصص — قد مر أمام عينى الليلة — إحدى ليالى أغسطس — وأنا فى غرفتى أقرأ نبأ عودة رشيد عالى إلى بغداد .

لقد عاد ...

ولا أشك فى أنه سيقود .

ويوماً .. سأكتب إليه ... وسأقول له : « تذكر أن صديقك القديم سجين... قل لصديقك الكبير ... يأمر بفتح الباب المغلق » .

* * *

وتدرك من ذلك الجو الذى رسمته لك أن سبتمبر جاء وملؤه الشريات والأمل .

طار رشيد إلى وطنه ليسترد ماضيه ... ونحن والعراق ... فى ارتقاب الأمل المنشود . . وعندما أغلقت الأردن الحدود بينها وبين الإقليم الشمالى فتحناها مع العراق الحر ... لنرسل إلى اللاذقية أكداساً رهيبة من الأسلحة والعتاد والذخيرة ... ومن الألغام والقنابل وقاذفات الصواريخ والبنادق والسيارات والرادار والمدافع ... تنتقل من سوريا إلى العراق . . ليتسلح الشقيق الذى تحرر .

وطائرات أكتوبر ؟

وكما ازدان سبتمبر بسفر « رشيد » إلى عاصمة الرشيد .. جاء أكتوبر بحادث جديد سعيد .

حادث هبوط تسع عشرة طائرة من أحدث طائرات « الميج » .. إلى مطار « الحبانية » بين هتافات الجماهير العراقية .. يعتز بها « ناصر » سلاح الجو العراقى .. وكانت الأسراب العربية بعرضها الجوى فى سماء بغداد والنساء يزغردن .. وحناجر الرجال والشباب تكاد تسكت ضجيج « الميج » .

• • •

وفى وسعى أن أقرر أن « أكتوبر » كان شهراً بديعاً . تعطر جو « الزنزانة » خلاله بأريج العروبة الصاعدة .. وحطا بى إلى « الناصرية » خطى واسعة .. لو لم يحتم بيبياً هز أعصابى هزة بالغة .

● فى أكتوبر سافر عبد الحكيم عامر إلى موسكو .. وفوجىء العالم باتفاقه

مع روسيا على تمويل المرحلة الأولى من السد العالى وأسقط فى يد من تسحب ، وماهت الذى كفر » .

● وفى أكتوبر انسحبت القوات الأمريكية من لبنان والقوات البريطانية من الأردن .

● وفى أكتوبر توالى توقيع الاتفاقيات الاقتصادية والثقافية بيننا وبين العراق .

كان كل شىء . . يمشى إلى أهدافه .

ولكن بعض الأطباء والضباط نقلوا إلىّ أن أموراً غريبة بدأت « المحطات السرية » تذيعها علينا ، ولا تكاد تصدق . .

وقيل إن مخابرات الاستعمار بدأت تعمل داخل العراق بالاتفاق مع الشيوعيين الهاربين من سوريا ويذيعون بين الجماهير أن كل ما يقدمه ناصر للعراق من مساعدات إنما يقصد به الاستيلاء على بترول العراق تحت اسم الوحدة . .

وقيل إن انقسامات باتت ملامحها على وجوه الثوار العراقيين وبدأ فريق منهم يطلق اسم « القوميين » على دعاة الوحدة ويصورونهم فى صور العملاء للهجارية الناصرية الزاحفة .

بدأ الاستعمار يعمل . . إذن . . ومعه الشيوعيون فى العراق .

وفجأة . . أقدم السودان — بعد مناورات عابرة — على إلغاء اتفاقية النيل من جانب واحد .

وبدأ الاستعمار يعمل — إذن — فى السودان . . وحده على هذا الصعيد .

تفجير فى الجامعة

وعقد مجلس الجامعة العربية فى نفس الشهر جلسة خاصة يستقبل بها وفد تونس الحبيبة بمناسبة انضمامها إلى الجامعة ، وألقيت خطب الترحيب من كل رؤساء الوفود ، وكان الجو عربياً خالص العروبة .

ولم يبق إلا أن يقف مندوب تونس ليشكر .

ووقف ولكنه لم يشكر .

وإنما وقف ليتلو بياناً مكتوباً يهاجم فيه الجمهورية العربية المتحدة .

ووقف عبد الحميد غالب رئيس وفدنا — وهو معروف بالاتزان والخبرة — فقال بين ذهول السامعين إن كل ما قيل — إذن — عن خطط تدبّر داخل الجامعة ضدنا، لم تكن وكالات الأنباء التى أذاعته متجنية فيه كما ظننا .

وانسحب هو ووفده من مجلس الجامعة .

وهكذا وثب الشقاق إلى بيت الأسرة من نافذة جديدة .

وعجبت للأحداث وما تصنع بنفوس الناس ..

ذكرت .. فعجبت .. فغثيت .. فشككت ..

ذكرت الصديق القديم — حبيب بورقيبه — وهو لاجىء سياسى فى القاهرة وكان يتردد على مكتبي فى «السوادى» — مع الصديق الفلسطينى الأقدم محمد على الطاهر ورغم المتاعب التى كان بورقيبه يلقاها فقد كنت أحب فى عينيه الحياة التى تطل منهما حمراء قانية .. ترسل دائماً وهجاً من النار ، أو لوناً من الدم ..

كيف وقد أجلسته بلاده على كرسى «الباى المعظم» ، لايملأ هذا الكرسى العربى العريق بكل الطاقات الثورية التى كانت فيه ؟ وكيف أجاز لنفسه هذه الفعلة ؟

ونكسة في العراق

وأعجب من هذا كله ، أن تلق هذه الخطيئة التي تردت فيها تونس صداها عند دعاة الفرقة في العراق وعلى مستوى الدولة ، فيصرح وزير خارجيتها — وكان يومها في نيويورك — أن العراق متضامن مع تونس .

نعم الاستعمار — إذن — في السودان وفي تونس والعراق .

وبدأ الشقاق يدب كما قالت الأنباء بين الزعماء في العراق .

وبدأت أضع يدى على خدى وأنا في زنزانتى وأقول حزيناً : يا خسارة يا عراق .

• • •

ولكن نوفمبر جاء ..

ورفعت يدى عن خدى .. وبدأ أول الغيث .. وغمغمت على استحياء : مرحبا بك يا سودان .

جاءت الأخبار أن جيش السودان .. ثار .. على أحزاب السودان .

• • •

ولم أستطع أن أقول شيئاً إلا أن « ناصر » ما يزال على الطريق رابط الجأش موفور الإيمان .

أما أنا ..؟ أنا .. ما أزال أيضاً على الطريق .. ولكن الوقت لم يحن بعد ..

ولعل الذى حان .. هو رجائى أن أكون قد رسمت بالصدق الممكن هذه المرحلة الثامنة عشرة في موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل التاسع عشر

كي سجناً

مشيت معي فضلا منك ـ ولا أقول « مشيت بك » ـ نمير الحياة في السجن .. واقعة بعد واقعة في السمر ، وشهراً بعد شهر في الزمن ، وحاجة بعد حاجة في الفكر والقلب معاً .. حتى لقد شعرت أني خرجت بك ـ أو كدت ـ عن موضوع الكتاب .

ولزاماً عليّ ـ إذن ـ أن أعوضك عن هذا اللون الذي استهواني من « لزوم ما لا يلزم » بعجالة أطوي بها سنة ١٩٥٩ في هذا الفصل القصير ، فأشير إلى بعض « المعالم » على الطريق ولا أوضح ، وأتمهل عندما له علاقة بأهداف الكتاب .. ولا أتوسع .

ومما له علاقة بهذه الأهداف ـ أو على التحديد بمراحل تحول ذلك « العطف الكريم » الذي تلقيناه من الرئيس ماثلا في (المعاملة الكريمة) التي يتعذر على أي حاكم من لحم ودم ، أن يرتفع إلى مستواها ليعامل بها خصوماً تآمروا عليه ووقعوا في قبضته .

نكسات ... ومفاجآت ... وفجائع

ويهمني أن يكون واضحاً ، أن النصف الأول من سنة ١٩٥٩ لم يكن يبشر بأي عزوة جديدة ، أو بأي مناسبة سعيدة ـ على الصعيد العربي أو على الصعيد الدولي ـ يبتهج بها (جمال) ، فيأمر بإخلاء سبيلنا ، بل ـ على النقيض ـ لاح لنا أن خيوط المعارك بدأت تلتوي في يد القائد وتتشابك ، ورياح الأحداث بدأت تهب على المنطقة ، على غير ما اشتهى وقدّر .

بل تبدت (النكسة) في (العراق) ، وكأنها مناحة للعروبة كلها ، وفجيعة لكل عربي ومأتم .

كانت نكسة لم تحل أبداً بخاطر .. وهي وحدها التي أستأذنك في أن أتمهل عندها حزيناً .. وفي أن (أركز عليها) قليلا ..

• • •

و (العراق) في رأيي بلد تعس ..

وهو أشد تعاسة في (قبضة قاسم) منه في أحلك الفترات .. التي حكاها تاريخه المفعم بالمتاعب ..

و إذا كانت (بغداد) قد سقطت في قبضة المغول ، وظلت وحدها تعاني (التترية) قروناً .. فالمغول كانوا (مغيرين) وكانوا (أغرابا) .. و (البربرية) كانت (صفة) لهم .. تلازمهم .. والعصر كان يحتمل مظالمهم .

• • •

كانت أسرة (محمد علي) تحكم مصر .. وثار (الضباط الأحرار) ثورة بيضاء .. وحرروا مصر من حكم هذه الأسرة .. وكانت القيادة في يد مصري شاب .. طرد الاستعمار .. وقضى على الإقطاع والاحتكار .. ومضى ببلاده قدماً إلى مكانها .. جزءاً لا يتجزأ .. من الأمة العربية .

• • •

وكانت (الأسرة الهاشمية) .. تحكم العراق .. ونسج (الضباط الأحرار) في البلد الشقيق على (منوال مصر) وثاروا .. واختلفت الظروف فكانت (ثورتهم حمراء) وعذرناهم .. سحلوا بعض الأحياء من الحاكمين وقطعوا بعض الرقاب في (القصر الملكي) وعذرناهم .. وتسلم القيادة عراقي شاب .. تحمسنا إليه .. وأخذنا بيده ، ووقفنا نذود عنه أقوى دول الأرض .. وعرضنا أنفسنا لعدوان جديد — كان متوقعاً — من أجله .. فما كان منه إلا أن انقلب علينا ، ثم عاد فانقلب على بلاده نفسها ، فأغرق طرقاتها في بحر لجي من الدم .. وسحل (زملاءه الأحرار) في الشوارع .. وزج بمن نجا من (السحل) في السجون .. وفتح الأبواب على مصاريعها .. أمام الشيوعية

والاستعمار — معاً — يتعاونان فى تحطيت العروبة الصاعدة .. وفى تثبيت قوائمه المتداعية ، وراح ينادى فى الجموع بنفسه (زعيما أوحد) ، وأضحك الناس ولم يضحك ..

وهكذا غشيت العروبة غاشية المرارة فى ساعة النصر .. وبان أن كل شىء معرض للضياع إذا لم تمتد يد الله إلى هذه الرقعة العربية بالرحمة الحانية .. لتنقذها من ردة الاحتلال إليها ، أو من سيطرة الشيوعيين عليها ..

وكنت أشعر أن (يد الله) لابد أن تمتد .. وبدأت أرقب ما يجد ، وقلبى يحترق ، وعينى على ناصر ، وما عساه يصنع ، والعراق بعيد ، بعيد ..

* * *

ومضى (ناصر) سليم الأعصاب ، يبالغ (الفجة) التى أصابت (صدر العراق) بطريق التهوين من شأن قاسم .. ويثير ضحك الجماهير — والليالى سود — ويسميه مرة (قاسم العراق) ومرة (آثم العراق) ويحيط الشام عن شخصيته وعن الجهود التى بذلها ، أى « ناصر » — فى سبيل إعادته إلى حظيرة العروبة .. ويكشف الماء يد المستعمر ، والعميل الأحمر ، ويحذر أى طامع من محاولة (التدخل) على مستوى العدوان ، بعد أن سكت عن (التسلل) على مستوى الإفراد ..

مضى (ناصر) ، سليم الأعصاب ، وعميق الإدراك ، يهدىء ثائرة الثائرين حتى يصفى أنصار قاسم أنفسهم بأنفسهم وتتساقط أوراقهم ورقة بعد ورقة ، وتدفع العروبة ثمناً للنجاة من (شذوذه) عاماً أو عامين يقضيهما حاكما ويمضى ، يمضى وبأيدى العراقيين أنفسهم ... إلى نفس المصير الذى مضى إليه زعيمه نورى وأميره عبد الإله .

* * *

ومضى (ناصر) يبنى سوريا ومصر فى اتزان وجد .. وكأن كل شىء فى العراق هادىء ..

* * *

ومضى (ناصر) أيضاً يصفى الجيوب مع الدول المعادية ، ويعقد الاتفاقيات مع الدول

المسألة ، حتى خيل للعالم أن النكسات التي أصيبت بها العروبة على أرض العراق لم تعد عاملا من عوامل التعويق لركب العربى .

وهكذا طب الجراح فى مهارة ، وعرف كيف يضحك وفمه مفعم بالمرارة .

* * *

وأحب أن أقرر أنى خرجت من النكسة العراقية وقد زادنى احتراماً لشخصية هذا القائد .

ولعلك تدرك الآن — وقد تلبد جو العروبة بالغيوم — ما عنيته عند ما قلت لك إن النصف الأول من سنة ١٩٥٩ لم يكن فيه ما يبشر بقرب الإفراج عنا على الرغم من أن صلاح الدين كان قد نقل إلى قصر العينى .. وعبد الفتاح حسن كان قد نقل إلى مستشفى الدمرداش ..

* * *

وما كاد يوليو يبدأ — وفيه عيد الثورة السابع — حيث تزدهر الآمال فى كل عام .. حتى كنا على يقين — نحن الثلاثة الذين خلفوا — من أن التفكير فى إطلاق سراح السياسيين فى هـذا الجو المكفهر ضرب من الخيال لا يجمل أن يتشبث بأطرافه عاقل .

* * *

وفى الرابع عشر من يوليو أو من تموز — عيد الثورة العراقية الأول — استيقظت من النوم وتناولت إفطارى ، ومرت ذكرى العراق بخيلتى ومر معها صدر البيت المعروف : « عيد بأية حال عدت يا عيد » فهززت رأسى فى أسى ، وجاء أحد تمورجية المستشفى يقول لى إن (طبيب أول الليمان) يريد أن يرانى ، وكانت مثل هذه الدعوة عادية .. بالنسبة لى ولزملائى فى القضية ، وبالنسبة للطبيب كلما تلقى من الإدارة الطبية بالديوان العام استفساراً عن الحالة الصحية لأى منا ، فهو فى هـذه الحالة يستدعى

المستعصر عنه ليرى ورنه ، وليرد على الديوان رداً (روتينياً) مألوفاً يذكر فيه الورن ، والأمراض ، ولا شيء » .

وارتديت ملابسي وذهبت إلى المستشفى بصحبة التمورجي .

وما كدت أقترب من بابها الحديدي المفتوح حتى سمعت الجاويش .. رئيس التمورجية ، ينادي فيهم : (إنتباه) فأدركت أن المدير لابد أن يكون قادماً ، وتلفت خلفي لأحييه فلم أجد أحداً ، ورأيت الجاويش يتقدم مني ضاحكاً ويهجم على عنقي بذراعيه ويقبلني ، ودهشت لهذه المعابثة التي لم يسبق لها نظائر بيني وبينه وقلت له غاضباً : (إنت انجننت ؟) فلم يبال اعتراضي ومال إلى أذني هامساً : (ألف مبروك ، جه أمر الإفراج عنك ، بس ما تقولشي إني قلت لك) ..

— صحيح ؟

— والمصحف الشريف ، أمال أنا اجرأت وبستك إزاى ؟

وشكرته طبعاً ، ومشيت معه .. أجاذبه الحديث وأطيل فيه ، حتى أسيطر على أعصابي ، فما استمدت هذه السيطرة اتجهت ثابت الخطى أقرب إلى العبوس إلى مكتب الأطباء ، فقال طبيب أول وهو يحسب أنه بعد لي مفاجأة لا علم لي بها :

— بقى يا عمى سوادى ، ما انتش عاير تسمع محاضرتى اللى حالقيها عليكم فى المكتبة يوم الاثنين القادم علشان تقول لى ملاحظاتك عليها ؟ كرهتنا خلاص ؟

وقلت وأنا أتظاهر بالدهشة :

— إيه الكلام ده ؟ مين قال لك إنى مش حا اسمعها ؟

وقال وهو يقهقه برغم ما عرف به من ميل إلى الجد الصارم :

— والله العظيم مانت سامعها .. مبروك يا أستاذ سوادى .

— على إيه ..

— حل عننا بأه .. الريس ياسيدى انعطف وأمر بالإفراج عنكم وأنت تساهل والله .

وقلت فى ثبات :

— وحدى ؟

— كلكم ..

— الحمد لله .. الريس يجى منه كده وأحسن من كده .

وتبارى الأطباء فى التهنئة معجبين بثباتى .. وهم لا يعلمون أن المفاجأة استنفدت قوتها من قبل أن أنام .

فى طريقى إلى الحرية

كان ذلك يوم الثلاثاء الرابع عشر من « يوليو » ... وأقول الآن بملء فى : « ومن تموز » .

وهو — كما تعرف — العيد الأول للثورة العراقية .. احتفل به كل حاكم على طريقته .. خصيّه « قاسم » بالدم .. وعطّره « ناصر » بالورود .. وكان لنا — نحن الثلاثة الذين حلّقوا — وردة منها كبيرة وذات أريج .. هدية منه فى الذكرى الأولى لثورة الرابع عشر من « تموز » .

طرقت الفكرة رأسى .. وانسربت إلى قلبى .. فاذا القلب وثاب إلى « الناصرية » فى سرعة « الذى عنده علم من الكتاب » .. ولو لا حرصى على أن أبدو ساعة النصر « وقوراً » .. لهتفت من أعماق غير مخدوع .. باسم « الرجل الذى تآمرتُ عليه » مخدوعا ..

* * *

كان الخبر .. قد ملأ « عنابر الليمان » .

وكان الزميلان قد لحقا بي ..

وعدنا نحن الثلاثة .. تربط بيننا الفرحة بعد أن فرقت بيننا المحنة .. وبين حشد من المهنئين .. اختل معه « النظام » واختلط فيه السجين والسجان .

وأعود وأقول إن خبر الإفراج جاء يوم الثلاثاء ..

ولكن الإفراج نفسه لم يتم إلا يوم السبت ..

هذه الأيام الأربعة التي استغرقتها « الإجراءات » .. كانت كلها أفراحاً لا أنساها .. ولا أستطيع — وحتى هذه الساعة — أن أعرض لها بالتحليل .

فرح لنا .. كل سجين .. مع أننا عائدون إلى بيوتنا وهم باقون .. فما هو التحليل ؟ لا أدرى .

وكل الذى أستطيع أن أدريه .. أن السعادة بلذتها وحلاوتها — وكل ما يغنى الرواة الوصاف فى وصفه لها — لم أعرفها طوال عمرى إلا فى هذه الأيام الأربعة التى بدأت فى ١٤ تموز وانتهت فى مساء الثامن عشر منه ..

أسعد أيام الحياة وأحلاها .. عشتها فى زنزانة .. وخلف أسوار ليمان ؟!!

* * *

وأطوى عنك ما جرى خلال الأيام الأربعة .. إلى كتاب آخر عن حياة الحيارى والمذهولين خلف أسوار السجون إن قدر لهذا الكتاب أن يصدر .. وأطوى أيضاً وصف رحلتنا مع ضباط الحرس بالوزارة الداخلية .. وأطوى كذلك رقة ضباط المباحث العامة .. وهم يعربون لنا عن أملهم فى أن يكون فضل الرئيس فى الإفراج عنا مقدوراً منا .

والمهم أنى وضعت قدمى فى عربة «التاكسى» .. وقلت للسائق الذى لا أعرفه :

« الفحالة يا أسطى » وقال الرجل مجاملا : « من عنيه » .. وإذا بى أرد صادقاً وكأنى أعى كل حرف : « تسلم عنيك » قلتها .. وأنا أحس .. أن بى فى هـذه اللحظة من لحظات عمرى ، شحنة من الرضى ، تكفى لإدخال السعادة إلى كل قلب ، لو أتيح لى أن أنثرها ، على أهل هذا الكوكب ، قلتها وأنا أعنم سيداً : « كنى سجناً » .

* * *

وحرام أن تسألنى الآن ، عن «مكانى» من «الناصرية» ، فنى مثل هذا الجو ، لا يسلم الجواب من الشطط وستتحدث ، وتتحدث ، بعد أن تستقر الحياة بالمشاعر . وبعد أن أجمع من « الجو الحر » خيوط الحقائق ، فى يدى .

وأرجو أن أكون قد رسمت بذلك الوصف مرحلتى التاسعة عشرة فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل العشرون

مع الأحرار .. فى الجو الحر

وسود الآن معاً إلى « الحياة » .. وأقصد نفسى ولا أقصدك لأنك « حر » .

خرجت من السجن إلى « الحياة » .. أحمل شحنة من « الشوق » إلى « الأحياء » ملهوفاً على أن أضم إلى صدرى كل « شىء حى » .. كنت أحس إحساساً عريضاً وعيقاً بفضل الله على .. فلم أكن أضيق بشىء ..

وعدت إلى « فينكس » « مقهاى القديم » .. فى عماد الدين .. ثم لم ألبث أن عدت إلى «مكتبى» وكان مغلقاً .. فجددنا شبابه وافتتح — و بدأ الصحب يترددون عليه من جديد ..

* * *

و بعد عودتى إلى الحياة بأيام خمسة .. احتفلت مصر بعيد ثورتها السابع .. وألقى الرئيس خطابه التقليدى.. وفى هدوء البيت الآمن — حيث أنام لأول مرة ملء جفنى — بدأت أسمع الخطاب — بعقل واع .. وقلب متفتح .

أقول (لأول مرة) .. وأعى كل حرف .. فقبل السجن .. كانت سموم الخصوم — حاملة الجراثيم السود — جراثيم الشكوك والأكاذيب — قد انسربت إلى كل خلية فى المخ .. ثم وثبت إلى القلب فنشرت أشباح الشك على كل كيانه .. وتركته مختل الضربات يخفق خفقة الخوف من كل تصرف تقدمى لناصر .

أما اليوم .. فقد عدت إلى الحياة .. وفى القلب طهر .. وفى النفس سكينة .. والمخ — ولا أعنيه بالمعنى التشريحى — جهاز استقبال وديع وواع .. لكل ما يتلقاه من نبأ .. وجهاز استقبال منصف وهادىء .. لكل ما يتولاه بالبحث .

وكان فى نيتى كما قلت قبلا — وما أزال عند هذه النية — أن أمحق بكل ما أملك من طاقة الإنصاف .. كل اتهام وجهه الخصوم إلى القائد الشاب عبر السنين السبع.

بيد أن الخطاب الذى ألقاه فى العيد السابع .. جاء بالنسبة لأهداف (ثورة) لا تقدر .. ألقاه وكأنه عنانى به .. وعنى كل أمثالى .. من الذين ضلوا .. صادقين فى الصلة — وجاء الخطاب .. حصيلة فريدة — تغنينى عن كل تحصيل — الثورة وما صنعته عبر السنين السبع .. بكل رشادها وأخطائها — وعن كل المستويات التى عاشتها .

وسألت نفسى :

— هل الخطاب فريد فى بابه بين الخطب .. أو هو قلبى الذى تفتح .. وعقلى الذى أدرك .. وعينى التى انجابت عنها الغشاوة .. ونفسى التى تحدث من سكون الزنزانة صومعةً تطهرت فيها ... وخلصت من كل غاشية غشيتها .. فلما خرجت إلى الحياة .. وضحت الرؤية أمامها ؟

لعل الاحتمالين صحيحان ...

أسلوب جديد

وحديثى معك من الآن — إذن — يلونه وضعى الجديد ... ولا على لأن أناقش الخطاب ... وهو فيما أذكر من أطول الخطب التى ألقاها ... لأنى أشعر أنى مقدم على أسلوب عبر ذلك الذى تناولت به أقوال الخصوم ... مقدم على أسلوب أقرب ما يكون إلى (البحث أو الدرس)..وأنا أرسم آخر الخطوط لآخر المراحل فى تحولى من الكفر إلى الإيمان ... وعلىّ إذن أن أخطط لهذه الدراسة فى هدوء ... وكل ما يعنى الآن من الخطاب الذى ألقاه أن أقبس من (نوره) ما يضيء طريق ... وأعتقد أن هذا (النور) سيظل يمشى بين يدى حتى يذوب — فى رفرف الكتاب — فى وهج (الميثاق) .

الرجل البناء

وسبيلى ... أن أطبق هذا (الأسلوب) على (جمال عبد الناصر) .

لقد قال لنا وأعاد القول — عبر السنين التى قاد خلالها الركب — أن بناء السدود والمصانع أمر ممكن ... وأن إصدار القرارات والقوانين (أمر هين) ، وأن الصعوبة كل الصعوبة ... فى (الخامة البشرية) ... فى (صنع الإنسان) .. فى (بناء المواطن) وأخذ على عاتقه مهمة هذا البناء .

و (ناصر) — إذن — هو الرجل البَنّاء :

والمبنى الذى أقامه — ولا يزال يعلو به طابقاً فوق طابق — هو ما نسميه (الناصرية) ... والمذهب الذى التزمه فى إقامة هذا المبنى هو (الناصرية) نفسها .

و (الوعاء) الذى اتسع لها وحدد معالمها ... هو ما أسماه أخيراً (الميثاق) .

***

وعلى مطالع الثورة أصدر كتابه (فلسفة الثورة) .

وهذا (الكتاب) — إذن — كان (مقدمة) و (بداية) ، و (الميثاق) — إذن — كان (نتيجة) و (نهاية) .

ولنعد — إذن — إلى المقدمة من بدايتها .

ولكى يستكمل البحث ملامحه ... وتنتظم الدراسة حلقاتها ... يتحتم أن أربط بين (البداية) و (النهاية) أو بين (فلسفته) و (سياسته) .. وأن أنظر فى البناء الذى أقامه . . هل خالف فيه عن تلك الدعامات التى قامت عليها هذه الفلسفة — وعن تلك الاتجاهات التى مشت فيها هذه السياسة ... أم أن الأمر كله كان (قدراً مقدوراً) لا فضل له فيه ... وكان (حظاً) محضاً ... كما يحلو لخصوم أن يسموه ؟

مؤمن .. وجاد

وأول ما أسارع إلى إثباته فى هذا الفصل أن حصيلة دراساتى المبتسرة التى انتهت بخروجى من السجن .. وحصيلتى دراساتى الحادثة ... بالعقل الواعى والقلب المتفتح بعد أن عدت إلى الحياة ... انتهت كلها إلى (حقيقة كبيرة) لعل (الأمر كله) يتركز فيها ... ولعلها تغنينى عن الخوض فى الفلسفة وفى الدراسة وإن كنت أنوى أن أخوض .

هذه (الحقيقة الكبيرة) أرهم اليوم رايتها بقلمى ... فوق سارية كتابى ... وملء قلبى ارتياح وملء عقلى اقتناع وملء ضميرى سكينة . .

هذه (الحقيقة) تقول : إن هذا الرجل (البناء) مؤمن وجاد ... مؤمن بالرسالة وجاد فى البناء ... مؤمن — فى قرارة نفسه بأنه يحمل للأناسى — رسالة إنسانية ... ومؤمن بأن قوى الأرض جميعاً بما فيها (قنابل الكوبلت) التى لم تصنع بعد — لا تستطيع أن تنتزع هذه الراية من يده .. وهذه العقيدة من قلبه .

وتستبين هذه (الحقيقة) من غير جهد ... إذا نحن ألقينا نظرة شاملة نتبع بها الطريقة التى يخوض بها المعارك ... لنجد دائماً أنها معارك (دفاعية) وإن تبدت فى نظر السطحيين (هجومية) .

إنه يبنى ... ويلتزم الخط مستقيماً كما تقضى أصول البناء .. فيدعوه الشعب العربى فى سوريا مثلا إلى (الوحدة) ، و (الوحدة) فى سياسته يحتمها التاريخ — وهو إذ يستجيب لدعوة الشعب السورى إنما يمشى مع تيار التاريخ ولا يقاومه ... فإذا كان الخصوم فى الأردن أو فى العراق يعتبرون وصول قواته إلى سوريا عدواناً وهجوماً ... على (الهلال الخصيب) الذى يحلمون به ولا يعتبرون وصولها دفاعاً عن سوريا التى يتآمر الاستعمار معهم عليها ... فذلك شأنهم ... وإذا جاوزوا نطاق (النقد) أو (الاستياء) إلى نطاق (التخريب) أو (المؤامرات) فقد فرضوا عليه المعركة فرضاً ... وحق عليه أن يخوضها ... وهم أحرار فى أن يخلعوا عليه الوصف الذى يطيب لهم .

ونعود إلى النظرة التى يلقيها على طريقته فى المعارك «الدفاعية» التى تفرض عليه فلاحظ إنه لا يبالى فى هذه الحالة .. أن يكون خصومه « دولا عظمى » تملك أن تمحو بلاده .. عن الخارطة .. أو أن يكونوا .. أفراداً يقفون فى وجه هذه الرسالة .. فإذا أصابته فى إحدى المعارك «نكسة» .. قابلها بقلب لا يعرف الفزع ... وبأعصاب لا تهتز ولا تضطرب .. ووقف رابط الجأش يصارح مواطنيه علانية بكل الأخطاء التى وقع فيها .. و يسميها «تجربة» و يرفض أن يسميها (هزيمة) .. و يعلن فى جنان ثابت أن « الذى يعمل .. هو وحده الذى لا يخطىء » .. فإذا انتهز الخصوم فرصة هذه الانتكاسة ... ورأوا أن يفرضوا عليه معركة جديدة .. أملا منهم — وهو متعب — فى أن يتراجع .. شد قامته على الفور ، وخاض المعركة الجديدة بأعصاب أشد سلامة وصلابة ... فإذا أحرز النصر ... حذر مواطنيه من (البطر) ... ونبه على (الغد) وعلى ما يحمله من خطر .

وهذه الملاحظة نفسها تستطيع أن تمتحن سلامتها ... فى معارك البناء الداخلى بعيداً عن الحدود والخصوم .. والمؤامرات ... والسلاح ... وخذ مثلا لهذا اللون من المعارك السلمية (الإطار) الذى اختاره لفلسفة الرسالة ... فى البدء ابتدع فكرة (هيئة التحرير) ... وقامت الهيئة ، ومشى بالتجربة ، علما باستبانات الأخطاء فى «تصميم البناء» لم يتردد فى تطويره إلى (الاتحاد القومى) الأول والأخير ، علما باستبانات الأخطاء ، لم يهتز المعول فى يده وهو يحطم المبنى الذى أقامه بالسهر والفكر ، و بالأعصاب والقلب ، وبالجهد والعرق المتصبب ، ليقيم فوقه المبنى الجديد المعدل ، حتى إذا وضحت الرؤية تماماً وعثر على (المعدن) الذى ظل العمر يبحث عنه مؤمناً بالعثور يوماً عليه ، تقدم إلى شعبه فى غير زهو ، ووضع بين يديه خلاصة الأخطاء وحصيلة التجارب ، ودعاه للعمل ، والنهوض بمسئولياته .

* * *

هذه (الظاهرة الخطيرة) فى تكوينه الشخصى وهذه (الحقيقة الكبيرة) فى الرسالة التى يحملها ، كان لها أكبر الأثر فى تحولى ، نعم ، أصبحت أعتقد ، أن (إيمانى أنا)

جلالة (إيمانه هو)، كان نقطة التحول، في تحوله من (الكراهية) لناصر إلى (حُبِّه) وليد الدراسة بالعقل الواعى، والقلب المتفتح.

فلسفة الثورة

هذه الحقيقة الكبيرة التى اهتديت إليها، لن أدع خيوطها تفلت من يدى كما كانت كل الخيوط تفلت.

هذا الرجل يحمل رسالة.

ولابد — إذن — أن يكون له من (مقومات الشخصية) ما جعله (جاداً) فى أدائها، وحملها، وما مكن له، من هذا الحمل، ومن هذا الأداء.

وإذاً — إذن — أن أعبر حياته، لأعرض لأمرين عبر هذه الحياة: الأمر الأول مولد شعوره الغامض بحاجة بلاده إلى كفاحه كفرد، ومسايرة هذا الغموض فى الشعور حتى تبلغ مكان الوضوح فيه — والأمر الثانى: مولد شعوره بحاجته إلى الجماعة وتنظيمها كنبع أصيل وقاعدة طبيعية لهذا الكفاح، وكعصب أخير لتلقى الثمر.

والأمران يتصلان بأعداد أوثق اتصال، الأول يكشف عن وجه (الأصالة) فى (الرسالة)، ومدى (الجدية) فيها وعن جذور (الثورية) فى (شخصه) وعن مدى (الطاقة) فى هذه (الثورية)، والثانى: يفصل بين (شعبيته) وفرديته، أو بين جوهر الديموقراطية التى ينادى بها، و (الديكتاتورية) التى علقت بأطرافه.

وكتابه (فلسفة الثورة)، هو فى رأيى — وبعد كل مطالعاتى ودراساتى — (مفتاح) الموقف كله، ولعله يهدينا إلى ما هو أبعد.

بذور وجذور

وتبدأ مهمتى بالبحث عن « جذور الرسالة » فى « أعماق ناصر ».

وفى « فلسفة الثورة » حاول هو أن يبحث عن « بذور الثورة » فى نفسه..

نعاد بذاكرته إلى اليوم الأول الذى اكتشف فيه هذه البذور .

● ورأى أن ذلك اليوم أبعد فى حياته من أزمة نادى الضباط فى سنة ١٩٤١ لأن تنظيم الضباط الأحرار كان فى ذلك الوقت قائماً يباشر نشاطه .

● ورأى أن ذلك اليوم أبعد فى حياته من فضيحة الأسلحة الفاسدة . . لأن التنظيم كان « موجوداً قبلها » وكان نشاطه « وراء الضجة التى قامت حول الأسلحة الفاسدة »[1] .

● ورأى أن ذلك اليوم أبعد فى حياته من يوم ١٦ مايو سنة ١٩٤٨ بداية الحرب فى فلسطين . . لأن خلايا الضباط الأحرار كانت (تدرس وتبحث وتجتمع فى الخنادق والمراكز)[2] .

● ورأى أن ذلك اليوم أبعد فى حياته من حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ وإن كانت هذه اللطمة (ردت الروح إلى بعض الأجساد وعرفتهم أن هناك كرامة يجب أن يستعدوا للدفاع عنها) .

● ورأى أن ذلك اليوم أبعد فى حياته من ذلك (النوران) الذى عاش فيه طالباً يمشى مع المظاهرات فى سنة ١٩٣٥ .

واتضح له — بعد أن لاحظ أن تلك البذور لم تكن كامنة فى أعماقه وحده وإنما

---

(١) ضجة الأسلحة الفاسدة . . كان قد أثارها الزميل « إحسان عبد القدوس » فى مجلة « روز اليوسف » ومع إيمانى بأن إحسان «فنان» فى كل عمل يباشره . . فقد كنت أشد إيماناً بأن وراء ريشة الفنان الذى أحسن رسم الفضيحة قوة تمده بهذه البيانات المثيرة . . ولم أكن أعرف أنها قوة « الضباط الأحرار » إلا من كتاب « فلسفة الثورة » .

(٢) وقال ناصر فى كتابه يعقب على نشاط الخلايا فى فلسطين ما يأتى بالحرف :

«فى فلسطين جاءنى صلاح سالم وزكريا محى الدين واخترقا الحصار إلى الفالوجة وجلسنا فى الحصار لانعرف له نتيجة ولا نهاية ، وكان حديثنا الشاغل وطننا الذى يجب علينا أن نحاول إنقاذه . وفى فلسطين جلس إلى جوارى كمال الدين حسين فقال لى وهو ساهم الفكر شارد النظرات : هل تعلم ماذا قال لى أحمد عبد العزيز قبل أن يموت ؟ قلت : ماذا قال ؟ قال كمال الدين حسين وفى صوته نبرة عميقة وفى عينيه نظرة أعمق : لقد قال لى : إسمع يا كمال ، إن ميدان الجهاد الأكبر هو فى مصر » .

(ولدت فى أعماقنا حين ولدنا . . وأيهـا كانت أملا مكبوتاً خلفه فى وجداننا جيل سبقنا) .

ويبدو أنه أحس أن قارئه كان ينتظر منه تحديد اليوم فعلا ولم ينتظر الحديث على المستوى الفلسفى الذى ارتفع إليه .. فاعتذر بأنه يعيش وهو يضع الكتاب فى دوّامة وأن الذين يعيشون فى أعماق الدوامة قد تختلط عليهم بعض التفاصيل البعيدة لها .

البذرة والنبت

لم يستطع أن يحدد اليوم الذى اكتشف فيه بذور الثورة فى نفسه .

وهو على حق — من حيث البذور — وهى بطبيعتها غير قابلة البحث عن وقت إبداعها .. لأن البذور إنما تلقيها يد الله فى الصدور .. كما تلقى يد الفلاح فى أرضه بذور زرعه .. فإذا مرّرت بالأرض بعد إلقاء البذور فيها .. لم تر شيئاً .. أما متى تعرف أن هذه الأرض أودعت بذوراً .. فعند ما يظهر النبت فوق الأرض . واللحظة التى تقع أعيننا فيها على هذا النبت .. هى التى تحدد يومه وتؤكد أن بذوراً ألقيت فى أرضه .

وسواء أكانت هذه البذور (أملا مكبوتاً خلفه فى وجداننا جيل سبقنا . .) أم كانت أملا مكبوتاً .. رسّخته فى أعماق عقلنا اللاواعى .. أجيال وأجيال .. وتراث إنسانى ضارب الجذور فى تاريخ الإنسان .. فإن (رملاء جمال) فى النشأة وفى المدرسة . وفى البيئة وفى الطبقة . . وفى الصبا والشباب . . وفى الكفاح وفى السلاح .. كلهم . . أو جلهم — كان له الحظ نفسه من ذلك (الأمل المكبوت) .... ومنهم من زاملوه فى كل مراحل النشأة . . وفى كل ألوان الكفاح . . ومنهم من ثاروا معه . . وأكثروا وما يزالون يؤكدون .. أنهم (رجال غير عاديين) .. وأقول أن (زملاء جمال) .أولئك وهؤلاء — وبرغم التماثل والتزامل — لم يخرج منهم إلا (جمال) واحد فلماذا ؟

هذا هو السؤال .

وهذه هى (البذرة الخاصة) التى تستأهل البحث عنها فى (ذاتها) وفى (خاصيتها)

قبل البحث عن « الفصيلة » التى تنتمى إليها وتشاركها فيها كل « البذور المنتمية » ..
أو قل : هذه هى « البذرة الخاصة » التى نستطيع أن نبحث عن « اليوم » الذى (نبتت)
فيه لنتعقب النبت من يومه الأول إذا تعذر البحث عن (البذرة) فى ذاتها ..
وعن سر تكوينها . إيماناً منا .. بأن أسرار التكوين تظل تضرب فى زمن لا يعرف
مداه إلا الله راجعة بنا فى تسلسلها إلى الوراء عبر ملايين السنين .. أو عبر التاريخ الإنسانى
الطويل . بل عبر أزل لا ندريه .. إلى خالق الكون وصاحب سره المكنون .

فى المدرسة مثلا ؟

ولقد قرأت كثيراً مما كتب عنه .. وأتيح لى أن يكون من بين صحبى أساتيذ
تلقى دروسه على أيديهم وشبان اتصل بتاريخه .. تاريخهم .. ومواطنون يعرف كل
منهم شيئاً عنه فى مختلف مراحله ولست فى حاجة إلى أن أسميهم .. أو أنظر إليهم نظرى
إلى (المراجع) فى (البحث الأكاديمى) وإنما أنا أعتبرهم (معارف) وقفت عليها ..
أستخرج منها ما تدل عليه .. لأرى هذا القائد أخيراً بعين بصيرتى .. أو بعين ريشتى .
وفى الصورة التى تثبت سلامة فهمى .. الرسالة التى يحملها .. وللأوجه « الجده » فيها .
والنقطة ، التى انطلق منها ، والطاقة التى تسلح بها ، وللمواهب التى أهلته لها ، وللأدوات
التى ظلت تفجر الطاقات وتلهب المواهب ، وتولد من كل (دفع ثورى) ، قوة (لدفع
آخر) لم يهدأ ، ولم يلهث ، ولم يرهب ، ولم يتردد ، ولم يلق الراية يوماً .

وأمامى الآن (حقائق) نشر جانب منها ، وعرفت أكثره من المصادر التى أشرت
إليها فدعنا نمرح ، بين رياضها ، فترة .

● فى سنة ١٩٣٠ وكان تلميذاً صغيراً يبلغ أحد عشر عاماً ويمشى فى عامه الثانى
عشر ، لم يعن بأن يعدو خلف بائع حلوى ليشترى بقرشه شيئاً منها ، كلا .. فى ذلك العام جرى
خلف مظاهرة رآها تشتبك مع (البوليس) فى ميدان المنشية فى الاسكندرية ، وهى تهتف
بسقوط الإنجليز والطغاة ، ورأى نفسه يتخرط فيها ويضرب مع الثائرين فى رجال البوليس

وليصاب مع المصابين بجرح ، وليعود إلى منزله يحمل أول وسام حياته ، من غير أن يفهم شيئاً فماذا تعنى هذه الحادثة ؟

تعنى — فى رأيى — إن هذا الصبى (ثورى بالفطرة) .

وهذا (المعنى) هو أول مظهر ، للنبت وقد شقت البذرة الأرض من فوقها لتطل على سطحها ، وأنا أرى أن لحظة اندفاعه تلك ، تحدد اليوم الذى يبحث عنه فى (فلسفة الثورة) .

° ° °

ولا أشك فى أن أهله .. وصفوه فى ذلك اليوم بأوصاف شتى ، بمفردات وجمل ، « بشق » و « عفريت » و « جن مصور » و « هوه ماله ومال المظاهرات ؟ » و « الولد ده مش حايجيبها البر » .

ولعل « العبارة الأخيرة » قد قيلت .

فإن كانت هذه العبارة قد قيلت ، فقد كانت « صوت القدر » ، يصب فى آذان الأرض « صورة النذ .. » أو « خبر النذ » .. من غير أن يدرى « مرسل العبارة » ، أى صدق أرسل .

* * *

وهذا كله من ناحية « جمال » وهو يبحث عن يومه فى فلسفة ثورته .

أما من ناحيتى فأنا أبحث عن « بذرة الرسالة » لا عن « بذرة الثورة » ، لأن « الثورية » ، وقود الثورة ، ولأن « الثورة » ، أداة « الرسالة » ، وفى رأيى أن انخراط الصبى وهو فى عامه الثانى عشر فى مظاهرة تهتف لمصر وتضرب « البوليس الظالم » — وصورة البوليس كانت فى تلك الأيام معكوسة على ذهن كل صبى بأبشع صور الظلم فيها — تحديد لا شك فيه لأول نبت ثورى فوق سطح الصبى ، ولأول يوم تواعد فيه مع القدر إن كان لابد من عودة إلى قصة القدر التى وقّعنا على أوتارها أول ألحانها فى تمهيدى الكتاب .

ولو أن «الصبي» رأى للتظاهرين يحطمون الدكاكين وينهبون اللعب أو الفاكهة أو الحلوى أو الساعات أو الأقمشة أو الأحذية ، فخاض غمارها وشرى وباعا — كما يقول إبن شدّاد — قلنا إن الصبي إنما « تمتع » ليتمتع ، ولقيدنا الحادث فى حسابه للدين « بذرة من بذور النفعية » لا الثورية .

ولو أن « الصبي » وقد جرح .. هرع بجرحه على جريدة « البصير » أو « وادى النيل » ، وطلب أخذ صورة له كبطل صغير ، لقيدنا الحادث فى حسابه للدين « بذرة من بذور طلاب الشهرة » على طريقة الصور التى نراها فوق الشاشة ، ولكنها كانت «بنتاً» طهر « لبذرة » كنت.

مصر الفتاه ؟

(٣) وعلى مطلع العام الدراسى فى سنة ١٩٣٤ التحق بمدرسة « النهضة المصرية الثانوية » بالظاهر ، وما كاد يبدأ الدراسة حتى كان محط أنظار الأتراب ، لأنه اندفع فى صمت وجد يُسهم فى جميع أوجه النشاط رياضة وخطابة وتمثيلا — ديناموه لا يعرف الهدوء ولا الراحة — ثم لم يلبث أن اقتحم عليهم فناء المدرسة وهو يحمل شارة (مصر الفتاة) وكانت يومئذ شيئاً (شبابياً) و (تقدمياً) و (مثيراً) ، كان زعيمها أحمد حسين ثورى النزعة ، وكان قد قام وهو فى الجامعة بمشروع القرش سنة ١٩٣٣ فلما فرغ منه أغراه نجاحه فى الاتصال بالجماهير والتأثير فيها بخوض غمار السياسة فأسس جماعة (مصر الفتاة) وتزعمها ، وكان ساعده فيها ، فتحى رضوان وكمال الدين صلاح ، وكان من بين الشبان البارزين فيها محمد صبيح ، فلم تفت (جمـال) هذه الفرصة لتفجير طاقته الثورية فيها ، فالتحق بها ، وتحمس لها ، ولم يترك اجتماعاً تعقده لم يشهده أو لم يشارك فى النقاش وفى الشعار ، وفى مقارعة الحجة بالحجة حتى إذا عاد إلى مدرسته راح ينشر مبادىء جماعته ، ويقنع كل شاك ، فإذا انتقل أترابه إلى (المزاح) على المستوى الذى يجرى عادة مع التلاميذ اعتزلهم ، ولاذ بالصمت ووقف بعيداً ، كأنه شيخ وقور يترفع عن النزول إلى تصرف الشباب الطائش [1] .

(١) وأنا أعتمد فى تصرفاته على روايات أدلى بها عن النحو من أساتيذه هما مرسى الجيدى رحمه الله وأحمد حسين القرلى - وكلاهما كان مدرس لغة عربية وكلاهما كان صديقاً لى .. وأولهما كان أستاذاً لى ذات عام .

فماذا تعني هذه الوقائع ؟

تعني — في رأيي — أن هذا الصبي أوتي من الصبا طاقة شاملة وكفاحية غير عادية وتعني أنه صبور على العمل ، جاد فيما يعمل ، وتعني إذا آمن بالفكرة ، فنى فيها ، وداد عنها ، وقاتل في سبيلها ، وتعني أنه بطبيعته معزول من الصغار والتفاهة ..

والقيادة ؟

(٣) وفي أواخر سنة ١٩٣٥ أذاع صمويل هور — وزير الخارجية البريطانية — تصريحه المشهور برفض فيه عودة دستور سنة ١٩٢٣ (وكان إسماعيل صدقي قد اهدره دستوراً نصفاصاً واستبدل به دستوراً عجيباً آخر) فثار الطلاب وخرجوا إلى الطرقات واندفعت الجماهير تشد أزرهم ..

في تلك الأيام ظهر الجانب الوضاء من هذا الفتى ..

ظهرت شخصيته بكل مقوماتها فنظم من الطلاب مظاهرة ، وقادها إلى ميدان باب الحديد في نظام عجيب ، ليلتقي بطلاب المدارس الأخرى ، كان قد عيَّن فريقاً من الطلاب يتولون (الهتاف) بعد أن حدد لهم (العبارات) ، وعين فريقاً ثانياً لحماية المظاهرة والالتحام بالبوليس (عند اللزوم) ورسم لهم طرائق الالتحام .. والفر ومتى يكون ، والكر وكيف يكون .. وعين فريقاً ثالثاً للدعاية لمدرسته بين طلاب المدارس الأخرى ، وللاتصال بزعماء هذه المدارس والتعرف عليهم أثناء المظاهرات ، ودعوتهم للاجتماع به بعد أن يروا ثمار تنظيمه .

وبادت خطورة المظاهرات ، التي انتهت بإرغام الزعماء على التكتل ، وتأليف الجبهة الوطنية ، وإنما يعنيني من البحث أن فتانا استطاع أن ينظم المدارس الثانوية تشكيلا راسخاً ، وكانت الاجتماعات للجنة التنفيذية العليا للطلبة على الأبواب فانتخب ممثلا للمدارس الثانوية فيها ، وقاد جموعهم قيادة رشيدة لا يبلغها إلا المدربون عليها ، والتقطت له مجلة (المصور) يومئذ صورة نشرت له وكتبوا تحتها اسمه لأول مرة رغما (صغيراً) بين زعماء الطلاب الثائرين ، وقد طوى هو تلك الفترة المشبوبة — على كل

الروعة فيها بعبارة تناهت فى التواضع وهو يقول فى « فلسفة الثورة » باحثاً عن يوم اكتشاف البذور فى نفسه أنه أبعد أيضاً من « الفوران الذى عشت فيه أيام كنت طالباً أمشى مع المظاهرات الهاتفة بعودة الدستور » .

فماذا يعنى هذا الذى تمر به كريماً وأسماه « فوراناً » ؟

يعنى — فى رأيى — القدرة الخارقة على التنظيم ، والسيطرة عليه ، وحسن توجيهه له ، بل إن تشكيل التلاميذ الذى أقامه « فتى » وأسماه « فوراناً » ، كان النموذج البدائى أو المصغر ، لنفس « التشكيل » الذى أقامه من الضباط الأحرار ، وهو « شاب » ، وسيطر عليه ، وأحسن توجيهه .

والفارق يا « أخى » ، أن « أخانا الفتى » فى تشكيل التلاميذ سنة ١٩٣٥ ، ضرب وحبس وأصيب برصاصة ، وذهبت جهوده عبثاً ، لأنه كان يطلب الاستقلال والحرية بهتافات ومظاهرات ، أما « أخونا الشاب » فى تشكيل الضباط فى سنة ١٩٥٢ لم يضرب أحداً ، بل خلع ملكاً ، وتوج شعباً ، وصنع تاريخاً ، وحرر شعوباً ، وأمسى قدوة ، بسطت جناحيها بالنور على كل فج من فجاج العالم ممتد وروفت بهما على كوبا وأمريكا اللاتينية ، بعد أن أنارت مجاهل آسيا وإفريقيا ، وانتهت بالاستعمار إلى قرار بتصفيته .

والديكتاتورية ؟

وهنا ينهض اعتراض يتصل بأهداف الكتاب أو كاد أتعثر فيه ، لأن الخصوم ما يزالون يلوكونه ويرددونه ، وهو اتهامهم إياه بالنزوع إلى الديكتاتورية — فهل كان جماح هذا الفتى يومئذ فى السيطرة على مدرسته وعرض زعامته على طلابها إرهاصاً بالتهمة التى توجه إليه الآن وهو زعيم ؟

الجواب (الكبير) على (السؤال الخطير) ينبثق من (حادث صغير) أسوقه إليك فى سطور ..

كان (جمال) عضواً فى (مصر الفتاة) كما قلت .. لأنه كان (ثائراً) ، ولأنها كانت (ثائرة) ..

وكان يوليها كل قلبه المحض .. وكل طاقاته (الثورية) .. ويساهم الآخرين أو يتحداهم بحمل شارتها فوق صدره ..

وذات يوم ظهر الفتى بين أترابه .. وصدره غير مزدان بالشارة ..

وعرف الأتراب أن (جمال) لم يتخل عنها فقط ، بل حلها وألقى بها فوق الأرض بعد نقاش طويل وحاد .. وداس الشارة بقدميه فى غير تردد ولا رحمة ..

فهل تعرف السبب فى هذا (الانقلاب) غير المتوقع ؟

السبب أن (جمال) رأى — خطأ أو صواباً — أن زعيم الجماعة نزاع إلى (الديكتاتورية) ، وأنه يسخر جهود الجماعة لإعلاء شأنه هو .. قبل شأن مصر .. ولبناء أمجاده هو .. قبل أمجاد مصر ، واحتج وناقش ، وخاض غمار الخصومة وناضل ، حتى اقتنع أخيراً — خطأ أو صواباً أيضاً — أن أحمد حسين يريد أن يكون ديكتاتوراً — كوسولينى وهتلر — وجمال لا يكره بكل قطرة فى دمه إلا الديكتاتورية ، ومن أجل هذا ضحى بالجماعة وداس الشارة ، وراح يبحث عن مجال شبابى جديد يفجر فيه طاقاته .

* * *

هذا الفتى الذى فعل هذه الفعلة صغيراً ، هو الذى اتهمه الخصوم بالديكتاتورية زعيماً

ولقد وقعت برغم سنى تحت هذا الوهم ، ورفضت بكل قطرة فى دمى أيضاً أن أنضوى تحت لواء هذا (الديكتاتورى) ، حتى صحوت ..

وكان لى عذرى ..

وكان كل الذين ضلوا .. صادقين فى الصلة مثلى .. لهم عذرهم ..

كان حال فى مستهل حكمه يجمع كل الخيوط فى يده .. ويستأثر بكل السلطات وحده ، وكان من حقنا فعلا أن نسميه (هتلر) ..

ولكن الذي فاتنا ، أنه إنما جمع كل السلطات في يده ، خوفاً عليها من أن تفلت كلها ، وترسم إلى الأحراب مرة أخرى ، جميعاً فأقام بها بناء شمخراً ، وها هو ذا يعود في خشوع فيرد الأمانة إلى أهلها ، ويسلم الشعب في (الميثاق) ، المبنى والمفتاح معاً ، ويقف أمام الباب الكبير ، جندياً ، (ديدباناً) ، وحارساً لا أكثر . .

وتخرج ؟

وتخطى الفترة وتخرج . .

وفي منقباد التقى بزملاء ، وفي السودان التقى بزملاء ، وفي القاهرة وغير القاهرة التقى بزملاء . .

وعرف كيف يختار الرفاق . .

اختار منهم ، أصدقاء الفكرة ، وأصدقاء العقيدة ، وأصدقاء الاتجاه ، وأصدقاء الأسلوب ، وأصدقاء الهوى ، ومشوا في الصف إلى التشكيل من غير تشكيل ، و بايعوه بالزعامة تلقائياً من غير أن يدعوهم إلى البيعة ، ووضعوا أيديهم على ميزة القيادة فيه من غير أن ينادي بنفسه قائداً . .

ومن هذا العمق في هذا التواصي ، ومن مدى الصدق في هذا التآخي ، تدرك مدى السلامة ومدى الصلابة في الأساس الذي قام عليه المبنى ، ولا تدهش أبداً للصلة التي ربطت بينه وبين عبد الحكيم عامر مثلا — حتى لقد أسماه بعض الناس يوماً بالرجل الثاني في الدولة ، والحقيقة أن الدولة ليس فيها رجل ثان ولا رجل ثالث ، وإنما فيها قلوب تواصت بالمثل وتواصت بالقيم ، وتبلورت في قائد ، وفيها القائد الذي يتروح ويتجنب فيسمى وفه (عبد الحكيم) .

ولم يكن المجد رخيصاً إذن ، ولا كان وليد صدفة ، ولا كان (خبطة) من (خبطات الحظ) كما كان الخصوم يقولون .

لقد بدأ كل شيء يتكشف على مهل .

والحقائق قد تستخفى طويلا ، ولكنها تظهر يوماً .

وها هو ذا .. (تمثل) على طريق الكفاح ، راتع ومضىء ، وقد ظهر أخيراً على الطريق وبعد عشرين عاماً ولم يكن أحد قد تسامع به قبلا ، ولا خطر للقائد الشاب أن يشير إليه يوماً ، وهو أكبر دليل على أن (الثورية) فى جمال عريقة فيه عراقة الدم فى العروق .. وكانت تعرضه الخطر من مطالع العمر ولم تكن له منتها .

عزيز المصرى ؟

وأعنى بهذا « المَثَل » .. ذلك « اللقاء » الذى تم بين عزيز المصرى وجمال عبد الناصر ومعه بعض صحبه .. والتقطه الشعب أخيراً وعبرا من لم « جمال » وهو يخطب .. ويشير إليه ولا يتوسع .. ليكرم به رجلا يباشر الشيخوخة فى داره ويمشى إلى الثمانين ووجب أن يكرم .

تم من عشرين عاماً .. وفى سنة ١٩٤٢ .. تلمح ثلاثة من الشبان الثائرين .. جمال و بغدادى وكمال الدين حسين .. يبحثون عن الثورية فى عسكرى شيخ .. مجرب ومدرب .. ويطرقون الباب على صاحبها من غير أى تعارف سابق .. ويسألهم عن صفاتهم ويقولون إنهم ضباط صغار فى الجيش .. فى حاجة إلى من يرشدهم إلى طريقة لتحرير بلادهم .. ويصيح الشيخ الشجاع فيهم وفى غير تحوط ولا تحرّج : « الثورة ... ولاشىء غير الثورة .. ولا يهمنى أن تكونوا ضباطاً ثائرين .. أو جواسيس علىّ .. للقلم السياسى » ومن تلك اللحظة أدركوا أن لهم تحت سماء البلد أباً روحياً .. يتخذون من ثوريته منارا[1] .

---

(١) وإذا كنت لا أستطيع تحديد دور عزيز المصرى فى توجيه أولئك الثوار فإنى أستطيع أن أدى بصماته على بعض الفقرات التى جرى بها قلم جمال وهو يقول فى كتابه « وما أكثر الخطط التى وضعتها فى تلك الأيام وما أكثر الليالى التى سهرتها أعد العدة للأعمال الإيجابية . كانت حياتنا فى تلك الفترة كأنها قصة بوليسية مثيرة .. كانت لنا أسرار هائلة .. وكانت لنا رموز .. وكنا نتستر بالظلام .. وكنا نرص المسدسات بجوار القنابل .. وكانت طلقات الرصاص هى الأمل » .

فماذا تعنى هذه الواقعة ؟

تعنى — وهذا رأيى — أن من أبرز صفات هذا الشاب إحسانه الاختيار .. لمن يرشده رائداً .. ولمن يعاونه أخاً .. وتعنى أن الرابطة بينه وبين صحبه أعضاء القيادة قديمة ، وأن الفكرة تجمع بينهم من مطالع شبابهم ، وأن الأمر كان من بدايته جداً لا شك فيه .. وإقداماً لا جُبن يخالطه ولا ضعف يعروه .. وحسبك أن تعود إلى زكريا محيى الدين وصلاح سالم اللذين اقتحما حصار الفولوجا زحفاً وتحت طلقات العدو وفى فدائية قلّت نظائرها ليلقيا « جمال » .. وليتباحث الثلاثة فى أمر مصر .. والحصار مضروب حولهم .. « والنقد » .. غُمّ أمره عليهم وأبهم [1] ..

ولم يكن الأمر — إذن — أمر شبان فارغين يتظاهرون أحياناً .. أو أمر نفوس يتسجل أمجاداً .. أو أمر جهالة تلد حماقة ..

وأنا .. أعرف « عزيز المصرى » ؟

قد تكون مفاجأة لك ، أن أنتهز هذه الفرصة — وعزيز المصرى على قيد الحياة والشهود باستثناء اثنين أحياء — فأروى لك قصة لم تنشر .. لترى أن عزيز المصرى كان يعد الثورة قبل قيام جمال بها بعشرين عاماً .. ولم يكن عجباً — إذن — أنه يقول لجمال وصحبه « بعد عشرين » ومن غير أن يعرفهم : « الثورة ولا شىء غير الثورة » .

أرويها لك هذه القصة — وأرجو أن يقبلها أحد الضباط الأحرار ممن بلغوا فى الثقافة والمنصب شأواً ، يفرض عليه حماية التراث الشعبى ، وأعنى به الأديب الفنان

---

(١) ولقد زار « جمال » إحدى جامعاتنا — بعد نجاح الثورة — وضاق بإلحاح الأساتذة فيها — وكل منهم يريد أن يقدم نفسه بدلا من أن يقدم له أفكاره ، فنصحهم أن يؤدى كل منهم واجبه وهو فى مكانه وقال يعقب على ذلك الموقف فى كتابه : « ولم أشأ أن أقول لهم إن معظم أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا أساتذة فى كلية أركان الحرب ، وهذا دليل على امتيازهم فى ناحيتهم كجنود محترفين وكذلك لم أشأ أن أقول لهم إن ثلاثة من أعضاء مجلس قيادة الثورة هم عبد الحكيم عامر وصلاح سالم وكمال الدين حسين رفضوا ترقيات استثنائية فى ميدان القتال فى فلسطين » .

العالم ثروت عكاشه ، أرجو أن يتبنى هذه « الحلقة من تاريخنا الثورى » فيتحرى من عزيز المصرى بيانها وينهض بحقه — ويكتاب من كتبه — بمهمة تبيانها .

* * *

كان ذلك قبل أن يطرق جمال وصاحباه .. باب عزيز المصرى بسبعة أعوام أو ثمانية .

كان عزيز مديراً لمدرسة البوليس (كلية الشرط الآن) وقد بعث الحياة فى شرايينها وأقام صلة للمحاضرات فيها ، وجاء بأصدقاء الكفاح الفدائى — المتمّيين — من أمثال المرحوم الدكتور نصر فريد ليحاضروا الطلاب لقاء مكافآت ، وكان لبلوك الطلبة الضباط حكمدار شاب واسع الأفق والحيلة — هو المرحوم اليوز باشى عبد الحكم الشربينى (من أسرة الشربينى المعروفة فى بلدة دبلجا — أسيوط) وكنت صديقاً لعبد الحكم ، أتردد عليه فى مكتبه — وكنت قدمت استقالتى من جريدة « كوكب الشرق» الوفدية فرأى عبد الحكم أن يفسح لى مجالا فى المدرسة أكتب لهم منه ما يحتاجون إليه من بيانات ومحاضرات ومقالات وخطب لقاء مكافأة أيضاً كما كان عزيز المصرى يفعل مع نصر فريد .

وكان عزيز يقيم فى المدرسة مع روجه الأمريكية التى هربت بعد ذلك بطفلها منه إلى أمريكا ، وكان يولى عبد الحكم ثقة لا حد لها ، وكان — أى عزيز — يعتقد أن عبد الحكم خلية ثورية لا شك فيها ، وكان لعبد الحكم طائفة من الشبان النابهين كلهم يومئذ برتبة ملازم — باستثناء (اليوز باشى) خليل الديب — ومنهم المرحوم محيى الدين أحمد ابن عم زكريا محيى الدين ، وقد توفى من بضعة أعوام وهو كبير المعلمين فى كلية الشرطة (نفس المدرسة) ، ومنهم عبد الحميد خيرت (محافظ سوهاج الآن) ومحمود رياض ، ومحمود الشافعى (مدير الأمن فى محافظة الاسكندرية الآن) والسيد عبد الحفيظ (فى المعاش الآن) .

* * *

ووقع اختيار الملك فؤاد على أحمد حسنين وعزيز المصرى ليرافقا ولى العهد (المحبوب ؟!!) و (أمير الصعيد ؟!!) فاروق إلى لندن .. رائدين ومشرفين على دراسته .. وإعداده للملك .

وقبل أن يسافروا .. أسرّ عزيز المصرى (إلى عبد الحكيم الشربينى) بما ينويه وقال إنه سيعد الأمير الصغير (إعداداً) لا يحول بخاطر أبيه .. وسيخرج منه ملكاً ثورياً غير مسبوق فى تاريخ الملوك .. وسيعود به ليطهر مصر من المستعمرين .. وأن على (عبد الحكيم) أن يعد نفسه لكفاح ثورى قريب .

* * *

وسافر عزيز .. وبدأت خطاباته ترد على عبد الحكيم .. (ولا أشك فى أنها محفوظة عند آل الشربينى .. لأن توفيق شقيق عبد الحكيم كان قد تزوج أرملة أخيه ليربى أولاده) .

وكان (عبد الحكيم) يوليني ثقة لا حد لها أيضاً .. ويدعونى إلى بيته فى مصر الجديدة ويطلعنى على هذه الخطابات ، وفيها يرسل عزيز صرخات نارية من (العهر) الذى يدفع إليه أحمد حسنين ولى عهدنا الصغير .. وأن خطابات عزيز إلى الملك فؤاد بالشكاية والاحتجاج لم تكن تلقى أى رعاية ، وأن (يداً) ذات سلطان فى القصر تحمى حسنين من هذه الاتهامات .

والذى يهمنى أن عزيز المصرى .. كان يلح على (عبد الحكيم) أن يُعد خلاياه الثورية ويتأهب .. حتى يعود عزيز .. وكان عبد الحكيم يضحك ويسألنى : « إيه فكرك ؟ الراجل حايودينا فى داهيه » وكنت أقول له : « ولا داهيه ولا حاجه .. ما تخيبش أمله فيك لغاية ما ييجى ونشوف تكتيكه إيه وتحكم » . ويقول عبد الحكيم : « الرجل مندفع يا محمد .. ده يقوم لك وهو فى الستين من العمر الساعة خمسة الصبح ويتطلون شورت ويجرى رى الجن كذا كيلو لو جريها أى شاب منا يتقطع قلبه » ويضحك عبد الحكيم ويقول : « طيب يا سيدى مليني إلى إنت عايزه » وأملى .. وهو يكتب بخطه .. ويظل عزيز يكتب .. ويظل عبد الحكيم يرد ..

وأحزن خاتمة لقصة أنى لا أعرف على التحديد .. مصير الثورة التى كان يعد لها عزيز لطرد المحتل و « حكم البلد دى بثلاثة أو أربعة مخلصين » - كما كان دائماً يقول - لا أعرف مصيرها فى ذلك القلب الذى لا يشيخ .. لأن عبد الحكيم الشريفى عليه رحمة الله ذهب ضحية حادث وقع لسيارته فى الطريق الصحراوى .. ولا أعرف حتى الآن إلا أن « جمال » مع صاحبيه زاروه فى سنة ١٩٤٢ فقال لهم « الثورة .. ولا شيء غير الثورة » فأعلنوها فى سنة ١٩٥٢ وأستطيع أن أرى بعينى خيالى دموع الفرحة وهى تتساقط يومئذ من عينى عزيز المصرى .

من هو جمال ؟

وأحب فى خاتمة الفصل أن أراجع معك بعض ما وقفنا عليه من جوانب الشخصية الناصرية ومقوماتها ، عبر إثنى عشر عاماً ، من سنة ١٩٣٠ عندما هتف فى ميدان المنشية وضرب ، حتى عام ١٩٤٢ عندما قال لهم عزيز « الثورة .. ولا شيء غير الثورة » .

اكتشفنا فى هذه الشخصية الحقائق التالية :

١ — ثورية فيه كامنة من الطفولة .

٢ — طاقة نشاطية لا حد لها .

٣ — قدرة على السيطرة تضعه دائماً فى مركز القائد .

٤ — قدرة على التنظيم بفكر مرتب .

٥ — قوة على الإقناع إذا هو ناقش أو خطب .

٦ — قوة على التجميع إذا خاض المجتمع .

٧ — حب العمل ، وقدرة على التوجيه ، وحزم فى التنفيذ .

٨ — حسن اختيار للأصدقاء .

٩ — البحث عن التجربة والانتفاع بها .

١٠ — إيمانه برسالته .

هذه المعالم العشرة - تبدو واضحة على طول الطريق الذى تبلورت فيه شخصيته بدءاً من عامه الثانى عشر وانتهاء إلى عامه الرابع والعشرين .

• • •

وأرجو أن أكون قد استطعت أن أرسم المرحلة العشرين فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل الحادي والعشرون

اغتيالات .. وصرخات

رأيت وأنا أدرس الرحل « البنّاء » من « بدايته » . . وأمضي مع النبي صعداً إلى ما انتهى إليه من الشموخ ... أن أحادي أبرز المعالم على طريق الصعود ... حتى لا تضيع من قدمي الطريق[1] .

وأبرز المعالم على معالم الطريق هو كتابه : « فلسفة الثورة » .

منه ألتقط « العبارة » ... فتذكرني بالتهمة ... فأعرض لها بالبحث ... فيبين وجه الحق .

ومنه ألتقط « الرأي » ... وأنظر في الذي وقع ... وهل خالف « الواقع » من « الرأي » أو لم يخالف ؟ وأنظر في « الخطة » ... وأنظر في الذي وقع . وهل ثبت سداد الخطة أو أن الفساد هو الذي ثبت ؟

وقصة « الاغتيالات » في « فلسفة الثورة » هي إحدى دعامات الدراسة ... وأوثر أن أتخذ منها هلالاً لهذا الفصل .

* * *

كان جمال قد استقر رأيه على أن « العمل الإيجابي » يجب أن يكون طريقه .

واعترف أن « الاغتيالات » توهجت في خياله للشتمل في تلك الفترة على أنها « العمل الإيجابي » الذي يراه وجلس إلى زملائه ... ووقع اختيارهم على « لواء » معروف كواحد

---

(١) « وتضيع مني قدمي الطريق » تعبير تنزل على كليل الشاوي في سيقولجه الشعرية الرائعة « لا تكذبي » يجري التعبير منثوراً على قلمي ... وتقيت عليه ... فرأيت أن أرد الفضل لصاحبه .

من رجال الملك[1] ... يجب أن يزول من الطريق ويعترف « جمال » أنه كان فى حيرة تمتزج فيها عوامل متشابكة « من الوطنية ومن الدين ، ومن الرحمة ومن القسوة ، ومن الإيمان ومن الشك » ومن العلم ومن الجهل .

وكانت « الخطة » أن يطلقوا الرصاص على الرجل .. وهو عائد إلى بيته فى الليل .

وبقدرة « جمال » على التنظيم ... رتب « فرقة الهجوم » ... و « فرقة الحراسة » التى تحميها ... وفرقة ثالثة لتغطية الانسحاب والإفلات ... وخرج بنفسه مع جماعة التنفيذ وأطلق الرصاص ... ونجحت الخطة .

ومن هنا ... تبدأ مهمتى ...

من هنا أنت مدعو ... إلى الإصغاء بكل جارحة فيك ... إلى هذا اللون الساحر من التفريد الإنسانى الحزين: « وفجأة دوت فى سمعى أصوات صراخ وعويل ... وولولة امرأة ... ورعب طفل ... ثم استغاثة متصلة محمومة ... وكنت غارقاً فى مجموعة من الانفعالات الثائرة ... والسيارة تندفع بى مسرعة . ثم أدركت شيئاً عجيباً ... كانت الأصوات ما زالت تمزق سمعى ... الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة المحمومة ... لقد كنت بعدت عن المسرح بأكثر مما يمكن أن يسرى الصوت ... ومع ذلك بدا ذلك كله كأنه يلاحقنى ويطاردنى ... ووصلت إلى بيتى واستلقيت على فراشى .. وفى عقلى حمى ... وفى قلبى وضميرى غليان متصل .. ولم أنم طول الليل .

وهنا أتمهل ... حتى تضع يدك إلى جوار يدى ... على جمال « الإنسان » بكل طاقاته الروحية — بعد أن رأيت فى الإعداد والإقدام وإطلاق الرصاص بعض قدراته المادية .

* * *

---

(١) لم يشأ « جمال » أن يذكر اسم « اللواء » فى « فلسفة الثورة » ولكن الصحف يوم محاولة اغتيال صاحبه نشرته .. وكلكم تعرفونه ... و « ليلى مراد » عرفته إبر الثورة وهو اللواء حسين سرى عامر .

هذه « الشحنة » من العاطفة فى أكبر « مثل » على « طريق شخصيته » ... تعنو له جباه الدارسين ...

ومثل هذا « الإنسان » لا يمكن أن يكون « الديكتاتور » — الذى حدثنى عنه « الخصوم » — والذى يمشى إلى « أمجاده » فوق الأشلاء والجماجم .

* * *

ويمضى الرجل — وهو مستلق على الفراش — فى « ديالوج » طويل ... بينه وبين نفسه ... يسألها : إن كان على حق فيما فعل ... وإن كانت هذه الوسيلة هى الوسيلة التى لا مفرّ منها ... وإن كان مستقبل بلده يمكن أن يتعثر إذا خلصناه من هذا الواحد أو من واحد غيره ؟ وأحس « أن المسألة أعمق » كما أحس أنه ليس مهماً أن يمضى من يجب أن يمضى بل المهم أن يجىء من يجب أن يجىء .

وسمع هاتفاً يقول له : « وإذن ؟ » .

وأجاب هو : « يجب أن تتغير طريقتنا » .

وأحس براحة صافية ... « ولكن الصفاء ... ما يلبث أن تخترقه هو الآخر أصوات الصراخ والعويل والولولة » ووجد نفسه يقول فجأة : « ليته لا يموت » .

* * *

وما كان أسعده فى الصباح ... أن يُهرع إلى إحدى الصحف ويجد أن الرجل الذى دبر اغتياله « قد كتبت له النجاة » .

* * *

وأعتقد أنى بطبع هذه « التخريجة الفريدة » على « شريط كتابى » قد وضعت الرجل « فى الصورة » ... وأضفت إلى خطوطها الأساسية ... خطاً جديداً .

عيني على سوريا

وأمحى « فلسفة الثورة » جانباً ... لأعود إلى حيث المراحل ... بعد أن كشف لى كتابه عن جوانب فيه لم أكن أبداً قد تنبهت لها ... والذى سقته لك هو جانب واحد منها .

وكنت قد وقفت مك عند النكسة فى العراق ... وكيف عالجها حتى غطرها ... وسحب الغطاء فوقها ... وانطلق يبنى لمصر وسوريا .

ونحن الآن نواجه عام ١٩٦٠ فا هى امكاساته يا ترى على شحنة (الإيمان) التى خرجت بها من سجنى وغذيتها بالدراسة عاماً ؟ وعلى أى الصور ... وجدت الخصوم الذين حلقتهم قبل السجن بكل ما برعوا فيه من أحاديث الإفك ؟

* * *

وجدت خصوماً قدامى . لم تطور الأحداث تفكيرهم — وإن جَدَّدت شعورهم — وخيل لى وأنا أنظر إليهم أنهم باتوا تماثيل من الحجر ... أقرأ فوقها نقوشاً باهتة ... تحمل أمانى قديمة ... للعصر الذى عاشوا فيه .

ورأيت خصوماً آخرين لم تطور الأحداث تفكيرهم ولكنهم ليسوا تماثيل ... وما يزالون يتكلمون ... ويرددون — ولكن فى خفوت — نفس الاتهامات العجيبة الرثة وما يزالون يحلمون بأشباح تهبط من السماء أو تنشق عنها الأرض لتتولى هى القضاء على ناصر .

أولئك جميعاً أودعتهم (متحف الفكر) حلى . . ومضيت أبحث عن غيرهم .

* * *

وبعد بحثى رأيت فريقاً آخر من الخصوم ... طوروا تفكيرهم ... وطوروا شعورهم ... فبدوا أكثر رشاداً ... ولكنهم لم يقصدوا بالتطوير أن ينتهى بهم إلى

الإيمان بناصر ... وإنما طوروا تفكيرهم فى الأحداث .. ورأوا أن لا محل لأن يتنكروا على الرجل « انتصاراته » ، فاعترفوا بها ، وعلقوها بما علقوها به ، وركزوا على « سوريا » وانتظروا « الخير » منها ، و « الخير » فى ميزانهم هو « انفصالها » عنا ، والانفصال فى « تقديرهم » زوال لناصر ، والذى يعجل بهذا الانفصال — فى رأيهم — قيام « الاتحاد القومى » فى إقليمنا الشمالى .

وأعترف أن « الخوف » قد داخلنى ، أو خابلنى ... الخوف على ناصر هذه المرة وليس من ناصر .

وفتحت « عيناً » على سوريا ، و « عيناً » على الاتحاد القومى ، وبدأت أصغى .

وعاون على الخوف ، رأى لى فى سوريا ، سبق لك أن طالعته فى فصل سابق ، رأيى فى شعبها المتفتح ، والمتطلع أبداً إلى القائد ، يقود انتفاضاته ويجدد أمجاده ، ورأيى فى الزعامات والقيادات والرجعية والإقطاع ، والاحتكارية والأحزاب ، وكيف يرتدى الساسة مسوح الاشتراكية للاجهاز عليها ، وكيف يقسم بون إلى عصوبة الاتحاد القومى للسيطرة عليه . وكيف يأخذون باليمين وبالشمال من كل ملك أو حاكم أو مستعمر .

وكان لى رأيى فى (الاتحاد القومى) مذ كنت فى (الليمان) لم أقله لك ، ولم يغير خروجى من السجن والحماس لناصرية من هذا الرأى .

وفكرة الاتحاد ترامت إلينا ونحن فى (الليمان) ، وكان الذى بشر بها فى الذياع هو (أنور السادات) .

ورغم ما بذله أنور من جهد فى الصياغة وروعة فى الأسلوب ورصانة فى الإلقاء ، لم أستطع أن أفهم شيئاً كثيراً .

وخرجت من السجن أسأل الأحرار عما فهموه ، بعد أن فتح باب الترشيح أمام كل مواطن وبغير أى قيد أو أى شرط فقد كان واضحاً لى أن الرجعية بكل معناها ستحط ثقلها على هذا الاتحاد لأن كل ما حدث للاقطاع لم يجرده من قوة المال ، ولأن الرأسماليين ما يزالون يملكون الملايين . ولأن الحزبيين من أولئك وهؤلاء ما يزالون

أقوياء ، والذى لا يريد أن يرشح نفسه منهم لأى اعتبار ، يستطيع أن يدفع أخاه أو ابن أخيه للترشيح وتكون النتيجة قيام برلمان كبير يضم قدامى الحزبيين أو أبناءهم أو أقرباءهم ، فما الذى تكون قد صنعناه ؟

وإذا كان هذا هكذا ، بالنسبة إلى مصر المستقرة ، ومصر التى خطت من غير شك أكثر من خطوة إلى قلب الاشتراكية ، فكيف فكر الزعيم الراشد فى تصدير هذا النظام إلى سوريا ، وقد حدثناك عن الزعامات فيها ، ليتسلل إلى مقاعد الاتحاد القومى جماعات المهربين وأحبار الشركة الخماسية والرجعية تشد أزرهم ملايين الدولارات والليرات تتدفق إليهم عبر الحدود من لبنان والأردن ؟

وساءنى الموقف ، وتقبض قلبى إشفاقاً ، وتمنيت لو كان فى يدى قلم ، لأرتفع فوق المخاوف وأكاشف الزعيم برأيى وليكن ما قدر أن يكون .

وهذا الشعور من جانبى هو الذى يعنينى .

أنا — إذن — أمشى إلى الناصرية جاداً .

* * *

ولم أعد أطيق أن أصغى إلى الخصوم .

وكنت أود دائماً أن أصغى إليه هو . كلما تحدث وكلما خطب .

وها هو ذا يطوف بسوريا ويخطب فى اللاذقية وعكا ودير الزور وحلب وحماه وحمص والسويداء ودرعا ودمشق ... كان يخطب على المستوى العربى .

كان يخوض تجربة وهبية وجديدة .

ووجه اهتمامى بهذه التجربة يرجع إلى جوانب أخرى من شخصية «البنّاء» كنت أوثر أن أرجىء الحديث عنها إلى أن أعرض الميثاق . ولكن يبدو أن السياق يفرضها الآن على ريشتى .

وفى « فلسفة الثورة » حديث عن الوضع العربى له صلة بما يجرى الآن على المستوى السورى لأن سوريا أتاحت لنا أن نضع « الوحدة » موضع التنفيذ كتجربة أولى .

وفى « فلسفة الثورة » — فى جزئها الثالث — كلام عن المرارة التى مضى عهدها .

وها نحن أولاء ومن بداية الثورة وهو يهم بوضع كتابه .

* * *

كان يجلس يومئذ فى غرفة مكتبه ويسرح بخواطره ويسأل نفسه :

— ما هو دورنا الإيجابى فى هذا العالم العربى المضطرب ؟ وأين هو المكان الذى يجب أن نقوم فيه بهذا الدور ؟

كنا على مطالع الثورة كما قلنا .. وكان كل عمله داخل حدود مصر .. ولكن خواطره كانت تعبر العالم كله .. وهذا هو جمال عبد الناصر الذى نتريث عنده قبل أن نعود ونعبر السنين إلى الحديث من جديد عن سوريا والاتحاد القومى .

كان يجلس فى غرفة المكتب ليقول لنفسه : « إن القدر لا يهزل .. وليست هناك أحداث من فعل الصدفة » وراح يتساءل :

(أ) أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا .. وأن هذه الدائرة منا ونحن منها ؟

(ب) أيمكن أن نتجاهل أن هناك قارة أفريقية شاء لنا القدر أن نكون فيها .. وشاء أيضاً أن يكون فيها اليوم صراع مرير حول مستقبلها وهو صراع سوف تكون آثاره لنا أو علينا سواء أردنا أو لم نرد ؟

(ج) أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالماً إسلامياً تجمعنا وإياه روابط لا تقربها العقيدة الدينية فحسب وإنما تشدها حقائق التاريخ كذلك ؟

دور يبحث عن بطل

ولم تقف الخواطر به عند هذا الحد وإنما شردت به إلى الشاعر الإيطالي پيراندللو وقصته : (ست شخصيات تبحث عن ممثلين) وقال أي جمال :

(ولست أدري لماذا يحيل إلى دائماً أن في هذه المنطقة التي نعيش فيها دوراً هائماً على وجهه يبحث عن البطل الذي يقوم به) وأن هذا الدور بعد أن أرهقه التجوال في المنطقة قد استقر به المطاف على حدودنا (يشير إلينا أن نتحرك)

ونفى أن يكون الدور دور زعامة و (إنما هو دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل يكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة) .

***

ولم أكن هازلا — إذن — وأنا أنقل إليك فقرات عن كتابه .

لقد باتت الملامح كلها ، وعلمه ، ومن حيث أراد له قدره

دور هائم على وجهه يبحث عن بطل ؟

ولم يتصور (جمال) انه هو البطل ، تصور أن الدور تفاعل وتجاوب مع العوامل التي أشار إليها .

وصح ظنه مع (تعديل حفرى) . . كان لابد لهذا التفاعل من وعاء صالح . . وكان هو الوعاء الصالح . . سوته قدرة الله . . فكان قدراً من أقدار الله . .

وضع نفسه في خدمة (الدور الهائم) فوضع القدر كل (الدور) بين يديه لينهض به فكان البطل .

***

ولكى نعود مرة أخرى إلى سوريا .. يحسن أن نطوف معه بتاريخ المنطقة العربية التي تعتبر سوريا (قلباً) لها لنرى معه أنها عاشت معنا نفس المحن وعاشت معنا نفس

الأزمات . . محنة الصليبيين ومحنة المغول ومحنة العثمانيين ومحنة الاستعمار ثم امتزجت معنا بالدين فتنقلت مراكز الإشعاع من مكة إلى المدينة إلى الكوفة إلى دمشق إلى بغداد إلى القاهرة.

وملامح الوعى العربي بدأت تتسلل إلى تفكيره تلميذاً يقود المظاهرات ويهتف بسقوط وعد بلفور من غير أن يجد فى نفسه صدى عاطفياً لهتاف حتى بدأ يدرس فى كلية أركان الحرب «حملة فلسطين» فلما بدأت (حرب فلسطين) كان مقتنعا فى أعماقه « بأن القتال فى فلسطين ليس قتالا فى أرض غريبة وهو ليس انسياقاً وراء عاطفة وإنما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس » .

* * *

وأحسبك الآن تدرك — كما أدرك — أنه لا يحمل رسالة إلا وهو مقتنع بسلامتها (فى أعماقه) وأن الوحدة مع سوريا والبلاد العربية لم تكن حلماً من أحلام الامبراطورية الناصرية التى روج لها الخصوم . . وإنما كانت واجباً (يحتمه الدفاع عن النفس) .

* * *

أتريد دليلا ؟

بين أيدينا الآن حادث . . الشاهد عليه خصم له ولا يستطيع أن ينكره . . إنه أمين الحسينى مفتى فلسطين . .

عقب صدور قرار تقسيم فلسطين فى سبتمبر سنة ١٩٤٧ دعا ناصر إخوانه الضباط الأحرار إلى اجتماع «وقرروا مساعدة المقاومة فى فلسطين وذهب جمال فى اليوم التالى إلى الحاج أمين فى منزله بالزيتون وقال له : « إنكم فى حاجة إلى ضباط يقودون المعارك ويدربون المتطوعين ، وفى الجيش المصرى عدد كبير من الضباط يريد أن يتطوع» واستمهله المفتى حتى يستأذن حكومة النقراشى . . ورفضت الحكومة ».

وهنا يقول جمال بقلمه :

(ولم نسكت ، وبعدها كانت مذبحة أحمد عبد العزيز — الفدائى المصرى الذى

قاد قوات المتطوعين قبل أن تقرر الدول العربية الاشتراك فى المعركة — تلك المستعمرات اليهودية جنوبى القدس وكان قائد المدفعية هو كمال الدين حسين) .

فأين النفسية هنا . وأين الإمبراطورية الناصرية ؟

● ● ●

أتريد دليلا آخر ؟

هذه المرة .. حسن إبراهيم وعبد اللطيف البغدادى .

ثم سافر (حسن) إلى (دمشق) واتصل ببعض ضباط فوزى القاوقجى ، المجاهد العربى اللبنانى و (وضع حسن إبراهيم وعبد اللطيف البغدادى خطة جريئة للقيام بعمل حاسم فى المعركة التى تستعد لها قوات التحرير) .

أتدرى ما هى هذه الخطة التى اعتزم الرجلان تنفيذها برغم أنف حكومتها ؟

الجواب يتولاه مطار سلاح الطيران المصرى يومئذ ، وتتولاه الحركة التى بدأت فيه ، (وبرز فيها نشاط واسع لإصلاح طائرات وإعدادها وجهود واضحة فى التدريب سرت كالحمى فى نفوس عدد من الطيارين ولم يكن هناك إلا قلائل يعرفون السر) .

كانوا ينتظرون أن تجىء الإشارة السرية المتفق عليها ، فيحلق الأبطال من ضباط الجو الأحرار إلى جو فلسطين ليصنعوا حداً للمعركة الحاسمة فى الأرض المقدسة ثم يعودون بمطار دمشق ويترقبون مصائرهم .

ولم تنفذ الخطة لأن الحكومات دخلت حرب فلسطين رسمياً قبل مجىء الإشارة وليتها لم تدخلها .

ذلك هو تشكيل الضباط الأحرار قبل ثورة مصر بسنوات أربع ، فهل كان جمال يريد أن يقيم إمبراطورية ناصرية فى فلسطين ، وهو وإخوانه يقدمون حياتهم رخيصة هكذا وكأفراد لا وزن لهم يومئذ وعلى مذبح فلسطين البلد العربى البعيد ؟ وهل

يقاس هذا الإيمان برسالة الوحدة على مطالع الصبى ، والشباب .. بمن ضاقوا بالرسالة فخرجوا عليها ليكونوا انفصاليين فى سوريا وسفاحين فى العراق ؟

أردت ان أقول إنى اجتليت بهذه الوقائع عبر دراساتى لماضى عبد الناصر وجه الحقائق ، فجاء هذا الوجه وقوداً جديداً لمراحلى ، وأنا أثب إلى (الناصرية) وثباً .

أفريقيا .. ونحن حراسها ؟!

ولا ندع من الآن « ناصر » .

وهل الكتاب شىء ... غير تحولى من الكفر به . إلى الإيمان ؟

حان للدراسة أن تكمل ... وحان لشكل القسمات أن تستبين .

ومرة أخرى ... إليه ... وهو جالس وحده فى غرفة مكتبه يسرح بخواطره وتتجه إلى القارة السوداء التى لا نستطيع أن نقف بمعزل عن الصراع المخيف الذى يدور فى أعماقها ... فيرى أن شعوبها سوف تظل « تتطلع إلينا نحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة » وأننا لا نستطيع بحال أن نتخلى عن مسئوليتنا « فى المعاونة بكل ما نستطيع على نشر النور والحضارة حتى أعماق الغابة العذراء » والمسألة ليست مسألة عاطفة وإنسانية وغيرة ومسئولية فقط وإنما هناك مسألة أخرى وسبب هام هو أن « النيل شريان الحياة لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة » .

ولعل القارىء الآن يدرك سر الوفود السود الذين يترددون على القاهرة ... وسرّ زعماء إفريقيا المضطهدين أو المكافحين وهم يتخذون من عاصمة مصر الناصرية مراكز لقياداتهم . وسر الطلاب السود الذين نجىء بهم لنملأ رءوسهم نوراً ... ليكونوا الطلائع الثورية فى بلادهم .

* * *

بل إن ابتسامة تملؤ شفتى الليلة وأنا أكتب لك هذا الفصل وأذكر أنى كنت

ظهر اليوم أجلس فى المقهى فجاءنى شاب ليبى ميتور أحد الذراعين وقال إنه هو الذى نسف بيوت الضباط البريطانيين فى طبرق أثناء العدوان على مصر ثأراً لها من العدو وأنه رغب فى أن يرانى فأرسله إلىّ المجاهد الليبى الكبير واللاجىء السياسى الكريم صديقنا صالح بو يصير وكيل مجلس النواب الليبى الأسبق ...

وكان مع الشاب الليبى شاب آخر فاحم السواد وسيم التقاطيع اسمه (محمد) جمع بينهما فندق واحد ... جاء من قلب القارة السوداء مع إخوان له كثر .. أحبوا ناصر ... فأصروا على أن يروه ... وعلى أن يملأ لهم رءوسهم نوراً ... وعلى أن يهدم إلى بلادهم مكافحين مثله ليحرروها .

وسألت الليبى : ولماذا ترغبان فى رؤيتى ؟

وقال الشاب : نحن فى ليبيا نعرفك كاتباً وقد أردت أن أسألك — وقد قرأنا من المؤامرة — رأيك الآن فى ناصر... والشاب الإفريقى عرف قصتك فأحب أن ينضم إلىّ فى سؤالى . . وقلت لهما طبعاً مايسرنى الله لأن أقوله ، وإنما الذى يعنينى ... أن رسالة ناصر التى كفر بها خصومه من بنى مصر ... وكفرونا معهم بضع سنين .. آمن بها شباب القارة السوداء ولم يصدقوا أن كاتباً مصرياً يمكن أن يتآمر على « ناصر » وانضم « محمد » إلى « الليبى الذى نسيت اسمه » ليسألانى الرأى فى « ناصر » .

وقد يكون مفيداً أن أسأل الخصوم الآن بمناسبة الشاب الإفريقى : إن كان عبد الناصر ينوى أن يتخذ من آلاف الطلاب السود الذين يعدون علينا ليملأوا رءوسهم نوراً « طوابير خامسة » تهيىء نياسالاند وروانده أوراندى وزنجبار وموزمبيق لغزو ناصرى ... أم أنها شعوب القارة تتطلع إلينا ولا نستطيع أن نتخلى عن مسئولياتنا تجاهها ؟

ولا أجيب .

الدائرة الثالثة

أما الدائرة الإسلامية الثالثة التي سرحت إليها خواطره ... وامتدت عبر قارات ومحيطات ... وضمت مئات الملايين من الإخوان في العقيدة فيكفي أنه تحدث منها معبراً إلى صداقة البلاد التي يعيشون فيها ... إلى باندونج ومبادئها العشرة التي هزت قوائم الاستعمار وأرست أساس تصفيته ... في العالم كله وبموافقة هيئة الأمم أخيراً...وأقامت بين المعسكرين قوة إنسانية رهيبة تعتنق الحياد الإيجابي وتدعو إلى التعايش السلمي وتحمل على كتفيها في وجه الاستعمار ورأس المال والصهيونية والشيوعية نفس الرسالة التي حملها المسيح في وجه الرومان الذين طغوا واليهود الذين ضلوا .

وإذن فالدائرة الثالثة هي التي فتحت له الباب إلى الدائرتين اللتين لم يرد ذكرهما في « فلسفة الثورة » وقام لها كيان ... خارج غلاف الكتاب .

و بعد

فأحسب أني لم أعاد الكتاب وأنا أدرس شخصيته وأصفه فقط ... و إنما نهلت من عباراته حتى ارتويت .

وفي ظل هذا الارتواء أرجو أن أكون قد استطعت في وضوح أن أبرز بعض الجوانب الوضاءة من ذلك المارد الذي شق للرسالة طريقها فوق الشوك و بين عصف الرياح ، وفي حو تألبت عليه فيه أقوى دول الأرض فلم تهتز في يده الراية ولم يركع ، وحارب وما يزال يحارب .

كما أرجو أن أكون قد استطعت أن أكون أميناً وأنا أرسم المرحلة العشرين من « مراحل في موقفي من « الرجل الذي تآمرت عليه » .

الفصل الثانى والعشرون

آمنت إلا قليلا

بعد ليل معتم طال مداه .. ها أنذا أراه ..

أراه بكل عينى المبصرة .. وبكل قلبي المفتوح ..

(ربى اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى) .

* * *

عبرت معك عمره — مد الله فى عمره — بدءاً من صباه ..

وتغلغلت فى مقومات شخصيته ، باحثاً « تحتها » عن « البذرة » و « فوقها » عن « النبت » وصاعداً قدماً .. حتى « قمة العود » — وعاكفاً فى سكون السجن على دراسة الأحداث فى هدوء .. ومتحرراً بعد السجن من كل تأثر أو تحيز خلفته رواسب الشائعات أو أكاذيب الخصوم .

وخرجت من كل تلك البحوث بحقيقة أراها ثابتة — ولا أعنى « الحقيقة » بمعناها المطلق — وهى تقول لكل من يبحث عنها ، أن هذا الشاب ، هبة من السماء ، ورسالة من القدر ، فى فترة من فترات التاريخ ، يتميز خلالها وجه التاريخ ..

* * *

وعلى ضوء هذه «الحقيقة» ، لابد أن تكون قد اعتقدت أنى وقد رأيت «ناصر» بكل عينى المبصرة .. وبكل قلبي المفتوح .. لابد أن أكون قد آمنت بسلامة « الناصرية » .

ولكم أود ، أن أقول بملء القلب والفم ، و بملء الضمير والإدراك : « نعم » .

ولكن بدأ — أحسها ولا أراها — تتسلل إلى فى — من خلاف — لتضع الكمامة فوقه ، حتى لا أقولها ، وصوتاً من الأعماق يتساب هادئاً ورزيناً إلى أذنى ليقول لى : « تمهل » .

* * *

وأعترف أن كل الاتهامات التى وجهوها إليه ، تهاوت تحت أقدام الدراسات اتهاماً بعد اتهام ، وباستثناء بعض «الجيوب» أنتظر أن «تصفيها» الأحداث والأيام .

لقد درسنا « الشخصية » بكل قدراتها وطاقاتها ، وبكل خاصياتها وميزاتها ، ودرسنا الرسالة بكل أهدافها واتجاهاتها ، ودرسنا البناء الذى لاح فى البداية طفلا يتعثر ، ثم نما ، وواصل النمو حتى أوشك على أن يتكامل ويستقر ، فما الذى يحول دون الإيمان الكامل إذن ؟

تحول دونه الجيوب التى تنتظر التصفية ، يحول دونه الموقف « المتميع » فى سوريا حتى يعالج ، وتحول دونه الثغرات المفتوحة فى الاتحاد القومى حتى تسد ، ويحول دونه حدث جديد وقع فى هذا العام ١٩٦٠ ولم أستطع أن أفهمه بعد ، وأعنى به « تأميم الصحافة » أو ما أسموه « تنظيم الصحافة » ، ويحول دونه ذلك النشاط الاستعمارى المقنع الذى بدأ يستخفى خلف الملوك والحاكمين فى المنطقة ، وبدأ ينثر عوامل الإغراء بين الضعفاء وليس أكبرها شأناً - عامل الذهب الوهاج ينثر فى أسواق السياسة بسخاء ، ويحول دونه شكوى «السوق» فى مصر «سوق الأفراد» ، من الكساد الذى ساد . .

ولكن من حسن الحظ أن كل الذى قلته لم يعد — على كثرته — وعلى صحاحة المفردات والعبارات التى اخترتها للتعبير عنه — ثقلا فى ميزان الإيمان ، وإن كان يحول دون درجة (التمام) أو دون الوعى (الكامل) ودون الجهر به أو إعـلانه فى الناس أو إشهاره على الأشهاد ، وهو بعينه ما أسميته « جيوباً » أنتظر « تصفيتها » حتى أقول على القلب والإدراك والفم : « اشهد اللهم أنى آمنت » .

* * *

تأميم الصحافة

وأخون أمانة الفكر — (كسادن) متواضع فى آخر صف من صفوف (السَّدنة) الساجدين فى (المحراب) — إذا أنا أنكرت أن عملية التأميم لهذا الجهاز الفكرى هالتنى لأول وهلة ، وألقت على نفسى ظلا قاتماً لا يوائم الأضواء الجديدة التى تغمر حناياها •

وسألت نفسى :

— كيف "تملك الدولة ، تمثلها من تنظيماتها — اسمه الاتحاد القومى — أدوات التعبير عن «الرأى الحر» ، وهى تزعم أنها إنما تعمل على (تحرير الرأى ؟) ، وهل سلمت تصرفات (الاتحاد القومى) نفسه من اختلاف الآراء فيها ، حتى يتحكم هذا (الاتحاد) فى آراء الآخرين ؟

ولم يطل الوقت بهذه (العصبة) إذ دعا (الرئيس) كبار الصحفيين إلى اجتماع (مفتوح) — أو (صريح) — عقده معهم ، وناقشوا معه الوضع كله ، وطلعت علينا الصحف بما أسمته (محضر الاجتماع) ، ومرّ (بخواطى) بعض الصحفيين الذين شهدوه وقصوا علىّ كل ما جرى فيه ، ما نشر منه وما لم ينشر •

وفهمت أن (الرئيس) لم يكن راضياً عن هذا الجهاز الخطير من أجهزة الإعلام ، وأنه لاحظ — وبحق — أن جهاز الصحافة ليس (الجهاز الثورى) الذى كان مرجواً ، وهو لا يؤيد الثورة التى نعيشها عن إيمان بها ، وعن تفاعل معها ، وعن إدراك عميق لرسالتها ، وإنما يؤيدها بالطريقة التقليدية التى جرى عليها فى عهود الملك والأحزاب ، يكيل المدح للحاكم جزافاً ، ويحمل على كل رأى يعارضه أيضاً جزافاً ، ويشتم كل خصومه فى الداخل والخارج بنفس الطريقة ، وأنه — أى الرئيس — إنما أمم هذا الجهاز أو نظمه ، ليحرره من سلطان الإعلان ، وسلطان رأس المال ، ومن الرغبة فى التكسب ومن الرغبة فى الاستغلال ، وأنه ليتيح الحرية لكل الأقلام داخل الإطار الثورى والمبادىء الستة ، وليبصِّر الكتَّابُ الأحرار فى العهد الجديد — جماعة البنائين بأوجه الخطأ أو أوجه الصواب •

وعلمت أن (الرئيس) دائل على سلامة ملاحظاته بما يكتب فى الصحف والمجلات ، فهى تستنفد معظم قواها ، وتبدد كل طاقاتها ، فى نشر الصور العارية ، وأنباء العاطلين بالوراثة ، والأماكن الزاخرة بالمجون والتفاهة ، والقصص المثيرة للغرائز السود ، وكأننا لم نثر ، ولم نتغير ، ولم نهدم ولم نطهر ، ولم نُرسِ مبادئ ، ولم نعلن أهدافاً ، وكأننا ما نزال فى عهد الملكية والإقطاع ورأس المال ، وخطف الزوجات وقتل الأزواج ، وكابرى ونيس ، ومونت كارلو وباريس ، ثم كأن هذه (الأمة) لا وجود لها ، وكأن هذه الصحف لا مكان فيها للقرية والفلاح ولا مكان فيها للمصنع والعامل ، ولا مكان فيها للمعامل والبحوث .

* * *

علمت كل ما دار فى الاجتماع — وما أشرت إلى جانب منه — وبدأت الغشاوة تنجاب عن عينى ، وبدأت العتمة تنحسر عن حنايا النفس ، وبدأ هذا (الجيب) يصفى ، وبدأت أرى فى (التأميم) غير الرأى الذى بدا لى لأول وهلة ، مشدوداً إلى مفاهيم تَشَبّثنا بها دهراً ، يوم أن كنا نتحدث عن حرية الرأى ، ونرهن الرأى فى بنك ، ونحن حرية الأقلام ، ونبيع الأقلام بالمارسة .

أقول (بدأت) أرى ، ولا أقول : (انتهيت) إلى رأى لأن (الشيطان) إنما يزداد ضغطه ، كلما ازداد (المؤمن) إيماناً ، وقد عاد شيطانى ليسأل :

— وهل تنق الضمائر ، ويتفتح الوعى على الواجب ، ويتحرر القلم من المطامع ، وتشحن النفس الخاملة بالطاقة الثائرة . . . بخطاب يُلقى ، فى اجتماع يُعقد ؟

وتوليت الإجابة :

— طبعاً : لا ، ولكن من بين الصحفيين والكتاب ، من ودوا حتما لو رخص لهم فى النقد البناء ، والانطلاق ، ولكنهم يترددون — ولا أقول يخافون ، وعلمهم اليوم أن (الرئيس) لم (يؤمم الصحف) ، إلا ليرد على الأقلام حريتها ، وليتيح للنقاد انطلاقاتهم ، ويفسح للآراء فى الاختلاف وفى الصراع ، علمهم بهذه الحقيقة — والدقة

بين أيديهم — لابد أن يتجه بالسفينة اتجاهاً جديداً ، وحتى (النافخين) — من حملة « المزمار والدف والطار » — سيحاولون أن يتملقوا الاتجاه الجديد ، رحمة بجيوبهم وقد تنتقل إلى قلوبهم — مع الزمن — عدواه .

* * *

وحتى عام ١٩٦١ لم يكن التأميم قد آتى ثماره .. أو عكس على الأقلام كل آثاره .. أو خلق طائفة من الكتاب الذين كنا نحلم بأن نلتقى بهم على الوضع الثورى الجديد .. إذا استثنينا عدداً منهم كانت طلائع النور تمشى بين أيديهم قبل أن تؤمم الصحافة .. فرادهم التأميم نوراً .. فإذا قلت مثلا أن ناقداً كبيراً مثل « مندور » قد ملأ خانع الصحف بحثاً ونقداً وأعلى لحركة الفكر .. حياة وجهداً .. ووصل بينها وبين المجتمع الثورى الجديد وما يستهدف .. فإن « مندور » كان كاتباً يموج بالحياة قبل التأميم .. وكان ثائراً على كثير من الأوضاع ومن أبناء جيلنا القديم .. وإن قلنا مثلا أن شاباً مثل أحمد بهاء الدين وثب إلى التفاعل مع الثورة بخطى واسعة فى زمن قصير .. واستوى على سوقه مخضر النبت وارف الظل ناضج الثمر .. فقد كان هكذا يبدو لنا من قبل أن تؤمم الصحف ..

و إذا قلنا إن أديبة كبيرة كالسيدة عائشة عبد الرحمن « بنت الشاطىء » قد عرفت كيف تصل بين تخصصها و بين مجتمعها فأسهمت داخل مصر وخارجها بما يرفع من شأن « القلم » فى يد « المرأة » فإن « بنت الشاطىء » كانت هكذا من قبل أن تؤمم الصحف شأنها شأن مندور وشأن حسين فوزى وشأن كثيرين ... أما الذين نضجوا مع الثورة مثل بهاء الدين فهم بضعة يعدون على أصابع اليدين .. وأنا أمثل به ولا أحصر .. حتى لا يسقط اسم من أسماء الصحب فيعتب .. وما إلى شىء من الحصر ... أقصد .

ولكن عام ١٩٦١ ما كاد يجىء حتى ظهرت « بعض » أعراض « الطاقة الثورية » على الصحف ... وأعاد « الرئيس » كل صاحب دار أممت إلى داره ... فاستقرت النفوس واستقامت الأقلام ... ووضحت المفاهيم ... و بدأ « الركب الثورى » يتحرك .. وأفاد التحرر من سلطان « الإعلان » ومن سلطان « رأس المال » فى الاتجاه بالصحف اتجاهاً « علمياً » متواضعاً وأصبح من المألوف أن يطوف أى صحفى بأ كبر بلاد العالم غير مبال

أى مال ينفق فى رحلته ... بعد أن كانت العيون تحتج وتتمص من فرط الذهول ... يوم كانت « أخبار اليوم » توفد محرراً مع كبير مصوريها إلى الشام ليأتى بأخبار « الإنسان العراق » ... ولم يعد يدهش قارىء لو طاف « أنيس منصور » باليابان وجزر الملاوى مرة أو مرتين أو ذرع العالم شرقاً وغرباً وشغل الطالبات بأنباء « السلة » ... أو بموسى صبرى ... يطير إلى امريكا اللاتينية ليحمل تحياتنا إلى أخينا كاسترو الثائر فى كوبا ... وإن كنا ما نزال فى أول الطريق .

وفى هذا العام الجديد

وأمام هذه الحقائق ... وعلى مطالع سنة ١٩٦١ شعرت أن بينى و بين الإيمان بالناصرية مسافة قصيرة ... تقوم عليها المعالم التى اعتبرتها « حيوياً » ... ومنها كارثة « سوريا والاتحاد القومى » .

وكثر العائدون من سوريا .

وكثرت الأحاديث المروية لنا منهم أو المنقولة إلينا عنهم .

قيل لنا أن أموال الملوك والحاكمين .. بدأت تتدفق عبر حدود لبنان والأردن . وأن المأجورين من المتآمرين بدأوا يجوبون بعض المفرقعات فى قلب دمشق . وأن بعض السياسيين ممن نحوا عن المناصب الوزارية وغير الوزارية قد نشطوا نشاطاً ملحوظاً . وأن بعض « الضباط » الذين أحيلوا إلى الاستيداع يحاولون الاتصال ببعض الضباط العاملين ليحدثوا حدثاً . وأن ضباطاً سوريين آخرين من الموثوق بهم إنما يضعون شارات الولاء فوق صدور مفعمة بالعداء . وأن جواسيس الاستعمار زاد تسللهم . وأن الكلام عن الانفصال لم يعد خافتاً . وأن التحريض عليه لم يعد خافياً . وأن عبد الحميد السراج أعرف الناس بأولئك وهؤلاء يحذر منهم . وأن القيادة المصرية تحب أن تحسن الظن فيهم ، وأن القوانين التى تمس نظام النقد والاستيراد والتصدير أفزعت تجار التهريب وأصبحوا يتوقعون المزيد من هذه القوانين . وأن الجبهة الخاضعة لنا فى سوريا — ومن ورائها ذكاء الاستعمار وذكاء الرجعية — أمست جبهة عميقة وعريضة .

وقيل لنا أن (الاتحاد القومى) منى بخيبة كبيرة ، لأن فريقاً كبيراً من أتباع الإقطاع ، والعاملين عند رؤوس الأموال ، قد تسللوا إلى الجهاز وسيطروا عليه ، وبدأوا يشنون الغارة منه .

وبدأت أفكر فى هذه المحنة ، من غير أن أفكر فى الردة ، بعد أن آمنت بناصر ، وبقى القليل لكى أومن بالناصرية .

وكان يعزينى أن هذه الفئة المسيطرة والمتسلطة لم تكن هى الشعب السورى .

وخرجت من العرض كله بأن هناك أخطاء ، والأمل معقود على أن يدركها الرجل الذى يعترف دائماً بالأخطاء .

ومصر تشكو

والأدهى ، أن مصر بدأت هى الأخرى ، تشكو .

ولا أعنى : (مصر الدولة) التى ملأت كرسيها فى الساحة الدولية بجدارة وشرف وأخذت مكان الصدارة من الجبهة الحيادية بين المعسكرين ، ثقلا يحسب حسابه ، وفرضت فلسفتها الناصرية بقوة (القدوة) على شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، أوكل بلد نزاعة إلى التحرر ، وزلزلت بأعظم إمبراطورية فى التاريخ إلى دولة مهزوزة فى الصف الثانى .

ولا أعنى (مصر الأمة) التى تخلصت من الملكية والأحزاب والإقطاع ، وأممت القنال ، ومصرت مؤسسات المال ، وأحالت الخراب إلى عمران ، وأقامت المصانع والسدود ، ودخلت عصر الفضاء .

وإنما أعنى (مصر الأفراد) ، الأفراد من بنيها شعروا بأثقال فترة الانتقال ، وكساد التجارة على مستوى الفرد ، وبان عليهم أنهم يعانون (ضيقاً) فى الحياة اليومية أو (ضغطاً) فى القوة الشرائية .

* * *

هذا (الثمن) الذى كان لا بد أن تدفعه (مصر الأفراد) لأخطاء (مصر الدولة) ولبناء (مصر الأمة) ، أتاح للخصوم فرصة ، مشوا فيها بين الناس الذين لا يعنيهم من السياسة غير (الخبز) يقولون لهم إن (الناصرية) ترسل أموالهم إلى (سوريا) و إلى الصومال والكونغو وإلى (الزنوج) فى (مجاهل إفريقيا) غير ما يرسل طبعاً إلى الجزائر المحاربة .

وزاد (الثمن) المدفوع (فداحة) يأس الأغنياء — من المصريين والأجانب على سواء — وتحايلهم على تهريب أموالهم إلى الخارج بما أتعب الدولة كثيراً ، وصرف جانباً من جهد العاملين فيها إلى مقاومة هذا التهريب ، و إبطال التعامل ببعض أوراق النقد ، الأمر الذى ترك أثراً غير حسن فى السوق ، فاضطرت الدولة إلى فتح أبواب الوظائف فيها على مصاريعها لكل من يحمل مؤهلا ، حتى لا يجد المتمصرون والرجعيون فى ضيقه وفى عصبه تربة صالحة لردته .

وأشد سوءاً من كل هذا السوء أن الرجعية فى سوريا — سوريا التى تمدها بكل ما ملك القلب من (حب) ، وبكل ما حمل (الجيب) من (نقد) ، وبكل ما حملت (الدولة) من (خبرة) — راحت تقول للمواطن السورى ، أن (ناصر) إنما جاء ليحتله ، و بنتزع خيرات بلاده ، و يغمر بترولها ليستولى عليه ، و يشق الطرقات ليسهل مهمة جيشه .

هناك أخطاء

ولو أن هذا كله كان قد قيل عبر السنوات التى خلت — بدءاً من الثورة وانتهاء إلى السجن — لكان وقوداً لأحقادى ، ولفكرت من تلقاء فى التآمر على (ناصر) من غير حاجة إلى التشكيل الذى قام ، ومن غير حاجة إلى (الشاب) الذى ضمنى إلى التشكيل .

أما الآن ، أما هذه المرة ، فكل هذه الأقوال لم تنل منى ، ولم تزحزحنى عن المكان الذى أقف فيه ، كنت قد درست الرسالة فكرة وعقيدة ، وكنت قد درست

(ناصر) من البذور والجذور إلى النبت والعود ، وإلى القمة التى تحمل الثمر ، وتخفيه عن العيون تلك الجيوب التى خلقتها الأخطاء ، وخلقتها السرعة فى البناء ، وآمنت بالأسباب التى دعت إلى معونة سوريا والجزائر ، بل إلى معونة الكونغو والصومال .

لم أتزحزح ، ولم أتزعزع .

وإنما رحت أقول لنفسى موضع القلب : إن هناك جيوباً ولا بد أن يعنى (ناصر) بتصفية هذه الجيوب ، وأن هناك ثغرات ، ولا بد أن يسد (ناصر) هذه الثغرات ..

وعسى أن أكون قد رسمت بهذا الفصل القصير هذه المرحلة الثانية والعشرين فى موقفى من (الرجل الذى تآمرت عليه) .



الفصل الثالث والعشرون

وزلزلت الأرض زلزالها

وأقبل عيد الثورة التاسع ، أو أقبل يوليو من سنة ١٩٦١

وكنت ـ أنا وحرمى ـ فى مصيف الاسكندرية ، ننتظر مقدم ناصر فى السادس والعشرين ليمر أمامنا على طريق الكورنيش ، ولأملأ عينى (الجديدة المبصرة) منه ، وهو على قيد أشبار أو أمتار منى .

وكنت أتتبع أنباءه وأقول لزوجتى إن قلبى يحدثنى بأن هذا العيد يحمل (مفاجأة) لا أعرفها على التحديد وإنما أحسها مقبلة فى الطريق .

وكانت تقول لى وهى (ناصرية) من قديم :

— دامت قربت خالص ، طيب إيه موضوع المفاجأة دى ؟

وكنت أجيب فى حرارة الواثق :

— مش عارف ، موضوعها شىء لا أعرفه ، يملأ الفراغ ، ويصحح الأخطاء ، ويسد الثغرات .

* * *

ومن اليوم التاسع عشر أو العشرين ، بدأ الغيث ..

وخيل للخصوم أن الأرض بدأت تزلزل زلزالها وتخرج أثقالها ، وقال الخصوم يومئذ : (مالها ؟) وكانت هذه الكلمة ، هى كل الحصيلة التى لديهم ، وهم يرون كيف يتحلى الله عليهم بصفات منه وأسماء نسوها — من أسمائه الحسنى — وفى طليعتها (المنتقم) و (الجبار) و (الحكم) و (العدل) .

أما الجماهير فكانت فرحتها طاغية ، كانوا يرفعون وجوههم لله شكراً وعرفاناً وكأن سبحانه يتجلى عليهم وكأنه يقول لهم بلسان هذه الملايين التي توالت : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر » .

أما أنا فكنت أطوف بالبيت أهيء مشاعري التي لم تكذبني وأردد كالمجنون : (سد الثغرات ، أصلح الأخطاء ، أكمل البناء ، ملأ الفراغ) .

صدرت قرارات يوليو .. قراراً بعد قرار .

لم يكن إذن غافلا عن الحقائق ..

كان يعد لأصحاب رءوس الأموال في الجبال حتى يشنقوا بها أنفسهم وحتى يشهد العالم عليهم وقد استشرت ضراوتهم .. واستخدموا المال في التآمر على بلادهم .. وهربوا الجانب الأكبر منه — وهو مال مصر — إلى لبنان وسويسرا وغيرها .

أنزل بهم الضربة .. وتركهم مواطنين أحراراً يمشون في الأسواق مع الماشين ، بل لقد ترك لهم أكثر مما يكفيهم إذا أرادوا أن يكونوا مواطنين شرفاء .

وماذا قال ؟

وندع القرارات الآن لنمضي إليه وهو يخطب ، والخطاب في يوليو في هذا العام غيره في كل الأعوام ، إن مجتمعاً جديداً يستكمل ملامحه الأساسية ، هكذا قال جمال في هلال الخطاب ، وهكذا كان ينبغي أن يقال ..

وجاءت هذه العبارة جواباً على حيرتي وحيرة الملايين ، لم يكن المجتمع الذي قام واختمر .. قد استقر .. وكنا نسأل ، ولا نجد مجيباً ، لأنه لم يكن قد استكمل « ملامحه الأساسية » .

نعم كان قد نادى بالرسالة الاشتراكية .. ومهد لها وبشر بها .. ودعا إليها ، وقضى على الإقطاع ليمهد الطريق أمامها ، ولكنه لم يكن قد وضعها موضع التنفيذ بناء متكاملا وإنما خاض بها — ضد رأس المال — المعركة بقوى غير متكافئة ، فكان سلاحه

مدججاً بالحق ينادى به ويدعو إليه ، وكان سلاحهم مدججاً «بالملايين» التي اغتصبوها من المواطنين .

وكما زُود الجيش بالأسلحة في سنة ١٩٥٥ فأصبح جيشاً ، زُودت الاشتراكية بهذه القرارات فأصبحت اشتراكية .

كانت الحرب بين الاشتراكية ورأس المال حرباً ظالمة ، وكان (المواطن) هو الضحية فيها .. المواطن العادى الذى لا يتكلم إلا بلغة (الرغيف) ولا يضيق إلا بأزمة (القرش) وكان على حق فى أن يضيق ، أما اليوم فلا حق له ، لأن (الحق) كله أعيد إليه ، وليس معنى هذا أن الجيوب التى كانت فارغة من المال قد امتلأت به ، أو أن حركة السوق (الفردية) فى ميدان رأس المال (الخاص) المتهاوت ، قد راجت بسحر ساحر بعد طول كساد ، وإنما قضت القوة برد حق المواطن للمواطن ، ولابد أن يحتاج (نفاذ) هذا الحكم إلى بعض الوقت ، وإلى بعض الإجراءات شأن كل حكم يصدره أعلى قضاء مختص به .

إن (على أمين) يقول لك فى إحدى يومياته فى جريدة (الأخبار) ويقول بحق (وكذلك وأنت تشكو من ارتفاع الأسعار تنسى أن سعرك فى السوق قد ارتفع أيضاً) ثم أصبح المواطن (رقماً هائلا) تحسب الدنيا حسابه ولم يعد (صفراً بين الملايين) كما قال الكاتب .

هذا وجه آخر من أوجه قرارات أول يوليو .

أصبح المواطن (رقماً هائلا) لأن أمة جديدة تتحرك .. ولأن (أمة جديدة تتحمل مسئوليتها لتكون قوتها العرب جميعاً) كما قال ناصر فى خطابه .. ولأن (أمة جديدة تعيد كتابة التاريخ وللأحرار جميعاً فى كل مكان لتكون لتضالهم قاعدة ، لتكون لسلامتهم حصناً وقلعة ، لتكون قوتها دعامة للسلام ودعامة لمعارك التحرير »

هكذا قال « ناصر » وهو يترجم قراراته ...

ولا يعنى هذا القول أننا لم نكن قد فعلنا شيئاً قبل هذه القرارات ، كنا فعلنا وفعلنا ،

حتى دهش العالم كله مما فعل ، ولكن هذا البناء الشامخ الذى قام على أساس قوى ، كان يبين على بعض (الطوابق) فيه (خلل) ، كان هناك فى الشرفات (ميل) ينذر بالخطر .. كانت هناك أخطاء ، وجاءت هذه القرارات فاستقام البناء واعتدل ، واستراح البناء واستقر .

إن الجماهير استطاعت فى هذه السنوات التسع أن ترسم خريطة أمتها من جديد وبنفسها كما يقول ناصر ... وبريشته كما أقول وأصر على القول .

لقد تم عمل كبير عبر السنوات التسع ، ولكنه كان معرضاً للضياع والانهيار لو لم تتدارك تلك القرارات .

● « إن مئات الألوف من الفنيين .. من العلماء ومن المتخصصين يقودون اليوم من مراكز أعمالهم ومعاملهم .. معركة تطوير شاملة .. تمنح أمتهم حياة جديدة خصبة وخلاقة » .

● « إن مئات الألوف من الضباط والجنود يربضون اليوم بأقوى الأسلحة على حدود وطنهم يحرسون نضاله » .

● « إن ملايين الفلاحين الذين كانوا فى بلادهم بلا حق ولا أمل يبنون اليوم على أنهاره الكبرى أعظم الأعمال الهندسية فى العالم على نهر الفرات ونهر النيل » ونقول الفرات لأننا نتحدث حتى الساعة عن يوليو ١٩٦١ .

هل هذا شعر يشدو به ناصر ؟

أم هو حقائق لا يستطيع أن ينكرها .. حتى المكابر ؟

ومع روعة هذه الحقائق .. كانت كلها — ولا أمل التكرار — معرضة للانهيار لو لم تتدارك قرارات يوليو .

الشىء الرهيب

هذه القرارات قد فتحت عيوننا على شىء لم نكن نعلم من أمره شيئاً .

وعلمنا به اليوم . يضطرم بين ضلوعنا ناراً لا تهدأ . . على الرجعية ورأس المال . .

ولولا حكمة القائد وسلامة أعصاب الطبيب . . لجن الجيش ولمات المريض .

ولولا بقية دين أمسكت علينا إيماننا بالله لكفرنا بكل شىء والعياذ بالله . .
ولانحرفنا إلى اليسار فى عنف غير مسبوق . . واعتنقنا مبادىء « ماركس ولينين » . .
وأخذنا مرغمين بوسائل « ستالين » . .

هذه « الحقيقة » لم نضع يدنا عليها . . إلا بعد أن أذيعت القرارات . . وتولت
جريدة « الأهرام » نشر « القوائم » التى كان قد أعدها « البنك المركزى » لأصحاب
الأسهم فى بعض الشركات . . وكنا نتابعها فى كل صباح . وكل منا ينظر إلى أخيه
ولا يجد كلاماً يقال .

من الذى كان يملك ؟

وخرجنا من القوائم ونحن نتساءل :

— من الذى كان يملك مصر ؟ وهل كانت « دولة » كما كان يقال لنا . .
أم كانت « ضيعة » كما تقول لنا الآن هذه القوائم ؟

— ومَن كان صاحب هذه « الضيعة » . . وكيف استطاع أن « يسخر »
العمل فيها — ولقاء الخبز الجاف والثوب الممزق — أربعة وعشرين مليونا يستثنى منهم
نصف مليون من الموظفين ومَن فى مستواهم يجدون القوت والكساء بالعرق المتصبب .

— من ؟

وتولت « القوائم » الإجابة فقالت بلغة الأرقام والحقائق :

— كان الذى يملك مصر . . « طائفة » من شذاذ الآفاق . . والقوادين

والبغايا .. ومن لصوص متخصصين .. من اليهود والأرمن ومختلف الجنسيات .. وكل من فتح لسكارى « خمّارة » أو أدار لعابثين « بيتاً للدعارة » أو جلب من « فيينا » الرقيق الأبيض .. ويليهم بعض مصاصى الدماء من بلاد شقيقة ومن الرأسماليين والإقطاعيين ومن أسماء الرئيس العاطلين بالوراثة .. فى مصر

* * *

كان من قرارات يوليو الكبير — على سبيل المثال — القانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦١ بتحديد ملكية الفرد فى ١٥٩ شركة حددها القانون ونص على أنه لا يجوز لفرد أن يمتلك من أسهم هذه الشركات ما تزيد قيمته السوقية عن عشرة آلاف جنيه وتؤول للدولة ملكية الأسهم الزائدة وتسدد الحكومة قيمتها بموجب سندات إسمية على الدولة لمدة خمس عشرة سنة وبفائدة ٤ ٪ سنوياً .

ونحن إذن أمام قانون واحد — مثلٌ به — من عشرات القوانين .. يحكم صنفاً واحداً من أصناف الشركات التى أممت أو حدثت فيها الملكية .. شركات بعينها وها عددها .. والمساهم فيها لا تمثل أسهمه كل ثروته .. والدليل أن ما تملكه أسرة « عبود » فيها يقدر بنصف مليون من الجنيهات مع أن ثروته تجاوز ثلاثة وثلاثين مليوناً من الجنيهات .

وأحب أن نلاحظ أن جل هذه الأسهم مملوك ليهود من الجنسين .. وللأجنبيات يعرف المجتمع الراقى منهن « عاهرات » محترفات وهاويات .. ودع عنك القلة من العائلات ذات السمعة الطيبة .

ويقرأ المصريون « التوائم » ويتلفتون فى ذعر وفزع .. ولا يجدون كلاماً يقال :

أهذه ثروة مصر .. وفى هذا الصنف فقط ؟ وما هى البقية إذن ؟ وما الذى كنا نملكه ؟

ويوجد من يقول لعبد الناصر سليل القرية الغارقة فى الذل والفاقة : كيف أممت ولماذا أممت ؟!!!

دعونا نعبر ...

نعم . لندرك الحقيقة . . ولنرى أنفسنا . . ولنحدد مكاننا . . دعونا نعبر وعلى جناحي طائر إن أمكن . . أى جانب من هذه القوائم . . بمجرد نظرة نلقيها على أية قائمة ولا أكثر . . لأن قوائم هذا الصنف وحده ملأت ٢٥٨ صفحة من القطع الكبير في كتاب « الثورة الاجتماعية » وكل صفحة حملت خمسة وعشرين اسماً . . ونحن إذن أمام ستة آلاف وخمسمائه اسم تقريباً .

هي نظرة عابرة وخاطفة إذن .

ثمار الجد

وأنا أحني الرأس احتراماً أمام بعض الأسماء لبعض العلماء أو الأطباء أو التجار الذين عرفوا بالأمانة وجمعوا هذه الثروة بالكفاح وبالصبر . . وكلها تناهت في التواضع إذا قيست بغيرها ولا اعتراض لي أبداً على أسهم قيمتها ثلاثة عشر ألفاً من الجنيهات يملكها الدكتور « محمد كامل حسين » مثلا . . ولا على رمثلها يملكها « الدكتور مورو » مثلا ولا على مبلغ يجاوز الآلاف العشرة بمبلغ تافه يملكه أديب كبير مثل « محمد كامل سليم » أعرف أنه « تحويشة العمر » بدءاً من مطالع شبابه سكرتيراً لسعد وانتهاء إلى معاشه سكرتيراً عاماً لمجلس الوزراء ولمجلس النواب . . قسميراً .

هذه الأرقام ومثلها لا تستوقف أحداً .

إنما يستوقفني اسم ردده « نادي السيارات » في عهد الملك . . وردد ته سهرات القمار التي كان « جلالته » يتفضل بالمشاركة فيها . . اسم أعرف أنه جاء من لبنان « فقيراً » . . وقد أحصيت الأسهم المقيدة بأسماء أطفاله وآله في هذا الصنف الواحد من الشركات فجاوزت خمسة ملايين من الجنيهات . . فما هي إذن ثروة هذا الرجل . . « فرنسوا تاجر » ؟ وكيف جاء بها . . وكيف جاءت إليه . . وعلى هذا النحو ؟ وما هو القدر الذي هربه إلى لبنان سيباً على منوال صديقه (كافوري) وراقصته (مصابني) ؟

<u>وهذه واحدة ..</u>

و يستوقفنى اسم رجل مهذب من غير شك.. وقد ولى مرة وكالة الخارجية ولامطعن على كفايته .. وأسلمناه ومأ الوصاية على الملك لأنه خاله .. ولأنه حفيد سليمان الفرنساوى ولأنه زوج ابنة عدلى يكن ، يستوقفنى اسمه .. لا انتقص فيه شخصياً أو فى حلقه أو فى كفايته .. و إنما .. لأسهمه فى هذا الصنف الواحد من الشركات جاوزت قيمتها أربعمائة ألف من الجنيهات .

وأسكت أدباً ولا أسهب .. لأن الرجل كما قلت مؤدب .

و إنما أقول لخصوم ناصر : تأدبوا أنتم أيضــاً .. ولا تقولوا له : كيف أمم ؟ أو لماذا أمم ؟

وهذه ثانية..

و يستوقفنى اسم (سباهى) وقد استغرقت أسماء الأطفال صفحة .. وجاوزت الملايين قيمة .. فما باله هو الآخر .. وكيف بلغ ؟ وهل يدر الحلال كل هذه الملايين يا رب ؟

وهذه ثالثة..

ويستوقفنى اسم مهم كبير أعرف قدره ووزير سابق لم تعلق به شائبة .. وقد ملك أطفاله ومن هذا الصنف وحده أسهماً جاوزت قيمتها ربع مليون من الجنيهات ؟ أتراه إذن قد اقتنى ثروته من العمل مستشاراً للأمريكان فى شركاتهم .. أم تراها (المحاماة) درت عليه كل هذه الملايين ولم تدرها على (بوانكاريه) الذى ولى رياسة الجمهورية الفرنسية ثم عاد ليعمل محامياً .. ليعيش .. أنا لا أريد أن أقول لهذا الوزير شيئاً لأنى شخصياً أحترمه.. إنما أريد أن أرجو من أمثاله ألا يقولوا لناصر .. كيف أممت ولماذا أممت ؟

وهذه رابعة..

والأجانب ؟

هذه لمحة عبرت بها بعض من وقعت عيناى على أسمائهم عبراً من المصريين .

أما الأجانب فلا سبيل إلى الخوض فيهم .. ولا أشعر بالرغبة فى أن أخوض فى هذا البحر الزاخر بالزراية والتحلل وبالتفاهة والحقارة ، وحسبهم أنهم جمعوا واغتصبوا وسرقوا .. وحصلنا بعض ما جمعوه .. واستردناه . وغفر الله لهم ما هربوه إلى الخارج وما أنفقوه على السنين .. ومايخفونه حتى الآن عن العيون .. وإن كان يطعن فى تصرفنا (الرحيم) أننا أخذناه منهم (بالثمن) وتركناهم أعتياء ولم (نصادر) . بل دفعنا على أقساط الثمن (فوائد) وهى صورة مفرحة للضمير المصرى .

لكن لعل ضميرك يهدأ ، إذا عبرنا قوائم هؤلاء الأجانب . والتقطنا منها بعض الأسماء ، وثبت أنها أسماء (حبيبة) لنا و (حميمة) ؟ وليست (دخيلة)علينا ولا (غريبة) .

« كونسيكا » مثلا ، هل تجهله ؟

غاناحه ، وجيوفانى رهاشا والعزيزة (جوريت مجورى) ، والغالية (اوليت مجورى) والأعلى (هيلين مجورى) ، أليست كلها أسماء حبيبة وحميمة ؟

واذكر فى التوراة (آل فركوح) ، إنهم كانوا قوما صالحين ، مراد وألبير وإميل وإدوارد فركوح .

واذكر معهم آل (أوفاديا سالم) وفى العهود البائدة كانت لهم قصة — موريس والبير وإميل سالم وكلهم بالملايين .

أما آل دياب — رضى الله عنهم أو لم يرض — فكل ما ملكوه مائة وسبعون ألفاً .

ثم دع عنك ماتوسيان ومالكوميان ، أولئك ملوك المدخنين ونحن العشرة إن أشرنا إلى ملايينهم ولعلها أقل سوءاً من ملايين سواهم ، ولكن لدينا من الأسماء التى تنتهى بـ (آن) وارتينيان أكداس يملكون ملايين وملايين ، ومنها عايدة جوجايان — وارمناك جوجايان ، واما هيدنا كفوريان .

ولا تنس الـ « أوس » والـ « آس » من أعزائنا الإغريق وعددهم لا يحصى وعلى سبيل الفاقية « ديمترى كوروس » و « نيقولا فرنكيكوس » و « اندروس » و « سوتير بوفا كاماس » و « أرتميس » و « ليلاك لافودا كيس » .

وإذا لم تكن قد تشرفت بمعرفة الخواجة خارتيكا بولو فاحتفر إليه باسم مصر الناصرية « الظالمة » التى أممته ولم يكن — وحده يملك ، ومن هذا الصنف وحده أيضاً إلا ٥٣٢٢٣٩ جنيهاً فى حين أن الفريق عزيز المصرى ملت « تحويشة عمره » — ويدخل فيها ثمن بيته الذى باعه فى عين شمس — مبلغ ١٨٩٨٩ جنيهاً .

ودعك من حسيانى وشقال ومارى صوصه ومارسيل ليفى وفيرا تكامولى وهيلين لسكح ولنده اسماعلون .. وحزن آزاريان .. فكلها تثير الغثيان .

* * *

كل هؤلاء كانوا يملكون مصر .

كل هؤلاء كانوا يسيطرون على رأس المال فى مصر .

وكل هؤلاء هم الذين يقولون لناصر : كيف أممت ولماذا أممت ؟

وعن نفسى

هذا عن النظرة العابرة من أجلك وحتى لا تمل ..

أما عن نفسى فلم أعبر .. لقد قرأت .. وتريثت . ووعيت .. وغثيت .

وإذا كنت قد خرجت منها موجع القلب ، مثخناً بالجراح ، فحزانى أنها حلت إلى قلبى « شحنة » من « الحقد المقدس » على كل مال مستغل ، مصرى أو غير مصرى ، و « شحنة » من « الحب الأقدس » .. للذى جرد هؤلاء المستغلين من هذا السلاح الدنس .. فطهره .. ورده إلى أهله كريماً غير مدنس .

* * *

نعم يوليو الكبير

ويوليو في عام ١٩٦١ يوليو كبير ، لأن القوانين التي صدرت فيها قوانين كبيرة ، وكلها من النوع الذي لا ينسى .

والكتاب ليس سجلا لها ، وإنما أشير إليها ، لأنها هي «دفتش» الأخيرة والكبيرة إلى الناصرية ، أجهزت على كل شك وكل تردد ، لأني استطعت على أضوائها أن أرى صورة واضحة المعالم والقسمات للمجتمع الجديد الذي يبنيه (ناصر) .

وقد حددت قوانين يوليو الملكية الزراعية تحديداً جديداً أيضاً .

وقال الخصوم : « ألم نقل لكم أن ناصر لا وعد له . . وغداً يهبط بالمائة الجديدة إلى خمسين فداناً وإلى خمس إن واتته الظروف ؟ » .

وقلنا : حماقة ... لم تعد المسألة مسألة «وعد» يرجع فيه... أو «ظرف» يواتيه .

المسألة مسألة خلاف جذري في المفاهيم .

مفهوم « الثورة » عندكم إنها تسير في شكل الحكم .. تحدد شكله .. فوجب وضع حد لما تملكونه ..

والثورة على هذا النحو تصبح « احتلالاً » للحصول على السلطة دون أن تتجاوز ذلك الحد لتصبح معنى اجتماعياً بعيد الأثر عميق الجذور » كما قال عبد القادر حاتم وهو يقدم لهذه القوانين .

إن ما تسمونه «وغداً» أو «حداً» إنما يعني وضع حد للتقدم .. والثورة لا تعرف في التقدم بمواطنيها أي حد تقف عنده ، إلا توفير الرخاء لهم جميعاً .. وتهيئة الفرص المتكافئة أمامهم جميعاً ... ولن تقول لمن عنده كفاية : « قف » وإنما تقول له : « مزيداً من التقدم » .

لقد أممت الصناعات الثقيلة ... وأممت الشركات المستغلة ، وحولت إلى القطاع

العام ملكية النصف فى الشركات المتوسطة ، وتقرر أن توزع أرباح الشركات على المساهمين والموظفين والعمال معاً ، وأن يكون للموظفين والعمال ممثلوهم فى مجالس إدارتها ، كما أممت البنوك ، وأصبح الاستيراد والتصدير عملية تامة أو تابعة أو خاضعة للقطاع العام — وحرم أن يزيد مرتب مواطن على خمسة آلاف جنيه فى العام وتقاضت الدولة تسعين فى المائة من أى دخل بعد أن يصل إلى عشرة آلاف من الجنيهات سنوياً .

وبات على وجه المجتمع الجديد كل قسماته الإشتراكية .

الإشتراكية بدعامتيها اللتين تقوم عليهما : الكفاية والعدل .

والكفاية تقتضى توجيه كل الطاقات إلى الإنتاج ومن هنا كان الإقتصاد موجهاً .

والعدل يقتضى إعادة النظر فى التوزيع ليعود أثر الإنتاج بالخير على الجميع ، كل حسب إنتاجه ، ومن هنا كانت القوانين العالية الجديدة وإشراك العمال والموظفين فى الأرباح .

وهذا كله يصنع « الوطن » .

وبقى أن نصنع « المواطن » .

* * *

وصنع « المواطن » تكفلت به القوانين الجديدة التى تمنح كل فرد « فرصة طليقة تتحرك فيها مواهبه ليعطى الوطن كل ما يقدر عليه من طاقة الفكر والعمل » .

* * *

ويحسن أن نقف عند هذا الحد لنرى القراء أى أثر تركته هذه القوانين فى عاطفتى وإدراكى ... وأنا أتحول للمطقة الحرام بين الكفر والإيمان ... فى طريقى إلى « قلب هذا الإيمان » كما رأيت فى تطور مراحلى عبر الفصول السابقة .

لم يكن يحول بينى وبين الوثوب على « قلب النور » غير تلك الأخطاء التى استغلتها

الرجعية فى سوريا ، وقوضت بها « الاتحاد القومى » هناك ، كما أوشكت الرجعية فى مصر على أن تقوّض أعلاه فوق هذه الأرض الطيبة و « كان لا بد لنا من أن نجرد الطبقة التى تحكمت فينا فى الماضى من أسلحتنا بطريقتنا ، بطريقة سلمية ، بطريقة مافيهاش دماء ، بطريقة تتمشى مع طبيعتنا ، بطريقة تتمشى مع تقاليدنا العربية » .

بهذه العبارة اعتذر القائد من تأخير الضربة كل هذه السنين لتجيء فى حينها ، بيضاء كما كانت الثورة نفسها بيضاء .

وأنا من أشد أنصار هذا « البياض » .

والعروبة لا تؤمن أبداً بالضربة « الحمراء » .

وقد مشى القائد العربى على مهل ، ولم يسحل ، ولم يقتل ، ولم يلغ فى الدم ، ولم يثأر ولم ينتقم .

ولكن يبدو أننا تأخرنا بعض الشيء ، ودخل القطار محطته الحيلة الآمنة .. بعد الموعد بدقائق ...

وانتهز الخصم فرصة الدقائق وتسلل .

ولكن .. لا بأس .

المهمة أجل ... من الدقائق ومن التسلل .

إنها رسالة تبنى على أسس .

وإنها أهداف .. تتحقق هدفاً بعد هدف .

وإنه تناقض طبقى يزول بالحكمة ومع الزمن .

وإنها إشتراكية ناصرية وعربية لا يستمدها صاحبها من ماركس ولينين ، وإنها رأسمالية نظيفة غير مستغلة لا يستمدها صاحبها من الاحتكارية الأمريكية أو الانجليزية .

إشتراكية لا تتحدى مبادىء الإسلام ... ولو أنها فعلت لرجعت عنها القهقرى ، إلى التآمر عليها جاداً هذه المرة ... لا مصعياً إلى حديث شاب من الشبان عنها ، ولهذا قلت فى فصل سابق : كل شىء أقبل التهاون فيه إلا دينى وربى .

* * *

قال ناصر وهو يخطب عن قرارات يوليو .

« فى أيام عمر أمموا الأرض ووزعوا الأرض على الفلاحين » .

وأقول أيضاً نقلا عن قراءاتى إن ابن الخطاب كان يرى أنه ما من أحد إلا وله فى مال الدولة حق يتقاضاه « فالرجل وبلاؤه ... والرجل وقدمه ... والرجل وغناؤه (أى كفايته) ... والرجل وحاجته » وبهذا سبق « عمر » جميع فلاسفة اليسارية من ماركس وإنجلز ولينين وستالين ... بقرون وقرون .

بل كان « عمر » مصراً لو امتد به الأجل على أن يصادر كل فائض على حاجة أى غنى وقال فى أخريات أيامه ما معناه :

« والله لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ، لأخذت فضول الأغنياء ، فقسمتها على فقراء المهاجرين » ...

وبرغم هذا الدستور الخطابى يقال لناصر : لماذا أممت ؟

* * *

يا أخى العربى . .

أرجو ألا تسألنى بعد هذه القرارات إن كنت آمنت أو لم أؤمن والخير أن تسألنى :

— متى تشهر إيمانك ؟

* * *

وأرجىء الإجابة ، إلى فصل مقبل ، وكل مرجوى أن أكون قد رسمت بأمانة هذه المرحلة الثالثة والعشرين ، فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل الرابع والعشرون

من يوليو « الكبير » إلى الميثاق الأكبر

استكمل المجتمع بقوانين « يوليو الكبير » ملامحه الأساسية .

وتبدى المجتمع المنشود ، واضح المعالم وضاء السمات .

ولكن القوانين شملت — باستثناء قانون واحد — إقليمنا السورى — فما عسى أن يكون وقع هذا التفجير الثورى الرهيب على الإقطاع ورأس المال والحربيين الماضيين فى هذا الإقليم ؟ وأى فرصة تتيحها هذه القوانين ، لتوثيق الصلات من جديد بينهم وبين الاستعمار والصهيونية بل ما عسى أن يكون وقع هذا « التفجير » على « الرجعية الحاكمة » فى كل (بلد عربى) ، وهى ترى أن (الاشتراكية الناصرية) لم تعد تزحف على مهل — كما كانت عبر السنوات العشر تفعل — وإنما (انطلقت) ، وانطلقت (تركض) إلى (أهدافها) ، تدمر كل من يحاول أن يسوق ركضها ، وتهز يديها الإثنين معاً ، وبكل قوة (الحق والعدل) فيهما ، كل ملاح وعامل ، وكل غافل منهما أو نائم ، فى هذه الرقعة العربية الحساسة ، التى يقع الحدث فيها على شاطىء الخليج ، فيتردد صداه خلال ساعات على شاطىء المحيط ؟ رقعة عربية حساسة تموج إقطاعا — ولا بقاء للاقطاع فى يد الإقطاعيين إلا بعملة الفلاح — ورقعة عربية حساسة تعيش فوق بحيرة من البترول ، ولا بقاء لعائد البترول فى يد الحاكمين ، إلا بعملة العامل .... .

وقوانين (يوليو الكبير) توقظ الإثنين معا — الفلاح والعامل — وتجهز على الإثنين معاً ، الإقطاعى والحاكم ... ودع عنك من تجهز عليهم بمنتهى تلقائى وفورى من أصحاب الشركات ورءوس الأموال والمصانع ؟

* * *

إن « الكراسى » كلها تهتز تحت أولئك جميعاً بدءاً من قرارات « يوليو الكبير » ...

و « كرسى البقاء » يهتز بدوره تحت « الجامعة العربية نفسها » بعد أن ظلت تجمع تحت سقفها « المسلح بالنفاق » بين « الأعداء » فى صور « الأصدقاء » رمزاً « شكلياً » لفكرة « القومية » أو لفكرة « الوحدة » ...

لم يعد هذا الكرسى قادراً على أن يثبت .. بعد قرارات يوليو ...

إن كل عضو فيها تحكم بلاده .. حكماً رجعياً موروثاً له جهازه الفكرى الذى لا يمكن إصلاحه .

و (الناصرية) تمزق طوفة ذلك الحجاب الذى كان يسدل فوق كل وجه رجعى .

وكل (عامل) من (المحيط إلى الخليج) يسأل اليوم أسياده : (أين حقوق ؟ ألست إنساناً ؟ ألست عربياً ؟ أليس لى مثل ما لأخى المصرى — ومثل ما لأخى السورى ؟) .

إن عمال البترول فى الظهران وليبيا .. وقطر .. وغيرها .. كلهم يلتفون فى هذه الأيام حول (أجهزة الراديو) يصغون إلى صوت (الرائد) و (القائد) وهو يؤمم الشركات والمصانع والمصارف ويعطى العمال المصريين والسوريين ربع أرباحها .. ويشركهم فى مجالس إداراتها .. ويشرع لهم من « الحقوق » الجديدة .. مايرد عليهم بعض ما سلب من هذه الحقوق (قديماً) .

وهو يأخذ من الملاك الغنى .. ليعطى الفلاح المعدم .. ويحدد دخل الفرد .. حتى يبدأ أبناء (القاعدة) .. يأخذون طريقهم إلى (القمة) .. وحتى يتصافح أبناء العروبة جميعاً .. فى منتصف الطريق .. أخوة متحابين ، ومتكافئين فى الفرص . على (سرر) — أو على (حصير) — متقابلين ..

أى (أصداء) لهذه القرارات ... ترددها جنبات كل بلد عربى ... فى قبضة كل حاكم رجعى ؟

وأى رعب دب فى أوصال المستعمر وهو يرى (ناصر) ، يرفع هذه المشاعل ، أمام الفلاح والعامل ، فى هذه الرقعة الكبيرة التى تملك أكثر من نصف بترول العالم؟

* * *

والمستعمر كان يحس أن عبد الناصر لابد أن يتابع وثباته .

وقد رأى الاستعمار أن ينتزع زمام المبادأة من يده ولو دفع ثمناً له ، دماً مسفوحاً ، ومعارك مفتوحة ...

وبدأ فعلا ..

بدأت (فرنسا) تعتدى على صديقتها (تونس) ، وجرت (الدماء) فى (بنزرت) .

وانتهزت (انجلترا) فرصة حماقة غير مسبوقة فى تاريخ الرعونة انطلقت من فم (المريض الأوحد) — وأنا أصف ولا أشتم — يهدد بها (الكويت) الحبيبة ، أن تتقبل الوضع على (مرارته) إنقاذاً لنفسها ، من ذلك (الوباء الوافد) ومن ذلك (المؤرخ الأحمق) الذى اكتشف فجأة ، وفى زاوية متخيلة من (كتاب تاريخ) مزعوم ، أن (الكويت) جزء لا يتجزأ من (العراق) ، وكأن (الكويت) ، إربانا عربية ، وكأن الذين يصر (المريض الأوحد) على تحرير أرض العروبة منهم (شيوخ هولنديون) أو (أمراء من الأراضى المنخفضة) .

ظنت « انجلترا » — وكانت منطقية مع سياستها — أن الوقت قد حان لاستغلال « الحماقة القاسمية » فى تفتيت (الجبهة العربية) ، لأن أى بلد عربى يعاون (الكويت) لابد أن يخاصم (العراق) والعكس صحيح ، وتحركت القوات من (كينيا) ، وتبخترت أساطيل المملكة تحدثنا عن نظرية جديدة ابتكرتها قواتها الضاربة وأسمتها (القوات العائمة) ...

• • •

وهكذا لاح أن (الوحدة العربية) بعد أن وضعت موضع التنفيذ بقيام الجمهورية

العربيــة المتحدة .. باتت (أى الوحدة) فى مهب الريح .. خرقاً ممزقة .. وأشلاء متناثرة .

* * *

وكان (ناصر) قد تساءل فى (فلسفة الثورة) .

— أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا وأن هــذه الدائرة منا ونحن منها ؟

وقال عن هذه « الدائرة العربية » أنها امتزجت معنا بالتاريخ « وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة كانوا معنا تحت نفس السنابك » وهاهى « الكويت » تقع تحت سنابك خيل المحتل من جديد — و رضائها هذه المرة — انصد عنها غزواً عربياً يبدى له حيين العروبة . وهاهى تونس تكاد تركع .. وإذا عاد الاحتلال الفرنسى إلى كل أراضيها ، أصيبت ثورة الجزائر فى مقتل .

فماذا فعل ناصر ؟

إذ تحرك لنجدة تونس والكويت .. فإسرائيل واقفة بالمرصاد لتستغل الفرصة .

و إن هاجمته إسرائيل .. فليس بمستبعد أن يتصل الأردن بالرجعية السورية ليحقق حلمه و يضرب « الوحدة » فى قلبها النابض .. أو يضرب « جمال » فى « سوريا »

كان الموقف يحمل أى « شجاع » على التردد .. وكان « التردد » يسمى فى قاموس الرجعية « حكمة » وكانت « الحكمة » تقضى على « ناصر » بأن يتريث .. فى إصـدار « قرارات يوليو »

ولكن « ناصر » لا يحب أحياناً أن يكون « حكيماً » لأنه ليس « سـياسياً محترفاً » كما قال ذات خطبة . .

وقد رأى أن هذه « الحكمة » تصيب من « الرسالة » مقتلاً

ولم يخالف ناصر عن « الرسالة » ولم تهتز « الراية » أبداً فى « يده » . . ولا اهتزت « العقيدة » أبداً فى قلبه .. ولا اهتزت « الكلمة » أبداً فى « فمه »

وأعلنها مدوية على العالم كله .. أنه سيخوض المعركة إلى جانب خصمه « بورقيبه » وسيضع تحت طلبه كل إمكانيات الجمهورية العربية المتحدة .. وسارع فأرسل الأموال والسلاح والأطباء والممرضين والأدوية .. ووقف في الأمم المتحدة يثير الضمير العالمي ويؤلب الدول الحرة على فرنسا الباغية .

وأعلنها مدوية أيضاً ضد قاسم .. قال له إنه يبارك وحدة العراق والكويت إذا أجمع عليها الشعبان .. ولكنه ينكر سياسة الضم بالقوة ويقف بكل ما يملك إلى جانب « الكويت » واتجه « ناصر » إلى خصومه في السعودية والأردن وإلى كل بلد عربي يهيب بهم أن يتضامنوا معه في إرسال قوات عربية لتخليص « الكويت » من قوات المستعمر .. واتجه إلى مجلس الأمن يطالب انجلترا بسحب قواتها من « الكويت » .

وبلغ أهدافه في تحرير « الكويت » وحمايتها .. وفي رد العدوان الفرنسي عن تونس .. ومن تسويق الثورة الجزائرية في كفاحها[1] .

• • •

وكل هذا الذي صنعه « ناصر » — وعلى خطورته — ليس بذي بال إذا قيس بما هو أخطر .. أو بالأدهى والأمر .. وبالجرأة التي لا تخطر ببال بشر .. بقرارات يوليو يعلنها في هذا الجو المكفهر .. ولا يبالي أن تثير عليه ثائرة الحاكمين الذين يساومونه في « الكويت » ضد قاسم .. ولم يعارضوه في موقفه من تونس لا لشيء إلا لأنه « الرسالة » التي يحملها فرضت عليه أن يذيع قراراته

وقلت لنفسي :

— هذا هو ناصر .. أراه رأى العين بالدين .. وأراه أيضاً بملء وعيي .. وملء قلبي .. وملء وجداني .

---

(١) وفيل الكشف عن « السياسة النحية » بين فرنسا وتونس .. و « السياسة النحية » بين انجلترا والعراق .. وذلك مبحث لا يتصل بأهداف الكتاب .

ودار رأس الرجعية تحت ضربات (يوليو الكبير) كا لم تدر تحت ضربات السنين التسع الحافلة بالحلول المتأنية .. وبالخصومة يليها صلح .. والصلح تليه الخصومة .. ومضى الملك الهاشمى الحسين بن طلال .. يتحرك مرة فى شهر الصوم .. ويذيع رسالة بأسلوب عبد الحميد أو ابن المقفع .. ويرسلها إلى أخيه (جمال) .. يستعيد بها أخوته فى العروبة وأخوته فى الإسلام .

• • •

دار رأس (الرجعية) الحاكمة بعد ضربات (يوليو الكبير) كا لم تدُر من قبل .. وتصاعت رءوسهم مع الرجعية غير الحاكمة فى دمشق .. ومع المستعمر (بستر خلفه اليهود) ووقع الاختيار على (سوريا) .

وتمَّ الاتفاق

وكان التمهيد آخذاً سبيله من قبل ذلك بوقت غير قصير ، كما حدثتك فى فصل سابق ، كان الجو ملبداً ومهيأ ...

وبدأ المال يتدفق ، جارفاً هذه المرة ..

وبدأ العملاء يتسللون تحت أستار الظلام إلى بيروت وعمان وإلى جنيف ولوزان .

وقيل إن (عبد الحميد السراج) صرخ واستغاث ..

ولكن (القيادة المصرية) رأت أن تظل ماضية فى طريق البناء ، وتطبيق القوانين والقرارات ، وألا تضن بالثقة على أى (ضابط سورى يتعاون معها) ، ولم يدر بخلدها مثلا أن الذى يدير مكتب (المشير) فى دمشق على رأس المتآمرين .

اصرفها عن كل الذى يجرى ضد قرارات يوليو فى السراديب لتطبيق قرارات يوليو فى المدائن والقرى ، ولتأخذ بيد الفلاح السورى والعامل السورى إلى مكانه ، الذى أعد له .

وعلى غفلة منا ، سددت الرجعية ضربتها ..

وكانت الضربة أليمة ، وموجعة بالنسبة لنا ، وكارثة وفجيعة بالنسبة للشعب السورى ..

وكلنا نذكر كل ما جرى ..

البيان الناصرى

كلنا نذكر .. ذلك البيان الذى أذاعه « ناصر »

وكلنا نذكر .. ذلك « الغدر » وكيف وقع .

وكان فى وسعه أن يجهز على حركة الانفصاليين فى ساعات ، لو أنه جرى على عشر معشار ما يجرى عليه « قاسم » فى « العراق » .

ولكن « ناصر » .. لا يسحل أحداً .. ولا يقطع رقاباً ..

و « ناصر » الذى لم يغمض له جفن يوم حاول أن يغتال رجلا من رجال الملك وظلت الأصوات تطن فى أذنيه وتطارد النوم عن عينيه .. ولولة امرأة .. وصراخ طفل .. ليس هو الذى يتصور أن جندياً مصرياً يقتل جندياً سورياً .. ولو كان فى قتل هذا الجندى الواحد إنقاذ لسوريا .

وعادت الفلسفة الناصرية تأخذ مكانها من كرسى الأستاذية حزينة هذه المرة ومتألمة .. ثم لم تلبث أن ارتفعت إلى مستوى الموقف بكل جلال فيها وبكل عمق فى الإدراك ... ارتفعت فوق كل الآلام وفوق كل الجراح .

* * *

وأشهد .. وقد سمعت كل خطباء عصرى باستثناء زملائه الثوار الذين استمعت إليهم عن طريق المذياع ولم أر منهم حتى هذه الساعة أحداً .

وأشهد وقد استمعت بكل شبابى طالباً إلى سعد زغلول سيد خطباء هذا الشرق غير منازع .

بل أشهد وقد استمعت إلى ناصر نفسه يوم أمم القنــاة ويوم الجلاء ويوم العدوان .. ويوم قرارات يوليو .. وفى كل مناسبة خطب فيهـا .. منتصراً أو مهزوماً ..

أشهد بعد هذا كله أنى ما استمعت فى حياتى بكل أغانى اللاهثة .. وبكل قدسية الشعور العميق فى حرفى .. وبكل جلال الجمع العربى للهجن فى عينى .. وبكل خلجات الخجل المروية فى مشاعرى .. أشهد أنى ما استمعت عبر عمرى إلى مثل ذلك البيان الدامى .. ولا إلى مثــل ذلك الصوت العميق الأجش .. ولا إلى مثل ذلك الإلقاء الطبيعى الهادىء .. ولا إلى مثل ذلك الترفع الباكى .. أو البكاء المترفع .

يبقى — وكان ليلتها يموج بالضيوف — كان كله يبكى .

ولم يكن بكاء ضعف أبداً .

والدليل أنهم تسابقوا عبر السهرة — وبعــد الصحوة — فى الرهان لا على « عودة الوحدة » بل على « موعد العودة » .

راهن أحدهم على شهر .. وخسر

وراهن ثان على ثلاثة .. وخسر

وراهنت ثالثة على ستة .. وكادت فى أواخر آذار تكسب

و « الوحدة » حتى الساعة لم تعد ..

وعسى ألا يجاوز بها القدر هذا العام الذى نعيشه .

ووددت لو أراهن أنا الآخر .. بقلبى .. وهو كل ما أملك .. على هذا الموعد الذى أناشد القدر ألا يتأخر بعودة الوحدة عنه .. حتى يتحدث أبناؤنا فى الغد .. عن « عام النصر » ويؤرخوا له .. ويؤرخوا به .. ويقول أحدهم « ولدت وأسلافه

على مطالع عام النذر » ويقول أخوه « بعد عام النذر بيوم » ويقول الأخير « بعد عام النذر .. بعام » .

وزارة .. وبيان .. وبناء

وأتريث بعد ذلك « النصر » التى أحرزته الرجعية على أرض سوريا .

أتريث لأرى وأفكر — فى الصلة بين الدرس القاسى التى تلقيناه ، والخطى الرشيدة التى خطوناها بعد ذلك البيان المؤثر ، لأتساءل إن كانت هذه الخطى العجيبة ثمرة لذلك الدرس القاسى ، أم هى خطى مدروسة ومرسومة ، ألقى (الدرس) أضواءه على الطريق أمامها ، فلم تضل بعد ذلك طريقها .

* * *

ثم حدث بعد خمسة أســابيع من حادث « التفريق » المؤقت — ولا أسميه « الانفصال » أبداً — أن عدلت هيئة الوزارة لتعفى من عضويتها الوزراء الســوريين الذين كانوا فى « القاهرة » من مهام قد يحرجهم القيام بها أو هكذا خيل إلينا .

وحدث أن توالت اجتماعات الوزارة الجديدة برياسة عبد الناصر حتى إذا انتهى اجتماعها الثامن أذاع هو بيانه التاريخى الثانى فى الرابع من نوفمبر ، عن خطى جديدة لتنظيم العمل الشعبى .

* * *

وأما إذن كنت محقاً عند ما فكرت فى الصلة بين أحداث سوريا وهذا البيان .

وصحيح أن قرارات « يوليو الــكبير » كانت تستتبع حتما ، تنظيما شاملا داخل إطار محكم ، يمكن لها من أن توضح موضع التنفيذ الحــكيم ، بعد أن سدت كل ثغرة فى البناء ، وبانت كل القسمات على وجه المجتمع الجديد .

ولــكن أ كثر صحة أن بيان الرئيس الذى تقدم به للتنظيم الجديد أشار إلى وجوب

استمرار العمل الثورى وإقامة تنظيم « يوفر له الحماية ضد المؤامرات التى تستهدف تمويقه » وأكد دور « الجمهورية العربية المتحدة » كقاعدة لحركة الطليعة الهادفة إلى تحرير الأرض العربية وإلى تحرير الإنسان العربى ...

وهذا التعبير الأخير يجاوز الحدود السورية ويخطاها إلى كل بلد عربى غير متحرر فهو تعبير « فسح » به المطلقة ، ولا تقف به عند سوريا ، لأن سوريا فى رأينا لم تنفصل ، وأقوى دليل احتفاظنا باسم « الجمهورية العربية المتحدة » .

* * *

وأحداث سوريا — إذن — كان لها الفضل فى أن يجىء « التنظيم الجديد » بالشمول الذى جاءنا به ، وبالدقة التى قام عليها ..

لقد قال البيان التاريخى الرائع ما يأتى بالحرف :

« إن المسئوليات الضخمة الملقاة على شعب الجمهورية العربية المتحدة ، تجاه واجبه التاريخى كقاعدة لحركة الطليعة العربية ، الهادفة إلى تحرير الأرض وإلى تحرير الإنسان العربى من كل سيطرة أجنبية ، ومن كل استغلال خارجى أو داخلى ، استعمارى أو رجعى ، أصبحت تحتم تعبئة القوى الشعبية فى الجمهورية العربية المتحدة وتنظيمها ديموقراطياً على نحو يكفل استمرار العمل الثورى ، ويضمن تجدده ، ويوفر له الحماية أمام كل المؤامرات التى تستهدف تمويقه . وكذلك يؤكد للأمة العربية دورها فى دفع التقدم الإنسانى وتطور الحياة بالكفاية والعدل وهما أساس الاشتراكية وجوهرها » ..

* * *

واضح إذن .. أن الرسالة لم تلتو خيوطها فى يد حاملها قط .

وواضح — كما ترى — أن ما يعلنه « ناصر » فى أواخر سنة ١٩٦١ لموضع موضع التنفيذ فى سنة ١٩٦٢ هو عين ما جاء فى « فلسفة الثورة » وعلى مطالعها ..

والجديد أن قرارات يوليو ... حققت الاشتراكية ، وأن التنظيم الجديد ، يحقق الديمقراطية ... وأن أحداث سوريا ، حلتنا على أن عد أيدينا إلى الأقنعة فوق وجوه الرجعية الحاكمة وغير الحاكمة فى المنطقة العربية فنمزقها جهرة ... ونعلن للعالم أن الجمهورية العربية بدأت تحمل مسئولياتها الضخمة تجاه واجبها التاريخى ، وأنها كقاعدة لطليعة ، مصرة على أن تحرر الأرض العربية كلها ، والإنسان العربى فى أى شبر فيها ، من أية عبودية يفرضها عليه مستعمر من الخارج أو عميل من الداخل ، أو رجعى حاكم .

وهكذا كشف الغطاء و برح الخفاء ، وكان ذلك كله حصيلة الضربة التى سددتها الرجعية إلى قلب العروبة فى سوريا .

* * *

ورأى البيان أنه قد حان ، أن توضع حصيلة التجارب الثورية التى عاشها شعبنا ، وأن توضع مع هذه الحصيلة آماله البعيدة وأن يضم هذا كله إطار شامل يصنع منها منهاجاً واضحاً للعمل الثورى الوطنى .

* * *

وذكر البيان ، أن الشعب وحده هو الذى يتحتم عليه الآن ، أن يقود التطوير بنفسه وأن يشق طريقه إلى غده الذى يتطلع إليه ، و يناضل بشرف لكى يشرق فجره .

* * *

وتقرر أن يصدر قرار جمهورى بتشكيل لجنة تسمى « اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية » لدراسة الطريقة التى يتم بها تجميع ممثلين القوى الحقيقية الأصيلة الشعب لكى تجتمع فى « مؤتمر وطنى » عن « طريق الانتخاب الحر » على أن ينعقد هذا المؤتمر فى سنة ١٩٦٢ ليستمع إلى تقرير يقدم فيه الرئيس مشروع ميثاق العمل الوطنى ثم تجرى مناقشة التقرير بواسطة المؤتمر ولجانه ، ثم تكون الحصيلة النهائية بمثابة البلورة العملية لميثاق النضال الوطنى الشامل لأساليب العمل الشعبى وأهدافه ، ويكون هذا

الميثاق أساس الانتخابات العامة لانتخاب اللجان التأسيسية للاتحاد القومى فى كل قرية ومدينة لتكون قاعدة للمؤتمر العام للاتحاد الذى يقرر وضع الدستور الدائم .

* * *

والبيـان لافت .. فى بعض فقراته ... إلى « جـديد » لم يعرفه أى تنظيم سابق ...

ثم لفتنى البيان إلى جديد فيه ... هو « تجميع ممثلين للقوى الحقيقية الأصيلة للشعب » ... وإلى « دعوة الشعب إلى تسلم زمامه وقيـادة التطهير وشق طريقه بنفسه إلى عده » ...

وإذن فأحداث سوريا أدخلت على المعجم كلمة «التطهير» .

وإذن فالسوس الذى كان ينخر فى عظام الاتحاد القومى ... اكتشف ...

والخطأ — إذن — سيصحح ...

وبحكم قرارات يوليو ... وعلى هـذا التنبيه على الأخطاء ... سنفرغ من « كل البناء » ...

قرارات « يوليو الـكبير » استكمل بها البناء الاجتماعى ملامحه الأساسية ...

والتنظيم الشعبى ... آت على الطريق ليقوم عليه البناء السياسى ...

ومن المحصلتين يقوم كيان الدولة الجديدة فى إطار محكم اسمه « الميثاق » مبرأ من كل عائب .

هذا ما لفتنى البيان إليه .

* * *

أما الذى لم يلفتنى ذلك البيان التاريخى إليه ، فهو هذا « الميثاق » ..

كنت أتصور أن يكون « الميثاق » أى شىء ... إلا الشىء الذى كانه ..

* * *

ومع هذا .. فيم العجلة ؟

يحسن أن أقف بهذا الفصل القصير عند هذا الحد .. ولا تسألنى : متى موعد الإيمان .. يشهر ؟

إنى أجتاز فترة يحسن فيها ألا أسأل أو أسأل ..

يحسن أن أعيش هذه الفترة .. بكل عينى مبصرة وبكل عقلى واعياً .. وبكل قلبى مفتوحاً ..

* * *

وأرجو أن أكون — على قصر الفصل — قد استطعت أن أرسم المرحلة الرابعة والعشرين فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل الخامس والعشرون

من قبل إلى ما بعد الميثاق

أجل يا أخى العربى الصاعد ..

ها نحن أولاء نكاد نلتق فى « رفرف » هـذا الـكتاب .. و « الحلم الـكبير » الذى افتتحناه به فى « التمهيد » .. قد تحول فعـلا « فى عزة وشموخ إلى حقائق تدير الرءوس » .. «والمجتمع الجديد» . الذى كان موضوع « الحلم الـكبير » فى التمهيد .. ها نحن أولاء « نراه اليوم رأى العين وهو يقوم » ..

* * *

ولقد قلت لك فى صدر كتابى إن «الميثاق» لم يكن أبداً بداية التحول فى موقفى « من » الرجل الذى تآمرت عليه .. وإنما كان ذروة هذا التحول .. ولم يكن أبداً «بداية» الطريق .. وإنما جاء «نهاية» الطريق .

وكان «إيمانى» بالناصرية .. قد استوفى كل مراحله .. وبلغ «تمـامه» كما رأيته فى الفصول السابقة — ولم يكن قد بقى إلا أن يجىء حدث مثير .. أركب أنا الآخر قمة موجته .. وأشهر « إيمانى بناصر » .. فى « إنسياق انفعالى » له كل مبرراته .. حاملا معه كل « كبرياء الخجل » — وما أشد التعرف بها — وشاقاً بين جموع الحيارى وصفوف المترددين .. طريقى إلى (محراب الحق) .. فى شجاعة وشرف .. وفى غير حيرة .. وفى غير تردد .

• • •

وجاء « الحديث المثير » .

جاء « الميثاق » الـكبير .

وها هو ذا يذاع على الناس (بياناً للناس) .. ليناقشه الناس .. وليقروه .

ثم ها هو ذا .. يقره مؤتمر من الشعب ، فيذاع على الشعب (بلاغاً للشعب) ليحمل عبئه كل الشعب .

وهأنذا أقرر فى غير تردد أن (أشهر) إيمانى ..

وهأنذا أبحث عن طريقة تحقق لى هـذا (الإشهار) ، وتحقق له كل أركان (العلنية) فيه .

* * *

ولـكن هناك مرحلة أخيرة تبدأ من قبل الميثاق ، وتنتهى بعد الميثاق .

بدءاً من هذا الفصل نرسم هذه المرحلة ..

اللجنة التحضيرية

ولعلك تذكر البيان السياسى الذى لا ينسى — بيان الرابع من نوفمبر ١٩٦١ — الذى عرض بالتحديد لمعالم التنظيم الشعبى الجديد .. وكانت الخطوة الأولى فى ذلك (التنظيم) تشكيل (اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية) لترسم اللجنة طريقة قيام المؤتمر ، وليناقش المؤتمر الشعبى ، ميثاق الشعب .

* * *

وشكلت (اللجنة) ونهضت بواجبها ، ورسمت الطريق ..

وأخون أمانة المراحل ، إذا أنا أهدرت هذه المرحلة ، وإن أقل لك إن هذه اللجنة كانت (تجربة مثيرة) ، على طريق (الديموقراطية) ، وكانت التجربة الأولى التى (تمارس) فيها (الحرية) إلى غير حد ، أو إلى الحد الذى يحنى لنا عنده ، (مجلس العموم) فى بريطانيا بكل ما حمل تاريخه من حق فى المباهاة بحرية الرأى ، تلك الحرية التى تنظمها داخل المجلس (كرابيج المجلس) وترسمها خارج المجلس ، الهيئة التنفيذية

الحزب الذى ينتمى إليه العضو ، كما تعلق النقاش الذين يزمعون أن يجروه ، باتجاه سياسى الحزب (رأى) فيه ..

• • •

أحب أن أقرر — وصفى (ناقداً برلمانياً) سابقاً عاصرت (الشيوخ والنواب) السابقين قرابة العشر من السنين فى كل برلماناتهم ... وكنت أنفرد فى نقدى بطريقة تركت على تلك الجلسات بصماتها ... أحب أن أقرر بهذا الفصل — وبهذه الصفة — أن اللجنة التحضيرية (وثيقة شرف) لاشك فيه ... لأول تجربة مثيرة .. مارس الشعب فيها (حرية الرأى) على (مستوى البرلمان) .. بكل ما تعنيه (الديموقراطية السياسية) من المعنى الواسع لكلمة (برلمان) ...

بيان الرئيس

وإذا كنت أضيف إلى هذه «الحقيقة» أن البيان الطويل الملىء ... الذى افتتح به الرئيس أعمال هذه « اللجنة » وما اتسم به من صراحة جاوزت كل « الحدود التقليدية » التى يلترمها رؤساء الدول فى العادة — كان « النور » الذى غمر القاعة ... و بهر الأعضاء ... فاندفعوا فى إثره — وعلى أضوائه — يمارسون الحرية على أرفع مستوياتها ... فهذا القول ... « واقع » تقتضينى أمانة المراحل التى هيأتنى لإشهار « الإيمان » عند إعلان « الميثاق » أن أسجله فى هذا المكان ... لا أن أرجيه لوناً من ألوان « الثناء » الذى جرى بعض الكاتبين على تزجيه إلى الرئيس كلما كتبوا ... اتصل «الثناء» بموضوع الكتابة أم لم يتصل .

لقد كان ذلك البيان .. (سمراً موضوعياً) أخذاً لى صح التعبير . . « سمراً موضوعياً » بين (قوم) اجتمعوا بكبيرهم .. ليشاوروه فى أمورهم .. فجاء (السمر) ... وثيقة شرف أخرى ... لأعداس الشورى ... ولوناً مشرقاً من ألوان (الرأى الحر) و (الرأى الجرىء) .

• • •

لقد صارح « إخوته » بكل كبيرة وصغيرة .

قال لهم إن مهمتهم كبيرة فى خدمة أمتهم التى أخذت على عاتقها بشرف رسالة أن تطور سياتها فى جميع المجالات ، والتى أخذت على عاتقها « أن تكون قاعدة لتحرير الأمة العربية كلها سياسياً واجتماعياً » ...

لم يخف عليهم هذه الحقيقة الخطيرة برغم (التفريق) الذى كان قد حدث بيننا وبين إقليمنا الشمالى ... لأن الأمر لم يعد أمر تحرير هذا الإقليم من براثن الرجعية وإنما هو أمر تحرير (الأمة العربية كلها) لا (سياسياً) ومن (الخارج) فقط ... بل (اجتماعياً) و (من داخلها) أيضاً ...

ولم يكن الخطاب خطاب افتتاح كما كان مفهوماً ... وإنما كان وصفاً لتجربة العمل الثورى كما بدت له طوال الفترة التى عاشها (مع نضال هذا الشعب العظيم خلال سنوات حافلة ومليئة بالأعمال الكبرى ومليئة بالمعارك الكبرى) ... معارك مع الاستعمار ... (تبدأ بإطلاق الأكاذيب وتنتهى بإطلاق القنابل) ومعارك مع الرجعية (تبدأ بمظاهر الحية ... وتنتهى بطعنات فى الظهر والظلام) ومعارك مع التخلف الطويل (الذى أرغمنا عليه والذى ورثنا منه ما يعانيه شعبنا من المشاكل المماثلة) ومعارك مع أنفسنا (مع نقط الضعف فينا ... حتى لا ننسى على الطريق أهدافنا) .

هذه الأمسية تحدد ذلك الموضوع ... الذى جرى فى خطابه مجرى السمر .. وهو يحدثهم عن (المرحلة القادمة .. مرحلة الثورة الاجتماعية) .. ولما كانت جذورها ولماحط سيرها وهى نتيجة كفاح طويل ونتيجة وعى وتصميم .

وحدثهم بدءاً من الثورة عن كل المراحل ..

وثبت أن الرجعية كانت هى التى تعوق الركب فى كل مرحلة .. فى موضوع الأحزاب ، فى قصة الأرض والإقطاع ، فى مشكلة رءوس الأموال ، فى كفاحنا مع الاستعمار « فى أزمة مارس — يقصد ١٩٥٤ — الأزمة التى حصلت فى مجلس الثورة والتى وقف فيها محمد نجيب فى جانب والثورة فى جانب كانت أساساً بفعل الرجعية » التى

« استطاعت أن تقنعه بأنه يستطيع أن يحكم البلد لوحده » ... فى التصنيع و (رأس المال الجبان) ... فى العدوان ، فى الحصار الاقتصادى الذى عزمناه ، فى (الاتحاد القومى) أغلقت الرجعية نفسها وتسللت إليه (وانضحك علينا) .

أرأيت إلى أى حد ، جاوز الرئيس كل الحدود التى يرسمونها لرؤساء الدول ؟

بملء فيه يقول لأعضاء اللجنة ، وجلهم كانوا أعضاء فى لجان الاتحاد القومى (انضحك علينا) علينا ، يعنى (أنا وانتم) ..

أرأيت إلى أى حد ؟ الرجعية (شاطرة جداً) ، و (طالما الاشتراكية يعط بس ، م مبسوطين ، طالما الاشتراكية شعارات بس ، م زعلانين ليه ؟ ده م عايزين كده ، ومستعدين يحطوا شعارات فى الاشتراكية أد اللى بنقولها عشرين مرة بس مانحطش الاشتراكية موضع التنفيذ وما طبقهاش) ..

• • •

وبدأ الأعضاء يؤمنون بأنهم مدعوون هذه المرة إلى العمل الثورى الجاد لا إلى « اتحاد قومى » تسيطر عليه الرجعية .. ولا إلى « اشتراكية ديموقراطية تعاونية » تقوم على الشعارات الرائعة و « اللغط » تسد منافذ الطرقات ..

* * *

آمن الأعضاء بأنهم مدعوون هذه المرة إلى العمل الثورى الجاد .

وكيف لا يؤمنون وهو يتحدث إليهم على مسمع من العالم كله عن حوادث الرشوة ، التى كشفت والفساد الذى يحاول أن يبسط ظله وكل ما كان الخصوم يتجرون به ، ويحسنون استغلاله ، ويملأون به الصدور أحقاداً ..

وعذراً إذا أنا توقفت عند صراحة الرئيس سطوراً لأقول هنا ومن ناحيتى وهذا القول هو جوهر كتابى :

« وكل ما ملأ الخصوم به صدرى فضلات الطريق مسـنوراً ، وصلتها صادق الصلة » .

وأعود إلى خطاب الرئيس ، إلى السر الوصوعى العجيب .

إن الأعضـاء يصمون الآن مبهورين إلى ذلك « الرجل الذى تآمرت عليه » يقول لهم على مسمع العالم كله وفى بساطة الذى لا يحسب لغير الله أى حساب :

« بعى تقريباً أنا فى يوم من الأيام قلت إن الرجعية والرأسمالية المستغلة بدأت تحبط الثورة ، والثورة التى قامت سنة ٥٢ ضاعت » .

أتريد مزيداً من الصراحة ؟

* * *

« البلد بملكها » ٪ وفيه ناس كتير النهارده بعد القوانين التى نشرت فى الجرائد بيقولوا .. الله .. أمال كانوا ساكتين ليه من سنة ١٩٥٢ » .

هكذا نابت « جمال » عن أى عضو يخطر له هذا السؤال فأعلنه بنفسه وبدأ يعدد العقبات التى كانت أمامه .. وظل يتخطاها عقبة بعد عقبة .. متأسياً بدستور الله وقرآنه الكريم الذى أنزله فى ثلاثة وعشرين عاماً وكان فى وسعه وهو القادر أن ينزله دفعة واحدة لكن « ليه ربنا عمل كده ؟ حتى يعطينا الفرصة والدليل أو الوسيلة الى نقدر نعمل بيها فى حياتنا وفى دنيانا » .

وكان لابد بعد التغلب على الصعاب من دليل يفتح عيوننا على الأخطاء نتيجة لتجاربنا المريرة ، ومن هنا دعيت اللجنة لتقدم مؤتمراً يقدم إليه مشروع ميثاق يصبح « دليلنا للعمل » لأنه « نتيجة لدراسة مشاكل المجتمع » ، المجتمع الذى حرم بنوه من تكافؤ الفرص ، و « ابن الحولى يطلع فلاح وابن الإقطاعى وابن الباشا يطلع سعادة البيه » .

هل يشك الأعضاء بعد هـذا كله فى أنهم مدعوون إلى تجريد الرجعية من كل

سلاح فى يدها ؟ ومن عزلها بعيداً عن البناء الثورى الجديد ؟ « الحرية كل الحرية للشعب » هذا هو مفتاح النجاح الأوحد ، وإذن فيجب أن يعزل عن « المؤتمر الشعبى » كل أعداء الشعب ليستطيع المؤتمر أن يناقش الميثاق ، وأن ينطق باسم الشعب هذه المسئولية التاريخية من غير أن تتكرر مأساة الاتحاد القومى أو شعارات الإشتراكية الكلامية .

* * *

تحددت مهمة الأعضاء وآمنوا بسلامة المهمة وخطورة المسئولية ، وأرسيت أسس « الصدق الرهيب » بيد الرئيس ، وتوخاه فى كل كلمة قالها ، لم يحسب حساباً لغير الحق ..

تحددت مهمة الأعضاء « كل الحرية وكل الديموقراطية للشعب ولا حرية ولا ديموقراطية لأعداء الشعب » .

ولكن عملية التحديد تلتى ظلا قائماً على الرأى الحر الذى دعاهم إلى ممارسته فى أوسع نطاق بشرى ممكن ، فما وجه الحق فى هذه الملاحظة ؟

وجه الحق أن الذى قاله كان رأياً له .

وهو يدعوهم إلى إبداء آرائهم بنفس الصراحة التى التزمها فى حديثه .

وهنا تجىء « وثيقة الشرف » التى تحدثت عنها .

هنا يجىء دورى لأسأل :

— هل نكص الأعضاء على أعقابهم وتهيبوا الدعوة ؟

والجواب :

— ابداً .. لم يتهيبوها .. بل شمروا عن سواعدهم وخاضوا غمارها أشداء طلقاء بكل ما تحمل هذه الكلمات من معان ، ولم يخطر ببال عضو أن هذه الدعوة إنما وجهت إليهم

أثراً من آثار الاضمال الذى أصاب «جال» بعد الانقلاب السورى .. أبداً ..

« فيه ناس قالوا إن الإنقلاب الرجعى فى سوريا حوّه اللى جر الثورة الاجتماعية هنا فى مصر ، ده كلام لا نصيب له من الصحة لأن إحنا بننادى بالثورة الإجتماعية من أول يوم » ..

إذن ما هى الحقيقة ؟ أجاب :

« اللى أقدر أقوله : إن الإنقلاب الرجعى فى سوريا كان رد فعل رجعى الثورة الإجتماعية التى أعلنت فى يوليو من أجل مصالح الشعب ومن أجل مصالح الجماهير .. الإنقلاب الرجعى فى سوريا بيدينا يمكن أمثلة خدنا منه دروس وحدنا منه عظة ، خدنا منها دروس كيف تسللت الرجعية وكيف شكلت نفسها .. إزاى مأمون الكزبرى كان مثلا رئيس لجنة اتحاد قومى » .

عفا الله عما سلف

وظلة أراقى مشدوداً إليها وأنا أدلل على أن اللجنة التحضيرية كانت (وثيقة شرف) — لا شك فيه — لأول تجربة مثيرة مارس الشعب فيها (حرية الرأى) على (مستوى البرلمان) .

قال لهم جمال :

« بعد الوحدة ماجاءت ، فيه قصايا كانت موجودة .. فترددت .. هل حانيجى بعد الوحدة نفتح تانى هذه القضايا ونفتح هذه الصفحات ؟ قلت عفا الله عما سلف) .

وقص عليهم قضية كانت قائمة هى قضية الهندشى ، وكان المتهم الأول فيها مأمون الكزبرى .. وبعد قيام الحكومة المركزية طالب بعض الوزراء السوريين بمحاكمة المتهمين فى هذه القضية ، وكان الهندشى قد اعترف على مأمون الكزبرى وصبرى العسلى بالرشوة التى كانوا قد أخذوها ، ورفض (جمال) واكتفى أن يطلب إلى صبرى العسلى أن يستقيل بعد أن ثبت عليه ما ثبت ولا سيما فى محاكمات بغداد ..

وكان مأمون الكزبري الذي عفا عنه هو أول رئيس وزارة في الانقلاب السوري الغادر ...

• • •

وهم الأعضاء إذن أن سياسة العفو عما سلف من الرجعية هي التي جرت علينا كل المتاعب التي عانينا منها ما عانينا ، فهل قال الأعضاء : (آمين) - و (آمين) هنا لا غبار عليها وتلوح كأنها كلمة الحق بعد أن أيدها (الواقع) الذي (وقع) — كلا .. بل وجد من بين الأعضاء من طالب باستمرار سياسة العفو .. والمزيد من العفو .. واشتد في المطالبة وألح فيها وأصر عليها ، حتى لاحظ الأمين العام والأعضاء أن كلاماً كثيراً مما قاله هذا المعارض ينبغي حذفه من محاضر الجلسة ، فكان جمال عبد الناصر هو الذي حمى حرية هذا العضو ، وأصر جمال على ألا يحذف من المضبطة أية كلمة تقال في اللجنة ، لأن أعمالها جزء من التاريخ ، ولأن حرية الرأي مكفولة للجميع ، ولأن هذه (الحرية) إذا لم تمارس هنا فلا مكان آخر لها تمارس فيه ، وإذا لم ننهض بمسئولياتنا كاملة إزاء هذه الحرية فلا جدوى من أي مبنى نبنيه ..

وتصدت بالمعارض (خالد محمد خالد) بل خيف أن تتردد الصحف في نشر كلمته كاملة فصدرت التعليمات ليلا على الجريدة الناطقة باسم الحكومة (الجمهورية) أن تنشر كلمة (خالد) كما قالها .

الرئيس والمعارضة

وعند « خالد محمد خالد » أطيل الوقوف .

لقد طرح « قضية » وثيقة الصلة بأعماقي ... وليس بالهين أن تطرح مثل هذه « القضية » ولا أتمهل عندها .

و « خالد محمد خالد » من حيث هو « خالد » لا يعني أعماقي ... في قليل أو كثير — برغم إعجابي به ككاتب ومفكر — أما « القضية » التي أثارها ... فقضية تناهت في الخطورة ... ولعل الرئيس كان مشدوداً إلى خوض النقاش بهذه الخطورة فيها .

كان خالد يعارض مبدأ « العزل » .

وله الحق فى أن يعارض أى مبدأ ... وأن يقاوم أى اتجاه .

لقد قال فى شجاعة تحمد له :

« صدقونى أيها السادة ... ليس من صالح أحد أبداً ... أن يسلح الشعب فى فترته الانتقالية هذه بشعارات عنيفة .. أبداً ... يجب أن نسلحه بطبيعته — طبيعته الطيبة والبغطة والوفاء والحب — فلنسلحه بطبيعته هذه ، وهو شعب ذكى وقوى ، هذا ما أريد أن أقوله ، وسأظل أقوله ، وسأظل أنادى به لأنى أومن بشعبى » .

وذكر أنه لا مصلحة له فيما يدعو إليه ... لأنه ليس غنياً ... وذكر قصة عصفور رآه وهو طفل يحجز على ماشيتهم لحساب التفتيش الذى كان أبوه يقاومه ... ورأى الجند يترصون أباه وهو بملابس النوم وفى منتصف الليل ... وأعلن أنه كان محقاً حين طلب للمعزولين « الرحمة » وأنه إنما يطلب لهم « العدل » . لأنه لا ينبغى أن يؤخذوا أبداً بجريرة لم يرتكبوها فى المجتمع الاشتراكى الديمقراطى التعاونى .

ولست أشك فى أن كثيرين — من الخصوم والأنصار — أعجبوا بشجاعة هذا « العضو » ... ولعلى أنا أيضاً لم أخلت من شعور الإعجاب به ... رواسب من ماضينا ليس من السهل أن نتخلص منها ... رواسب إعجابنا بالضعيف الأعزل إذا هو عارض الحاكم القادر (بالحق أو بالباطل) رواسب من ماضينا الذى رسب فينا الكراهية للحاكم .. واعية أو غير واعية .. عمياء أو مبصرة ... محقة أو مبطلة .

* * *

ولو أن الأمر وقف عند هذا الحد .. لما استكملت « القضية » ملامحها .. ولما اتصلت بأهداف كتابى ... وتكون — أكثر ما تكون — رأياً يبديه ... ويطلب من الرئيس فيه .. مزيداً من التسامح .. بل لعل لى مصلحة فى أن أناصر « خالد » ... لأن أول طائفة تقرر عزلها ... هى طائفة المحكوم عليهم ... وأنا تآمرت

وحكم على ... فاتدرج اسمى تحت بند التنزل الأول ... بالحق أو بالباطل ... ويعنينى إذن فى المرحلة القصوى أن أناصر « خالد » .

لكن الأمر كما قلت كان أكبر وأخطر .

الأمر أن « خالد » كان يرى أن « التسامح » الذى يدعو إليه ... هو الحرية التى صاغها فى كتبه ... وهو يطالب بالمزيد منها إن أردنا أن ندعمها ... والحرية التى عناها هى الديمقراطية شكلها الأوروبى والأمريكى ... أو بمفهوم الغربيين لها ... وبالسلطات التى تحرسها .

وكل معنى من هذه المعانى يستأهل أن يناقش ... وأن يناقش فى عمق ووعى .

وقد رد الرئيس على العضو فأكد له أن العملية ليست أن نطلب لهم الرحمة وأن نطالب لهم العدل ... إنما العملية عملية معركة نخوضها ويجب « أن أطمئن على أن الجيش الذى معى ويقاتل معى فى المعركة ... قياداته قيادات مؤمنة بهذه المعركة ... فإذا لم تكن القيادات مؤمنة .. فإن كل العساكر الذين سآخذهم معى سيكونون ضحايا لعدم حسن اختيارى لهذه القيادات » .

والعملية إذن — وأحداث سوريا لم تكن بعدت — عملية تأمين لهذه الثورة الاجتماعية ويجب « أن أوفر لها سبل الأمن .. ولا أقول سبل الإرهاب ... ولا أقول سبل الخوف ... ولا أقول سبل الظلم ... ولكنى أقول سبل الأمن ... ولو كنت أقول الظلم .. كنت تقدر ترد وتقول العدل ولكنى أقول الأمن » و « الجماعة الذين دخلوا عليكم فى بيتكم وضربوكم وجروكم بالليل موجودون ... والله إذا وجدوا الفرصة لدخلوا علينا فى بيوتنا وضربونا أيضاً وجرونا بالليل ولن يتركونا » .

* * *

كان الأمر واضحاً .

لم يكن « العزل » إذن محاكمة لأحد ... أو عقوبة لأحد ... أو سجناً لأحد ..

وإنما كان تأميناً للثورة ... بعد أن تسلل الرجعيون إلى الاتحاد (القومى) فأصدوه وإلى (الاشتراكية) نفسها فأصبحت لافتات وشعارات ... و (كل ما نريد أن نصله هو ألا يتولى هؤلاء الناس القيادة السياسية لا أن تصل لهم محاكمة عسكرية)

وقد يقع فى (العزل) ظلم لقوم لا يعنى أن يعزلوا .

وقد يكون بين أعضاء اللجنة نفسها من يستحق (العزل) .

ذلك كله مرده للتجربة ... والعين المفتوحة ... والعقل الواعى .

والباب مفتوح ... على مصراعيه ... للتجربة ... يخرج منه من دخل ... ويدخل إليه من خرج على ضوء هذه التجربة (وأنا قلت أمس أنه ممكن بعد ستة شهور أن نسأل ثانية ما هو الوضع؟)

* * *

ولكن خالد وصل بين (العدل) و (الحرية) ... وبين (الحرية) و (الديمقراطية) ووضح أنه يطالب بالديمقراطية بمفاهيمها الغربية .

وجاءت (وصلة خالد) بعد أن قال الرئيس (إنه لو فرض أن أتينا نحن بأناس ليضعوا دستوراً وقالوا فيه الإقطاع والرجعية فسوف أذهب وأرتدى البدلة الكاكى وأعمل ثورة عليهم من أول وجديد ... ومهما تكلفنا فلا عودة إلى الوراء بأى حال من الأحوال) .

وقف خالد يرد ويثنى على الرئيس والثناء دائماً ميسور ... ميسور له وميسور لى وميسور لكل من يحسن الكلام مقولا ... والكلمة مكتوبة ... وهذه حقيقة طلب لى أن أكررها وإن كانت لا تطمس أبداً فى صدق خالد وهو يزجى ذلك الثناء ... إنما أردت أن أقول إن الثناء لم يكن هو المهم فى كلمته إنما أهمنا منه قوله :

(وأنا بصفة خاصة كمواطن أتمنى أن تظل تحكمنى عشرين سنة أو أكثر ولكن الحكم الديمقراطى الذى أومن به وأرجوه) .

ولم تكن العبارة قد استكملت ملامحها وإن ألقت ظلال الريبة على الحكم الذى يدعو إليه النظام القائم ... فعاد خالد يوضح الديمقراطية التى يؤمن بها ويقول :

" (وأعرف أنك فى هذا — يقصد (العدل السياسى) — مواقف حلية كما كم تزيه عادل ، ولكن الشىء الذى يحز فى كبدى ونفسى ، أن خصومك وخصومنا . لا يجدون ما يقولونه سوى حجة واحدة .. هى قولهم أين البرلمان ؟! أين الدستور ؟! أين المعارضة ؟)

و « خصومك وخصومنا يقولون؟!! » .. هكذا يقول خالد .. وهكذا كنت أقول .

و (خالد) إذن ما زال يضرب فى الضلال — صادق الصلة وهو عضو فى اللجنة التى تعزل .

و (أنا) أضع هذا الكتاب لأخرج من هذه الصلة وأدعو إلى الرشد أمثاله ... واسمى مدرج تحت أول بند ... وضمن أول طائفة ... قضت هذه المحنة بعزلها .

و (أنا) و (هو) ... ضحية (خصومك وخصومنا) وما قالوا وما يقولون .

وهو ما زال واقعاً تحت تأثيرهم ... يحز فى كبده ونفسه معاً ... قول الخصوم أين البرلمان وأين الدستور وأين المعارضة ؟

وقصة (الخصوم) هى التى قام عليها كتابى .

ومن هنا قلت أن (خالد) أثار قضية خطيرة تتصل بأهداف الكتاب .

• • •

ولقد قال لى الرئيس فى رده أن هناك ديمقراطية بالمعنى الذى يعنيه وأن هناك اشتراكية بالمعنى العربى أيضاً ، هناك اشتراكية (موليه) فى فرنسا ... وهناك ديمقراطية الأردن ..

أليس فى الأردن دستور وبرلمان وأحزاب ومعارضون ؟

أو لم يكن لدينا دستور قاتلنا فى سبيله وبرلمان وأحزاب ومعارضون ؟

فكيف كانت تحكم مصر إلى سنة ١٩٥٢ وكيف تحكم الأردن حتى الآن ؟
أيقال إن الأمر مع الفارق لأننا هنا ثوار ؟

لقد تولى أتاتورك — أو مصطفى كمال — الرد على هذا التساؤل ...

ثار وحارب ... وحرر تركيا من جيوش الاحتلال ... وحكم وصحح ... وكان حكمه قوياً ... واستجاب للذى يؤمن به خالد ... فوضع دستوراً وأقام برلماناً وأنشأ حزبين أحدهما يحكم . والآخر يعارض ... ليتخلص من الحر فى الكبد وفى النفس — ومن أقوال الخصوم : أين البرلمان وأين الدستور وأين المعارضة . وإذا بالبلد تنقسم ... والبلد يكاد يضيع ... فعاد إلى نظرية حزبه الواحد . وهو حزب إينونو حزب الشعب ولم يحول ثورته من السياسة إلى المجتمع — فما كاد يموت حتى ضاعت الثورة — وبقى الإقطاع ورأس المال والتحكم والأمريكان .

ونحن لا نخاصم الدستور ولا البرلمان ولا المعارضة .

وسنضع دستوراً ونقيم برلماناً .. وترتفع فيه أصوات المعارضين .

أما أن نقيم أحزاباً فى مجتمع إقطاعى ورأسمالى فلا ... يجب أن نذيب الفوارق بين الطبقات أولا .. ومتى تطهر المجتمع ... أقام الشكل الذى يريده بلا خوف عليه ، أما أن نسلم المجتمع الآن إلى الحزب الشيوعى المصرى الذى يتلقى تعليماته من صوفيا أو إلى حزب آخر يتلقى تعليماته من انجلترا أو أمريكا ... لا لشىء إلا لأن الخصوم يقولون أين وأين ... فكلام لا ينبغى أن يقال أو لا ينبغى أن يسمع ..

هذه هى القضية التى أثارها خالد محمد خالد .

وهى من زاوية أخرى .. تدعم رأيى فى أن اللجنة (التحضيرية) وثيقة شرف لحرية الرأى إلى غير حد ... لأن هذا الكاتب عضو فى هذه اللجنة .. ولأنه من المؤمنين — كما يقرر — بالثورة ... ومن المؤمنين بناصر ... وقد قبل العضوية على أساس العمل داخل الإطار الثورى . وبرغم هذه الحقيقة تساءل عن مُتطلبات الديمقراطية بمفهومها الغربى لا بمفهومها الناصرى ... ولم ينكر عليه (ناصر) هذا الخروج عن

(الإطار) وإنما ساحة فى سعة أفق وسعة صدر ... وذكره بكتب له ومقالات ... وذكره بالسطر و (بصفحة ٣) وعلى الفور ومن الذاكرة .

وقد يكون مما يكمل الصورة — وعلى هامش هذا النقاش — أن نثبت هنا ما أعلنه خالد محمد خالد . عند ما قال للرئيس :

« ولعلك تذكر يا سيادة الرئيس ، حينما أسعدتنى ودعوتنى إلى بيتك ومكثنا معاً فى نقاش ساعتين أو أكثر »

هذه الكلمة لها خطرها .

رئيس دولة ، يواصل ليله بنهاره ، مقاتلا ، وأعداؤه لا حصر لهم من الغرب والشرق ، ومن الداخل ومن الخارج ، ورسالته تقوض عروشاً وتهدم نظما ، وتحرر عبيداً ، وتبيد إقطاعاً ، ثم هو يقرأ كل كتاب جدير بالقراءة ، ثم يستدعى كاتباً كخالد ، ويناقشه فى آرائه مناقشة الند للند ، أكثر من ساعتين ، رجاء أن يقتنع ، كأنما هو (تقل دولى) فى معركة حاسمة ، ثم يقال بعدها أن (ناصر ديكتاتور ؟!!!)

ومرة أخرى...

ومرة أخرى ، أعود إلى اللجنة .

أعود لأقول إنها أبرزت لنا من الرأى وجوهاً لم تدر بخلدنا ، وأبرزت لنا من الأعضاء مواهب كانت خافية علينا ، وأبرزت لنا من الشجاعة ألواناً ، لم يستمتع بمثلها أعضاء البرلمانات فى أعرق الدول ، وأبرزت لنا من (النصف الآخر) مستوى من الوعى لم يكن أحد يصدق أن (المرأة) بلغته ، وأبرزت لنا طيباً — وهذا بديهى — ألواناً من « النفاق » لا يمكن أن تبرأ منه لجنة قوامها مائتان وخمسون عضواً ، ولو دعا إليها عمر ابن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز .

وقد لا أوافق اللجنة على كل قرار انتهت إليه .

وقرارات اللجان ليست قرآناً ، وليست معصومة من الخطأ .

إنما الذى يعنينا أن كل شىء قيل فيها ، وأن (ناصر) تجلى بكل مواهبه وهو يوجه نقاشها ، ويبسط الحقائق ، ويعترف بالأخطاء ، ويرسى الأسس ، ويحدد المعالم ، ويضع الرسالة فى مكانها الصحيح .

كانت اللجنة إذن مبدأ المؤتمر ، وكانت (هيئة استقبال) رشيدة وواعية لتقدم (الميثاق) ، وعرفت كيف تجىء بالمؤتمر بدفعه الثورى من صميم الشعب لا من حواشيه ، ومن عماله وفلاحيه وأصحاب المصلحة فيه ، لا من مترفيه الكسالى ولا من عاطليه التافهين .

ولعل من حق — ولا تزال الحرفة تلاحقنى — أن نحوماً فى معانيها ، قد التمعت فى سماء هذه اللجنة ، وطمأنتنا على الجيل الصاعد ، من الكتّاب المؤمنين بالناصرية ، وأرانى مشدوداً بزهوى المهنى ، إلى أن أذكر اسم كمال الدين الحناوى ، واسم أحمد بهاء الدين ، واسم الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، واسم الدكتور زكى نجيب محمود (وهو محسوب على القلم وإن حسبوه على الجامعة) ، واسم الشيخ الشرباصى (إن أعجبه أن يكون محسوباً على دولة القلم) .

أما أساتذة الجامعة الذين لمعوا فى سماء القاعة ، وأما السيدات ، وأما العمال ، وأما الفلاحون ، وأما نقيب المحامين والمحامون ، فأرانى مشدوداً أيضاً إلى إعلان أسماء العشرات منهم — وجُلُّهم فى غير حاجة إلى الإعلان — لولا كثرتهم وخوفى من أن أنسى إسماً له قدره وأخجل .

• • •

الذى يعنينى أن (المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية) إنما جاء على الصورة التى جاء عليها بفضل هذه اللجنة التحضيرية .

وجاء المؤتمر

ثم ، جاء ، وتقدم إليه (ناصر) (بمشروع الميثاق) .

ووقفة أخرى لا بد منها وأنا أستقبل (الميثاق) ليسترد القلم أنفاسه :

• • •

وعسى أن أكون قد استطعت أن أرسم هذه الحلقة الخامسة والعشرين في موقفي من (الرجل الذى تآمرت عليه) .

الفصل السادس والعشرون

آخر الأحاديث ... من « ناصر » ومن « الأحداث »

قلت .. إن « الميثاق » قد جاء ...

وجاءت معه دقتى الأخيرة .. أعلن الناس فيها .. على وقع خطواته المنغومة .. أنشودة إيمانى .

وعدت فرأيت .. أن أجعل من هذه الأنشودة .. آخر فصل فى كتابى .. لأن هناك بعض « الجيوب » لابد أن تصفّى قبل الفصل الأخير .

وعلى ضوء هذا الرأى .. أنسحب الآن من التحدث عن الميثاق إلى أحاديث أخرى .. هى آخر الأحاديث .. أتلقاها هذه المرة من « فم ناصر » و « عن نفس ناصر » .. ثم أتلقاها بعدئذ .. من فم الأحداث .. عن ماض لها .. خلفنا فيه جيوبا .. وعن معارك قائمة وقادمة .. تحاول أن تمزق الركب الذى زحف .

من « ناصر » ومن « فمه » ؟!

ولقد وصفت لك « ناصر » داخل « الإطار » الذى أعده له قلبى . وكما فهمته بعقلى ومشاعرى .. وكما قاله لى تاريخه عن أساتيذ علموه .. وعن تلاميذ زاملوه .. وعن كتب حاولت على قدر جهد واضعيها أن تجمع بعض البيانات عن نشأته .

ولقد ذكرت عند هذه (النهاية) من كتابى أن جريدة (الصنداى تيمس) — كبرى صحف الأحد فى بريطانيا — كانت قد عهدت إلى (دافيد وين مورجان) فى الحصول على (قصة ناصر) من (فم ناصر) لتنشر فصولها على مطالع العيد العاشر للثورة . ونهض كاتبها بالمهمة .. واستقبله (ناصر) وأفضى إليه بقصته ونقلت (الأهرام) بعض فصولها ..

وعدت إلى هـذه الفصول .. فرأيت فى إجابات (ناصر) ما يربطها ربطاً .. يمض ما عرضت له فى فصول السـاحة وما يصوب بعض البيانات التى نقلتها عن بعض الـكتب التى لم تلتزم الدقة فى الرواية .. أو أخرتها الرغبة فى مدح (ناصر) .. بأرقام أو أحداث لا تطابق الواقع .. ورأيت أخيراً أن من الأمانة التاريخ أن أثبت هنا ماجاء فى فصول (دافيد وين مورجان) .

(١)

ذكرنا فى فصل سابق أن التلميذ جمال عبد الناصر كان متجهاً إلى ميدان المنشية بالاسكندرية فى سنة ١٩٣٠ ولم تكن سنه تجاوز اثنى عشر عاما ورأى اشتباكا بين البوليس والأهلين فانضم إلى الأهلين وشارك فى ضرب البوليس وجرح .

ولـكن (ناصر) يقول للكاتب الإنجليزى (وين مورجان) رداً على سؤال له ما يأتى بالحرف :

« — كثيراً ما سئلت هذا السؤال : متى أصبحت ثورياً لأول مرة .. ؟ وهو سؤال تستحيل الإجابة عليه ، فهذا الشعور أملته ظروف تكوينى وتنشئتى وغذاه شعور عام بالسخط والتحدى اجتاح كل أبناء جيلى فى المدارس والجامعات ، ثم انتقل إلى القوات المسلحة .

«وما زلت أذكر بوضوح أول صدام لى مع السلطة . كان ذلك فى سنة ١٩٣٣ وكنت يومئذ تلميذاً فى الإسكندرية لم أبلغ بعد الخامسة عشرة من عمرى وكنت أعبر ميدان المنشية فى الإسكندرية حين وجدت اشتباكا بين مظاهرة لبعض التلاميذ وبين قوات من البوليس ، ولم أتردد فى تقرير موقفى ، فلقد انضممت على الفور إلى المتظاهرين دون أن أعرف أى شىء عن السبب الذى كانوا يتظاهرون من أجله ، ولقد شعرت أننى فى غير حاجة إلى سؤال ، لقد رأيت أفراداً من الجماهير فى صدام مع السلطة ، واتخذت موقفى دون تردد فى الجانب المعادى للسلطة .

ومرت لحظات سيطرت فيها المظاهرة على الموقف ، لـكن سرعان ما جاءت

إلى المكان الإمدادات حولة لوريين من رجال البوليس لتعزز القوة وهجمت علينا جماعتهم .. وإنى لأذكر أنى — فى محاولة يائسة — ألقيت حجراً لكنهم أدركونا فى مثل لمح البصر ، وحاولت أن أهرب لكنى حين التفت هوت على رأسى عصا من عصى البوليس تلتها ضربة ثانية حين سقطت .. ثم شحنت إلى الحجز والدم يسيل من رأسى مع عدد من الطلبة الذين لم يستطيعوا الإفلات بالسرعة الكافية .

ولما كنت فى قسم البوليس وأخذوا يعالجون جراح رأسى سألت عن سبب المظاهرة ، فعرفت أنها مظاهرة نظمتها جماعة مصر الفتاة فى ذلك الوقت ، للاحتجاج على سياسة الحكومة .

وقد دخلت السجن تلميذاً متحمساً وخرجت منه مشحوناً بطاقة من التعصب ، وقد مضى بعد ذلك زمن طويل قبل أن تتبلور أفكارى ومعتقداتى وخططى ولكن حتى فى هذه المرحلة الباكرة كنت أعلم أن وطنى يخوض صراعاً متصلاً من أجل حريته » .

***

ونستبين من هذه الإجابة أن الحادث كان فى سنة ١٩٣٣ وأن سنه كانت قرابة خمس عشرة سنة .. وأن اسم « مصر الفتاة » عرفه فى ذلك اليوم ... ولم يكن عجيباً إذن أن يجىء إلى القاهرة فى العام التالى يحمل جراحه ... وهو عضو فى الجماعة التى قاتل فى صفوفها من قبل أن يعرف شيئاً عنها .

كذلك استبنا من إجابة له أخرى عن سؤال آخر .. أنه بعد تلك الحادثة اندفع بكل جوارحه إلى « المظاهرات الساخطة » مع التلاميذ الآخرين يجوبون شوارع الإسكندرية وأصبح « عضواً فى لجنة تنظيم المقاومة » لاسيما السيطرة الأجنبية .. فضاق به المسئولون فى المدرسة وضاق به أبوه فأرسله إلى القاهرة ليعيش مع عمه والتحق بمدرسة أخرى (مدرسة النهضة طبعاً) .

وإذن فقد مارس المقاومة فى الإسكندرية وبرز فيها واختير عضواً فى لجنتها ..

وجاء إلى القاهرة « طريد السياسة » وكل هذه الحقائق تفسر لنا اقتحامه مدرسة « النهضة » محمولا فوق ماضيه .. مزداناً بجراحه .. مدرباً على المقاومة .. متمرساً بالمظاهرات ..

(٢)

ولكم يسعدنى أن تسد فصول « وين مورجان » فراغاً كنت أحس به وأنا أتحدث إليك عن البذور والجذور والنبت والعود فى « ثورية ناصر .. » ولا أجد غير « سر التكوين » أو غير « سر غامض » لا أدريه .. دافعاً له وهو صغير .. إلى تلك المغامرات التى خاضها وكانت كثيرة .

لقد سأله « دافيد وين مورجان » عن الصدمة النفسية التى قيل إنها وقعت له فى تلك الفترة من الصبا أو الفتوة ؟ وقال « ناصر » إن ذلك الذى قيل صحيح ، وإن أباه كان مصراً على معارضة مشاعره وأعماله الثورية وإن أمه كانت تنظر إلى السياسة نظرها إلى شىء لا يعنيها وكانت العلاقة بينهما هى علاقة الحب الخالص الذى يربط ما بين الأم وولدها ثم قال جمال :

« ولم أكن أفرط فى رحلاتى لزيارة أسرتى . لكن حين انقطعت أنباء أمى فترة من الزمن سافرت لزيارة الأسرة ولما بلغت البيت لم أجد لها أثراً . وعلمت أنها قد ماتت قبل ذلك بأسابيع ، ولم يجد أحد الشجاعة الكافية لإبلاغى بموتها .. ولكنى اكتشفت موتها بنفسى بطريقة هزت كيانى .. وعدت لفورى إلى القاهرة حيث كرست نفسى لنشاطى السياسى ولكن بصورة أعنف من ذى قبل .. وخفف الزمن صدمتى ولكنى ظللت مبتعداً عن أسرتى لعدة سنوات — فقد كان فقد أمى فى حد ذاته أمراً محزناً للغاية أما فقدها بهذه الطريقة فقد كان صدمة تركت فىَّ شعوراً لا يمحوه الزمن .. وقد جعلتنى آلامى وأحزانى الخاصة فى تلك الفترة أجد مضضاً بالغاً فى إنزال الآلام والأحزان بالغير فى مستقبل السنين »

• • •

تلك حقيقة يعرفها رفاق « ناصر » على التحقيق .

ولست أشك فى أنها تسربت إلى كثيرين وذاعت بينهم ولم يعد إعلانها فى هذا الكتاب مثيراً بالنسبة إليهم .

والإثارة على أى حال لا تعنينى .

إنما يعنينى أن الحادثة تحل لى « عقدة العقد » فى ثورية ناصر .. ولم أكن قد عرفت هذه الصدمة قبل اليوم وقبل أن أراجع فصول « وين مورجان » لأكتب لك هذا الفصل .. ولو أنى قرأت تلك الفصول يوم نشرت .. لكانت الحادثة ركيزة لبحوث عريضة وعميقة .. فى الكتاب .

أما اليوم وأنا أستودعك آخر فصولى فحسبى أن أسجل ملاحظاتى العابرة فيما يلى :

* كان جمال « ثورياً » وكان أبوه يمارس الثورية فيه .. وكان يقابل هذا الموقف حب خالص يربط بين الصبى وأمه كتعويض لابد منه عن المعارضة الأبوية .. وكوقود لابد منه للثورية .

* كان جمال يطوى ضلوعه على هذه الشحنة من الحب لأمه .. ولا يزور الأسرة حتى لا يخوض فى معركة أبيه .. وحتى يتحرك حراً فى جو الكفاح الوطنى بعيداً عن جو المعارضة .. ومثل هذا البعد عن الأسرة .. يزيد حتماً فى حبه لأمه .. وقد باتت أعراض هذا الحب فى سفره إلى الأسرة برغم قيام « الجفوة » بينهما عندما انقطعت عنه أنباء أمه .. وهناك — فى البيت الذى أحب رحمه .. لم يجد لربة البيت أثراً ولم يجرؤ أحد على أن يقول له أن أمه ماتت .

* وهناك اكتشف الأمر بنفسه وعلم أنها ماتت قبل ذلك بستة أسابيع .. ولم يقل لنا « كيف علم ؟ » لابد أنه علم « بطريقة فاجعة ومؤثرة ومثيرة » . لأنه يقول لنا إن فقد أمه فى ذاته « كان أمراً محزناً للغاية » أما فقدها بهذه الطريقة فقد كان صدمة تركت فى « شعوراً لا يمحوه الزمن » ، شعوراً لا يعرفه إلا من يجع فى الأمومة على هذا

النحو ، وندر أن يفجع صبي في أمه على هذه الصورة التي أشار إليها حزيناً واتقى مجرد الخوض فيها وهو في الرابعة والأربعين من العمر .

* وكان طبيعياً أن يعود إلى القاهرة لفوره .. وكل قطرة دم فيه .. تريد أن تشق لها الطريق خارج العروق .. وأعجز بدورى — وعلى ضوء هذه الحقيقة — أن أتصوره « الآن » ، وهو عائد « يومها » . وكيف كان ؟ وما مدى الغليان ؟ وفى أى الحالات يتحرك ، ويصرخ ، ويدمر ، ويحطم ، ويكتسح . ؟!!

عاد ليفعل هذا كله ، ولكن القدر كان يدخره ، و« الحزن الثورى » كان يعوره « الشيء » الذى يفجره ، وقد جاء هذا « الشيء » وجاء « عنيفاً » ، فاتجه به إلى الكفاح السياسى فى سبيل بلاده يكرس له كل نفسه ، ويفرغ فيه كل عنفه ، وكان « جمال »

* وثمة جانب آخر من جوانب الحادث يحسن أن نستوعبه قبل أن نطويه ، بعد أن امتد أثره إلى كل كفاح الرجل ، وإلى كل زعامته ، وإلى كل بناء شخصيته ، ذلك هو قول « ناصر » فى بساطة :

— « وقد جعلتنى آلامى وأحزانى الخاصة فى تلك الفترة أجد مضضاً بالغاً فى إنزال الآلام والأحزان بالغير فى مستقبل السنين » .

هذه « حقيقة كبيرة » يا رفاق ..

* حقيقة تقول : إن حامل هذا الشعور لا يمكن أن يكون « الديكتاتور » الذى يمشى إلى أمجاده الشخصية فوق الأشـــلاء والجماجم .. يسحل .. ويدمر .. ويقطع الرقاب ..

* حقيقة تقول إن حامل هذا الشعور هو الذى دوى فى سمعه أصوات صراخ وعويل .. وولولة امرأة .. ورعب طفل .. ثم استغاثة متصلة مجوعة .. أصوات ظلت تطارده وتمزق سمعه وهو عائد إلى بيته بعد أن أطلق الرصاص على حسين سرى عامر ولم يتم ليلتها وقام وصلى لله — والصلاة هنا منقولة عن « بن مورجان » لا عن

« فلسفة الثورة » — ودعا الله أن يحفظ حياة الرجل . ولم يطمئن إلا بعد أن صدرت الصحف وعرف أن الرجل لم يمت .

• حقيقة تقول إن حامل هذا الشعور .. إنما يستجيب له .. وهو يفتح أبوابه السجون بعد شهور .. أمام الذين تآمروا عليه وحكم عليهم القضاء بعشرات السنين . • إنه ما يزال يجد مضضاً بالغاً في إنزال الآلام والأحزان بالغير .. ولو كانوا انفصاليين في سوريا ، ولو كانوا .. الذين يتمنون أن يتخلصوا منه .

• • •

تلك النقاط في تاريخه .. كم أسعدني أن أدركها — قبل أن أمضي قلمي من آخر فصول — وأقف عندها في خشوع وإكبار وتأمل — وإن كان الوقت قد فات ، ولم يعد ميسوراً أن أطيل الوقوف حيث كان ينبغي أن يطول . ويطول .

(٣)

وأحسبك تذكر ذلك الجهد الذي بذلته — وأنا أتساءل عن شيوعية « جمال » وإخوانيته ووفديته وأمريكيته — حتى استطعت أن أستخلص من الأحداث أنه لم يكن شيوعياً ولا إخوانياً . ولم يكن وفدياً ولا أمريكياً وإنما كان : « جمال عبد الناصر » .

وفي حديثه مع « دافيد وين مورجان » سئل « جمال » عما يقال عن محاولة له واسعة لاستكشاف الأحزاب السياسية في مصر فوافق على أن الأحزاب السياسية شغلته طويلا في « سنوات التكوين » وأنه انضم لمدة عامين — بعد مظاهرة الاسكندرية — إلى جماعة « مصر الفتاة » و « لكني تركتها بعد أن اكتشفت أنها رغم دعاواها العالية لا تحقق شيئاً واضحاً » ..

وقرر « جمال » إنه فوتح في عدة مناسبات في أمر انضمامه إلى الحزب الشيوعي : « لكني رغم دراستي للمذهب الماركسي ولكتابات لينين وجدت أمامي عقبتين أساسيتين ، عقبتين كنت أعلم أنه لا سبيل إلى التغلب عليهما » العقبة الأولى هي أن الشيوعية في جوهرها ملحدة وكان هو دائماً مسلماً صادقاً ومؤمناً بالله ، و يستحيل على

أى إنسان (أن يكون مسلماً صادقاً وشيوعياً صادقاً) ، فأما النقطة الثانية فهى أن الشيوعية (سيطرة) من (نوع ما) من الأحزاب الشيوعية السالمية وهو يرفض هذه السيطرة ولا يرى فرقاً بينها وبين السيطرات التى يقاومها من المحتل ومن الإقطاع .

واعترف «جمال» بأنه كانت له اتصالات بالإخوان المسلمين رغم أنه لم يكن عضواً فى هذه الجماعة ، وإنما أحس بقوة زعيمهم حسن البنا ، ولكن عيبهم كان (التعصب) وهو يرى أن (التسامح) يجب أن يكون ركناً من أركان المجتمع الذى يحلم به .

واعترف «جمال» أن الحكومة الوفدية نفسه هو وزكريا محيى الدين ومحمد أنور السادات من أبناء دمته وأبناء ثورته عندما أصدرت بعد معاهدة ١٩٣٦ مرسوماً يقضى بفتح الكلية الحربية للشبان بصرف النظر عن طبقتهم الاجتماعية وثروتهم فكان الثلاثة مع نفر من الآخرين الذين ظلوا فيما بعد رفاقاً حميمين ممن استطاعوا الانتفاع بهذا الوضع وتخرج الثلاثة فى سنة ١٩٣٨ وعينوا فى منقباد ثم نقل فى سنة ١٩٣٩ إلى الاسكندرية فالتقى بعبد الحكيم عامر وكان يشاركه الاعتقاد فى ضرورة الثورة والتغيير ، وسارت الأمور .

• • •

هذه النقطة من الحديث تثير أموراً ..

تثير ذكرى أكاذيب الخصوم ، وترسم صورة لبراعتهم .

كانوا يعرفون أن «جمال» درس الماركسية ، وفوتح فى الانضمام للشيوعية ، وكانوا يعرفون أنه كان على اتصال بالوفديين عن طريق لجان الطلبة ، وكانوا يعرفون أن أمريكا حاولت أن تطويه بدءاً من الثورة ، وعبر السنين التى توالت حتى ظهرت خصومته لها ، فعرف الخصوم كيف يسددون إليه تهمة الشيوعية ، وتهمة الإخوانية ، وتهمة الوفدية ، وتهمة الأمريكية ، كل فى حينها ، لم يخلقوها من الفراغ ولم يخلقوها من العدم ، وإنما كانوا يبحثون فى تاريخه عن (حقائق) ليستخلصوا منها الأكاذيب ، وكأنها أصلا (مصانع) لها آلاتها ولها رجالها ، والعبرة أكبر نصيب .

• • •

وتثير هذه النقطة أيضاً ما أفاده جمال من قراءاته للمذاهب ، ومن اتصالاته بأصحابها ، فى الاقتناع بكل ما فيها من ثمار الفكر المبدع — والشيطان نفسه خلاّق ومبدع — ليخرج علينا بالناصرية مصرية الجذور غربية الفروع — لا شرقية فلجحد بالله والأخلاق والقيم — وتؤمن بالعنف والإرهاب وحمامات الدم ، وتسوّد طبقة واحدة ثم تسيطر ، ولا غربية تؤمن برأس المال والاحتكار وتفرق بين الطبقات وتتخم مواطناً واحداً ، ليجوع بسببه مائة من المواطنين .

(٤)

وفى سياق البحث عن كل ما أستكمل به بحوثى أذكر كشفاً لصحفى مصرى أكبر من كشف (وين مورجان) لأن الكاتب الانجليزى إنما سأل وأجيب ، أما الكاتب المصرى فقد بحث وأصاب .

ثم ذكرت مصطفى أمين وكشفاً له وُفق إليه ، ولا أرانى فى غنى عنه ، وهو ركن فى الشخصية ضارب الجذور فى ماضيه وضاء الجبين فى الليلة المحنة .

• • •

فى السابع من يوليو نشر مصطفى مقاله وسرد علينا القصة كاملة ، قصة (أخبار اليوم) وكيف كانت أول جريدة فى العالم تكتب عن جمال عبد الناصر ، ويفاجأ مصطفى بهذا الشىء الغريب الذى نشرته جريدته ، وهو يقلب صفحاتها (بحثاً) عن دور الصحافة فى التمهيد للثورة ..

والقصة أن ضباط الفالوجا المحاصرين ، كانوا يصدرون مجلة من نسخة واحدة بخط اليد وكان اسمها « مجلة الفالوجا » وفى أحد أعدادها وجهّ « محررها ؟! » عشرة أسئلة إلى عشرة من أفراد القوة من مختلف الرتب وكان السؤال :

— ما هى أمنيتك فى الحياة إن عشت ؟

وقال السيد طه قائد الفالوجا « وضبعها المشهور » :

— « فيلا ً بملك فى الإسكندرية .. والصحه والستر » .

وقال القائمقام مقيد رزق الله :

— « آكل واعيش متهنى » .

وقال البكباشى يس حمراوى :

— « أتمتع بالحياة بين روحتى وأولادى » .

وقال الصاغ جمال عبد الناصر :

— « أحقق مبادئى وأرى مصر بلغت ما أرجوه لها » .

وقال اليوزباشى أمين أحمد :

— « أشوف إبنى فى مركز كويس » .

وقال الملازم أول أمين فريد :

— « الستر » .

وقال الملازم ثان مدحت شعيب :

« أقصر شويه » .

وقال العسكرى السوهاجى :

— « أمتى رفاعى » .

ولا أحب أن أعلق .. إنما أحب أن تردوا هذا الكشف العجيب إلى بحث عن شخصية هذا القائد من مطالع الصبا .. بدءاً من البذور والجذور .. وانتهاء إلى قمة العود .

ومرة أخرى لا أحب أن أعلق ..

وأكتفى بقول مصطفى وهو يعقب على الخبر :

— « إنك لو قرأت هذه الصفحة من أخبار اليوم قبل قيام الثورة بثلاثة أعوام وخمسة أشهر .. ودققت فى الإجابات لأمكنك أن تضع أصبعك على البطل » .

وأضيف من ناحيتى وصفاً فقط لهذا « البطل » .

— لأمكنك أن تضع أصبعك على البطل ، وعلى دوره أيضاً ، ذلك الدور الذى ظل يهيم على وجهه فى منطقة الشرق الأوسط باحثاً عن البطل كما قال (ناصر) فى (فلسفة الثورة) .

ومن الأحداث ؟

و إذ انتهت مهمتى فى الجانب الأول من هذه الأحاديث .. (من ناصر .. ومن فمه) بقى أن نقف قليلا عند أحاديث لم نمسسها (من فم الأحداث) نفسها ، وكل حدث منها يستأهل كتاباً ، ومن يدريك ، لعل القدر يأذن لى .. وأحدثك عنها فى كُتُب ، أما الساعة فهى ليست من مهامى إلا من حيث اتصالها بالرجل ، ولكن لأى رجل ؟ هل هو الذى تآمرت عليه ؟ أم هو الذى آمنت به ؟

هناك أحداث تتصل بالرجل الأول ؟ ومراحل التحول ، ولكنى أرجأتها إلى هذا المكان من الكتاب لأنها هى أيضاً ما تزال تتحول ، ولم يكن سهلا أن نحكم عليها فى مطالع تحولها ، كأجهزة الدولة ، وهناك أحداث تتصل بالرجل الثانى ، رجل الذى آمنت به لأنها وقعت بعد أن آمنت فما زادتنى إلا إيماناً ، كأحداث سوريا ، وتعاون حكومتها مع إبليس والشيطان ، والعفريت والجان ، ضد عبد الناصر ، وتقدمها بالشكاية إلى مجلس الجامعة العربية ، وانسحاب ناصر من عضوية هذه الجامعة ..

مثل هذه الأحداث وقعت كلها بعد إيمانى ، فزادتنى إيمانا ومن حقها على الريشة التى فى يدى وهى تستودعك الفصول الأخيرة أن تجرى بكلمة حق عنها .

* * *

التوعية والميثاق

* « إن فلسفة العمل الوطنى يجب أن تصل إلى جميع العاملين فى الوطن فى كافة المجالات بل ويجب أن تصل إليهم بالطريقة الأكثر ملاءمة بالنسبة لكل منهم » .

* « إن الوضوح الفكرى أكبر ما يساعد على نجاح التجربة »

(حقيقتان) كبيرتان موجودتان فى (الميثاق) .

ولا سبيل إلى الربط بين كافة المجالات فى الوضوح الفكرى بغير التوعية .

و (التوعية) إذن هى إحدى الدعامات التى يقوم عليها بناء المجتمع الجديد .

ويبدو أن (الدولة) سبقت (الميثاق) بالبدء فى التوعية ، فى كثير من المجالات ولا نقول (فى كافة المجالات) .

ولكن (الميثاق) معنى بالربط بين هذه المجالات عنايته بالربط بين أجزاء البناء .

ومن هنا أحب أن ألاحظ — كمؤمن هذه المرة غير مهزوز ولا متردد — أن وسائل التوعية تعددت ، تعدد المجالات والمستويات ، ولكن شيئاً ما ينقصها حتى يربط بينها وحتى تغدو كلها مشدودة إلى البناء ، شيئاً لابد أن نمليه يوماً (روح الميثاق) .

* * *

ووسائل الإعلام هى أخطر جانب من جوانب هذه التوعية ..

وقد سجلت هذه الوسائل فى جوانب منها نتائج مذهلة — دعا إليها (الميثاق) ، من قبل أن يصدر الميثاق .

* ولم يعد فى شرقنا العربى — وفى كل أرجاء الدنيا المعنية بوسائل الإعلام — من لم يبهره التقدم الإذاعى والتليفزيونى فى الفترة القصيرة الأخيرة .

* وليس من شأننا أن نزجي الثناء لعبد القادر حاتم أو لأعوانه ، فالثناء مكانه في الصحف ، أما الكتب فتشمل الحقائق .

* إن التليفزيون العربي — مثلا — أنتجت (نوريته) بصورة مذهلة وغير مسبوقة .

* إن الإذاعة — بمحطاتها — أخذت بين إذاعات العالم مكانة لم تتطاول إليها إذاعات الدول العظمى إذا قيس هذا التطاول بالزمن الذي استغرقه التقدم .

* إن مصلحة الاستعلامات — والمطبوعات التي تتدفق بها جماهير العروبة — سجلت هي الأخرى رقماً قياسياً يثير الدهشة ، وأصبحت سوق الفكر تستقبل كتاباً مطبوعاً في كل ست ساعات .

● إن التأثير الذي أصبحت وسائل الإعلام في القاهرة تحدثه في كل مواطن عربي خارج الحدود المصرية ، بات خطيراً ورهيباً ، وأسهم بنصيب خطير ورهيب أيضاً في دك معاقل الرجعية وهز الكراسي تحت الحاكمين المتصيين بهذه المعاقل ، فانطلقوا شرقاً وغرباً يستأجرون كل مصري قادر ، وكل أفاق وصال ، وكل من يحسن الإلقاء أو التمثيل أو التأليف ليواجهوا تيار العروبة وهو يزحف فوق الموجة العارمة ، موجة الأثير إذاعة ، وموجة الكلمة .. كتباً ..

● إن (السياحة) هي الأخرى بدأت تلعب دورها في توعية السائحين بنهضتنا وجذب العدد الكبير منهم الى بلادنا ، بوسائل دعائية بارعة ..

● إن الملصقات في كل حارة وشارع وفوق كل لوحة وجدار وواجهة ، وعلى كل أداة نقل تدب فوق أرض الوطن بدأت هي الأخرى تدير الرءوس .

● إن المكاتب التي ينشئها يحيى أبو بكر باسم (الاستعلامات) في عواصم المحافظات والمدن الكبرى آخذة طريقها مع الزمن إلى قلب القرى لترسل على ظلامها أنوار الفكر الثوري .. وهّاجة .

كل هذه حقائق ..

وكلها قامت قبل أن يصدر (الميثاق) ..

ولكن (الميثاق) صدر ..

وصدر (كلاً) متناسق الأجزاء ، ودعا كل قطعة أن تأخذ مكانها الصحيح ، فى الآلة الضخمة ، حتى نضغط الزر وتدور الآلة ..

• • •

و (التوعية) ، بكل شعبة فيها — لابد أن تستهدى بالميثاق ، فى التنسيق بين (الشُّعَب) ..

واذا قيل إن المشرف على السياحة والإذاعة والتليفزيون والاستعلامات كاد يجاوز الطاقة البشرية فيما يبذل من جهد ولا يستطيع أن يرى شباك نشاطه الى أبعد من هذا المدى .. من (الميثاق) — إذا قيل .. نستطيع أن نرد على هذا القول ، بوجود (ناصر) وأن (ناصر) لم ينتخب ليكون رئيساً (موظفاً) للدولة ، وإنما انتخب لأنه (ناصر) وهو مشرف على التطبيق ، ومؤمن بالتنسيق ، فلا خوف على وسائل التوعية ، مهما تتعدد لأنها مشدودة بالميثاق ، إلى أهداف لا تتناقض .

والتوعية — كما يريدها (الميثاق) — تكاد تقتضى وزارة خاصة بها ، تشرف من بعيد على كل قطعة فى الآلة .

و (الصحف) — مثلا — كوسيلة خطيرة من وسائل الإعلام يملكها (الاتحاد القومى) ، و (ثمار الفكر) وأجهزة (الكلمة) .. كلها موزعة بين (الاستعلامات) و (وزارة الإرشاد) ، و (وزارة الأوقاف) ، و (إدارة التعبئة) وجهات لا حصر لها ، ولا يربط بينها غير الاستهداء بهدى (الميثاق) ، و (الإدارة المحلية) فى المحافظات تسهم فى التوعية كل حسب حاجتها وبيئتها ، ولكن النجم الهادى المضىء الذى يجب أن يستهدى به الجميع وهو (الميثاق) نجم بعيد ، مكانه فى السماء ، وأنا من الساجدين فى المحراب ، وكل أملى أن يدنو هذا (النجم) منا ويتدلى ، حتى يبلغ القرية على مستوى إدراك القرية ، ويصعد إلى المدينة على مستوى إدراك المدينة وهو ما طالب به (الميثاق) .

ويسعدنى أخيراً ، وأنا أتحدث عن «التوعية» التى أنا دائماً مشدود إليها ومفتون بها أن أهدى إلى كل مسئول عن توعية الجماهير فى منطقة الشرق العربى كله هذه الكلمات المنتقاة من صميم « الميثاق » .

● « إن جهوداً عظيمة وواعية يجب أن تتجه أيضاً إلى فتح الطريق أمام التيارات الفكرية الجديدة حتى تستطيع أن تحدث أثرها فى محاولات التمزيق وتتغلب على بقايا التشتت الفكرى الذى أحدثه ضغط ظروف القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين » .

● « والجمهورية العربية المتحدة وهى تؤمن بأنها جزء من الأمة العربية لابد لها أن تنقل دعوتها والمبادىء التى تتضمنها لتكون تحت تصرف كل مواطن عربى ولا ينبغى الوقوف لحظة أمام الحجة البالية القديمة التى قد تعتبر ذلك تدخلا منها فى شؤون غيرها » ...

والعلم ؟

و « العلم » طالب به « الميثاق » لأن الثورة إذا تحدث عنه كانت « مجرد انفجار عصبى تنفس به الأمة عن كبتها الطويل ولكنها لا تغير من واقعها شيئاً » .

و « الميثاق » يرى أن مسئولية الجامعات ومعاهد البحث العلمى فى صنع المستقبل لا تقل عن مسئولية السلطات الشعبية المختلفة ... وأنها طلائع متقدمة تستكشف للشعب طريق الحياة .

* * *

وفى ٢٦ يوليو وفى «استاد الإسكندرية» خطب الرئيس وفى بساطته المألوفة أرسل العبارات الخطيرة التالية :

— « النهارده بعد مرور عشر سنوات من الثورة ... أستطيع أن أعلن أننا منذ

العام الدراسى القادم ... ستجعل التعليم كله مجاناً فى المدارس والجامعات والمعاهد العليا » .

أى عبارة أرسل ؟

يا أخى جمال ... يا ابن شعبى العريق .

أملك أنا الآخر عبارة لا تقل خطورة عن عبارتك ... أملك أن أقول لك — وقد قلتها — أن ابن أخى الفلاح .. سيخرج من قلب « سواده » المقبرة عما قريب ليدخل الباب الذى فتحته أمامه ... بغير مقابل ... وسأقدمه إليك بعقبى التواضع بعد سنوات قلائل — إن مد الله لنا فى الحياة — سأقدمه لك باسمه الجديد يومذاك « بروفيسور الصعيد الأوسط ... يقدم لقائد تحياته » .

والصاروخ ؟

وفى عيد الثورة العاشر وقف جمال يخطب الجماهير ويقول لهم :

« كنت تملى ماقولكم أن هذا الجيل من شعب مصر على موعد مع القدر » و « النهارده بعد عشر سنوات من الثورة أقدر أقول أن هذا الجيل جاء فى موعده مع القدر » .

ثم قال لهم وهو يحدثهم عن الصناعة .. وفى مساحة مرة أخرى :

« كنا سنة ٥٢ بنستورد إبرة الخياطة وبنستورد المسمار ... وبنستورد ماكينة الخياطة وبنستورد العربية بنستورد كل حاجة — النهارده بنستطيع أن نفخر بأننا بنصنع كل شىء من إبرة الخياطة إلى الصواريخ » .

وانطلقت الصواريخ ..!!

يا أخى جمال ... يا ابن شعبى العريق .

صدقى أن هذا الفتح العلمى الذى ألقى الرعب فى قلوب الملوك واليهود ... لم يدهشنى .. إنها صواريخ متواضعة ... وهم يعرفون مدى تواضعها ... إذا قيست بالصاروخ المرعب .

إن الذى يخيفهم صاروخ آخر ... بعيد المدى ... عابر القارات بدءاً من آسيا وانتهاء إلى أمريكا اللاتينية ... أنت ذلك الصاروخ عابر القارات يا أخى ... يا ابن شعبى ... ذرنى وقد دخلت مصر عصر الفضاء ... ذرنى أحنى الرأس إكباراً ... وردنى الهم إيماناً .

رفضنا إنذارهم ؟

وما دمنا قد عرضنا عجولين على هذا الصاروخ لخطاب « جمال » فى عيد الثورة العاشر ... صدقنى — وقد صفيت الجيوب إلا جيباً ، أن أصغى على مطالع العيد ذلك الجيب الأخير ... وقد صماه هو ولم يحوجنى إلى أى تصفية ... وتدت من خطابه أن الإنجليز كانوا قد أرسلوا يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ إلى مقر القيادة فى الإسكندرية إنذاراً من السفير البريطانى أو القائم بأعماله وتسلمه أحد السادات يحملون فيه الثوار مسئولية ما يحدث للأجانب ويطلبون حظر التجول و بقاء الملكية ... ورفض جمال الإنذار ولم يمنع التجول وتراجع الإنجليز .

ولم أكن أعرف قصة هذا الإنذار يوم شككت فى الثورة على مطالبها وتساءلت عن القوات البريطانية فى القنال إن كانت تنوى أن تتحرك وتضرب (أم أن المحتلين راضون عن التغيير ؟)

وها نحن أولاء نرى ... أنهم لم يرضوا ... وأنهم وجهوا إنذاراً ... وأن صانع الثورة رفض الإنذار . وأن التجول لم يحظر ... وأن الملكية طوى بساطها ... وانفض سامرها .

• • •

والوحدة أخيراً

وأبقيت لوقوف الفصل أعلى الأحداث ... وأعذب الأحاديث . . الحديث عن الجزائر والحديث عن إقليمنا الشمالي ... عن سوريا الحبيبة ... عن جناح من جناحينا .. بل عن المعركة الحقيقية بين الاستعمار والرجعية وبين الوحدة العربية تجرى فوق أرض سوريا . وتجرى فوق أرض الجزائر .

والأمر لا يعوزه وضوح .

وفي الميثاق باب بذاته من أبوابه العشرة . موضوعه (الوحدة العربية) .

وأول سطر في هذا الباب :

— إن مسئولية الجمهورية العربية المتحدة في صنع التقدم وفي تدعيمه وحمايته . تمتد لتشمل الأمة العربية كلها .

* إن الأمة العربية لم تعد في حاجة إلى أن تثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها .

* لقد تجاوزت الوحدة هذه المرحلة وأصبحت حقيقة الوجود العربي ذاته .

* ولا يمكن أن تدل أساليب الانقلاب العسكرى ولا أساليب الانتهازية الفردية ولا أساليب الرجعية المتحكمة ، على شىء إلا على دلالتها على أن النظام القديم في العالم العربي يعانى جنون اليأس وأنه يفقد أعصابه تدريجياً وهو يسمع من بعيد في قصوره المعزولة وقع أقدام الجماهير الزاحفة إلى أهدافها .

* إن الاستعمار الآن غير مكانه ولم يعد قادراً على مواجهة الشعوب مباشرة وكان مخبؤه الطبيعى بحكم الظروف داخل قصور الرجعية .

* إن الشعوب تريد أملها كاملا ، والجامعة العربية بحكم كونها جامعة للحكومات لا تقدر أن تصل إلى أبعد من الممكن .

* إن الجامعة العربية قادرة على تنسيق ألوان ضرورية من النشاط العربى فى المرحلة الحاضرة لكنها فى نفس الوقت وتحت أى ستار وفى مواجهة أى ادعاء لا يجب أن تتخذ وسيلة لتجميد الحاضر كله وضرب المستقبل به.

* * *

وكأن الميثاق كان يقرأ (الغيب) وهو يسجل هذه (الحقائق).

والمعركة التى قامت فى (شتورا) بين الحكومة السورية (غير الشرعية) والجمهورية العربية المتحدة.. أرادت أن تتخذ من الجامعة (وسيلة لتجميد الحاضر كله وضرب المستقبل به) تأميناً لنفسها، وللحاكمين الذين يساندونها والاستعمار المختبىء داخل قصورهم.

وقصة الوحدة معروفة.

وقصة التفريق بين الإقليمين معروفة.

* * *

وفى عيد الثورة العاشر خطب الرئيس فقال:

— «أنا لما أبص للخلف ما باشعر بأى نوع من الندم، ولو عادت سنة ٥٨ مرة أخرى لقبلنا الوحدة مع الشعب السورى».

وقال يخاطب الشعب السورى من القاهرة:

— «أيها الإخوة نحن معكم على طول الخط. أيها الإخوة إننا لم نكفر بكم أبداً».

* * *

وبقية القصة معروفة أيضاً.

جاء الوفد السورى ليعرض شكواه على مجلس الجامعة العربية المعقود فى «شتورا» اللبنانية.

وسافر الوفد العربي إلى « شتورا » ليرد على هذه الشكوى .

وبهت الوفد السوري . وهو يرى أن رياسة الوفد العربي معقودة اللواء إلى « أكرم ديري» السوري وأن الوفد مكون من سوريين آخرين ومن سفيرنا في بيروت . وهذا معناه أننا لا نعترف بشرعية (الحكومة الانفصالية) ولا بشرعية (الانفصال) التي ركب الرجعيون السوريون قمة موجته .

وفرغ الوفد السوري من عرض شكواه . ومن الإدلاء بكل ما حمله حكومته من سباب ... وفرغ الوفد العربي من الرد عليهم في حدود الموضوعية وبأسلوبها .

***

وفي الثامن والعشرين — الثلاثاء — من أغسطس (آب) قدم أكرم ديري إلى مجلس الجامعة في بداية جلسته التاسعة بياناً رسمياً انسحب بعده إلى خارج القاعة .

وفي هذا البيان يعلن وفد الجمهورية العربية « أنه ما لم يقل مجلس الجامعة العربية في هذه الدورة كلمة صريحة واضحة في كل مهزلة السباب والشتم التي جرت من فوق منبرها فإن الجمهورية العربية المتحدة تقرر أن تنسحب من جامعة الدول العربية » .

***

وليس من مهمتي في هذا الكتاب أن أتعقب إصرار الجمهورية العربية على الانسحاب من الجامعة العربية برغم الوساطات التي بذلت من الرئيس اللبناني ومن أمين عام الجامعة وغيرهما .

وليس من مهمتي أن أتعقب الحلف العسكري الذي قام بين السعودية والأردن درءاً لأخطار (ناصر) . ..

ولكني أحب أن أعلن صادقاً — وداخل إطار أهداف ومراحل تطوري عبر كتابي — أن الوزير السوري المحترم — وأستغفر الحقائق — خليل الكلاس . لو أنه

فضل فعلته . يوم قررت الانضمام إلى التشكيل العسكرى المجهول مني . لتخلص (مصر) من (عبد الناصر) فيا بين عامى ٥٦ ، ٥٧ لما ترددت يومها لحظة فى أن أستنفر (عبد الناصر) من خطيئتى . ولما ترددت لحظة فى التآمر على الكلاس وعصابته — فرض كفاية عن العرب جميعاً — وتطهيراً لشرف العروبة الذى يمرغ فى الوحل على مسمع من (رجال) يمثلون (دولا !!) .

ويسيئنى أن تظن أنى أمر فى لحظة انفعال .

والكتاب ليس مجلة أو جريدة . حتى أنفعل فيه بالأحداث التى تتغير .

وليس أبعد عن الحقيقة من أن تظن أنى أقصد إهانة «الكلاس» بسباب مقذع .

دمة وضميراً . ما قصدت إلا أن أقرر حقيقة أرهبا الإدراك قبل المشاعر . ولا محل أبداً لأن نعيش فوق هذه الرقعة العربية من هذا الكوكب الأرضى . ونسمى أنفسنا (دولا) إذا سمح (لرجل عربى) يمثل (دولة عربية) أن يقول عن عبد الناصر أنه (جاسوس صهيونى !!!) » .

و « أن الجمهورية العربية لم تصنع أى شىء للكفاح العربى !!! » و « أن الجيش المصرى بصواريخه جيش الزينة والاستعراض !!! » .

و « إن الجمهورية العربية نفذت فى سوريا سياسة وحشية استعمارية مجرمة !!! » .

قوانين يوليو الكبير ، سياسة وحشية ؟؟!! ماذا تكون التقدمية إذن ؟

إغلاق المصارف الفرنسية والإنجليزية وتعريبها سياسة استعمارية مجرمة ؟ ماذا تكون الوطنية إذن ؟

جيش مصر الذى تصرخ من صواريخه إسرائيل فى نفس اليوم الذى خطب فيه الكلاس جيش للعرض والزينة ؟ ، ما الذى — إذن — يحول بين إسرائيل ، وبين أغنيتها المحمومة « من الفرات إلى النيل » ؟

جمال عبد الناصر (جاسوس صهيونى ؟!!) ماذا أقول ؟

وهل يقال عنى بعد هذا كله .. أنى أقصد إلى الشتم وأنا أقرر العقوبة التى أراها عادلة ؟

وأنا لا أعنى بالعقوبة شخص هذا (الكلاس) ، لأنى لا أعرفه .. إنما اتخذته رمزاً وبحثت فى شخصه عن الطريقة التى يمكن أن ترد على العروبة شرفها الذى ديس ، وعزتها التى مرغت ، وبلسان عربى ، وفى منظمة عربية لحكومات أو لدول ، وعلى مسمع من مندوبيها الأماثل !!!

* * *

وقد لا يكون من حقى أن أترك حرفة (الكاتب) الى حرفة (العرّاب) .

ومع ذلك أرانى مشدوداً إلى شرف (العرافة) لأقول لك فى رفوف هذا الفصل شيئاً ، لك أن تسميه (نبوءة) ولك أن تسميه (طالعاً) .

* * *

أريد أن أقول أن هاتفاً يطارد أذنى فى كل ليلة وأنا أميل برأسى إلى الوسادة أراود النوم ، هاتفاً هامساً يصب فى أذنى العبارة التالية :

— « كما قتل شعب العراق فيصل ونورى وعبد الإله ، سيقتل شعب سوريا ينظلى والعظم والحورانى والكلاس ، وكل حورانى وكل كلاس ، وهما قريب » .

سجل عبارة هذا الهاتف فى حافظتك أوفى ذا كرتك ، هاتنى قل أن يكذبنى .

وسنلتقى يوماً ... وتذكرنى .

وقد نلتقى قريباً ... وتتذكر معاً فوق أرض سوريا الحبيبة وفى دمشق قلب العروبة .

* * *

والجزائر ؟

وودت — وقد أرجأت (الجزائر) إلى آخر فصولى ... أن أحييها .

ولكنى أرد قلبى حزيناً عن هذه المحاولة ... وأطوى قلبى إلى حين على هذه التحية .

إنى أكتب هذا الفصل فى لحظة حاسمة من لحظات التاريخ العربى .

إنى أكتب لك هذا الفصل والخلاف بين زعماء الجزائر على أشده .

والزعماء دائماً يختلفون ... متى وجد فى البلاد جندى واحد من جنود المستعمر .

إن الاستعمار يحاول (لعبته القديمة) ... إلى آخر لحظاته .. ويزاولها حتى وهو يلفظ آخر أنفاسه .

إن تاريخ النضال فى الجزائر تناهى فى الغرابة .

إن كفاح بن بيلا وشعب الجزائر ... فاق كفاح دى فاليرا فى إيرلنده وماوتسى تونج فى الصين .

إن التاريخ لم يَتَشرَّف عبر كتابه الكبير بصفحة أشد إشراقاً من الصفحة التى كتبها شعب الجزائر وهو يقاتل — أعزل من السلاح أو كالأعزل — قوات باغية جاوزت نصف المليون عداً ... وعلى مدى سبع سنوات بغير توقف ... وعلى هذا المدى دمرت قرى بأكلها ... وتوارت عن الحياة أسر بكل أفرادها ... ولم ينج بيت من الباقين ... لم يقدم على مذبح الجهاد ضحايا .

وبعد سبع سنين فى الحرب .

وبعد ١٣٢ عاماً فى ظلام العبودية والاحتلال ... جاء النصر .

وفى ساعة النصر وقع الخلاف .

• • •

إلى أن كتب لك هذا الفصل ، وقوات بن بيللا تتجه إلى مدينة الجزائر باسم (المكتب السياسى) لتقر الأمن فيها . وقوات الولاية الرابعة التى تحتل المدينة ، تقيم المتاريس فى الطرقات وتنصب المدافع فى أوكارها على مداخل المدينة استعداداً لرد جيش التحرير عنها . والجيش الفرنسى يجوب بدباباته بعض الأحياء لحماية المستوطنين الأجانب :

موقف تناهى فى الغرابة .

ولكنى مؤمن برغم هذا كله أن الجزائر العظيمة لا ترجع بشعبها المقاتل خطوة إلى الوراء بل إن شعبها المقاتل ، بدأ يتدخل فعلا ، وعلى صورة لا يرتفع إليها ، إلا شعب الجزائر .

تدخل الشعب الجزائرى ، وجاءت الأخبار بأنه خرج بشيبه وشبانه ، ورجاله ونسائه ، ورقدوا فى الشوارع ليمنعوا تقدم أى جندى جزائرى نحو جندى جزائرى آخر . فعلوا فى الجزائر ما يفعله برتراند راسل فى لندن ، ومن غير حاجة إلى فلسفة أو إلى فيلسوف .

خرج الشعب الجزائرى يحمل اللافتات ، وقد كتب عليها : (سبع سنوات تكفى) .

إنهم يقيمون (متاريس بشرية) منهم ومن أطفالهم ، ولا يبالون أن تمر السيارات المصفحة فوق أجسامهم ، وقد أثر المشهد فى جنود الطرفين المرابطين حول مدينة (المدية) فتآخوا وتناول المكتبرون منهم طعام العشاء معاً .

مثل هذا الشعب لا يتفرق أبداً ، مهما يتفرق الساسة بفعل الاستعمار أو بفعل المطامع .

ناصر .. والجزائر

وإذا كانت (العاطفة) قد حملتنى على مدها ، إلى ذلك الحديث الحزين الذى خصته على مسمع منك ، فاليسمح أن أعود إلى (الجزائر) ، من حيث اتصالها بأهدافى .

كنت أحب أن أرخص لنفسى فى فصل طويل كامل ، أتناول فيه أخطر ناحية

فى حرب الجزائر ، ناحية الصلات بينها وبين (ناصر) .

ولكن الموقف لا يحتمل الساعة مثل هذا الحديث .

ولا أشك فى أن (ناصر) ، على اتصال فى هذه اللحظة بالجزائر ، ولا محل إذن لأن أتحدث عما صنع لها ، أو قدم .

هى نقطة واحدة أريد أن ألمح إليها على استحياء وأطوى أوراق .

* إن الذى ثار فى الجزائر ، هو شعب الجزائر .

* وإن الذى قاد الثورة فى الجزائر ، هم الطليعة الثائرة ، الذين يحملون طلائع ناصر .

* وإن قائد هذه الطليعة هو أحمد بن بيللا .

* وإن أحمد بن بيللا كان يعد الثورة من مقعد فى القاهرة .

* وقد اتفق جمال بن عبد الناصر ، مع أحمد بن بيللا على إشعال الثورة فى الجزائر .

* وتعهد « جمال » بأن يمد الثوار بالسلاح .

* وعندما وصلت الأسلحة الناصرية إلى ثوار الجزائر أعلن بن بيللا ثورة الجزائر .

* وكان الوزير الفرنسى على حق يوم قال إنه إنما شارك فى العدوان على القنال لأنه إنما جاء ليحارب الجزائر على أرض القنال .

* وثورة الجزائر إذن — لها قائد ووالد ، قائدها العسكرى بن بيللا ، ووالدها الروحى وراعيها ومتبنيها هو ناصر ، و «الحورانى» و «السكلاس» و «المظمة» يعرفون هذه الحقيقة الرهيبة الرائعة .

* وهذا السر لم تعرفه الجماهير — وعبراً — إلا بعد أن دقت ساعة النصر فى الجزائر .

* وحتى اليوم لم يشأ « ناصر » أن يتحدث عن دوره فى الجزائر وأسلحته الجديدة حملتها السفن العربية ووصلت بها إلى وهران وأنا أكتب هذا الفصل . بل جاءت الساعة أنباء باستيلاء بن بيللا على مدينة الجزائر بغير قتال .

ولسوف تتحدث جيئاً وترتيباً ، واللهم أن يعود السلام إلى أرض الجزائر . وهو لابد عائد .

وبعـــد !

أرجو أن أكون قد استطعت أن أنقل إليك هذه الأحاديث من « فم ناصر » ومن فم « الأحداث » وعلى مستوى المرحلة السادسة والعشرين — على مستوى الفصل قبل الأخير من كتابي — في موقفي من « الرجل الذى تآمرت عليه » .. أستغفر الحق وأبدأ من الآن أقول : في موقفي من « الرجل الذى آمنت به » .



الفصل السابع والعشرون

الميثاق

ليس أبعد عن الحقيقة من الظن أنى سأتناول « الميثاق » بالتعليق أو بالتعقيب أو بالحمد أو بالنقد .

ليس أبعد عن الحقيقة من هذا الظن .

والكتاب أصلا لا يستهدف « الميثاق » .. إلا من حيث كونه « الحدث المثير » الذى انتظرته لأشهر — عنده — إيمانى بناصر و بالناصرية ... لأشهر إيمانى لحناً نابعاً من صميم الروح والوجدان .. ومن أعماق الضمير والإدراك .. أوقعه بكل أصابع القلم .. على أوتار هذا (الحدث المثير) .. سعيداً .. سعادة من اهتدى إلى الحق وآمن . .

أما (الإيمان) فى ذاته .. فقد خاض إلى كاله طريقاً طويلة .. مليئة بالإقدام و بالتردد .. ومليئة بالتعطف و بالتقدم .. ومليئة بالدراسة و بالترصد .. وأنت على هذه المراحل شاهد .. ولم يستكمل ملامحه إلا على قرارات (يوليو الكبير) عندما ملأت كل فراغ ، وسدت كل ثغرة ، وصفت كل الجيوب .

ولقد قلت لك أنى كنت يومها أنتظر (حدثاً مثيراً) أعلن الناس فيه — و بدافع انفعال بالغ العنف ، أنى آمنت

وجاء الحدث المثير .. ميثاقاً .

ولم يحوجنى (الميثاق) إلى أى انفعال .. أو أى انسياق .

ولم يكن (اليد القوية التى أمسكت بيدى .. وظلت تضغط وتضغط .. فى حزم المربى ، وفى حنان الوالد) ، كما توقعت فى (التمهيد) .

وإنما جاء (الميثاق) فألقانى قد جثوت على ركبتى فى محراب (يوليو الكبير

ولما جاء ، ملأ المحراب نور ، وكل ما قطع الميثاق أنه صاح فى : (أسجد واقترب) لجئت أصبح فيك : « آمنت ، بالرجل الذى تآمرت عليه » .

* * *

ثم أى جدوى تعود عليك من حديثى عن « الميثاق » ؟

لقد قرأته أنت كما قرأته أنا وكما قرأه كل عربى ، وكل مَعْنِى بشئون هــذه المنطقة العربية .

ولا أعرف — على كثرة ما قرأت — حدثاً مقروءاً تناوله الناس بمثل ما تناولوا به هذا الحدث ، خطابة وكتابة ، وتعقيباً وتعليقاً ، ونقاشاً ملؤه الجد والحدة والحرارة...

و (الميثاق) أصلا ، كان (مشروع ميثاق) ، وقد طرح على بساط البحث ووضع موضع النقاش ، أمام مؤتمر شعبى غير مسبوق فى تاريخ الشعوب ، مؤتمر ضم ألفاً وسبعمائة وخمسين عضواً من الرجال والنساء ، أوفدتهم إليه (القاعدة) من صميم القرية ، وعلى كل مستوى ، ومن كل بيئة ، حتى الريفية التى تعصب رأسها بالمنديل ، جاء بهما الانتخاب إلى هذا المؤتمر ، وناقشت الميثاق .

ورأى (السيد يوسف) وزير التربية والتعليم أن من حق (التلاميذ) بوصفهم رجال الغد أن يبدوا رأيهم فى (ميثاق الغد) فأمر أن يوزع عليهم ، وأن يكون موضع نقاشهم قبل أن يكون درساً لهم ، حتى يجىء النقاش فى الميثاق بين التلاميذ على مستوى كل المراحل بدءاً من العلم الدراسى .

ورأى محافظ العاصمة ، أن من حق كل مواطن أن يناقش ميثاقه ، فأقيمت (الندوات) فى كل قطاع من قطاعات القاهرة ، وشارك المحافظ فى النقاش ، وأصغى أساتذة الجامعات وأصحاب النظريات إلى آراء الباعة المتجولين أصحاب المشكلات ، وشهدت (حرية الرأى) أكبر مهرجان أقامته أمة تحية لهذه الحرية وممارسة لها .

ونهج الحكم المحلى كله وفى مختلف المحافظات نهج القاهرة .

وأعرف شخصياً أن عبد الفتاح فؤاد محافظ المنيا — بلدى — دعا كل قرية إلى ذلك النقاش فعرف أهل القرى لأول مرة أن من حقهم أن يمارسوا هذا اللون من الحرية على مستوى البرلمان الذى كان مجرد ذكره أو مجرد اسمه علا بالرهبة قلوبهم ويرسل الرعشة إلى أوصالهم .

أما الصحف والمجلات فلم تفرغ من مناقشة الميثاق إلا من عهد قريب — بل ما يزال « الميثاق » يراود الأقلام فيها بين الحين والحين .

أما الكتب التى صدرت فى هذه الفترة لمناقشته ، فيكفى أن تزور مكتبة كبيرة من مكتبات القاهرة حتى تدرك أن القادرين على التأليف نهضوا بمسئولياتهم .. بل لعل آخر كتاب صــدر من أسابيع واعتقدت من عنوانه (علاق بنى مر) أن واضـعه — الزميل سليمان مظهر — قصد به إلى الحديث عن (ناصر) ، لعل هذا الـكتاب كان يحسن أن يسمى (ميثاق العملاق) بعد أن استنفد الكاتب كل طاقته — وهى كبيرة ومقدورة — فى إبراز كل اتجاه فى هــذا الميثاق ، بعــد أن أحسنت ريشته رسم العملاق .

أى جدوى بعد هذا كله فى أن أناقش (الميثاق) ؟

وكتابى — إلى جانب انعدام الجدوى — لا يستهدفه — كما قلت — إلا من حيث كونه (الحدث المثير) الذى اخترته لأشهر عنه إيمانى «بالرجل الذى تآمرت عليه».

* * *

وليس معنى تخلى من مناقشة « الميثاق » ، إخراجه من دائرة قلمى ، أو من دائرة تفكيرى ، بل إن أى كاتب يحاول عبثاً أن يتجنب « الميثاق » إذا أراد أن يكتب عن معارك العروبة التى تجرى اليوم فوق المنطقة العربية ، أو عن أى عمل يقوم اليوم على أرض هذه الجمهورية التى يحكمها هذا «الميثاق» ، أو عن أى تصرف يمض به أى حاكم عربى تجاه أى اتجاه فى السياسة الدولية دون أن نحدد موقفنا منه على أضواء هــذا « الميثاق » ..

* * *

لقد أصبح هذا «الميثاق» بالنسبة لنا، دستور المساتير..

وعلى كل النقاش الذى دار حوله، ودار عليه، ما أزال أعتقد أنه لم يناقش كما كان يجب أن يناقش، بل أنا أذهب إلى أبعد من هذا الحد، وأعتقد أن خير لغة، تشرح الميثاق، هو تطبيق الميثاق، وأن خير شرّاح الميثاق، هم الذين يصعون الميثاق موضع التنفيذ، ويوميا يكشف لنا الميثاق — بلغة لا تعرف للمداراة ولا النفاق، عن أسراره وخوافيه، وعما يعنيه كل سطر فيه..

* * *

وفى رأيى أن «الميثاق» معجزة «ناصر»، إن رخص لنا «الجار» فى استخدام هذه العبارة، بنية طاهرة، ومن غير أى تأويل خبيث..

«ناصر» بَلْوَرَ تاريخ أمته، بكل أمجاده وبكل خاتمه وبكل تجاربه، وبَلْوَرَ حاضر أمته بكل انتصاراته وبكل نكساته وبكل معاركه، وبلور مستقبل أمته، بكل آماله التى لا تقف عند حد.. والتى يرجو أن تتحول بين يديه فى الغد.. بناء شامخاً يقوم فوق أرضه فى عزة وشموخ..

«ناصر» بلور تاريخ أمة، فى أمسها ويومها وغدها، وبلور شخصه معها، بكل قدراته وطاقاته وآلامه وآماله، وبكل ثورية فيه وموهبة، وبكل حكمة أوتيها، وبكل معركة خاضها، وبكل تجربة اجتازها، وبكل مرارة لقيها، وبكل تأسٍ يتوقعه، بلور هذا كله مزيجاً منه ومن أمته ومن عروبته ومن شرقيته ومن إسلامه ومن إنسانيته، فكان هذا «الميثاق».

* * *

وخير (مقياس) أقيس به هذا الميثاق، هو ما كتبه عنه الكاتبون، وما تحدث به المتحدثون.

وحصيلة الكتابة والحديث، تثبت أن الباب سيظل مفتوحاً أمام المزيد من الكتابة وأمام المزيد من الحديث.

وأعتقد — وأرجو ألا أكون غالطاً — أن واضع (الميثاق) نفسه لم يدر بخلده الكثير مما دار بخلد الكاتبين والمتحدثين — وهو يضع الميثاق .

ويعرف كل من مارس الفن والأدب ، أن عباقرة الفكر فى كل عصر ، أرسلوا أنوارهم عبر الحياة نتاجاً ، من غير أن يخطر لهم أن الشراح والنقاد عبر القرون التى تتوالى سيذهبون فى استخراج ألوان من السر كامنة فى أعماق النتاج ، مذاهب لم تجل بخاطر العبقرى الذى أنتج .

ذلك شأن الرسالة التى تتنزل على الفكر إلهاماً من غير أن يرى الملهم كل أبعادها .

و (ناصر) يحمل رسالة ، ما يزال يؤديها ، وما يزال يقاتل فى طريق أدائها ، وليس لديه الوقت الكافى لأن يدير رأسه إلى الخلف ليرى أى المحن اجتاز ، وأى العقبات ذلل ، وأى الجهد بذل ، وأى الليالى سهر ، وأى التجارب حصل ، ليس لديه الوقت لأنه لا يزال يخوض المعركة ، ولا يزال يمشى بالراية إلى أهدافها .

وكل الذى حدث أن مراحل على الطريق طواها ، وبلغ حداً تحتم الوقوف عنده ليبدأ مرحلة جديدة ، فكان لزاماً أن يكون للمرحلة الجديدة والأخيرة دستور يحميها ، ويمديها ، ويحدوها ، ويجدد لها شبابها كلما حاولت الشيخوخة أن تطل عليها . .

* * *

والذى حدث أنه قاد الطلائع الثائرة — باسم أمته — عشر سنين . .

وحان أن تتلقى أمته الأمانة وتنهض بالعبء ، بعد أن عبّد لها الطريق ، وحرر لها الأرض والفرد ، ومكن لها من أن تكتشف نفسها ، فكان عليه أن يقدم لها حساباً عما حققه وحصله ووعاه ، ومن «رصيده» المتبق «لفد» فى « مصارف الأمل » جاء برده إلى صاحبه ليقوم عليه ، ولتتولى القاعدة الشعبية زمام القيادة بنفسها ، بكل طاقاتها المدخرة ، بجهد أصغر طفل فيها وأكبر شيخ ، بكل الأفكار الخلاقة فى القرية والمدينة وبكل السواعد المفتولة فى كل شاب وشابة . .

أن القاعدة — بفضل هذا القائد — أن تتقدم القيادة ولا تتخلف عنها لأن الطاقات الخلاقة فى الشعوب هى وحدها التى تستطيع أن تصنع الغد، و(الميثاق) يحمل لنا تجارب أمسها ومعارك يومها، وعلينا هى أن تمشى إلى غدها، والفجر أوشك على أن يرسل خيوطه فضية وضاءة، برغم كل ما يلوح فى أفق المنطقة من غمامة عابرة ..

* * *

الكل الآن يسل، أو يتأهب للعمل، أو يفكر فى أن يعمل .

إن (الميثاق) افتتاح لهذا العمل ..

و (القائد) عندما ألقاه مصوصاً، إنما قص شريطه، وضغط زره، وبدأت العجلة تدور، والعمال يتدفقون .

و «لويس عوض» يراه فلسفة متكاملة ومن هذه الزاوية يناقشه ..

وعلماء الإسلام فى « نور على نور » يرون فيه تحقيقاً لأوامر الإسلام ونواهيه .. ومن هذه الناحية يناقشونه ..

والدكتور عيسى من أساتذة كلية التجارة يرى فيه بناء اقتصادياً متكاملا .. نبع منا .. وماشى شريعتنا، ووافق طبيعتنا ..

وأحمد حمروش يرى فيه — وخدمته العسكرية تطارده — أنه يحدد للناس «خطوات السير» .

وكامل الشناوى، يرى فيه مصدر وحى له، يتحول بين يديه أنشودة تغنى، وهو فى يد السباعى وإحسان ومحفوظ وبدوى وغراب قصة تروى ..

وعبد الرحمن الخميسى، يرى فيه السلام الذى يحبه، غير مجلوب، من أى مؤتمر فى ڤيينا أو موسكو، وغير مصنوع فى أى بلد .

وعبد الرحمن الشرقاوى، يستمد من أضوائه، مسرحية تمثل ..

وسيأتى عاشور .. « ينحت » منه « الميثاقية » التى لا تقهر .

وسعد وهبه .. يرى فيه بناء درامياً يحكى الواقع .. ويمر بيد المحو على تاريخ الزعيم ارسطو .

والشناشيبى ، يرى فيه صورة العائدين إلى الوطن الحبيب .

وبنت الشاطىء ترى أنه رد الكرامة إلى الأرض الطيبة التى أنجبت إيزيس وتوَّجت حتشبسوت وكليوباترة وشجرة الدر قبل أن تسمع الدنيا بحقوق النساء .

والفلاح يرى فيه أنه إنما وضع ليرد إليه أرضه .

والعامل يرى فيه أنه إنما قام ليُمَلِّكه المصنع .

ونادية الحكيم .. رئيسة قسم التجميل بمحلات عمر افندى وعضو المؤتمر ، ترى فيه أنه إنما جاء لينفض عن المرأة أكفانها ، وينطلق بها إلى محلات عمر افندى أيضاً .

والشعوب العربية ترى فيه أنه إنما فصِّل على قدِّها ، ثوباً لوحدتها .

واليهود قد يرون فى أبوابه العشرة ، مثلا لما جاء فى ألواح موسى التى حطموها ، إلى العروبة الصاعدة ، التى تحترم « الوصايا العشر » وتحتقر التلمود العدوانى الزائف .

أما المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية فله رأى شامل فى الميثاق ، بعد أن مارس أعضاؤه حرية النقاش على أوسع نطاق .. وخاضوا النهار أحراراً ، بكل سذاجة الريفى منهم ، وبكل أمية الأمى فيهم ، وبكل علم العالم وفن الفنان ، ورأى الباحث ، وانتهوا أخيراً إلى ملاحظات لم ، ثم لم يجدوا بينها وبين الميثاق تناقضاً ، فسجلوها على هامشه وتحرجوا من أن يمسوا نصوصه وكان هذا هو رأيهم .. على الرغم من أن واضعه إنما طرحه عليهم ليدخلوا ما شاءوا من التعديلات عليه ، وأكد لهم أن زمناً سيجىء يغدو هذا « الميثاق » فيه ثوباً ضيقاً ، أو بالياً — ويومها لابد لهم من أن يصنعوا بأنفسهم ميثاقاً غيره .

* * *

بقى بين هذا الزحام رأيى المتواضع فى الميثاق — كمواطن تآمر على واضع الميثاق .

ولقد نحزمت أمرى كما علمت .. ورأيت ..

رأيت تحية له .. أن أقف عنده و« أن أشهر إيمانى بواضعه » وهذا هو « كل رأيى » ..

* * *

وحتى لا يبقى بين جنبى سر لم أمضه أو لم أمضه عنى ، أصارحك القول ، أن هذا الكتاب لم يكن فى ذهنى يوم قررت إشهار إيمانى .

وكان أول ما خطر لى — والحرفة دائماً تذكرنى — أن أصدر جريدة ، أتخذ من أول أعدادها ، « منبراً » أشهر من فوقه إيمانى ، ولكن اللجنة التحضيرية سددت إلى هذه النية أولى ضرباتها فقررت عزل كل من حكم عليه فى القضايا السياسية .

وقابلت الضربة بابتسامة راضية ...

ولم أشأ أن ألتمس « إحلالى » من هذه « العقوبة » كما فعل « غيرى » ، بل لم أشأ أن ألتمهم ، حتى إلى هدفى ، فاستصدرت من « الاتحاد القومى » ترخيصاً بمجلة أسبوعية ثقافية[1] باسم حرمى ... وهى شاعرة ناصرية على مستوى العقيدة ... واستجمعت كل قوتى لمفاجأة القراء بالعدد الأول منها ... وبإيمانى مشهراً على صفحتها الأولى ...

ولكنى عدت فذكرت أن إشهار الإيمان فى مقال لا يكفى ، وأن القارىء فى حاجة لأن يسألنى : « لماذا كفرت بالرجل ، ولججت فى الكفر حتى تآمرت عليه » ثم « لماذا تجىء الآن لتعلن إيمانك به ... وكيف نصدق أنك صادق فى هذا الإيمان ؟ » ...

وتحيت « المجلة » — أو على التحديد أصدرت عدداً منها احتفاظاً بالترخيص أو احتراماً للقانون — وبرزت فكرة هذا الكتاب .

* * *

---

(١) اسم المجلة « رسالة الفكر » الصاحبة امتيازها السيدة جليلة رضا .

وعسى أن أكون بهذا الفصل القصير ، قد استطعت أن أشهر إيمانى فى وضع الميثاق لحنا نابعاً من صميم الروح والوجدان ، ومن أعماق الضمير والإدراك ، أوقعه بكل أصابع القلم .. على أوتار هذا « الحدث الكبير » .

• • •

ومن غير أن أعرض بأى نقاش للميثاق ، أرجو أن أكون قد رسمت بأمانة هذه المرحلة السابعة والعشرين فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » وأستغفر الحق مرة أخرى وأقول : « من الرجل الذى آمنت به » .

كلمة ختامية

حديث ... فى الرسالة والرسول

أراني فى «خاتمة كتابي» .. مشدود الريشة والشاعر إلى نفس الحديث المشبوب الذى شدتنى إليه بداية الكتاب .. وفى أول فصل من فصوله .. بل فى كلة «الإهداء» أيضاً .. حديث الرسالة والرسول .. حديث الذين ضلوا طريقهم إلى «الناصرية» كرسالة .. وكانوا صادقين فى الصلة ..

بل أكاد أقرر أني مشدود إلى الحديث عن «الرسالة والرسول» .. أى رسالة وأى رسول ..

* * *

يا أخى العربى الصامد

لا تصدق شيطانك إذا هو وسوس فى صدرك بأن حديثى عن كفرى وإيمانى بالناصرية أو بناصر، وعبر كتاب كبير ومثير، تطاول إلى أربعمائة من الصفحات، إنما يعنى فى ميزانى، أن «كفرى» — كمواطن من المواطنين — ثقل فى الميزان السياسى، أو أن «إيمانى» — ككاتب من الكتاب — أمر يشغل ناصر، وأنت تعرف مكانه اليوم بين الأقطاب ..

ولو أن الأمر كان أمر نفع شخصى، لما بددت عشر سنوات من عمرى، هى بين العشرات أعلاها وأحلاها كما قلت قبلا، ولأشهرت إيمانى من البداية، ولمشيت فى الصف رافع الرأس، رافع الراية، وما كان أشد حاجة الدعوة يومها إلى الدعاة ..

* * *

وأنا إذن، حين أتحدث عن شخصى، إنما أمثل فريقاً من الشعب — كثرة كان

أو ثقة ، ضل الطريق إلى الأهداف ، صادق الثقة ، ولم يجد من بين الأقلام التى انصرفت إلى مناصرة الثوار ، من رفع الغطاء عن هذا الفريق ..

* * *

وفى البلد غير هذا الفريق فريقان آخران « سافران » أو فى القليل « مفهومان » — ولا يتطلبان منى أقلاماً أو أوراقاً ، وأعنى بهما فريق « الأنصار » وفريق « الخصوم » .

فأما فريق الأنصار ، فهم الذين أيدوا الثورة من أول يوم لها ، وعُرِف عنهم عبر السنين العشر أنهم من خلص أنصارها ، ومن بينهم فعلا مخلصون لا ترقى الشكوك إليهم ولا تلقى الشبهة عليهم ، ومن بينهم آخرون مردوا على النفاق ، وارتدوا أزهى أثواب الولاء ، فلا نستطيع الكشف عن نواياهم ، إلا إذا كشفت الأحداث عنهم ، لأننا كما قال بحق كمال الدين حسين : « لا نملك ترمومتراً نقيس به صدق النوايا أو حرارة القلوب » وحسبك ذلك الضابط الشاب الذى أغرته الرجعية السورية بالانضمام إليها ، وعبر الحدود بين لبنان وسوريا خفية ، وأغلقت سوريا الحدود بينها و بين لبنان ليلتها لتسهل رحلته ، أو لأغراض أخرى ليس من مهمة الكتب أن تعرض لها ، حسبك ذلك الضابط الشاب الذى عاش العمر ناصرياً على مستوى العقيدة أو هكذا قال كل عارفيه ، واهتزت « القيم » أخيراً بين يديه — ولا أدرى كيف تهتز القيم ؟! — فتخلى عن واجبه وعن شرفه العسكرى ، وخان بلاده ، ورئيسه ، وعقيدته ، وماضيه ، وأفكاره ، وكفاحه ، ومضى بليل — مع الخفافيش — يعبر الحدود ، ليقف فى مؤتمر صحفى فى دمشق وليهاجم نظام الحكم فى القاهرة ، وكان كلما سئل سؤالا صريحاً عن شخص « ناصر » أغضى حياء وأفلت من الإجابة .

أى (ترمومتر) كان من الممكن أن نقيس به نية هذا الشاب ، أو حرارة إيمانه ، أو مستوى (القيمة) فى (تفكيره) ، أو معنى (العقيدة) فى (ضميره) ؟

* * *

و « الأنصار » — إذن — أنصار .. والحديث عن نواياهم ، لا طائل تحته ..

* * *

و (الخصوم) — إذن — خصوم ، ووصفهم واضح ، ووضعهم مفهوم ، جردتهم (الثورة) من أسلحتهم ، ونزعت عنهم كل ما فى حوزتهم ، من أدوات النفوذ والسلطان ، ومن قوة العقار والمال ، ونزلت بهم من (سمائهم) إلى (أرضنا) ، فمن حقهم كبشر ، أن يهاجموا الثورة ، وأن يأتمروا بها إذا استطاعوا ، وما دمنا قد جردناهم من كل وسائل الاستطاعة ، فلا أقل من أن يتنفسوا بقولة سوء يجهرون بها ، أو بنية سوء يضمرونها ، أو بخصومة خرساء يطوون عليها الصدور ..

* * *

وإنى لحريص على عفة القلم وأنا أذكرهم ، وحريص على تجنب المعدوم كلما ذكرت الأحزاب ، أو ذكرت الإقطاع ، أو ذكر رأس المال ، أو ذكر النفوذ والسلطان ، لأن التهجم على أبناء هذه الجبهات لا يتصل أصلا بأهداف ذلك الكتاب ، ولأنى أؤمن — وهذا هو الأهم — بأن الأمر بالنسبة إليهم قد انتهى أو كاد ، وشب (جيل جديد) ندر أن يعرف شيئاً عنهم : « تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ، ولكم ما كسبتم ، ولا تُسألون عما كانوا يعملون » .

الفريق الضال

أما الفريق الذى أعنيه — وهو الذى ضل طريقه وكان ينبغى أن يكون (مهدياً) أو أن (الهداية) فرعاً من فروع (حاتم) — فذلك هو الفريق الذى يستأهل شيئاً من (التقدير) ولعل من بينهم كثيرين لم أنقلهم فى الموازين .. وأعنى بهم أولئك الذين ضلوا صادقين .. ضلوا وهم يحسبون أنهم يحسنون بهذه الضلة إلى الحق أو إلى الخير أو إلى الخلق .

* * *

بل لعل من بينهم من طوردت فيهم « أفكار خاقيتها » أو « أفراد لم يوزم ».

ولعل من بينهم من عنام « محرر الأهرام » في فصل له ممتع .. وهو يطالب بإعادة التفكير « في أحكام كثيرة أصدرناها قبل مرحلة الوضوح الفكرى التي يبلورها الميثاق » كان بيننا من يسمى أى داعية إلى تغيير الأوضاع شيوعياً .. وكان بيننا من يسمى أى مالك لقطعة أرض أو لمصنع أو لعقار .. إقطاعياً » ثم قال — وقال بحرارة وقال بحق — إن هذه الأحكام المطلقة « مسألة تحتاج إلى مراجعة » .

وفي وهج هذه الدعوة أظن أن الذين أعنيهم — ولا أعرف بالطبع أحداً منهم — وإنما أعرف أن لهم وجوداً هنا .. ووجوداً في كل بلد عربي .. يحتاج كل أمرهم إلى « مراجعة » و « مراجعة ثابتة وعادلة وسريعة » .

وبكل ما يحمله « قلبي » من « صدق » .. وبكل ما يحمله « قلبي » من « حرارة الرغبة في التعبير عن هذا الصدق » أقول مع الكاتب « نحن في حاجة إلى أفكار كثيرة .. وإلى ناس بغير عدد » .

* * *

وقد لا تكون المسافة بعيدة بين الذين أعنيهم .. وبين الذين عنام « الميثاق » وهو يتحدث عن « النقد البناء » .. ويدعو إلى ممارسة الحرية .. ويرى فيها « الطريق الفعال لتجنيد عناصر كثيرة قد تتردد قبل المشاركة في العمل الوطني ، والحرية هي الوسيلة الوحيدة للقضاء على سلبيتها وتجنيدها اختيارياً لأهداف النضال » .

* * *

وقد لا تكون المسافة بعيدة بين الذين أعنيهم « على مستوى القوة » .. وبين الذين عنام كمال الدين حسين « على مستوى الضعف » .. وهو يقدم لـ « فلسفة الثورة » ويتحدث عن بعض « الصفاف » الذين يحسون بالقلق حين يرون اختلاف القيم وتغير الموازين في الحياة العامة التي يحبونها ويضون في حيرة من أنفسهم ويرى أن « من حقهم أن نلتمس لهم العذر وأن نصفح عن بعض ما يقعون فيه من زلات بغير قصد » ؛

ثم يقول : « وقد يكون من واجبنا ... أن نحاول توجيه هؤلاء الحائرين القلقين وشودهم بلطف إلى حيث يستطيعون أن يروا بوضوح وأن يحكموا بدقة وأن يوازنوا بأمانة وتجرد » .

أقول قد لا تكون المسافة بعيدة أيضاً بين الذين أعنيهم والذين عناهم ... وإن كان الخلاف جذرياً في (الصنف) لأني إنما عنيت رجالا أشداء لا ضعافاً ... وأفكاراً لها قيمتها ... وأفراداً لهم دورهم ... ظلوا صادقين في الصلة ... وعرفوا وجه الحق فعلا ... ويودون لو أقدموا ... ولكنهم يترددون .

• • •

وعند هذا الوصف ... ينتهي حديثي إلى مكانه من موضوع «الرسالة والرسول» ليبدأ هذا الحديث عن « الرسالة » وعن « الرسول » .

وأيا كانت (الرسالة) نازلة من السماء أو نابعة من الأرض ... وأيا كان (الرسول) موحى إليه من الله ... أو مسوقاً إلى الخير بالإلهام ... لا بد أن يوجد خلق كثيرون يخالفون عن (أهداف الرسالة) ... ويخالفون عن (أساليب الرسول) .

وإذا كنا نتحى عن هذا الحديث موضوع (الإيمان بالله) بعد أن ثبت من كتاب الله أن (أكثر الناس) هم الذين لا يؤمنون — لأن (الإيمان بالله) يتطلب (الإيمان بالغيب) — فما الذي نقوله في سيد الخلق ورسول الله — محمد بن عبد الله — ولم يكن الأمر معه يتطلب (إيماناً غيبياً) — كما يقولون — أو (إيماناً غيبياً) — كما نقول ... لأن محمداً — صلوات الله عليه — كان سيداً وابن سيد ... ومن ذؤابة قريش ... وعرفوه مختاراً من طفولته بالصدق وبالأمانة ... فأجمعوا على أنه (الصادق الأمين) ... في كل أطواره — من الطفولة إلى الرجولة — وحكموه في أخطر أمورهم وكان يومها شاباً ... وتزوج من (خديجة) قبل (الرسالة) فأصبح من ذوي اليسار فيهم ... وعلى مستواهم ... ما بال هذا الإنسان السوي .. ما بال هذا الرجل النموذجي .. ما يكاد ينطق (الرسالة) ويدعو إليها .. حتى يكذبه فيها من كانوا يدعونه (الصادق الأمين) قبلها ؟ ثم ما بالهم وقد عرفوه (عفاً) و (أميناً) و(رضياً) (زاهداً) ... ما بالهم

يظنون به الظنون ... ويحسبون أنه من طلاب الأمجاد والملك والمال ... ويذهبون إليه ليعرضوا عليه ما يشاء منها... على أن يدع «قصة الرسالة» وينسى «موضوع الرسول» ؟

أو ما يدل هذا على أن البشر مفطورون على حب التلك ... وعلى الاستمساك بكل ما ورثوه من مال وعقيدة وتقاليد ... وعلى أن أى رسالة جديدة لا بد أن تساء بها الظنون ؟

* * *

أيكون كثيراً — إذن — لو نحينا (الدين) المؤيد بالقوة الخفية جانباً ... وحططنا الثقل على (الدنيا) التى تتشعب فيها مذاهب التفكير ... أن نقول إن الخصومة للثورة كانت (أمراً بديهياً) من فريق (الخصوم) الذين أضرت بهم مبادئها ... وكانت (أمراً منطقياً) من فريق الشرفاء الذين أضلهم الخصوم فساء ظنهم بالثورة ولم يجدوا من الثوار من يعنى بهديهم .

* * *

وإذا عدنا إلى (الدين) ... فنستعين من أحكام الشريعة السمحاء بما نسميه (القياس) ... ألم يكن عمر بن الخطاب ... يتبختر فى شعاب مكة ... شاهراً سيفه يهدد به محمداً ... وكل من يؤمن بمحمد ... ولم يكن عمر يصدر فيما يفعل إلا عن (إيمان) بأن محمداً إنما يريد بأم القرى والأشراف وباللات والعزى ... وبقية الآلهة ... شراً وشراً أكيداً ؟

وحين انتهى إليه أن أخته هى الأخرى قد (صبأت !!!) و (أسلمت !!!) هى وزوجها ، وسل عمر سيفه ومضى إليهما فى دارهما لينزل تأديبه بهما ، وكانت ساعة الهدى قد حانت ، وأصغى إلى شىء من كتاب الله يتلى ، ألم يندفع بكل طاقته ليعلن أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، والرسول يكبر ، ترحيباً بابن الخطاب سيفاً من سيوف الله ؟

عمر ، الذى ولغ فى الضلالة سنين ، إلى أين انتهى مكانه بعد أن آمن ؟

انتهى مكانه — بعد الرسول والرسالة — إلى مقام الخلافة ، إلى (سوبرمان) من (صنع الله) لا من صنع (نيتشه) ، (سوبرمان) لا تعرف البشرية له نداً ، عبر عمرها الطويل وبإجماع المنافقين فى كل علم ودين ... ولم يؤخذ على (عمر) أنه كان يخاصم محمداً ويهاجم أصحاب محمد ... بل التمسوا له عذراً .. فقد كان يعيش بين خصوم الرسول من أقطاب قريش وعيونها ، ومن شباب قريش وشيوخها ، وكان يصغى إليهم وهم ينشرون الأكاذيب عن الرسول فصدقهم ، وخاصم الرسول صادق الخصومة ، حتى واجه الحق يوماً وآمن .

ولم يقل أحد أن (عمر) كان أقل شأناً من (على) بحجة أن (علياً) كان أول من أسلم من الفتيان ، وأن عمر ظل وقتاً غير قصير يحارب الرسالة ويخاصم الرسول ، وإنما قيل أن عمر كان يعيش فى معسكرات الخصوم فهو معذور ، وأما (على) فابن عم رسول الله وصفيه وحبيبه وأعرف الناس به فلا عجب أن يكون أول من يؤمن برسالته .

***

بل إن (عمرو بن العاص) و (خالد بن الوليد) ومكانهما فى الإسلام هو مكانهما .. لم يسلما إلا بعد الهجرة بثمانى سنين .

* * *

هذا الفريق الصالح ، والذى أسميه (صادق الصلة) ، هو الذى فكر مثل تفكيرى ، فضل كما ضللت ، عن إيمان منه بأنه على الجادة ، والفارق بينى وبينهم أنى ظهرت على (الشاشة) لأنى (تآمرت) ، ولم يظهروا لأنهم (لم يتآمروا) ، والفارق أيضاً أن الفرصة أتيحت لى ، وقد لا تكون متاحة لكل فرد منهم ، ومن واجبى إذن أن ألقاهم فرداً فرداً ، وأن أضىء أمامهم الطريق إلى الرؤية الواضحة .

ولكن أين هم ، وما هى أسماؤهم ، وكيف السبيل إلى لقائهم ؟

لا سبيل غير « الجريدة » أو الكتاب ، وصح عزمى على الكتاب ..

وبقى فكرة تخايلني وتتوارى ، حتى أعلن « الميثاق » .

وتغير الموقف كله .

لم يعد الأمر إذن أمر ذلك الفريق ، أبصره بالطريق ، وإنما أمسى الأمر ، أمر موقفي كله إزاء العرب والعروبة ، وإزاء المترددين في كل بلد عربي ، وإزاء (المتآمرين) الذين يجدون في بعض (المترددين) صيداً غير متعذر .

ومرة أخرى صح عزمي ، على التعجيل بوضع الكتاب .

وبدأ القلم يجرى على الورق ، ومعالم الزينة احتفالا بالعيد العاشر تقلم .

وها هو ذا كتابي .

* * *

يا أخي العربي الصاعد .

يا مشدود العاطفة والمشاعر إلى حلمك الكبير الذي تحول في عزة وشموخ إلى حقائق تدير الرءوس .

أتراني — بكل ما قصصته عليك من الأحداث والوقائع ، وبكل ما نقلته إليك من وساوس ، وهواجس ، ونبضات وضربات ، وأوهام ومخاوف ، عن النفس والضمير وعن العقل والقلب والوجدان ، أتراني بعد هذا كله قد بلغت الغاية عندك أو غدوت مفهوماً منك ؟ أم تراني اهتديت إلى نفسي وضللت الطريق إليك ؟

* * *

وإن أنت كنت من (الفئة) ، إن كنت قد ضللت الطريق صادق الصلة .. أتراني قد استطعت أن أضع الطريق أمامك ، وأن أفسح لك في « المكان الشاغر » للشوق إليك ، وأن ألقى النور على الطريق ساطعاً يمشي بين يديك ؟ وغداً أراك على الطريق

رافع الرأس موصول الضمير بالبناء الكبير الذى تراه اليوم رأى العين وهو يقوم ؟ أم ترانى قد خرجت من « الصفة » وحدى ، كاسف البال أسفاً ؟

***

وأنت يا أخى جمال .. يا ابن شعبى العريق .

أنا لا أرفع كتابى إلى « مقام السيد الرئيس .. صاحب الفخامة .. جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة » لأتلقى من السيد « رئيس ديوانك » أو السيد « كبير التشريفاتية فى مكتبك » خطاباً يزف إلىّ فيه أن الكتاب عرض على « المسامع الكريمة » و « نال حسن القبول » ! !

أبداً .. يا أخى فى الكفاح وإن كنت رائداً .

وأبداً .. يا أخى فى السلاح وإن كنت قائداً .

وأبداً .. يا أخى فى العروبة وإن كنت زعيماً .

أبداً .. لم يحدث أن وزنك عيزان الرياسة .. والدنيا مليئة بالرياسات وما أهونها على الحقائق وما أخفها فى الموازين .

ولم يحدث أبداً .. أن نظرنا إليك .. نظرة الشعوب إلى أبهة الملوك .. أو فخامة الحاكمين .. وأنت أعرف الناس بالعائلة والأقزام من الملوك والحكام .. وبالرءوس التى تحمل التيجان وتزدان بالذهب وبالماس .. وبين أيديهم تمثل الخلائق .. بعضهم يخرون سجداً .. ويرجعون ركعاً .. ويلثمون أطراف الثوب وأنامل اليد .. وفى قلوبهم مافيها .. من النار التى تتأجج .. ومن الحقد الذى لا يهدأ .

***

لم يحدث أبداً أن وزنك بمثل هذه الموازين ..

ولم يحدث أن تحدث عنك مواطن ، ولم يقل : (جمال) ولا أكثر ، كما كانوا

يقولون فى صدر الإسلام (عمر) على جلاله الذى لا يطاول .

ولو أنى أردت أن أضع (كتاباً) أرضى به (رئيس دولة) — ولا أقول : (أنافق) — لوقرت على نفسى العنى والأسى والمتاعب ، ولدخلت إليك من البداية ومن (الباب السلطانى) الذى دخل منه أمثالى كثيرون ، غير عشر سنين .

***

يا أخى .. ويا ابن شعبى

أنا لم أضع هذا الكتاب لأستغفرك وأتوب إليك — فأنت لست رباً وأنا لست عبداً .

وإنما أنت شاب من (بنى مر) ، حملت (رسالة) تطهير وتحرير ، وحملت رسالة عروبة ووحدة ، وحملت رسالة النور لقارة مظلمة ، وحملت رسالة (القدوة) لكل أمة مكافحة ، وحملت رسالة المساواة والإخاء ، وحملت رسالة الهدم والبناء ، وحملت أخيراً رسالة السلام والحب ، لكل فقير ومظلوم ، ومتعب ..

وإنما أنا كاتب من الكتاب ، أضلونى على علم ، وكان ينبغى أن أعلم ، فهاجمتك بغير حق وما كان ينبغى لى أن أخاصم ، وهالنى أن أراك تمشى إلى أهداف العروبة مرفوع الرأس ثابت الخطى ، وأن يضعوا أمامى مرآة أراك فيها تمشى على يديك مقلوب الوضع ، وعلى صورة لا تكاد تصدق ..

ودرستك ، وعرفتك ، وأحببتك ، وآمنت بك ، وانتظرتك ..

انتظرتك على الطريق طويلا .. حتى تجىء ..

وقد جئت..

جئتنى وجئت مواطنيك ، وجئت العروبة كلها ، بالإطار كاملا ، والبناء متكاملا ، والخطوط واضحة ، والقسمات مرسومة ، والملامح متكاملة ، و (الميثاق

فى يدك) والأمانة تردها إلى شعبك … يومها لم يكن مفر من إعلان (إيمانى) … ولكن كان يعوزنى أنا الآخر أن أحيى …

وجئت ، جئتك ولا أملك غير قلبى ، وقلبى ..

قلبى المفعم إيماناً بك ، وبرسالتك ، ويريد أن يشهر هذا الإيمان على رءوس الملأ .

و (قلبى) الذى تخيلته قادراً على التقاط صورة لهذا القلب بكل ما فيه ، فعهدت إليه بالأمانة ..

وقد أداها ، والتقطها ، وعلى ورق ، وكما تلتقط الصور .

وقد لا تكون الصورة جميلة .. لنقص فى فن المصور .

ولكن المهم فيها .. أنها أمينة .. لا تكذب .

هذه الصورة ، هى هذا الكتاب يا أخى ..

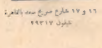
هذه الصورة هدية منى إليك ، فتقبلها يا أخا كل عربى ..

وعليها بخطى وتوقيعى كلمة الإهداء المتواضع : « آمنت بك » .

محمد السوادى




العالمية
للطبع والنشر


١٦ و ١٧ شارع ضريح سعد بالقاهرة
تليفون ٢٩٣١٧



٣٥